اللّغة والنّاس

حلقات في اللّغة ونحوها وصرفها

أُذاعها التلفاز العربي السّوري

يوسف الصّيداوي

دارُ الفِكرِ المعاصِر
بيروت - لبنان

دارُ الفِكرِ
دمشق - سورية

اللغة والناس : حلقات في اللغة ونحوها وصرفها أذاعها التلفاز العربي السوري/ يوسف الصيداوي . ـــ دمشق : دار الفكر، ١٩٩٦
• ـــ ٣٧٥ ص؛ ٢٤ سم.
١ ـــ ٤١٠ ص ي د ل ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ الصيداوي
مكتبة الأسد
ع ـــ ٨٦٠ / ٧ / ١٩٩٦

يوسف الصّيداوي

اللّغة والنّاس

حلقات في اللّغة ونحوها وصرفها

أذاعها التلفاز العربي السّوري

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

يوسف الصّيداوي

تولد دمشق ١٩٣٠م .

حصل على الإجازة في اللُّغة العربيَّة من جامعة دمشق ١٩٥٩م .

عمل في تدريس العربيَّة في ثانويات القطر العربي السُّوري .

قدم برنامجاً في اللُّغة العربيَّة ونحوها وصرفها بثَّه التِّلفاز العربي السُّوري طُول أحد عشر عاماً باسم : (اللُّغة والنَّاس) .

ما نشره من مؤلفات :

- بيضة الدِّيك ، وهو نقد لغوي لكتاب (الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة) .
- العربيَّة بين خراكوفسكي ودك الباب .
- اللُّغة والنَّاس .

ويعكف منذ سنوات على عملين :

- إعادة صَوْغ النحو العربي .
- معالجة لغوية لمفردات القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللّغة والنّاس

حلقات في اللّغة ونحوها وصرفها

أذاعها التلفاز العربي السّوري





الرقم الاصطلاحي: ١٠٦٤,٠١١
الرقم الموضوعي: ٤٥٠
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-265-1
الموضوع: النحو والصرف
العنوان: اللغة والناس
التأليف: يوسف الصيداوي
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٣٧٦ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
سورية - دمشق - ص.ب (٩٦٢).
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.Fikr.com/
E-Mail: Fikr @asca.com

الطبعة الأولى

1416هـ = 1996م

بيـنَ يَـدَيِ الكتـاب

مَنْ أقبلَ على هذه الأوراق يَظنُّ أنه سيقرأ نحواً صِرفاً ، أو صَرفاً صِرفاً ، فقد أخطأ المرمىٰ .

ومَنْ أراد منها أن يَميزَ الخطأَ من الصواب ، فقد وقع على غير ماأراد .

فإذا خطر في ذهنه أنّه بها يتعلّم العربية ، فقد ضَلَّ سبيلَه .

إنما هي التسلية الجادّة . ومِن قبلُ ما قال الشاعر :

« رُبَّ جِدٍّ ساقَهُ اللَّعِبُ » .

صحيحٌ أنّك تَقَعُ منها على نحوٍ وصرفٍ ولغة ، ولكنّ ما فيها لا يُعَلِّمُ ذلك . بل هو تسليةٌ بكل ذلكَ !!

لم أَرَ مِنْ قبلُ كتاباً في النحو والصرف واللغة يُتَسَلَّىٰ به ، وهذا كتابُ تسليةٍ بها .

ولولا أن تكون التسليةُ غايةَ هذه الأوراق ، لرأيتَ فيها جَمْعاً ومَنْعاً ، وإحاطةً وشُمولاً . ولَرَأَيتَ الإيجازَ حيثُ يَحْسُن ، والإسهابَ حيثُ يُقْتضىٰ .

ولَرأيتَ نفسَك مَردوداً إلى جِدٍّ صارم ، يَعْرِفُه قُرّاءُ هذه العلوم ، ويَعرفُه منّي أصدقاءُ لَهْوي وجِدّي .

ثمّ لأنّ همّي أن « يَتَسلّىٰ بها » كلُّ أَحَدٍ ، فإنّك سترى أسلوبَها منبسِطاً ، كما ينبسِط أسلوبُكَ إذا خاطبتَ مُحَدِّثَك . وسترىٰ الإفاضةَ ، حيث تُفِيضُ إذا خشيتَ استغلاقَ مقاصِدِك .

ولولا ذاك ، لكان لأسلوبها شأنٌ آخَرُ !!

ولقد حَرَصْتُ أن تُقْرَأَ كما أُذِيعَت ، فتكونَ مَطْبوعاً عنْ مسموع ، فلم أُبدِّلْ منها شيئاً ؛ اللهمَّ إلاّ أنْ يكونَ ذلك جَمْعَ حلقتين ، أو استغناءً عن مقدِّمة ، كان اقتضاها الخِطاب ، وأَغْنَىٰ عنها الكتاب .

ولقد كان نَدَبَني لهذا البرنامج صديقي فؤاد البلاّط ، ذاك الذي ماغالَبَني مرّةً وغَلَبْتُه !! وكان يَوْمَها مديراً عامّاً للإذاعة والتلفزيون ، فَظَنَنْتُها منه بعضاً ممّا يُجيدُ من المزاح ، ولكنّه مازال يُدافِعُني - كالمُداعِب - وأُدافِعُه ، حتى رأيتُني في مكتب ذاك الإنسانِ النبيل ، أحمد إسكندر أحمد ، وفؤادٌ يقول له : « لقد وافق الأستاذ ! أخيراً !! على تقديم البرنامج !!! » .

وشَدَّ - رحمه الله - على يَدِي يشكرني ، فأَلْجَمَني شُكْرُه . ووجدتُني مَقُوداً مَكْتُوفاً ، لا أَمْلِكُ عَوْداً ولا مُضِيّاً .

كنتُ أَتَرَقَّبُ أنْ أَلقىٰ وزيراً ذا سُلطان ! فلقيتُ إنساناً حَشْوُ بُرْدَيْهِ أنَّه إنسان !! وتَبَدَّد مابقي مِن امتِناعي في لحظة .

قلت : الحديث في التلفاز ذو رهبة ؛ قال : يُزيلها المِراس .

قلتَ : فإنني ذو مِزاجٍ عصبيّ ؛ قال : هذا ما نسمّيه : « حُضوراً تلفزيونياً » !

قلتُ : قد أُخفِق ؛ قال : جَرِّبْ .

وجَرَّبْتُ . . . فكان ما سُمّي بَرْنامجَ « اللغة والناس » يوم ١٩٨٢/١١/٢ .

ولايبقىٰ من السلسلة إلّا أن يقرأ هذه الأوراقَ قارىء ، فيرضى عنها . فيكونَ ذلك أمَّ المفاجآت !!

المؤلف

الإهـداء

إلى التي أراها تصبر على الصمت والوحدة
لتتيح لي أن أنقطع إلى الكتاب
فأستحي من الله !!

يوسف

ـ ١ ـ

الحاســوب

اللغة أداة من الأدوات ، يظلُّ الناسُ يستعملونها ما نَفَعَتْهُم ، ونَقَلَتْ أفكارَهم إلى عقولِ مَنْ حولَهم . فإذا قَصَّرَتْ عن ذلك تَخَطَّوْها ؛ إنهم يستخدمونها ولا يَعْبُدونها .

فإذا كان الأمرُ كذلك ـ وهو كائن ـ فعلى اللغة : أن تقدِّم لكلِّ جديدٍ في الحياة جديداً من الكلمات والتعابير .

منذ العَقْدِ الخامس من هذا القرن ، بدأ الناس يسمعون باختراع حديث يسمى : (الكومبيوتر) . ثم أخذتِ الإذاعاتُ تَصِفُه ، والصحفُ والمجلاتُ تصوِّرُه ، وتُبيِّن عمَلَهُ وفوائِدَه ، وانبرى الناسُ يتناقلون حديثَه : الكومبيوتر يفعل كذا ، والكومبيوتر يخدم كذا ، والكومبيوتر . . . ، والكومبيوتر إلخ . . .

ثم جاءنا الكومبيوتر نفسُه ؛ دخل بعضَ المؤسساتِ العربية منذ العَقْدِ السادسِ فيما أذكر . ثم مالبث أن تفشى وانتشر : في قُطرنا ، وغير قطرنا . فجداولُ رواتب الموظفين يُصدِرُها الكومبيوتر ، والضرائبُ يدوِّنها ويحفظها الكومبيوتر . . . ودخل شركاتِ الطيران ووزاراتِ الدولة والمؤسساتِ العامة والمكاتبَ الخاصة ، وهكذا . . . ، حتى غَدَتْ كلمةُ الكومبيوتر كَمِلحِ الطعام ، إذا لم يَلْفِظْها الإنسانُ العربي مرةً في اليوم ، فمرةً في اليومين ، أو مرةً في الأسبوع .

ثم بعد ثلاثين سنة من استعماله استيقظنا ، فشرعنا نبحث له عن تسمية عربية :

في شرط اللغويين : أن تكون صحيحةَ الاشتقاق ، دقيقةَ الأداء !

وفي شرط المثقفين : أن تكون رشيقة الأحرف ، موسيقيةَ اللفظ !!

وفي شرط الناشئة : أن تكونَ تسميتُه (الكومبيوتر) بغير تغيير !!!

ونصبرُ خمسينَ عاماً تقريباً ، حتى ينسى الناسُ كلمة كومبيوتر ، ويستعملوا مكانها التسميةَ الجديدة .

لقد تأخَّرْنا في إعطاء هذا المخترع اسماً يناسبه ؛ وكذلك نفعلُ دوماً .

تأخّرْنا أكثر من ثلاثينَ عاماً ، فتخطى الناسُ جميعَ قواعد اللغة فقالوا : هو الكومبيوتر ؛ مع أنِ لغتنا ليس فيها حرف (P) ولا فيها حرف (O) ولا فيها التقاء ساكنين . . . وأخيراً ليس فيها وزن (فوْعْيولَل) . ودخولُها العربيةَ غيرُ وارد لا اليومَ ولا غداً ولا بَعْدَ غدٍ .

إنَّ المسألةَ تحتاجُ إلى مُعالجة ، تحتاجُ إلى لجانٍ لغوية عربية ، تَرْصُد المخترعاتِ والمكتشفات والسلعَ والأدواتِ إلخ . . لتُلْبِسَها أثوابَها اللغويةَ العربية ، منذ تكون في المهد . . . . . هذه ضرورة قومية.

أما الآن فإلى الكومبيوتر وترجمته :

معنى Compute في الإنكليزية : حسب ، عدّ ، أحصى . وعلى ذلك فإن Computer تكون اسمَ فاعل من هذه المادة . أي : الحاسب أو العادّ أو المُحْصي .

حينَ ترجَمَ الغُيُرُ على العربية كلمة Computer للتخلص من اللفظ الأجنبي قالوا : الحاسب الآلي ، أو الحاسب الألكتروني ، أو الحاسب الكهربائي ، وقالوا غير ذلك . ويلاحظ في هذه التسميات استعمالُ كلمتين : الاسم : (الحاسب) والصفة : (الآلي) مع أنَّ جميع المشتغلين باللغة من جماعات وأفراد ، يُؤثرون في الترجمة استعمالَ الكلمة الواحدة على الكلمتين ، إلا إذا اضطُروا . فإذا جرى استعمالُ تسمية (الحاسبِ الآلي) مثلاً ، فإنما يَجري وفي النفس منه شيء .

طيّب ، ولماذا يستعملون تسميةً من كلمتين ؟

يستعملون ذلك ، لأن كلمة (الحاسب) وحْدَها ، لا تعبِّر التعبيرَ المُفصِحَ عن هذه الآلة . إذ كل من حَسَبَ هو حاسب . فالإنسانُ حاسب : لأنه يحسُب ، والجهازُ حاسب لأنه يحسُب ، مع أنّ بينهما فرقاً كبيراً . وفي إطلاق اسمٍ واحدٍ عليهما معاً مُجانَفَةٌ للدقة في المعنى .

وأمّا العلةُ الثانية : فهي أن الحاسب الألكتروني يمتازُ من كلِّ حاسبٍ امتيازاً مطلقاً . لماذا ؟

لأن هذا الحاسب لا يحسُب فقط ، وهو إذا حسب : لم يقِف عند الجمع ، والطرح ، والضرب ، والقسمة ، والمعادلاتِ الرياضية ذات المجاهيل المتعددة ، بل يتجاوزُ ذلك تجاوزاً لا يكاد يقف عند حد ، فهو يُركِّب ، ويُنشيء ، ويَمْزِج ، ويُحلّل ، ويُسأل ويُجيب ، ويَستنتج ، ويُنبّيء ، ويُصحّح إلخ . . ولكي أزيدَك إيضاحاً ، أذكر لك مثالاً من عَمَلِه الاجتماعي :

تُلَقِّم هذا الحاسبَ : أسماءَ ألفِ فتاةٍ . مثلاً سميرة وسعاد ومريم وليلى الخ . . . وصفاتِ كلٍّ منهنّ : النفسية ، والخُلُقية ، والخَلْقِية ، والاجتماعية ، والمادية ، والثقافية ، الخ . . . وتُلَقِّمه أسماءَ ألف شابٍّ . مثلاً : خالد وسعيد ومحمد وفؤاد الخ . . . وصفاتِ كلٍ منهم النفسية ، والخُلُقية ، والخَلْقية ، والاجتماعية ، والمادية ، والثقافية ، الخ . . .

ثم تَطلب إلى الحاسب أن يختار لخالد الفتاةَ التي تناسِبُه ليتزوَّجَها . فيجيب الحاسب : (مريم) مثلاً . وأمّا إذا لم يَجِد بينهنَّ مَن تناسب خالداً ، فإنّه يذكر أكثرَهُنّ موافقةً له ، وهكذا . . . .

ممّا تَقَدَّمَ يتبيّن : أن هذا ليس حاسباً عامّاً ، وإنما هو حاسبٌ خاصّ . ولابدّ له من اسم متى سَمِعه السامع ، أدرك أنّه هذا الحاسبُ حصراً ، وليسَ كلَّ حاسب .

منذ عهد قريب : اقتُرِحَ أنْ يُسمّى الكومبيوترُ بالحاسوب ، فَتَلَقّى الناسُ هذه التسميةَ على تَرَقُّب ، ثم أوردَته الصُحفُ والمجلاتُ ثم التلفزيون .

وكانت هيئةُ المواصفاتِ والمقاييس في قُطرنا ، قد شَرعت من قبل ذلك كلِّه ، تستعمل هذه التسمية ، وتعمل على توحيد أشكال الحرف العربي ، لتُيَسِّرَ تَبادُلَ المعلومات بين الحواسيب .

فما القولُ في هذه التسمية ؟





- ٢ -

خِصّيصى

كنتُ قبلَ نحو عامين بحثتُ في مادة (خصّ - يَخُصُّ)، وما كان يخطِرُ في ذهني أنّني سأعود إلى البحث في هذه المادة . ولكنّ خطأً رأيتُه في كتاب لا يجوز أن يشتمِل على خطأ ، لأنه كتابٌ مدرسيّ ، ردّني إلى البحث من جديد في مادة (خصّ يخصّ) .

والمسألةُ أنَّ ذاك الكتابَ ضمَّ قطعةً من مسرحية لأديب مصريٍّ [1] فيها حديثٌ بينَ رجلَين : الأوّلُ منهما يحاول أن يرشُوَ الثانيَ ليُعينَه على رِشوةِ ثالثٍ .

وأوجّه النظر هنا ، إلى أننا نستعمل في العادة كلمة الراشي والمرتشي ، فإذا أَردنا التعبير عن الوسيط بينهما ، طفقنا نلُفّ وندور ، كما لفَفْتُ ودرت آنفاً ، فمرّةً نقول : (الشخصُ الثالث) ، ومرةً نقول : (المتدخِّل) ، ومرةً نقول : (الوسيط) . . . كل ذلك ، على حين حفظت لنا العربيةُ اسماً لهذا الشخص الثالث ، لهذا الوسيط ، لهذا المتدخل ، فقالت هو (الرائش) أي الوسيط بين الراشي والمرتشي فَلْنَعُدْ إلى المسرحية ، ولنستعملْ كلمةَ (الرائش) .

الراشي يُخرِجُ من جيبه عُلبةَ سجائرَ من الذهب - كما يقولُ الكاتب - أحْضرها من إيطاليا وعليها الحرفُ الأوّل من اسم مَنْ ستُقَدَّمُ إليه العُلبة . فيسأله الرائش : « أكنتَ قد أُحضرتَها له هو خصّيصاً » ؟ .

واضحٌ أن قَوامَ العبارة لا يكاد يتماسك ، فهذا السؤال « أكنت » وبعدَه (قد) وهي للتحقيق ، ثم هذا الضمير « هو » المقودُ إلى العبارة على رَغْم أنفِه ، كلّ ذلك ، ينحدِرُ بالنص إلى مستوىً لا يُحْسَدُ الكاتبُ عليه ، ومع ذلك ، فإنّ قوّةَ التركيب وسلامتَه ليسا من همومي في هذه الحلقةِ . لأنّ الذي أقصدُ إليه إنّما هو كلمةُ (خِصّيصاً) فقط . فقد وردتْ هذه الكلمةُ مضبوطةً بكسر الخاء ، وتشديد الصاد ، وانتهت بألفٍ ليِّنة (طويلة كما يقولون) ، فوقها

---

١ - هو توفيق الحكيم، واسم المسرحية : الرجل الذي صمد .

تنوين . ومهما تَدُر هذه الكلمة ، فإنك واقعٌ منها على خطأٍ في كل زاوية وإليك بيانَ ذلك :

أولاً ـ **كتابتُها** : في الكلمة خطأٌ إملائيّ ؛ فهي كلمةٌ ، أكثرُ من ثلاثة أحرف ، تنتهي بالألف ، وحَقُّ ألِفِها إذاً أنْ تكونَ ألفاً مقصورة . هذه قاعدة .

وإليكَ شيئاً ممّا قاله العلماءُ فيها وفي وزنها . قال السيوطيّ : كلُّ مصدرٍ كان على مثالِ (الفِعِّيْلى) ـ والكلمةُ التي نعالـجُها مصدرٌ على وزنِ فِعّيلىٰ ـ. فهو مقصورٌ ، لا يُمَدُّ ، ولا يُكتبُ بالألف .

وقـال صاحبُ التـاج : (وخِصِّيصىٰ بالكَسـرْ والقَصْر ، وهو الفصيح المشهور) . وأمّا ابن سِيده : فقد أحصىٰ أبنيةَ المقصورِ فوجدها ثمانينَ بناءً ، منها (فِعِّيلىٰ). وأنت ترى أن خصّيصى وزنُها (فعّيلى) فهي إذاً مقصورة .

ثانياً ـ **تنوينها** : قد يقولُ قائل : لقد قبلْنا ما قُلْتَه من أنَّ ألِفَ (خِصّيصى) مقصورة ، ولكنْ لِمَ لا تُنَوَّنُ كما تُنَوَّنُ الأسماءُ المقصورة مثل (مستشفىً ومُنتقىً وفتىً ومثنىً) ؟ وفي الجوابِ أقول : إن الألفَ المقصورة في (خِصّيصى) ، ليسـت كالألِـف الـمقصـورة في مستشفىً ومنتقىً وفتىً ومثنىً . الألفُ في (خصيصى) ألفٌ زائدة ليست من أصل الكلمة ، لأنّ الأصل (خصّ ـ يخصّ) فالمادةُ تنتهي بالصاد ، وألفُها زائدةٌ لا تُنَوَّن ، وأمّا الألفُ في مستشفىً ومنتقىً وفتىً ومثنىً فشيءٌ آخر . هذه ألفاتُها أصليّة : لأنّك تقول : (استشفىٰ يستشفي) و(انتـقى ينتـقي)، وتُثَنّي فـتـقـول: (فَـتَـيـان ومُـثَـنَّيـان)، ولـذلك تتنَوَّن فـتـقـول: مستشفىً ومنتقىً وفتىً ومثنىً .

ألِفُ خِصّيصىٰ ـ كما ذكرتُ لك ـ زائدة . وأزيد في الإيضاح فأقول : (سَلْمى) مِن سَلِمَ ، و(حُبْلىٰ) مِن حَبِلَت ، و(ذِكرىٰ) مِن ذَكَرَ ، و(خِصّيصى) مِن خَصّ ـ يخُصّ . فهل تقول ؟ هذه (سلمىً) وهذه (حُبلىً) وهذه (ذكرىً) ؟ لا تقولُ ذلك . وللسببِ نفسِه إذاً لا تقولُ : (خصّيصاً) . هذه الألفاتُ : تُزادُ ولا تُنَوّن .

ثالثاً **وزنُها** : إذا كان الكاتبُ نَوَّنَ فقالَ : (خِصّيصاً) ، لأنّه توهّم أنَّ وزنَهـا (فِعّيل) ، أيْ (خِصّيص) . كـ (صدّيق) مثـلاً ، فإنّ المصيبـةَ عنـد ذلك

تكون أفدحَ ، ويكونَ الخَرْقَ شديدَ الاتساع . لأنَّ كلمة (خِصّيص) لا وجودَ لها في العربيّة أصلاً ، ولا يجوزُ اشتقاقُها من (خصَّ يخُصُّ خصوصاً) . .

وأُوردُ لك ما نُقِلَ عن ابنِ دُرَيْدٍ في الجمهرة حولَ ذلك ، فقد سردَ عدداً كبيراً من الكلمات على هذا الوزن مثل : (سِكّير وخِمّير وسِكّيت وغِرّيد وصِدّيق وشِرّير وضِلّيل) ، وغيـرَ هذه . ثم قال : « اعلمْ أنّه ليس لمولَّدٍ أنْ يَبْنِي (فِعّيلاً) ، إلاّ ما بَنَتْه العربُ ، وتكلَّمتْ به ، ولو أُجيزَ ذلك لَقُلِبَ أكثرُ الكلام ، فلا تلتَفِتْ إلى ما جاء على (فِعّيل) مما لم تَسْمَعْه . إلاّ أنْ يجيءَ فيه شعرٌ فصيح » .

(خصّيص) إذاً لا وجودَ له في العربية ، ولا يجوزُ لك اشتقاقُه . ومنه ـ كما يقال في المعادلات الرياضيّة ـ أن (خصّيصاً) لا وجودَ له ، هو مُخْتَرَعٌ ، وقد نهى العلماءُ عن اختراعه واستحداثه . فَقَوْلُ الكاتبِ إذاً في مسرحيته : « أكنت أحضرتها له هو خصيصاً » كلام غير مستقيم من جميع وجوهه ، لا يَتَّجهُ وَجْهٌ منهُ إلى الصواب أبداً .

وبعدُ ، فإن الخطأ في استعمال هذه الكلمة واسعُ الانتشار ، وصوابُهُ أنْ يُقال : (خِصِّيصىٰ) بالألف المقصورة ، فإذا استثقَلْتَ هذه اللفظة ، فيُمْكِنُكَ أَنْ تُحِلَّ محلَّها « خصوصاً » أو « خاصّة » فهما أخفُّ وألطف .

وَلَكَ في كلِّ حالٍ أنْ تقول : (أحضرتُها له خِصّيصىٰ ، أو أحضرتُها له خصوصاً ، أو أحضرتُها له خاصّة) . ولكنْ لَيس (أحضرتُها له خِصّيصاً) !!

فإذا كان لا بدَّ من أن نجعل ذلك النصَّ في النصوص الأدبية !! التي نُلَقِّنُها أبناءَنا في الصفوف الثانوية لتقْوى بها لغتهم!! فَلْنَقُلْ لهم في حاشية الصفحة : انتبهوا ، فإنَّ الكاتبَ مخطىءٌ فيما يقول ، والصوابُ هو (خِصّيصى) .

- ٣ -

في القراءات القرآنيّة

إنّ من يقرأ القرآن الكريم يمرُّ أحياناً بمواضعَ منه ، يرى الكلمة فيها غيرَ معهودة اللفظ فيما يقرؤه من الكتب اليوم ؛ وعلى أن ذلك في القرآن قليل ، فإنه يَجْبَهُ غيرَ المشتغلين باللغة والقراءات القرآنية . ولنبدأ المسألة من أوّلها :

الإجماع منعقد على أن القرآن الكريم لم يُجمع على عهد رسول الله (ﷺ) ، فلما تولى الخلافةَ أبو بكر (رض) وكان يومُ اليمامة ، واستحرّ القتل بالقُرّاء ، كلَّف زيدَ بنَ ثابت أن يَجمع القرآن ، حتى لايضيع منه شيء . فجمعه من الرِقاع والسَّعَف[١] واللِّخاف[٢] .وصدور الرجال .

فلما تولى الخلافة عثمان ، أمر زيدَ بنَ ثابت وعبدَ الله بنَ الزبير وسعيدَ ابنَ العاص وعبدَ الرحمن بنَ الحارث بنِ هشام أن ينسَخوا الصُحُفَ في المصاحف . وأوصاهم إنْ هم اختلفوا في شيء من القرآن ، أن يكتبوه بلغة قريش ، فإنما أُنزل بلسانها . فلما تمّ لهم ذلك ، أرسل عثمانُ إلى كل مِصرٍ من الأمصار مصحفاً مما نسخوا ، وأحرق ماعدا ذلك .

فاجتمع الناس في جميع الأمصار على مصحف عثمانَ ، ولايزالون حتى يومهم هذا ، وسيظلون . ولكنّ ما ذكرناه آنفاً يُنْشِىء أسئلةً ، منها :

السؤال الأول : ويقال لك فيه : نحن نقرأ في المصحف مثلاً ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾[٣] ولكننا نسمع القُرّاء في الإذاعة يتلون أحياناً : (أتاك) و (موسى) بالإمالة فلِمَ ذلك[٤] ؟

---

١ - السعف : أغصان النخل .

٢ - اللخاف : حجارة بيض رقاق .

٣ - طه / ٩ .

٤ - إذا أُميلت الألف في العربية دنت من لفظ (é) في الفرنسية .

في الجواب أقول : قال رسول الله ﷺ : (إن القرآن أُنزل على سبعة أحرفٍ ، كلُّها شافٍ كافٍ) . فلما تفرّق أصحابُ رسول الله في الأمصار ، أقرأ كلٌّ منهم أهلَ مِصره بما سمع ، على لهجته . وعلى هذا كان كل فريق من المسلمين يقرأ القرآن بلهجة قبيلته ، وما كان أحد منهم يُنكِر على أحدٍ قراءَتَه .

فهذا يُميل الألف من : ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ وذاك لايُميل . وهذا يُفخِّم اللامَ من قوله تعالى : ﴿ وأَقيموا الصلاَة ﴾(٥) وذاك يُرقِّق الخ . . .

وكان في ذلك تسهيلٌ عليهم عظيم ، لأنّ مما يشُقّ على الإنسان أن يَجْري في لفظه على غير عادته ولهجته : في الهمز والتسهيل والفتح والإمالة والتفخيم والترقيق الخ . . .

ويتضح لك هذا التيسيرُ أكثر ما يكون الاتّضاح ، إذا عَلمتَ أنّ القرآن الكريم ليس للعرب وحدهم ، وإنّما هو للإنسان في كل زمان ومكان ؛ إنه كتاب عالميّ ـ كما يقال ـ ولاشكّ في أنّ ما تَسْهُل قراءتُه على العربيّ قد تَعْسُر على الهندي والفرنسي والإيطالي الخ . . . فانظر إلى اتّساع التيسير عليهم بتعدّد القراءات !!(★)

السؤال الثاني : ويقال لك فيه مثلاً : نحن نقرأ في المصحف ﴿ وانظرْ

---

٥ ـ يونس / ٨٧

(★) هذا الذي ذكرناه من التيسير عليٍ القبائل ، أباه أحد المعترضين فقال : هذا تعليل غير مقنع . فسألته : ما المقنع إذاً عندك ؟ فقال(حكمة) !! . وقوله هذا ، يعني أن السبب غامض ؛ وماهو بغامض . فالذي ذكرناه من التيسير على القبائل ، قد أجمع عليه علماء الأمة خلال قرون ممتدة من الزمن ولم نر أحداً منهم ردّه ، أو ترك الناس في ظلماءَ داجيةٍ فقال : (سببه حكمة) !!

والذي هو أكثر من هذا ، أن المعترض نفسه ، يرى أن نُعرض عن البحث في القراءات في كل حال وقد سألته لماذا ؟ قال : « هذا أحسن» . يقول ذلك ، وقرّاء القرآن في الإذاعات ، يملؤون منها كل يوم مسامع الدنيا .

والذي أراه أن البحث فيها هو الأحسن ، لأنه في الأقل ينقل العلم إلى راغب فيه .

إلى العِظام كيفَ نُنْشِزُهاثم نَكْسوها لَحْماً ﴾[٦] ولكننا نسمع القُراء في الإذاعة يتلون أحياناً : ﴿ وانظر إلى العظام كيف نُنْشِرُها ثم نكسوها لحماً ﴾ فلِمَ ذلك ؟

في الجواب أقول : لقد ذكرنا آنفاً أن القرآن جُمع في عهد عثمان ، وكُتب بلغة قريش ، وأُحرق ماعدا ذلك . ولكنّ الكتابة يومها كانت لانَقْطَ فيها ولاشَكْلَ ، وقد سُمِّيت تلك الكتابةُ التي كُتبت بها المصاحف الرسمَ العثماني . قال القيسيّ في الإبانة : « وخَطُّه محتمِلٌ لأَكثرَ مِن حرف ، إذ لَم يكن منقوطاً ولا مضبوطاً »[٧] .

فإذا قرأتَ في المصحف اليوم : ﴿ وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ﴾ ثم سمعتَ القارىء في الإذاعة يتلو : ﴿ كيف نُنْشِرُها ﴾ ، فإن الرسم العثماني ، وهو بغير نَقْطٍ ولا شَكْلٍ ، يحتمل القراءتين : « ننشزها وننشرها » . وقد يَسهُل على هذه القبيلة لفظُ الزاي بعدَ الشين ، ويَعسُر على قبيلة أخرى . وقد يَسْهُل على هذه القبيلة لفظُ الراء بعد الشين ، ويَعْسُر على قبيلة أخرى . وفي جواز القراءتين تيسيرٌ على كلٍّ من الفريقين[٨] .

السؤال الثالث : قد يسألك سائل فيقول : إن الرسم العثماني ـ وقد كان بغير نَقْط ولا شَكْل ـ يسمح بأن تكون الشين سيناً ، أي « **نُنْسِرُها** » مكان « **نُنْشِزُها** » ، فهل هذا جائز ؟

طبيعيٌّ أن هذا السؤال يدعو إلى ابتسامة عريضة . ذاك أن القراءاتِ لها ضوابطُ مقررة ، صاغها الأئمة في ثلاثة شروط ، لابد من اجتماعها في كل قراءة .

الشرط الأول : هو موافَقَةُ القراءةِ رسمَ المُصحَفِ العُثمانيِّ .

الشرط الثاني : هو موافقَتُها وَجْهاً مِن وُجوه اللغةِ العربية .

---

٦ ـ البقرة / ٢٥٩ .

٧ ـ يريد : أنه لم يكن مضبوطاً بالشَكْل .

٨ ـ إنها حكمة التيسير عليهم ، وليست حكمةً غامضة مجهولة !!

الشرط الثالث : صِحَّةُ السندِ بالقراءة إلى رسول الله (ﷺ) ـ متواترةً مِنْ أوّلِ السندِ إلى آخِره .

ومعنى الروايةِ المتواترة : الثابتةُ على ألسنةِ قومٍ لا يُتَصَوَّرُ تَواطُؤُهُمْ على الكذِبِ لكثرتِهم أو لِعَدالَتِهم (**) .

فهذه الشروطُ الثلاثةُ لابدَّ مِن اجتماعِها لكلّ قراءة ، ولقد نُظِمَتْ شِعْراً لِيَسْهُلَ على الناسِ حفْظُها . وأنا موردٌ ذلك لك ، قالوا :

وكلُّ ماوافَقَ وجْهَ النَحْـو وكان للرَّسْمِ احتمالاً يَحْوي
وصَحَّ إسناداً هو القُرآنُ فهـذه الثـلاثـةُ الأركـانُ

فإذا أثبتَّ لنا ـ ولن تستطيعَ أن تُثْبِت ـ أنّ (نُنْشِرُها) قراءةٌ قدِ اجتمعتْ لها هذه الشروطُ الثلاثةُ فإنّنا نقبل قولك ، ولكنْ مِنْ أَيْن ؟ !

بعد هذا أقول : إنَّ عَدَداً من الرسائلِ ليسَ بالقليل جاءني حولَ الآيةِ العاشرةِ من سورة الفتح ، وهي قولُه تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بما عاهَدَ عَلَيْهُ الله فسيُؤْتيهِ أَجْراً عظيماً ﴾ ولقد كنتُ أَخَّرْتُ البحثَ في ذلك لضآلة المسألةِ ، ولكنَّ طالبةً استوقَفَتْني في الطريق فقالت لي : لماذا نَصَّتِ الآيةُ على ضَمِّ الهاءِ من قوله تعالى : ﴿ ومَنْ أوفى بما عاهد عليهُ الله ﴾ ؟ فدعاني اهتمامُ الناسِ هذا بالمسألة ، إلى إدارة هذه الحلقة . وحولَ هذا أقول :

(**) إن المعترض الذي ذكرنا اعتراضه آنفاً قد اعترض علينا هنا أيضاً فقال : إنك قلت : « سند متواتر ، وهذا غير صحيح » .

ولقد شككت في نفسي وتساءلت : أحقاً أنني قلت ذلك ؟ ورجعت إلى الحلقة وهي مسجلة ، فلم أجدني قلت ذلك وإنما قلت يومها : « الشرط الأول : صحة السند بالقراءة الى رسول الله (ﷺ) متواترةً من أول السند الى آخره » .

وقد أعدت عرض هذه الفقرة على الشاشة ، ليرى السادة المشاهدون أن ذاك المعترض قد افترى علينا ، فأنطقنا بما لم ننطق به ، فذكّرنا بقول الشاعر :

يَعِي غيرَ ماقُلْنا ، ويكتبُ غيرَ ما وَعـاهُ ، ويقـرأ غيـرَ ما هو كاتِبُ

وما أدري كيف يكون حال الطلاب إذا علّمهم أستاذهم يوماً فنقل لهم من تراث أئمة العلم غيرَ ما قالوه !! أو تهاهم عن البحث فيما امتلأت به بطون الكتب !! أو سألوه عن علة هذا أو ذاك من شؤون المعرفة فقال لهم : تلك حكمة !!

إنَّ قراءةَ : (عليهُ) هي قراءةُ حَفْص ، وقد تُوُفّي سنة ٢٤٦ هـ وكانَ إمامَ القراءة وشيخَ الناس في زمانه ؛ وأمّا سائرُ القُرّاءِ فقرؤوا بكَسْر الهاء : (عليهِ) . فلننظرْ هل تَحقّقَ لِضَمِّ الهاء شُروطُ القراءة الثلاثةُ ؟ نعمْ تَحَقَّقَ لها ذلك .

فأمّا صِحَّةُ السندِ في قراءة حفص ، فلا مَجالَ للشكِ فيها . ذلكَ ثابتٌ .

وأمّا رَسْمُ مُصْحَفِ عُثمانَ فليسَ فيه شَكْلٌ ، وكلمةُ (عليهُ) تُوافِقُ رَسْمَه ، لأن الشكل إنما جاء في مرحلة متأخرة .

وأمّا موافقةُ الضَمِّ لِوَجْهٍ من وجوه العربية ، فإليكَ بيانَها . قالوا مامعناه :

الهاءُ في (عليه) ضميرٌ ، والضميرُ يَحُلُّ مَحَلَّ الاسم . فالهاءُ إذاً في الأصل اسم . ولكنْ لما قَلَّتْ حروفُ هذا الاسم ، حتى غَدَتْ حَرفاً واحداً هو الهاءُ ، والهاءُ حرف ضعيفٌ خفِيٌّ ، قَوَّوْا هذا الحَرْفَ بزيادةِ الواوِ فقالوا : عليهو .

نَصُّوا على ذلك فقالوا : « هذا هو الأصل » .

ثم إنّهم حَذَفُوا هذه الواوَ ، لأنَّ وجودَها وجودٌ لفظيّ ، وأمّا في الخَطِّ فلا وُجودَ لها . فبقي بينَ يَدَيْكَ (عليهُ) ولذلك صَحَّتْ قراءةُ : ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله ﴾

وأخيراً أقولُ وأنا أختِمُ هذه الحْلقة : إنّ بعضَ الأئمة ، برهنُوا بالأدلّة على أنَّ الضمَّ هو الأصلُ ، أيْ (عليهو) . ولولا خشيةُ الإملال لَتَوسَّعْتُ في بَسْط ذلك ، ولأَوْرَدتُ لك بَراهينَهم وأدلتَهم .

ثم قد يقولُ قائلٌ : أيجوزُ أيضاً أن نقرأ : ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليهِ اللهَ ﴾ ؟ وفي الجوابِ أقول : نعمْ يَجوزُ ، فالضمُّ قراءةُ حفصٍ وحدَه ، وأمّا الباقونَ فيقرَؤون بالكسر ، أيْ ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليهِ الله ﴾ .

ـ ٤ ـ

بَهْجة لا بَهْجتْ

إذا قلتُ إنّ أئمة اللغة لم يتركوا حرفاً من حُروفها إلا درسوه فلا تُنكِرْ عليَّ قولي هذا . فما أقوله لك حقيقة لامغالاة فيها ولا تَزَيُّد . حتى لو شئتَ أنْ تؤلّفَ كتاباً في حرفٍ من حُروفها لما تَعذَّرَ عليك ذلك . ولذلك يكونُ عَجَبُك شديداً حين ترى كتاباً ممّا يؤلَّفُ اليوم ، يخرج عليك بأحكام تُنكِرُها مراجعُ اللغة وتأباها .

بالأمس نظرتُ في كتاب مما تَعْرِضُه مكتبات دمشق . أمّا مؤلِّفه فمن قطر عربي شقيق ، وأمّـا موضوعُه فقواعد اللغة العربية ، وأمّا طريقةُ عَرْضِه لها فمستحدثة . وقد أَوْرَدَ هذا الكتابُ أحياناً أحكاماً لم يُسبَق إليها !! مِن هذه الأحكام ما أذكرُه لك :

عالج الكتابُ ـ مثلاً ـ مسألةً إملائية ، هي كتابة التاء في آخر الكلمة، فقال في العنوان : (كتابةُ التاء الطويلة) ؛ مع أنّ التاء لا تُوصَفُ بالطول ولا القصـر . وإنّما توصف بأنها مربوطة في مثل (تفّاحة) ، ومبسوطة في مثل (تفّاحات) . وإنما قالوا : إنّها تاءٌ مبسوطة ، لأنهم رأَوها تنبسط مع السطر في الكتابة ، على حين تأتي مربوطةً مستديرةً في أحيان أخرى .

ومع أن هذه الملاحظة لا تَمَسُّ مسألةً جوهرية ـ كما يقال ـ فإنّها تفجؤك إذا رأيتَها في كتاب سمّاه مؤلِّفُه معجماً ؛ فتتوفّز لِما هو شَرٌّ منها .

وبالحق لقد توفَّزْتُ حينَ مَرَرْتُ بها ، ولم يكن توفّزي عبثاً ، إذ لم ألْبث أن قرأتُ ما أُورِده لك .

قال (المعجم) !! وهو يُرشدُ إلى مواضع كتابة التاء المبسوطة :

(كتابةُ التاء الطويلة في) :

آخر الفعلِ : لعبت

آخر جمع المؤنث السالم : راهبات

آخر اسم العلم المذكر الأعجمي : طلْعتْ ، رفعت .

فماذا يعني هذا ؟ يعني أن (طلعت) ـ في زعم المؤلف ـ اسمُ علم أعجمي ، يُكتَبُ بالتاء المبسوطة .

من أين لك هذا ؟! (طلعت) ليس اسماً أعجمياً ، ثم إن تاءه لا تُكتبُ (تاء طويلة) !! أي مبسوطة ، كما كتبتها أنت ، وإنما هو اسمٌ عربي تاؤه مربوطة ، وكتابته الصحيحةِ (طلعة) لا (طلعتْ) ؛ ومعَنا ألف دليلٍ على صحة ما نقول ، وليس معك دليلٌ واحدٌ على ما تزعُم .

أولاً : لاحظ فريقٌ من العلماء أنك تقولُ : (هذه تفاحة) ؛ وتقف فتلفظها هاءً . وتقول : (تلك تفاحات) ؛ وتقف فتلفظها تاءً . فقالوا : هذه هاء ، وتلك تاء .

ولاحظَ فريقٌ آخرُ أنك إذا لم تقف قُلت :(هذه تفاحةٌ وتلك تفاحات) فتلفظ الاثنتين تاءً . فهذه تاء وتلك تاء، ولذلك فرقوا بينهما فقالوا : هذه تاءٌ مربوطة وتلك تاءٌ مبسوطة ، ولكنّهم لم يقولوا : هذه تاءٌ طويلة !! لأنّهم لو قالوا : (هذه تاء طويلة) ، للزمهم أن يقولوا : (وتلك تاء قصيرة) . وهذا لم يَقُلْه أحَدٌ ، إذ لا طولَ هنا ولا قِصَر . فَلْنَكْتَفِ بما قالوه ، فإنه الأصوب بل هو الصواب .

ثانياً : طلعة ، صَفوة ، حمزة ، بهجة ، رِفعة ، حِكمة ، طلحة ، إنما هي أسماءٌ عربيةِ ، مُذكَّرةٌ في المعنى ، مؤنَّثةٌ في اللفظ إلخ . . .

مذكرةٌ في المعنى لأنها تَدُل على مذكّر ، وهي مؤنثةٌ في اللفظ لأنها تنتهي بتاء التأنيث المربوطة الزائدة .

وهذه الأسماء في العربية ممنوعة من الصرف ، للعلمية والتأنيث . تقول : (جاء طلحةُ ، ورأيتُ طلحةَ ، ومررتُ بطلحةَ) .

وأمّا أنّها عربيةٌ ، فيدلُّكَ عليه صِلتها الواضحةُ بجذورها العربية ، حتى إنّ الخوض في البرهنة على ذلك ليدنو من تحصيل الحاصل. فطَلْعَة : مِن طَلع يطلُع طُلوعاً ، وصَفْوَة : من صَفا يَصْفو صفاءً ، وحمزة : من الحَمْز ، وهو

الحموضةُ في الطعم ، أو الحرافةُ فيه ، كطعمِ الخردل مثلاً . تقول:(حَمَزَ الشرابُ لسانَه يحمِزه حَمْزاً) إذا لَذَعَهُ بَحرافته . . ومثل ذلك ما يقالُ في الأسماء الأخرى . فهي واضحةُ المعنى ، واضحة الارتباط بجذورها العربية .

ولكن لماذا قال الناسُ (بهجتْ وشوكتْ وعزّتْ) ؟! إليكَ البيان :

لقد كان العربُ سَمَّوا الأشخاصَ بأسماءٍ تنتهي بالتاءِ المربوطة ، فإذا وقفوا على آخر هذه الأسماء لفظوها هاءً ، فقالوا : (حمزه ، وطلحه ، وأسامه ، وعكرمه) كل ذلك بالهاء ، ولم يقولوا : (حمزتْ وطلحتْ وأسامتْ وعكرمتْ) ؛ لأن النظامَ الصوتّي في العربية نظام يسهُلُ فيه الوقوفُ على الهاء.

ثم أخذ الأتراكُ ـ فيما أخذوا من لغتِنا ـ هذا النموذجَ من الأسماء ، وتوسَّعوا فيه .

ولكنّ آليَّةَ النُّطْق، وَلْنقُل كما يقولون في لغة العلم : (ولكنَّ النظامَ الصوتيَّ)، في اللغة التركية ، لا يسهُلُ فيه الوقوفُ على الهاء ، ولا يتحقَّقُ ذلك للتركي إلا بقَسْر أعضائِه الصوتية . وأما الوقوفُ على التاء ، في ذلك النظام الصوتيِّ فسهلٌ ، ولذلك قالوا : (صفوتْ وطلعتْ وبهجتْ وشوكتْ) .

فالحُكمُ إذاً بأن هذه الأسماءَ أعجميةٌ ، غلط .

والحكمُ بأنّها تُكتبُ بالتاء المبسوطة ، غلط ثانٍ .

والحكمُ بأنَّ التاءَ المبسوطة اسمها التاءُ الطويلة ، غلط ثالث .

لقد كان الأستاذ محمد العدناني ـ رحمه الله ـ تناول هذه المسألة . ولكنّه لم يقُل إنّ هذه الأسماءَ أعجميّة ، بل قال : إنّها مأخوذةٌ من العربية . ثم أبدى رأيه في التاء ، فقال : أرىٰ أنْ تُكتَبَ هذه الأسماءُ بالتاء المبسوطة لكي نستطيعَ التلفُّظَ بها عند الوقف .

وهذا ـ كما تلاحِظ ـ رأي . ويمكنُ ردُّه بأن النظامَ الصوتيَّ في اللغة العربية يسهُلُ فيه التلفّظُ بالهاء . نَطَقَ بذلك الإنسانُ العربيُّ قديماً ، وينطِقُ به الإنسانُ العربيُّ حديثاً ، وليس ذلك معجزة . فحمزة وطلحة وبهجة إذاً وليس حمزتْ وطلحتْ وبهجتْ .

ـ ٥ ـ

بهجة لا بهجتْ / ٢

جزيرةُ العربِ واسعةٌ مترامِيةُ الأَطراف . تتناثر فيها المدنُ ومنازلُ القبائل ، وتُباعِدُ بين مواقعِها مِساحاتٌ من الأرضِ خاليةٌ ومعمورة . فمن الطبيعيِّ إذاً أَنْ تكون لكل قبيلة منها لهجة . هذا قانونٌ تخضعُ له جميع لغات بني الانسان .

وأوردُ لك من ذلك أمثلة : قبيلةُ هُذيل : تجعل العَين الساكنة نوناً فتقول (أنطى) ، أي أعطى . وفي إحدى القراءات : (إنا أَنطيناك الكوثر) . وقبيلة تغلِب : تجعل الكاف شيناً ، وقد سُمِعَ بعض أهل اليمن في عَرَفَةَ يقول (لبَّيش اللهم لبّيش) ، أي لبيك . والأَزْدُ تجعلُ الأَلفَ واللامَ ميماً فتقول : (طابَ مْهواء وصفا مجو) ، أي (طابَ الهواء وصفا الجو) .

وأمّا حِمْيَر فللهجتها حكايةٌ أرويها لك : قيل إنّ رجلاً من بني كلاب وَفَد على بعض ملوك حمير ، فألفاه في مُتَصَيَّدٍ له ، على جبل مُشْرِف ، فسلّم عليه ، وانتسب له ، فقال له الملك (ثِبْ) أي (آجلس بلغة حِمْيَر) ، فظنّ الرجل أنه أُمِر بالوثوب من الجبل ، فقال : ستجدني أيها الملك مطواعاً . ثم وَثَب من الجبل فهلك . فقال الملك : ما شأنُه ؟ فخبّروه بقصّته وغَلَطِه في الكلمة . فقال : (ليس عندنا عَرَبِيَّتْ ، مَنْ دَخَلَ ظَفارِ حَمَّر) [1] أي فليتعلم الحميرية .

وأوجّه النظر في هذه الحكاية ، إلى أمور تَرِيبُ ، وتَدْعو إلى الشكِّ في حدوثها ، والشكِّ في صحة الاستشهاد بها :

الأمر الأول : حوادثها : إنّكَ تَقْرَأ تاريخَ العرب فيأخُذُك العَجَبُ لحميَّتِهم وإباتِهم ، ويَهُولُكَ ما يَبْذُلون من الدماء ، وما يسفِكون منها ، لأنّ فلاناً رمى ناقةَ فلانةَ بسهم ، أو لأنّ فلاناً عاقَ فرسَ فلانٍ في السباق . فكيف يقولُ ملكٌ لضيفه

---

١ ـ ظفار : مدينة لحمير .

العربي : (انتحر) فينتحر ، لا لشيء ، إلا لِيُظهرَ أنّه له مطيع ؟ ليس هذا في طبعِ العربي ، وتاريخُهُمْ يخلو من مثل ذلك .

الأمر الثاني : اختلافُ الرواة في شخصية الرجل المنتحر . ففريقٌ قال : رجلٌ من بني كلاب ، وفريقٌ قال:رجلٌ من بني عامر بنِ صعصعة ، وفريق ثالث قال : هو زيدُ بنُ عبدِ الله بنِ دارم .

الأمر الثالث : مسرح الحكاية : ففريقٌ قال : كان الملك على جبل مشرف . وآخرون قالوا : كان الملك على سطح له ، فكأنّ هَمَّ الرواة أن يذكروا أن المكانَ كان مرتفعاً ، لِتَصحَّ لهم حَبْكَةُ القصة .

الأمر الرابع : أن فريقاً قال : اندقت عُنُقُه وقال آخرون : اندقّت قدماه ، وأما الفريقُ الثالث فقال : فوثب الرجل فتكسّر .

الأمر الخامس : موضعُ الشاهِد : فالقِصّةُ موضوعةٌ لكلمتين ، الأولى : قولُ الملك (ثِبْ) أي (اجلس بلغة حمير) . وهذا لا خلاف فيه بين العلماء . وهي في لغة قريش ، تعني (اِقفزْ) . والثانية : (ليس عندنا عربيّتْ) وهذه موضع شك لسببين :

السبب الأول : أنَّ هناك روايةً أخرى ، جاء فيها أن الملك قال : (ليس عندنا عربيةٌ كعربيتكم) .

السبب الثاني : ما قاله ابنُ سيده ومؤدّاه : أنه لو صَحَّ أنَّ الملكَ قال : (ليس عندنا عربيّت) لَنَفَى بقوله هذا أَنْ تكون العربية لغةَ حمير أصلاً . وهذه ملاحظةٌ دقيقةٌ حقاً . فلو أنّ لهجة القبيلة تُخْرجها من العربية ، لكانت اللغةُ العربيةُ ، لغةَ قريشٍ فقط . وهذا لا يدّعية أحد .

على أنني أرى من المهم أَنْ أذكر أنَّ اللغويين القدماء عَثَرُوا على كلماتٍ نادرة تنتهي بالتاء المربوطة ، قالوا : إنَّ الحميريَّ إذا وقف عليها ، لَفَظَها تاءً . مِن ذلك قولُهم : (هذه أَمَـتْ) أي (هذه أَمَة) . ورأيتُها في بعض المراجع

مشددّةً : (هذه أُمّتْ) أي (هذه أُمّة) . وسُمِعَ بعضُهم !! يقول : (يا أهلَ سورة البقرتْ) فقال مجيب !! (ما أحفظُ منها ولا آيَتْ) .

بعد هذا أقول : آنَ أنْ أذْكُرَ سبب هذا الحديثِ عن اللهجات .

فلقد كنتُ يوم ١٩٨٥/٩/١٤ عَرَضْتُ لمسألة التاء المربوطة والمبسوطةِ ، في مثل : بهجة وحكمة وحمزة الخ . . . وبيّنتُ أن من الغلط أنْ يقال : (بهجت) مثلاً ، والصحيح (بهجة) . فجاءتني بعد ذلك رسالةٌ من حمص معها خمسُ مقالات ، نُشِرت في صحيفة (العروبة) في حمص عام ١٩٨٤ دارت حول موضوع التاء المبسوطة والمربوطة ، بين الأستاذ صاحب الرسالة وأستاذ كاتب في الصحيفة نفسها . وقد افتُتحتِ المقالةُ الأولى منها بعنوان : (حكمة ليس غير) ، وبَدَأتْ بذلك معركةٌ علميةٌ مهذّبة ، أغبطُ الأستاذَيْن حقاً بمستواها .

ومِن رأي الأستاذ صاحب الرسالة ، أنْ نقول : (حكمت وبهجت) إلخ . . . لأنّ هذه الأسماءَ كما يرى أجنبيةٌ ، ليس لها من العربية إلاّ ما كان للكولونيل لورانس ـ يعني بذلك العقيد لورانس ـ من العقال الحريري المقصّب . ولكي يُبرهن على صحة رأيه ، قال : إنّ رجلاً حجّةً في التاريخ قال له : إنّ قبيلةَ حمير ، تلفِظُ هذه الهاء تاءً . وروى له حكايةَ الملكِ الحميريّ ، وأنه قال : (ليس عندنا عربيّتْ قرشيّتْ) !! وكان كلّما رَآهُ مازحه فقال له : (أليس عندك قصيدتْ وطنيّتْ أو غز ليّتْ) ؟ حَوْلَ ذلك أقول :

١ ـ إنّ حكمة ، لا حكمتْ ، معناه : إصابةُ الحق بالعلم والعقل . فهذه كلمةٌ عربية أصيلة كما ترى . وإنّ بهجة ، لا بهجت ، معناه : ظهورُ الفَرَح في الوجه وضَحِكُ أساريره . وهذه كلمةٌ عربيةٌ أصيلةٌ أيضاً .

وقل مثلَ ذلك في : (حمزة وطلحة وشوكة) وهكذا . . . فهذه الأسماءُ عربيةٌ أصيلةٌ ، وليست كالكولونيل لورانس الذي ليس له من العربية إلا العقال المقصب . هي عربيةٌ ، وليس لها من العُجْمة إلا تلك (البرنيطة) !! أعني (برنيطة) التاء المبسوطة . وإنّني لواثقٌ ، أن العربية ستخلع هذه (البرنيطة) ،

كما خلعت من قبلُ برنيطة (الكراكون ، والبانطو ، والطراموايَ) ولَبِسَتْ قُبَّعة (المخفر ، والمعطف ، والحافلة) .

٢ ـ إنّ ذاك الرجل الحجة في التاريخ ، الذي روى فقال : (ليس عندنا عربيّتْ قرشيّتْ) قد روىٰ ما لم يَرْوه أحد ، لأن الرواية إن صحّت فهي (ليس عندنا عربيتْ) . وأمّا (قرشيّتْ) فقد رجعتُ إلى عَشَرةِ مراجع موثوقٍ بها ، فلم أجِد لها أثراً . وإنّما وجدت روايتَين ، الأولى : (ليس عندنا عربيتْ) ، والثانية : (ليس عندنا عربيّةٌ كعربيتكم) .

٣ ـ إنَّ اللغويّيـن القدماءَ والمحدثيـن يُجْمِعون على أنّ الحميريين إذا وقفوا على الهاء لفظوها تاءً . ولم يقل أحد قط إنّ الحميريين في الحَدْر[٢] يلفظون التاءَ المربوطة تاءً مبسوطة .

على هذا فإنّ ذاك الرجل الحجة كان يغلط مرتين في الأقل كلما قال : أليس عندكِ قصيدتْ وطنيّتْ أوغز ليّتْ ؟ لأن الحميريين ـ إن صَحَّ أنّهم يقِفون على الهاء تاءً ـ لا يقولون ما قال ذلك الرجلُ الحجّة ، وإنّما يقولون : (أليسَ عندك قصيدةٌ وطنيّةٌ أو غزليّتْ) .

٤ ـ يبقى أنْ أقول : إنّ الأستاذين الكاتبين في صحيفة العروبة تداولا في نقاشهما الصَحَفيِّ مسألة أسماء الأعلام ، مثل (نجاح وصباح وابتسام) فقالا : إن العرب لا تفرّق فيها بين المذكر والمؤنث . والحقُّ أنّها تفرّق ، فتمنع المؤنث منها من الصرف فتقول : « جاءتْ نجاحُ ، ورأيتُ نجاحَ ، ومررتُ بنجاحَ » ، وتصرف المذكَّرَ منها فتقول : « جاء نجاحٌ ، ورأيت نجاحاً ، ومررتُ بنجاحٍ » . ولولا ضيق الوقت لبسطتُ القولَ في ذلك .

وبَعْدُ ، أيجوزُ أَنْ نأخُذَ بلغة حمير ، فنقول : (ذهبت فاطمةُ إلى المدرسةِ متأخرتْ) ؟

في الجوابِ أقول : لقد عالج ذلك ابنُ جنّي ، فأجاز الأَخذَ بلغتين

---

٢ ـ الحدر : أن تقرأ مسرعاً بغير توقف .

مختلفتين . ولكن انتبه !! فإنّ ابنَ جني اشترط لذلك شرطاً واضحاً ، لا يتحقق للهجة حمير ، فقال ما نَصُّهُ الحرفيّ : « هذا حُكْمُ اللغتين ـ أي الأَخْذ باللغتين جميعاً ـ إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانِيَـتَـيْـن . . . . . فأمّا أنْ تَقِلَّ إحداهما جدّاً ، وتَكْثُرَ الأخرى جدّاً ، فإنّك تأخُذُ بأوسعِهما روايةً وأقواهما قياساً . ألاتَراكَ لا تقولُ أكرمتكِش قياساً على لغة من قال مررتُ بكِش » ؟

لذلك لا تَقُلْ : (ذهبَتْ فاطمة إلى المدرسة متأخرتْ) ، ولا تقُلْ أيضاً : « طلحتْ ، وحمزتْ ، وبهجتْ » ، لأنّ لغةَ القرآن أوسعُ انتشاراً وأقوى قياساً من لغة حمير .

قال قَتادة : كانتْ قريشٌ تَجْتَبي ـ أي تختار ـ أفضلَ لغات العرب ، حتى صارَ أفضلَ لغاتِها لغتُها فَنَزَلَ القرآنُ بها . وقال الفرّاء : « كانتِ العربُ تحضُر الموسِمَ في كل عامٍ ، وتحُجُّ البيتَ في الجاهلية ، وقريشٌ يَسْمعون لغاتِ العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أَفصحَ العرب . وخَلَتْ لغتهم من مُستبشعِ اللغات ، ومُستقبَحِ الألفاظ » .

ونحن أخيراً نقول : ليس عندنا حميريّتْ ، ومن أخَذَ بلغةِ القرآن قال : بهجة وحمزة وطلحة وشوكة . . . . . لأنّ التنزيل العزيز لا يقول : « الحاقّتْ ما الحاقّتْ وما أدراكَ ما الحاقّتْ كذبت ثمودُ وعادٌ بالقارعتْ » !! بل يقول « الحاقّةُ ما الحاقّةُ ، وما أدراك ما الحاقّةُ ، كذبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة » . ولقد دخل القرآن ظَفارِ ولم يحمِّر ، بل دخل اليمنَ كلَّها لا ظفارِ وحدَها ، ومع ذلك لم يحمّر . بل أَقْرَأَها بلُغَتِهِ فقَرَّشَتْ !! ـ إذا صحّ التعبير ـ نعم ، قرّشتْ ، شاءتْ ذلك أو أبَتْ . قالَ ابن جني : (رُوِيَ عن عُمَرَ أنّه سمع رجلاً يقرأ : (عتى حين)[3] فقال : من أقرأك ؟ قال : ابنُ مسعود . فكتب إليه : إنّ الله عز وجل أنزل هذا القرآنَ ، فجعلَهُ عربياً ، وأنزله بلغة قريش ، فأقْرِئِ الناس بلغة قريش ، ولا تُقْرِئْهم بلغةِ هُذَيْل والسلام) .

---

٣ ـ هُذَيل : تجعل الحاء عيناً ، والأصل : حتى حين .

- ٦ -

حتّــــى

ينقلون عن الفرّاء أنّ شأنَ (حتّى) قد عنّاه فقال : أموت وفي نفسي شيء من (حتّى) . والفراء بَعدُ إمامٌ من أئمة النحو ، ورأسٌ كبير من رؤوس مدرسة الكوفة .

فإذا صح أنه قال ذلك،فحتّى إذاً معضلة ؛ وإذا لم يَصِحَّ فإن الفراء - بالحق - قد أَوْلاها من اهتمامه ما لم يُوْلِ سواها من الأدوات . فخصَّها بسبع صفَحات من كتابه « معاني القرآن » . فإذا فَسَحْنا لـ (حتى) حلقتين تلفزيونيتين[1]، وقد فسح لها الفراء سبعَ صفحات ، فنحن إذاً مقتصدون .

يقولون جادين أو لاعبين : (أكلتُ السمكة حتى رأسَها وحتى رأسُها وحتى رأسِها) . يريدون بذلك أنك يجوز لك أن تقول هذه وتيك وتلك . ولكلٍّ إعرابٌ فاختر لنفسك مايحلو . وما هكذا المسألة . المسألة أدق من هذا . المسألة مسألة معنى ، وتعبير عنه . قل لي إلام تقصد ؟ أقل لك ماذا يحسن أن تقول .

فـ (حتى) لها ضوابطُ ؛ والحركاتُ الثلاث لا تَعنيَ أن تستعملها كما يطيب لك . وإنما تعني أن لهـذا الحرف حظاً من التلون في الاستعمال ، قد لا يكون لسواه . فلْنسِرْ مع (حتى) خطوةً خطوةً لنرى كيف تتلوّن بتلوّن المعاني .

أولاً : (حتّى) حرف عطف . تقول : (أكلتُ السمكةَ حتى رأسَها) .

و (حتى) في هذا المثال حرف عطف ، يعطف الأسماء على الأسماء فقط .

وفي مثالنا ، عَطَفَت الرأسَ على السمكة . والمعنى : أكلتُ السمكةَ وأكلتُ رأسَها أيضاً . قال الشاعر :

أَلْقَى الصحيفــةَ كي يُخَفِّفَ رَحْلَهُ ... والــزّادَ حتــى نَعْــلَهُ أَلْــقــاهــا

يريد : أنه ألقى الصحيفة ، وألقى نعله أيضاً . وتلاحظ أن (حتى) في البيت قد عطفَت اسماً على اسم .

---

١ - رأيت اتصال الحلقتين هنا آجدى.

ثانياً : حتّى ابتـدائية؛ تقـول : (أكلتُ السمكـةَ حتى رأسُهـا) . والمعنى والتقدير : أكلتُ السمكةَ حتى رأسُها مأكولٌ .

وقد يسألونك : ولِمَ هذا التقدير ؟ وفي الجواب يقال : السبب هو أن (حتى) الابتدائية إنما تدخل على الجُمَل ؛ ولذلك نقدّر : (رأسُها مأكولٌ) . فتتكوّن بعد (حتى) جملةٌ مِن مبتدأٍ مذكور وخبرٍ محذوف . يقول الشاعر ، يصف كثرة القتلى في المعركة ، وأن دماءَها صبغت نهر دِجلة ، حتى غدا ماءُ دِجلة أَشْكَلَ، أي أَحْمَرَ :

فمـا زالتِ القتلى تَمُـجُّ دِمـاءَهـا بِدِجـلةَ حتّى ماءُ دِجـلةَ أَشْـكَـلُ

ماءُ : مبتدأ ؛ دجلةَ : مضاف إليه ؛ أشكلُ : خبر

فهذه جملةٌ اسميّة دخلَت عليها (حتى) الابتدائية .

وإليكَ مثالاً دخلت فيه (حتى) الابتدائية على جملة فعلُها ماضٍ . قال المتنبي :

وضـاقتِ الأرضُ حتى كان هارِبُهُمْ إذا رأى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلا

وإليكَ مثالاً أخيراً دخلت فيه (حتى) الابتدائية على جملةٍ فعلُها مضارعٌ . قال الشاعر :

يُغْشَـوْنَ حتّى ماتَـهِـرُّ كِلابُـهُـمْ لا يَسْـألـونَ عنِ السَّـوادِ المُقْبِـلِ

يريد : هذه عادةٌ لهم مُعْتادة ؛ وقد دخلت (حتى) الابتدائية على جملةٍ فِعلُها مضارعٌ هو (تَهِرُّ) .

حتى الابتدائيةُ حرفُ ابتداءٍ ، تُبْتَدَأُ بعدَه الجُمَل .

ثالثاً : حتّى الجارّة، تقول : (أكلتُ السمكةَ حتى رأسِها) . فيكون المعنى (أكلتُ السمكةَ حتّى انتهيتُ إلى رأسِها) . فهي بمنزلة حرف الجرّ (إلى) ، وإنْ خالَفَتْه في أمور . يقول الشاعر :

ومـا هَجَـرْتُـكِ حتى قُلْتِ مُعْلِنَـةً لا نـاقَـةٌ لِيَ في هذا ولا جَمَـلُ

فتلاحظ أن (حتى) في البيت ، دخلت على فعلٍ ماضٍ ، والمعنى : (وما

هجرتُك إلى أنْ قُلْتِ) . ولكنها تدخل على المضارع أيضاً . قال تعالى : ﴿ قالوا لن نَبْرَحَ عليه عاكِفِينَ حتّى يَرْجِعَ إلينا موسى ﴾[٢] والمعنى : (إلى أن يرجع إلينا موسى) ؛ وهي هنا حرف جرٍّ ، جَرّت المصدرَ المؤوّلَ مِن (أن) و (يرجع) .

وبعـدُ ، فهذه هي الأحوال الكبرى لـ (حتى) ؛ فهي عاطفة ، وابتدائية ، وجارّة . ولكلٍّ تفاريعُ وشروطٌ . ولو لم يكن ذلك كذلك ، لما قال الفرّاء كما يُزْعَم : أموتُ وفي نفسي شيءٌ مِن (حتى) .

غير أن تلك التفـاريع والشـروط إنما تُهِمُّ المتخصِّصين . فما قدمتُه هَيْكَلُ البحث ؛ ولو شاء نَحْوِيٌّ أن يُضيف ، لَما أضافَ غيرَ أن يكسُوَ هذا الهيكل ؛ وإليكَ نموذجاً من هذه الكُسْوَة ، أُوردُه لأن رسالةً جاءتني من الأب المحترم إلياس داوود ، كاهنِ كنيسة الروم الأرثوذكس في الزبداني ، يسألني فيها أن أبحث في عبارةٍ من الكتابِ المقدس (الإنجيل) أَشْكَلَ أمرُها ، وكانت مَوضِعَ أخذٍ وردّ . وسبب ذلك (حتى) . ولم يكن إلى أن أجيب الأبَ المحترم سبيلٌ إلا بأن أُمَهِّدَ بما مهدت به آنفاً ، ثمّ أقف عند (حتى) الجارّة فأقول :

(حتّى) هذه ، التي ينتصب بعـدهـا الفعـلُ المضـارعُ بأنْ مضمـرة ، هي مايُهِمُّني في هذه الحلقة . ولذلك أبسُطُ القولَ فيها ؛ وأَبدأ ذلك بأن أَذكُر أنّ لها معنيَيْن :

المعنى الأول : (إلى أَنْ) ، وتَرى هذا المعنى جليّاً واضحاً في قوله تعالى : ﴿ قالوا لن نَبْرَحَ عليه عاكِفِينَ حتّى يَرجِعَ إلينا موسى ﴾[٢] . أي : إلى أن يرجع إلينا موسى .

المعنى الثـاني : (كي) ، وتَرى هذا المعنى جلياً واضحـاً في قولهم : (آصْدُقْ حتّى تُحْتَرَمَ) . أي : آصْدُقْ كي تُحْتَرَمَ .

وتبقى بعد هذا ملاحظة ، هي أن الأساتذة يُكْثِرون مِن تَرديد القول لطلابهم : الفعلُ المضارعُ ينتصِبُ بـ (أن مضمرة بعد حتى)، وقولُهم هذا صحيح ؛

٢ ـ طـــه / ٩١

ولكنهم يُغْفِلون في كثير من الأحيان شرطَ هذا النصب ، وهو شرطٌ لا بدّ مِن تحقّقه لِنَصْبِ المضارع بعد (حتى) ؛ فإذا لم يتحقق لم ينتصب المضارع .

هذا الشرط هو أن يكون زمنُ الفعلِ المضارعِ للمستقبلِ بالنسبة إلى ماقَبْلَه ؛ فإذا لم يكن زمنُ المضارعِ للمستقبل بالنسبة إلى ماقبلَه لم ينتصب .

أعيد : لا بدّ للمضارع كي ينتصبَ بأن مضمرة بعد حتى ، مِن أن يكونَ زمنُه للمستقبلِ بالنسبة إلى ماقَبْلَه . وإليك البيان : تقول :

(أُدرسُ حتى أنجَح) أنجَح : مضارعٌ ، زَمَنُهُ مُسْتَقْبلٌ بالنسبةِ إلى (أَدْرُسُ) فهذا الفعُل يَنْتَصِبُ إذاً بعد حتّى لأنهّ دَلَّ على مُسْتَقْبَل بالنِسبة الى ماقَبْلَه .

ولكنك تقول : (مَرِضَ خالدٌ حتى لا أَطْمَعُ أَنْ يُشْفى) .

(مرض خالد) : ماض ؛ (لا أطمَعُ) : زمنه الحال ، الآن ، وليس الاستقبال .

أي : مرِض خالد فأنا لا أطمعُ الآن في شفائه ؛ ولذلك لا ينتصب هذا الفعلُ هنا . مسألة المستقبل لا مفرَّ من ملاحظتها لنصب الفعل المضارع بعد (حتى) . فإذا لم يكن مستقبلٌ ، لم يكن نصبٌ . هذا مهمّ .

إذا ثَبت هذا في الذهن ، أمكن أن نعرِّجَ على ماكتبه الأبُ المحترم . فقد قال مامعناه : لقد وردتْ (حتّى) في الطبعة الإنجيلية للكتابِ المقدس (الإنجيل) وبعدَها فعلٌ مضارع مرفوع ، فهل هذا غلط ؟ وحدَّدَ لي مكانَ النَصّ فوقفتُ عليه .

النص يدور حول التعارُضِ بين الروح والجسد ، فيقول :

« أُسلُكُوا بِحَسَبِ الرُّوحِ ولا تَقْضُوا شَهوةَ الجَسَد »

طيِّب ! لماذا تأمرنا بذلك ؟ قال : **« هذان يقاوِمُ أحدُهُما الآخرَ حتّى تَفْعَلون مالا تُرِيدون »**

قال : (حتى تفعلون) ، وهنا مضارع لم ينتصب بعد (حتّى) . فهل هذا غلط ؟هذا ما سأل عنه الأب المحترم . فلْننظرْ في المسألة :

(حتّى) التي ينتصب المضارع بعدَها ؛ تدل على الانتهاء ، أو التعليل ، ثم لا بدّ بعدها مِن فعل مضارع للمستقبل .

فأوّلاً : هل تدل (حتّى) هنا على الانتهاء ؟ كلّا . لماذا ؟ لأنها لو دلّتْ على الانتهاء لكان المعنى : الروحُ والجسدُ يتنازعانِ ويتقاوَمانِ إلى أن تفعلوا . وهذا غيرُ مقصود ؛ فالروحُ والجسدُ أبداً في تنازع مستمِرٍّ فَعَلُوا أو لم يفعلوا . فمعنى الانتهاء إذاً هنا غير وارد .

و ثانياً : هل تدل (حتّى) هنا على تعليل ؟ كلّا . لماذا ؟ لأنها لو دلت على التعليل لكان المعنى : الروحُ والجسدُ يتنازعان ويتقاومان لتفعلوا ؛ وهذا غير مقصود ؛ فالروحُ والجسدُ في تنازع مستمرٍ ، وليس فِعْلُ المخاطَبين ناشئاً بسبب التنازع . فهذان يتنازعانِ والمخاطَبون يفعلون .

ثالثاً : هل الفعل بعدَ (حتى) يدل على المستقبل بالنسبة إلى تنازع الروح والجسد ؟ كلّا . لماذا ؟ لأن المعنى : الروحُ والجسدُ يتنازعان ، وأنتم تفعلون . الروح والجسد يتنازعان ، فتفعلون .

أي : هذا دَيْدَنٌ ، هذه مَسيرةٌ أبديّةٌ مستمِرّةٌ . الروحُ ضِدُّ الجَسد ، والجَسدُ ضِدُّ الروح ، حتى تفعلون . أي : فتفعلون .

(حتّى) هنا ابتدائية ، وجملة (تفعلون) استئنافيّة . والنصُّ صحيحٌ سليمٌ ، لا عيبَ فيه ؛ وفي الترجمة دِقّةٌ وإصابَة .

- ٧ -

لهفـــي عليـــك

اللَّهْفُ ، واللَّهَفُ أيضـاً : الأَسى على شيءٍ يفـوتـك بعدما تُشرِف عليه ، وقالوا : هو الأسى والحزن والغيظ . وأما المَلْهوف : فهو المظلومُ ينادي ويستغيث . وفي الحديث : « تُعِينُ ذا الحاجة المَلْهوف » .

وأمّا الفِعل ـ كما في الصحاح ـ فهو : لَهِفَ بالكسر ـ يَلْهَفُ لَهَفاً ، أي حزن وتحسر . قال الجوهري : (وكذلك التَّلَهُّفُ على الشيء) . يعني كما تقول : لَهِفَ يَلْهَف تقول : تَلَهَّفَ يَتَلَهَّفُ . ومن أمثالهم : (إلى أُمِهِ يَلْهَف اللَّهْفان) . يقولون ذلك لمن يُضْطَرّ ، فيستغيث بأهل ثقته . وفي الحديث : (اتَّقُوا دعوةَ اللَّهفان) ، وهو المكروب . ومنه : (كان يحِبّ إغاثةَ اللَّهفان) .

ومن خصائص هذه المادة أنك تقول : (يالهفي على كذا) فيفهم العربي إذ يسمع قولك هذا أنك تتحسر . وليس الأمر كذلك إذا قلتَ : (ياشُربي من الكأس أو يارؤيتي خالداً أو ياركضي في الملعب) الخ . . . يشهد لما أقول أنك تحذِف أداة النداء (يا) ، وحذفُها جائز في العربية ، فيظل العربي يفهم عنك أنك تتحسر . تقـول مثلاً : (لهفي على فلان) فيفهم العربي عنك أنك تريد : (يالهفي على فلان) . ولكنـك تقول : (حزُني على خالد) فلا يفهم مثل ذلك ، بل يفهم أن حزنَك ليس على فلان أو فلان مثلاً ، بل هو على خالد .

كان عبدُ الرحمن بنُ عتّاب ، وهو أحدُ وجوه قريش ، قد شهد وقعة الجَمل مع عائشة (رض) . فقتله مالكُ الأشتر ، فمرّ به عليٌّ كرم الله وجهه قتيلاً فقال : (لهفي عليكَ يَعْسُوبَ[1] قُريش ، جَدَعْتَ أنفي وشفيْتَ نفسي) .

والعربي يُدرِك من قول عليّ عليه السلام أنه يتحسّر على ابنِ عتّاب، مع أنّ أداة النداء محذوفة قال : (لهفي عليك) . أما إيرادُ (يا) فكثيرٌ جداً قال الشاعر :

---

١ ـ ملكة النحل

يالَـهـفَ نفسيَ إن كانت أُمـورُكُمُ شتّىٰ وأُحْكِمَ أمـرُ الناسِ فاجْتَمَعَا

وقال عَمْرُو بنُ قَمِيئةَ ـ وهو شاعرٌ جاهلي ـ متحسّراً على أيام شبابه :

يالَـهفَ نفسيْ على الشبـابِ ولَمْ أفْـقِـدْ به إذ فَقَـدْتُـهُ أَمَـمَـا[2]

وقد يتحسرون بهذه الكلمة فيستعملون الهمزةَ ، والهمزةُ تكون حرفَ نِداء ، ولكنهـا لا تُحـذَف . قال جعفـرُ بنُ عُلْبَةَ الحارِثِيُّ يذكر أساه وحزنَه وتحسُّرَه على ماأصـاب قومَه في وقعةٍ ناجَزُوا فيها أعداءَهم في موضع يسمّى (قُرَّى سَحْبَل) . وكانت النساءُ معهم ـ وقد سمّاهنّ الوَلايا ـ فاضْطُرّ هو وعصبتُه إلى مزيدٍ من الصبر في كفاح العدوّ ، حِرصاً عليهنّ . وزاد الأمرَ سوءاً أنّ عدوَّهم كان عدواً باسِلاً . فاجتمع بذلك عليه وعلى عُصبته الحِرصُ على النساء والاشتغالُ بهن ، ومكافحةُ عدوٍّ ذي بأسٍ شديد . قال :

أَلَهفىٰ بِقُرَّىٰ سَحْبَلٍ حين أَجْلَبَتْ[3] علينـا الـوَلايا والعـدوُّ المُبـاسِـلُ

فقـالـوا لَنسا ثِنْتـانِ لا بُدَّ منهمـا صُدورُ رِمـاحٍ أُشْـرِعَتْ أو سَلاسِلُ

فقُـلْنـا لهـمْ تِلكُـمْ إذاً بَعـدَ كَرَّةٍ تُغـادِرُ صَرْعىٰ نَوْؤهـا[4] مُتَخَـاذِلُ

لَهمْ صَدرُ سَيفِيْ يومَ بَطحاءِ سَحْبَلٍ ولِي مِنـهُ ماضُمَّتْ عليهِ الأنـامِـلُ

قال المرزوقي في شرح ديوان الحماسة : التلهّفُ يكون على الفائِت ، بعد الإشراف عليه ؛ ثم أورد ثلاثةَ أوجهٍ في تخريج قول الشاعر : (ألهفىٰ) ، أحدُها أَلْهفِي ، والثاني أَلهفِ ، والثالث أَلهفُ . ولكنها جميعاً نِداء .

وبعدُ ، فقد كانوا يقولون متحسِّرين : (يالَهْفاه) و (يالَهْفَ أُمَّياه) ، فيقال : لَهَّفَ فلانٌ نفسَه وأُمَّه . قال الشاعر :

فَعَضَّ بإبْهـامِ الـيَمـينِ نَدامَـةً ولَـهَّـفَ سِرّاً أُمَّـهُ وهـي لاهِـفُ

من جميع ماتقدم نخلُص إلى أن هذه الكلمة تُستعمل في التحسر ، بأسلوب النداء .

---

٢ ـ القريب الهيّن ، يريد : لم أفقد إذ فقدته شيئاً قليلا

٣ ـ جمعت وألّبت .

٤ ـ نهوضها

مِن حلب جاءتني رسالةٌ تقول : سألت عن إعراب (لهفي) مِن قول الشاعر :

« لَهْفِـــي علـى القُــدْسِ انْطَــوَتْ أَعْـــلامُهُ »

فأُجِبْتُ ثلاثةَ أجوبةٍ مختلفة ، فما وجهُ الصواب ؟

١ ـ (قيل لي هي مفعول مطلق) ؛ ونحن نقول للأخ صاحب الرسالة هذا غلطٌ مطلَق ، لا سبيل معه إلى صواب أبداً ، ولذلك نَطَّرِحُه .

٢ ـ (قيل لي هي مبتدأ) ؛ ونقول لصاحب الرسالة : (لهفي) هنا ليست مبتدأً ، لأنها لو كانت مبتدأً لكان التركيبُ (لهفي كائنٌ على القدس) وهذا كلامٌ خَبَرِيٌّ غير مقصود . صحيحٌ أنه كلام تامّ ، ولكنه كلام بارِد ، لا حياةَ فيه ، إنه إعطاءُ معلوماتٍ كما يقال ، وليس شِعراً مُوحِياً . أي كأنك سألتَ الشاعر : على أيّ شيءٍ لهفُك ؟ فأجابك : لهفي كائن على القدس . وأقول لك : ليس هذا أسلوبَ العرب في استعمال هذه الكلمة .

٣ ـ يبقى أن أقـول : إن من أسـاليب العـرب أن يتحسـروا بهذه الكلمة ، فيقـولـوا : (لهفي عليك) ، ويَعْنـون (يالهفي عليك) ، ثم يحذفون (يا) أداةَ النداء ، وحَذْفُها جائزٌ في العربية . وقد أوردتُ لك في صدر هذا الحديث أن علياً كرم الله وجهه مرّ بعبدِ الرحمنِ بن عتّاب قتيلاً فقال : (لهفي عليك يعسوب قريش) والأصلُ : (يالهفي عليك) ثم حَذَفَ أداة النداء .

(فلهفي) إذاً ، منـادى بأداة نداءٍ محذوفة هي (يا) ، والياء في (لهفي) مضافٌ إليه .

- ٨ -

لهفي عليك / ٢

(يا) عند النحاة ، حرفٌ لنداء القريب والبعيد ، وهو وحدَه الذي يجوز حذفُه ، إذا نادَيْتَ . فإذا رأيتَ منادىً ليس قبلَه حرفُ نداءٍ ، فاعلمْ أن حرف النداء المحذوف هو (يا) حصراً . إذْ لا يُحذف غيرُه من أدوات النداء . قال عبد الله بنُ عبدِ الأعلىٰ القُرشيّ :

وكُنتَ إذ كُنتَ إلٰهي وَحْدَكَا لم يَكُ شيءٌ ياإلٰهي قَبْلَكَا

بالأمس أدرتُ إحدى حلقات هذا البرنامج ، حولَ قولِ الشاعر : (لَهْفِي على القُدس) ، وقلتُ يومذاك : (كلمةُ لهفي منادى بأداة نداءٍ محذوفة هي يا) .

وكان الذي ساق إلى تلك الحلقة رسالةً جاءتني من أخ من حلب يقول :

١ - أَيَصِحُّ إعرابُ (لهفي) هذه مفعولاً مطلقاً ؟ فقلتُ : إن إعرابها مفعولاً مطلقاً هو غلطٌ مطلَق .

٢ - أيصح إعرابُ (لهفي) هذه مبتدأً ؟ فقلت مانصُّه الحرفيّ : لو كانت مبتدأً لكان التركيبُ (لهفي كائنٌ على القدس) ، وهذا كلام خَبَرِيٌّ غير مقصود ؛ صحيحٌ أنه كلامٌ تامّ ولكنه كلام لا حياة فيه . إنه إعطاءُ معلوماتٍ كما يقال . وليس شعراً موحياً .

هذا ماقلتُه حرفياً . والسادةُ المشاهدون يلاحظون أنني لم أقل : إن من الغلط إعرابَ (لهفي) مبتدأً . بل قلتُ : (هذا كلامٌ لا حياةَ فيه ، وليس شعراً موحياً) . فمن وجهة الصناعة النحوية ، لا تخطىء إذا قلتَ : (لهفي على القدس) مبتدأ وخبر . ولكنّ هذا كلامُ نَحْويّ لا ينظر إلى مايقصِد إليه الشاعر . وصحيحٌ أنني أَبَيْتُه من وِجهة الإيحاء الشعري ، ولكنني لم أقل : إنه غلط ؛ نعم لم أقل إنه غلط .

ثم تمضي أيام ، فتأتيني رسالةٌ حاميةٌ من أخٍ مدرّس في حلب ، يقول فيها :

- لقد جافاكَ الصوابُ وعَثَرْتَ . - لماذا أخي ؟ !

قال : إنك قدّرتَ الكلامَ (يالهفي) ، وهذا يعني أنك جعلته نداءَ نُدبة .

عجيبٌ واللهِ هذا الكلام . أئذا قلتُ : إن هذا منادىً محذوفُ الأداةِ ، كان معنى قولي أنني جعلتُه نداء ندبة ؟!

قال : جعلتَه نِداءَ نُدبة ، ولا يجوز في النُّدبة حذفُ الأداة .

صحيح : في الندبة لا يجوز حذفُ الأداة ، وهذا نعرفه كما تعرفه أنتَ.ولكن مامعنى أن تضَع في فَمِنا كلاماً لم نَقُلْه ، ثم تعلِّمَنا مايعرفه صِغارُ الصبيان ؟ ! .

كلام الأستاذ معناه : إذا أَعرَبْنا (لهفي على كذا) ، فلا مفرَّ من أن نُعربه مبتدأً وخبراً . وما قال هذا أحدٌ قطّ . وسنورد للأستاذ كلمةَ (لهفي) في تراكيبِ نداءٍ محذوفةَ الأداةِ مرةً ، مذكورةَ الأداةِ مرةً . لعل فؤادَه يطمئن إلى صحة ماذهبنا إليه ، وليُضِيفَ إلى ماقرأه أشياءَ لعلّه لم يقرأْها ، ولا بُدَّ منها حين تُقْرَعُ الحُجّة بالحُجّة .

فإليكَ ماقال الفصحاءُ والبلغاءُ والعلماءُ : قال أبو نُوَاس :

ذَهَبَتْ جِدَّتِي بطاعةِ نَفْسِي وتَذَكَّرْتُ طاعةَ اللهِ نِضْوَا
لهفَ نفسي على ليالٍ وأيّامٍ تَمَلَّيْتُهُنَّ لِعْباً ولَهْوَا

أبو نواسٍ قال : (لهفَ نفسي) . فهذا منادىً محذوفُ الأداة . ولم يقل : (لهفُ نفسي) ؛ فمَن المخطِىءُ فيكما ؟ أبو نواس ؟!

وعَمْرو بنُ معدِ يكرب وهو جاهليٌّ أدرَكَ الإسلامَ وأسلم يقول :

يا أَسَفَا عل خُزَزِ بنِ عَمْرٍو ويانَدَمَا عليه ، ولَهفَ نفسِي

فـ (يا أسفَا ، ويانِدمَا ، ولهفَ نفسي) تراكيبُ نداء . يدلّك على ذلك حذفُ حرفِ النداءِ قبلَ (لهفَ نفسي) ، ولا يُحذفُ إلا حرفُ النداء (يا) . والألِفانِ في (يا أسفا ويا ندما) مقلوبان عن ياءِ الإضافة ، والأصلُ (يا أسفي ويا ندمي ويا لهف نفسي) . ومِن ذلك قولُه تعالى : ﴿ وقال يا أسفَا على يوسُف ﴾ فـ (أسفَا) في الآية منادىً ، وإن جوّزَ بعضُ العلماء أن يكون مندوباً . فمَنِ المخطِىءُ فيكما ؟ عَمرو بنُ معد يكرب ؟!

وجعفرُ بنُ علبةَ الحارثِيّ وهو شاعر جاهلي ، يذكر وقعةً جرت في موضعٍ

يُسمىٰ (قُرّىٰ سَحْبَل) فيقول :

أَلْهفىٰ بِقُـرّىٰ سَحْبَلٍ حين أَجْلَبَتْ   علَيْنـا الـوَلايا والعـدوُّ المُبـاسِـلُ

والهمزةُ في قوله (ألفهىٰ) حرفُ نداءٍ للقريب ، ما في ذلك شكّ ، ولا فيه ريب . و(لَهفىٰ) منادىً ، وليس مبتدأً ، وليس مندوباً ، لأن الهمزة لا يُنْدَبُ بها . فمَنِ المخطِىءُ فيكما ؟ جعفرُ بن عُلبة ؟!

ولقد اعترضتَ علينا ، فهل تعترض أيضاً على المرزوقيّ في شرح الحماسة وهو يُعرب (ألهفىٰ) فيقول مانصُّه الحرفيّ : وقولُه : (ألهفىٰ) يجوز أن يكون منادىً مفرداً ، ويجوز أن يكون مضافاً . فمن المخطِىءُ فيكما ؟ آلمرزوقيّ ؟!

فإذا كان هذا كلّه لا يُرضي الأستاذَ ، ويأبىٰ إلا أن يَرى كلمةَ (اللَّهْف) مسبوقةً بـ (يا) حَصْراً ، فإليكَ قولَ ابن زَيّابَة :

يالَهفَ زيّابَةَ لِلحارثِ الصّابِحِ فالغانِمِ فالآيِبِ

ثم إليكَ قولَ هند أمّ معاوية :

يــارُبَّ قــائِـلَةٍ غَــداً يــالَـهـفَ أُمِّ مُعــاوِيَهْ

ولقـد نقـل البغـداديُّ في الخِـزانـة عن الجـوهريّ مانصُّه الحرفيّ : « قال الجوهري : (يالهفَ) كلمةٌ يُتَحَسَّرُ بها على مافات ، و(لهفَ) منادىً مضاف » . وهذا نصٌّ قاطعٌ لا بد من أن يقبله الأستاذُ المعترِض ، وكلُّ معترض . فلا مجالَ هنا للمُماحكَة . فإذا كان كلُّ هذا لا يكفي ، فما الذي يكفي ؟!

يقال : (يالهفَ نفسي) ، وهذا نداء . وتُحذفُ (يا) وحذفُها جائز ، فيظلُّ الكلامُ نداءً ، فيقال : (لهفَ نفسي) وقد حذفها الشاعر المحدَثُ فقال : (لهفي على القدس) . فإذا أبىٰ الأستاذُ ماقلناه ، وما قدّمْنا من شواهدَ ، ألزَمْناه مايلي :

١ ـ أن تقـول : إن كلمـة (لهفي) ومايماثلها لا تُنادىٰ . ويمنعُك من هذا شواهدُ كثيرةٌ ، منها في كتاب الله : (ياأسفا على يوسف) .

٢ ـ أن تقول : إن المضافَ لا يُنادى . ويمنعُك من ذلك جميعُ كتُب النحو ، لا أستثني منها كتاباً أبداً .

٣ ـ أن تقول : إن (يا) لاتحذَف قبل المضاف .

وما أظنك تجرؤ أن تقول ذلك ، فللغة مراجعُ ، وللناس عقول .

ومع كل مابيّنتُه لك أقول : لا يمتنع أن تُعرب (لهفي على القدس) مبتدأً وخبراً . لم أمنعْه من قبل ، ولا أمنعُه اليوم . ولكنّني أعودُ مرةً أخرى إلى القول : إن إعرابَها مبتدأً وخبراً ، هو إعرابُ نَحْويٍّ لا يفرق بين صِناعة النحو وحرارةِ الشِعر .

وأخيراً أقول للأخ الأستاذ : لقد رأيتُك تقول لي : (أَجِبْ بِاسْمِ الرُّجولة) !! فأجبتُك بِاسْمِ العِلم . فالعِلمُ ليس فيه حَمِيّةٌ كحميّةِ الجاهلية ، والتَّعالُمُ ليس بشيء ، غُثاءٌ وزَبَد . ثم لو رأيتُ في رسالتك مُماحِكاً لَما أجبتُك ، لأنني أمقُتُ المماحكة . وإنما رأيتُ فيها مُدَرِّساً أدلىٰ برأيٍ لطلاّبه ، وشَقٌّ عليه أن يرجِعَ عمّا قرّره لهم ، ولذلك أجبتُك .

وبعد فلا بد من أن أقول : إن احترامي الشديدَ للإخوة المدرّسين ، يمنعني من أن أَنْصُرَ تلميذاً على أستاذه . ولو كنتُ أعلَمُ أن المسألة المطروحة قد كانت بين أستاذٍ وتلميذِه لأَعْرَضتُ عن البحث فيها إعراضاً . .

ويا طالما سُئِلت فلم أُجِب .

نعم يا طالما سئلت فلم أجب .

و (يا) هذه للتنبيه .

- ٩ -

البَتَّـــة

(بَتَّ) في اللغة ، معناه (قَطَع) ، تقول : (بتَّ فلان الحبْلَ ، يَبُتّهُ ، ويَبِتُّهُ بَتّاً) إذا قطعه قطعاً مستأصِلاً .

قال امرؤ القيس ، في وَصْفِه العُقابَ ، وقد انصبّت من السماء على الذئب :

كا لدَّلْوِ بُتَّتْ عُراها وهي مُثْقَلَةٌ

(بتت عراها) أي قُطِعَت . وقد شبّه هُوِيَّ العُقابِ ـ كما رأيتَ ـ بالدلو الملأىٰ إذا انقطع حبلُها .

ولفِعْل (بَتَّ) مطاوِعٌ هو (انْبَتَّ) . يقال للرجل إذا عَطِبَتْ راحلَتُه : (قد انبتّ)، مِن البَتّ : القطْع . قال الليث : يقال : انقطع فلان عن فلان فانبتّ حبلُه عنه ، أي : انقطع وِصالُه وانقبض ، وأنشد :

فَحَلَّ في جُشَمٍ وآنْبَتَّ مُنْقَبِضاً   بحَبْلِهِ من ذُرا الغُرِّ الغَطَاريفِ

وفي الحديث : « إنّ المُنْبَتَّ لا أرْضاً قَطَعَ ولا ظَهراً أبقىٰ » . والمُنْبَتُّ هنا ، هو الذي أتعَب دابّته حتى عَطِبَت فبقِيَ منقَطَعاً به .

ويطلقون كلمة (الباتّ) على البعير الذي لا يتحرك من الإعياء فيموت .

ويقولون : « سَكرانُ باتٌّ » أي : منقطِع عن العمل . « وسكرانُ مايَبُتُّ » أي : مايقطَع أمْراً » .

ولا بدّ وقد ذكرتُ لك الفِعلَ ، من أن أذكر لك مصادِرَه ، فَأَحدُها هو مِحورُ هذه الحلقة . تقول : (بَتَّ الشيءَ يَبُتُّه بَتّاً ، وبتَّةً ، وبَتَاتاً) ، فترى له مصادرَ ثلاثةً .

منذ حين جاءتني رسالة من (حرستا ـ دمشق) ، يقول مُرْسلها مامعناه : أنقول : (لا أفعل ذلك آلبَتَّةَ)، أم نقول : (لا أفعل ذلك ألبَتَّةَ)؟

ويعني بذلك : آلهمزة همزةُ وصْلٍ في هذه الكلمة أم همزةٌ قطْع ؟

وفي الجواب أقول : في هذه الكلمة مسائلُ لا مسألةٌ ، وإليكَها واحدةً واحدةً .

أولاً : أهمزتها همزة وصل أم همزة قطْع ؟

في (الكتاب) ، عالج سيبويهِ هذه الكلمةَ في باب « مايَنْتَصِبُ من المصادر توكيداً لما قَبْلَه » فقال : « ومِن ذلك قولُك : قد قَعَد آلبَتَّةَ » . فهي عنده إذاً همزةُ وصْل ، إذ قال : « قد قعد آلبَتَّةَ » ولم يقل : « قد قعد ألبَتَّةَ » .

ولكنها عند صاحب القاموس المحيط همزةُ قطع . قال : « ولا أفعلُه ألبَتَّةَ ، لِكُلّ أمر لا رجعةَ فيه» . فجَعَل همزةَ الكلمة همزةَ قطْع كما رأيتَ .

فبين الأئمة إذاً اختلافٌ في هذا . ولقد نظرتُ في كتابَي الجاحظِ (الحيوان) و(البيان والتبيين) فرأيتُه في الأوّل يقول : (لم يَنبَحْ أَلْبَتّةَ) ، فيجعلُ همزتها همزةَ قطع . وفي الثاني يقول : (وَلَجَهِلُوا هذا البابَ آلبَتّةَ) فيجعل همزتها همزة وصْل .

هذا ، ولا يزال العلماء ، حتى يوم ِ الناس هذا ، فريقَيْن : فعالمٌ يرجِّح (آلبَتّةَ) ، وآخرُ يرجّح (ألبَتّةَ) . وعلى ذلك ، يصح لك أن تستعمل الوجهين ، فاختر لنفسك مايحلو .

ثانياً : أيجوز أن نحذف الألف واللام من كلمة (البَتّةَ) فنقولَ مثلاً : لا أفعله بَتّةً ؟ وفي الجواب أقول :

أما سيبويهِ فيُوجِب اقترانَها بالألف واللام . قال : « ومن ذلك قولك : قد قعد البتّةَ ، ولا يُستعمَل إلا مَعْرِفةً بالألف واللام » .

وأما الجوهريّ فيُجيز إثباتَها وحذفَها ، قال : « ويقال : لا أفعله بتّةً ، ولا أفعله آلبتّةَ ، لكلِّ أمرٍ لا رجعة فيه » .

ومثل ذلك مايقول صاحب القاموس المحيط قال : « ولا أفعله أَلْبَتَّةَ وبَتَّةً ، لكل أمر لا رجعة فيه » .

وأُورد لك أخيراً رأي ابن بَرِّي في المسألة ، لما فيه من فائدة قال : « مذهب سيبويه وأصحابه أن البَتّة لا تكون إلا معرفة » ـ يعني بالألف واللام ـ ثم قال : « وإنما أجاز تنكيرَه الفَرّاءُ وحدَه » . وتستشعر في قوله : « إنما أجاز تنكيرَه الفراء وحده » غمزاً على الفراء وتأييداً لسيبويه . ومع ذلك فكلا الرجلين إمام يُقتدىٰ به . ولذلك ، يجوز لك أن تقول : « لا أفعلُه البَتّةَ » و « لا أفعلُه بتّةً » .

ثالثاً : كان أستاذ صديق من أساتيذ كلية العلوم في جامعة دمشق سألني : أيجوز أن تُستعمل كلمةُ (البَتَّةَ) في الإثبات ، كما تستعمل في النفي ؟

وفي الجواب أقول : نعم ، إنها تستعمل في النفي والإثبات ، وإن كان الكتّاب في حدود مارأيتُ ، يستعملونها اليومَ في النفي وحده . وإليك على ذلك أدلةً يُستشهد بها أو يُستأنس : جاء في النهاية لابن الأثير : « ومنه الحديث : أدخلَه اللهُ الجنةَ البَتَّةَ » . فهنا إثبات .

وقال الخليل بن أحمد : « الأمورُ على ثلاثة أَنْحاء[1] ، شيءٌ يكون آلبَتَّةَ » . وهذا إثبات . « وشيءٌ لا يكون آلبَتَّةَ » ، وهذا نفي . « وشيءٌ قد يكون وقد لا يكون ». ثم ضَرَبَ لذلك أمثلةً فقال : « فأما ما لا يكون : فما مضى من الدهر لا يرجِع ، وأما مايكون آلبتة » ، وهذا إثبات ، « فالقيامةُ ، تكون لا مَحالة . وأما شيءٌ قد يكون وقد لا يكون فمِثْلُ : قد يَمْرض وقد يَصِحّ » .

وإليك دليلاً ثالثاً : قال سيبويه : « وقالوا قد قَعَدَ آلبَتَّةَ » فهذا إثبات أيضاً .

وإليك أخيراً ماجاء في البيان والتبيين . ذكر الجاحظ في هذا الكتاب ، فضْلَ الإشارة في بيان المعنى ، فأَورد قولَ الشاعر :

أَشارَتْ بطَرفِ العَيْن خِيْفَةَ أَهْلِها ... إشـارَةَ مَذعـورٍ ولـم تَتَكَـلَّمِ
فأيقنتُ أنّ الطَرفَ قد قال مرحباً ... وأهـلاً وسهـلاً بالحبيب المُتَيَّمِ

ثمّ قال : « ولولا الإشارةُ لم يتفاهم الناسُ معنى خاصِّ الخاصِّ، ولَجَهِلُوا هذا البابَ آلبَتَّةَ » . وهنا إثبات كذلك .

---

١ ـ يعني : على ثلاثة أوجه

رابعاً : إذا قلتَ : (لا أفعل ذلك البتةَ) ، فـ (البَتَّةَ) هنا مفعولٌ مطلق ، منصوبٌ بفعلٍ مقدَّر .

إلى هنا ينتهي البحث ؛ وأعود فأوجزه لك : كلمة (البَتَّةَ) :

١ - يجوز في همزتها الوصل والقطع . ولذلك يصح أن تقول : « لا أفعله آلبَتَّةَ ، ولا أفعله ألبَتَّةَ » ، فكلاهما جائز .

٢ - يجوز تعريفها وتنكيرها ، ولذلك يصح أن تقول : « لا أفعله بتةً ولا أفعله آلبَتَّةَ » ، فكلاهما جائز .

٣ - يجوز استعمالها مع النفي والإثبات ، ولذلك يصح أن تقول : « قد قعد البتة ، ولم يقعد البتة » . فكلاهما واردٌ وفصيح .

٤ - إذا قلتَ : (لا أفعل ذلك البتةَ) فالبتةَ مفعولٌ مطلق .

- ١٠ -

أيها السادة ، وأيتها السيدات !! مساء الخير

إذا كنتَ تتكلم في اللغة فتوقعْ من الاعتراض مايخطِر في ذهنك وما لا يخطر !!

(أيٌّ)، في اللغة اسمٌ يأتي في الكلام على وجوه :

ـ فقد يكون اسمَ شرط كقوله تعالى : ﴿ أيّاً ماتَدْعُوا فَلَهُ الأَسماءُ الحُسْنىٰ ﴾ (١)

أياً : اسمُ شرط ، (تدعوا) : فعل الشرط، مجزوم. إذ الأصلُ : (تدعون)، ثم جُزِم فقيل : (تَدْعوا).

ـ وقد يكون اسمَ استفهام ، ففي سورة النمل : ﴿ أَيُّكُمْ يَأتِيني بعَرْشِها ﴾ ؟ (٢)

ـ وقـد يكون اسماً يدل على الكَمال، تقول مثلاً: « خالدٌ رجلٌ أيُّ رجُل » فيكون المعنى « خالد رجل كاملٌ في صفات الرجال » .

ـ وقد تكون اسم موصول ، ففي سورة مريم : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ على الرحمن عِتِيّاً ﴾ (٣) والمعنى : ثمّ لننزعنّ من كلّ شيعةٍ الذي هُوَ أَشَدُّ .

ـ وقد تكون دالّةً على الإبهام والتعميم والإطلاق، كأن تقول مثلاً: « اِقرأْ أيَّ كتاب ». وقد أَقرَّ مجمعُ اللغة العربية في القاهرة هذا الاستعمال .

بعد هذا الذي قدّمتُه لك يبقى الاستعمال الذي أُفتَتِحُ به حلقاتِ هذا البرنامج في العادة فأقول : (أيها السيداتُ والسادةُ مساءُ الخير) فأما « مساءُ الخير » فقد بيّنّا يوماً بالدليل، لمَنْ خَطّأَ استعمالَنا لها، أنه المخطىء، وأن « مساءُ الخير » استعمالٌ صحيح .

وأما قولنا : « أيها السيداتُ والسادةُ » فكان حظُّه من النقد أكبرَ، إذ جاءني حولَ ذلك ثلاثُ رسائلَ . وما كنتُ أظن هذه التحية البريئة تكون موضِعَ نقدٍ ، فكانت !!

---

١ ـ الإسراء / ١١٠

٢ ـ النمـل / ٣٨

٣ ـ مـريم / ٦٦

أما الرسالة الأولى فَعِيْبَ فيها عَليَّ تقديمِيَ النساءَ على الرجال، إذ أقولُ أولاً : (أيها السيدات) ثم أقول: (والسادة). وقد رأى صاحبُ الرسالة أن في هذا خروجاً على مالا يجوز الخروج عليه ، ولنقلْ : على مايَحْرُمُ مخالَفَتُه . وأنا أُطَمئِن الأخ صاحب الرسالة الى أن العطف بالواو في لغة العرب ، لا يعني تقديمَ أَحَدِ المتعاطِفَين ؛ على هذا يُجمعُ علماء العربية . فإذا قلتَ : (جاء خالد وسعيد)، فهو كقولك: (جاء سعيد وخالد)؛ يصح أن يكون المعنى جاء هذا قبل ذاك، وجاء ذاك قبل هذا ، وجاءا معاً .

وأُضيفُ إلى ذلك، أن هذا العطف في اللغة ليس فيه معنى الحِطّةِ أو الرفعَة، فإذا سألتني البرهانَ قلتُ لك : إلَيْكَهُ مِن كتاب الله . قال تعالى : ﴿ لا يَسْتَوي أَصحابُ النارِ وأصحابُ الجنة ، أصحابُ الجنةِ هم الفائزون ﴾ [4] . فبدأ بأصحاب النار أولاً، ثم ثّنىٰ بأصحاب الجنة وجعلهم الفائزين ؛ ومع كل ذلك ، ومع افتراضنا جَدَلًا أن المعطوف عليه بالواو هو الأعلى ، فما الغَضاضةُ في أن نُكَرِّمَ أمهاتِنا وزوجاتِنا وأخواتِنا وبناتِنا حَناناً وتلطُّفاً ؟!

إن في قولي : (أيها السيدات) أولاً ، تكرمةً لهنّ، اصطلاحاً لا لُغةً . ولذلك أُصرّ على تقديمهن في الخطاب ، ومعي سلاحان أَدْفَع بهما ، سلاحٌ لغويّ كما رأيتَ ، وسلاحٌ إنسانيّ كما أُرى .

أما الرسالتان الأُخريان فترِيان أن الصواب (أيتها السيدات) لا (أيها السيدات) . غير أن في الرسالة الأولى إنكاراً وفي الثانية طَلَبَ معرفة .

يقول النحاة : إن الاسم المعرَّفَ بالألف واللام لا يُنادىٰ فلا يقال مثلاً (يا الرجل) . فإذا آضْطُرّوا إلى ندائه، جاؤوا بكلمةِ (أَيّ) وُصْلَةً إلى نداء الرجل . ولكنهم لم يقولوا : (ياأَيُّ الرجل) . لماذا ؟ لأن (أيّ) هذه ، اسمٌ يأتي بعده في الأصل مضافٌ إليه ، فلما حذفوا المضافَ إليه أدخلوا (ها) للتنبيه ، فقالوا : (يا

---

٤ ـ الحشر / ٢٠

أيُّها) ، ليكون ذلك دلالةً وتنبيهاً على أن في الكلام مضافاً إليه قد حُذِف ؛ والحصيلة أنهم يقولون : (يا أيُّها الرجل).

قال ابنُ يعيش إذا قلتَ : (يا أيُّها الرجل) تَعَذَّرَت الإضافة، ولذلك يُؤتى بـ (ها) التنبيه، بينَه وبين صِفتِه تعويضاً من الإضافة. وعلى ذلك قولُه تعالى : ﴿ يا أيُّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزل إليكَ من رَبِّك ﴾ [٥] .

طيب ! وإذا نادَينا المؤنث ؟ إذا نادَينا المؤنثَ جاز التأنيث وجاز التذكير . قال تعـالى : ﴿ يا أيَّتُها النَّفْسُ المطمئِنة ﴾ [٦] فأنّث، ولكنْ (يا أيُّها المرأةُ) جائِز ، بل جائزٌ أن تقول : يا أيُّها المرأتان، ويا أيها النساءُ أيضاً .

قال ابن يعيش : (أيّ) يجوز أن يَقَعَ للاثنين والجماعة على لَفْظٍ واحد . ويقعُ على المؤنث بلفظ المذكّر . وقال سيبويهِ في الكتاب : « هذا بابٌ لا يكون الوصفُ المفرد فيه إلا رَفْعاً ، ولا يقع في موقعه غيرُ المفرد وذلك قولُك : يا أيُّها الرجل ويا أيُّها الرجلان ويا أيُّها المرأتان » .

فسيبويهِ كما ترى يوجز ، وأما الذي يفصّل فهو ابن منظور إذ يقول : « وأيٌّ اسمٌ صِيغَ لِيُتَوَصَّلَ به إلى نداء مادخلَتْه الألفُ واللام، كقولك :

ياأيها الرجل	ويا أيها الرجلان	ويا أيها الرجال
ويا أيتها المرأة	ويا أيتها المرأتان	ويا أيتها النسوة
ويا أيها المرأة	ويا أيها المرأتان	ويا أيها النسوة

فقولي إذاً : (أيها السيدات) صحيحٌ لا عيبَ فيه . وانطلاقاً ممّا أطلنا البحث فيه نقول مع إصرار مطمئِنٍّ :

« أيُّها السيداتُ والسادةُ : هنا تنتهي حلْقةُ اليوم »

---

٥ ـ المائدة / ٦٧

٦ ـ الفجـــر / ٢٧

- ١١ -

لكـــــنْ

لم يترك النحاة صغيرةً ولا كبيرة في كلام العرب إلا وقفوا عندها . فقد استقرؤوا كلامَ الله تعـالى ، والحديثَ وشعرَ العرب وخُطبَهم وأحاديثَهم وأمثالَهم ، نظروا في كل ذلك ، فَفَتَشُوا التراكيبَ ، وتدبّروا الحروف والأدواتِ ، ورأوا مااَطّرد وماشذّ ، وما قَلّ وماكثُر ، إلى آخر ذلك مما عُجْنا على ذكره مراتٍ قبل اليوم . فلا يَذهَبَنَّ بك الظنُّ إذاً إلى أن في كلام العرب مسألةً لم يقفوا عندها .

ولـو رجعتَ إلى كتب الأئمـة مِن متقـدمين ومتـأخـرين ، لأَخَـذَكَ العجبُ وملكَتْكَ الدهشة. ولَوجدتَ بنياناً أُحْكِم صُنعُه وسَمَقَ صَرْحُه .

وإنمـا أذكُرُ ذلك لأقول : إن مَن يؤلّفُ اليوم كتاباً في النحو لا يحتاج إلى استئناف البحث في قواعده ، ولا إلى الاجتهاد في آستنباط أحكامه . بل يكفيه كُلْفَةَ الشكّ والحَيْرة ، والخطأ والغلط ، أن يرجع إلى ماتَرَكَه أولئك الأئمةُ فَيَقْبِس .

وأنا زعيمٌ إنْ هو أدلىٰ دَلْوَه مُسْتقياً ، أن يُخْرِجَها وقد أُفعِمَت عِلماً ومعرفة ، وفاضت منطقاً وتعليلاً . وأن يملأ يديه شواهدَ مِن مكنون الشعر والنثر ، وفصيح الأمثلة والأمثال.فإذا لم يفعل ، فاعتبَطَ مايقرّرُه اعتباطاً ، فلا مفرّ من أن تزِلّ قدمُه .

مساءُ الأحد من كل أسبوع أَخُصّ به أبناءَ الأصدقاء وذوي القربىٰ ، أجلس لهم فيه فيسألون وأجيب ، وأيسّر ماشقّ عليهم أو آستغلق ، مِن نحوٍ ولغة . وإليكَ مسألةً من ذلك :

كتـاب النحو المقرر لطلاب الكفاءة ، أُلِّفَ تأليفاً جديداً ، في هذه السنة الدراسية ١٩٨٨ - ١٩٨٩ ، وقـد استُحدثَتْ فيه بحوثٌ ، منها بَحْثُ العطف . والعطفُ إنما يكون بحروف ، وعلى ذلك أُوردَ الكتابُ هذه الحروف ، وساق لها الأمثلةَ .وإنما نقف في هذه الحلقة عند حرفٍ منها هو (لكنْ) بتسكين النون .

لكنْ : حرف ؛ وقد وقف الأئمة عنده كما وقفوا عند كل حرف في اللغة ، وتعاوَرُوا البحثَ فيه ، فخلَصوا إلى أنه يكون حرفَ عطف إذا تحقّقتْ في الكلام شروطٌ ثلاثة ، فإذا

تخلّف شرطٌ من هذه الشروط آمتنع أن يكون حرفَ عطف ، وأصبح حرفَ ابتداءٍ واستدراك .
فالشروطُ الثلاثة إذاً عظيمةُ الخَطَر في مصير هذا الحرف . فما هي هذه الشروط ؟ كتاب الكفاءة الذي ذكرتُه لك آنفاً لا يذكرها ، بل يكتفي بالقول : (لكنْ : حرف عطف) ؛ ثم يورد مِثالَيْن للعطف بها ، في السطر الأخير من الصفحة ٨٠ ، فلْننظرْ في المثالين وفي تحقّق الشروط فيهما .

المثال الأول : (ماقابلتُ صديقي لكنْ أَخاه)

الشــرط الأول : أن يسبق (لكنْ) نفيٌ أو نَهْي . وقــد سبقهــا النفي هنـا : (ماقـابلتُ صديقي) . فتحقق الشرط الأول .

الشـرط الثـاني : ألّا تقتـرن بها الواو . والواو لم تقترن بها هنا : (ماقابلتُ صديقي لكن أخاه) . فتحقق الشرط الثاني .

الشرط الثالث : أن يكون المعطوفُ بعدَها مفرداً ـ لا جملةً ـ والعطفُ هنا في المثال عطفُ مفردات : (ما قابلت صدقي لكنْ أخاه) . فـ (أخاه) مفرد لا جملة ، فتحقق الشرط الثالث .

فالتركيب إذاً تركيب سليمٌ مُعافى ، لا عيبَ فيه . والحرف (لكنْ) هنا ، حرفُ عطف ما في ذلك شكٌّ ولا فيه رَيب .

وأما المثال الثاني فتَكْتَنِفُه المآخذُ مِن خَلفٍ ومن قُدّام . قال الكتاب :

« **خالدٌ مجتهدٌ لكنْ أَخُوه كسولٌ .** »

فلْننظرْ : هل تحققتْ في هذا المثال شروطُ العطف الثلاثة ؟

الشـرط الأول : أن يسبق لكنْ نفيٌ أو نهي ، وفي المثـال : (خالـد مجتهـد لكنْ أخـوه كسول) ، لا نفيٌ ولا نهيٌ . فالشرط الأول إذاً لم يتحقق . ولذلك نقول : (لكنْ) ليست هنا حرفَ عطف . ولا نعني بما قلناه أن التركيب فاسد ، فالتركيب سليم ، غير أنّ (لكنْ) ليست فيه حرفَ عطف . هذه هي المسألة .

الشرط الثاني : أن يكون المعطوفُ بعدَ (**لكنْ**) مفرداً لا جملة ، وفي المثال بعدَ (لكنْ) جملةٌ مؤلفة مِن مبتدأ وخبر : (أخوه كسول) فالشرط الثاني إذاً لم يتحقق أيضاً . ولذلك

نقول : (لكنْ) ليست في هذا المثال حرفَ عطف . هذا هو الأشهر ، هذا هو الأقوى ، هذا ماعليه الجمهور .

ولا يَشْغَبَنَّ علينا مُشاغِبٌ فيستمسك بأن الزمخشريّ ذكر أن (لكنْ) تعطف الجمل . فنحن اليوم لا نعلِّم أبناءَنا ما انفرد به هذا العالمُ أو ذاك . ومع ذلك ، يكفيك أن تعلم أن ابن يعيش شارحَ كتاب الزمخشري ، قد شرح قوله هذا ، ولكنه أعرض عنه إعراضاً وهو يختم كلام الزمخشري في حروف العطف .

ماالذي تحقّق إذاً في المثال ؟ تحقق شرطٌ واحد ، هو أنّ الواو لم تقترن بـ (لكنْ) . وتَحَقُّقُ شرطٍ واحد لا يكفي لاعتبار (لكنْ) حرفَ عطف ، بل لا بد من تَحقُّقِ الشروط الثلاثة .

طيِّب ! ما إعرابُ (لكنْ) هنا ؟ إعرابُها في قولك : (خالدٌ مجتهدٌ لكنْ أخوه كسول) حرفُ ابتداء واستدراك ، لا حرف عطف .

قال ابن هشام : « فإنِ وَلِيَها كلامٌ - يعني إن وليها جملةٌ لا مفرد - فهي حرف ابتداء لمجرد الاستدراك ، وليست عاطفة » . وقال أيضاً : « فإن قلتَ : قام زيدٌ - يعني إذا لم يسبقها نفيٌ أو نهي - ثم جئتَ بـ (لكنْ) جعلتَها حرفَ ابتداء ، فجئتَ بالجملة - أي لا بالمفرد - فقلت : لكنْ عَمْرٌو لم يَقُمْ » .

جاء في أول كتاب الكَفاءة الذي نحن بصدده ، أنّ المطبوعَ منه ٢٢٥٠٠٠ نسخةٍ ، ومعنى ذلك أن هذا المثال سيستقر في أذهان ٢٢٥٠٠٠ طالبٍ كلَّ سنة . وهو ضررٌ بليغ . وإذْ قد غدا تدارُكُ ذلك متعذّراً في هذه الطبعة ، فلْيكنْ تداركُه في الطبعة الآتية .

- ١٢ -

لكـــنْ + لكـــنّ

في تاريخ أُمّتنا أنّ شيخ الشهداء عُمرَ المختارَ نهض لقتال المستعمرين الإيطاليين ، في ليبيه ، وظل يُقارِعهم ويناجِزُهم حتى كَبَا بِهِ فرسُه يوماً فأُسِر ، فأعدموه شنقاً عام ١٩٣١ .

ولقد رثاه الشاعرُ أحمد شوقي ، فرأى فيه بطلاً عربياً ، مسارحُ مَعارِكه الصحارى، فإذا سار إلى لِقاء عدوّه لم يَمْتَطِ (التَنْك) أي الدبّابة، ولا ركب الطائرة ، وإنما خاض المعركة ممتطياً حصانَه، وأدار رحاها مِن على صَهْوتِه قال :

يا أيُّهـا السَيفُ المُجَـرَّدُ بالفَـلا ... يكْسُو السُيوفَ على الزَّمانِ مَضَاءَ
تلك الصَّحـارى غِمْدُ كلِّ مُهَنَّدٍ ... أَبْـلىٰ فأَحْسَنَ في العَـدُوِّ بَلاَءَ

ثم يقول :

بَطَلُ البَـداوةِ لم يَكُنْ يَغْزُو على ... « تَنْكٍ » ولـم يَكُ يَرْكَبُ الأَجْوَاءَ
لكنْ أخُو خَيْلٍ حَمَى صَهَوَاتِها(١) ... وأَدارَ مِن أَعْـرافِهَـا(٢) الهَيْجَـاءَ

بالأمس جاءتني رسالة من ناحية قلعة المَضيق، في منطقة الغاب تقول :

(لكنْ): حرف استدراك ، غير أن بعضهم يقول : إنها في قَوْل شوقي (لكنْ أخو خَيل) مخففةٌ من الثقيلة فهل هذا وارد ؟

وفي الجواب أقول : إن أئمة النحو عالجوا أحوال (لكنْ ولكنّ) فلم يتركوا مقالاً لقائل . وقبل أن أخوض في المسألة ، أرى من المهم أن أوجه النظر إلى أنّ (لكنّ) حرفٌ له عملٌ وله معنى ، فأما عمله فأنّه ينصب الاسمَ ويرفع الخبر . هذا لا اختلافَ فيه ، هذا مقطوعٌ به . وأما معناه فشيءٌ آخرُ غيرُ عمَلِه ، والنحاة

---

١ ـ صهواتها : ج : صهوة ، لموضع السرج من ظهر الفرس
٢ ـ أعرافها : شعْر أعناقها

يختلفون في معناه فمنهم من يقول : معناه الاستدراك فقط ، ومنهم من يقول : معناه التوكيد فقط ، وفريق ثالث يقول : هو للاستدارك تارةً وللتوكيد تارةً أخرى الخ . . فهم كما ترى يختلفون في معناه، غير أنهم لا يختلفون في عمله .

فالذي يسأل فيقول : (لكنْ) أهي حرف استدراك أم حرفٌ مشبّهٌ بالفعل ، مخفَّفٌ من الثقيلة ؟ إنما يَمْزُج المعنى بالعمل . وذلك شبيهٌ بأنْ يُقالَ لك أَعرِبْ : « جاءَ خالدٌ » فتقول :

جاء : فعل ، وخالد : فاعل . فيقال لك : أخالد إنسان أم فاعل مرفوع ؟!

وعلى ذلك أقول : (لكنّ) حرف معناه المشهور هو الاستدراك ، وأما عمله فهو نصب الاسم ورفع الخبر .

ثم ننتقل إلى مسألة أخرى ، وهي: هل يُخفَّف هذا الحرف ؟

قيل : إن (لكنّ) تُخفّف !! غير أن من المقطوع به أنها إذا خُفِّفتْ لم تعمل . قال تعالى :

﴿ فلَمْ تَقْتُلوهُمْ ، ولكنّ الله قَتَلَهم ﴾ [٣]

(لكنّ) في الآية مشدّدة ، فهي إذاً عاملة ، تنصب الاسم وترفع الخبر . ولفظُ الجلالة بعدَها اسمُها ، منصوب. غير أن قراءة أخرى تُخَفّفُها: ﴿ فلمْ تَقتُلُوهمْ ولكنِ اللهُ قتلهم ﴾ فهي هنا مخففة ، فهي إذاً غير عاملة ، ولفظُ الجلالة بعدها مبتدأ .

قال المالقي في رصف المباني : « مَنْ شَدَّد لكنّ مِن القُرّاء أَعْمَلَها فنصبَ مابعدها، ومَنْ خفّفها رَفَعَ مابعدَها . وليس في القُرّاء مَنْ قَرَأً بالتخفيف مع النَّصْب » يعني : ليس منهم مَنْ أَعْملَها وهي مخفّفة .

وعلى هذا ، ففي قول شوقي : (لكنْ أخو خيل حمى صهواتها) :

مَن قال : إنها حرف استدراك ، قلنا له : هذا صحيح ، معناها الاستدارك . ولكنْ أَضِفْ إلى هذا أن إعرابها حرفُ ابتداء . فهي حرفُ ابتداء من الوجهة

---

٣ ـ الأنفال / ١٧

الإعرابية وحرفُ استدراك من الوِجهة المعنوية . أي : هي حرف ابتداء للاستدراك .

ومَن قال: إنها مخففة من الثقيلة قلنا له : (لكنّ) بالتشديد حين خُفِّفت، فقدَت عملها الذي كانت تعمله، وفقدت إعرابَها أيضاً ، فغدت حرفَ ابتداءٍ لا عملَ له . قال ابن هشام : « لكنْ ساكنةَ النون، ضربان : مخففةٌ مِن الثقيلة : وهي حرف ابتداء لا يعمل . . . وخفيفةٌ بأصل الوَضْع » .

فهي في قول شوقي : (لكنْ أخو خيل) إعرابُها حرفُ ابتداءٍ في كلّ حال ، ومعناها الاستدراك في كل حال . وبعدها كلام ، أي بعدها جملة، والتقدير : (لكنْ عُمَرُ أخو خيلٍ)، المبتدأ محذوف، والخبر مذكور .

وأرى مفيداً أن أقول : إن مَن يقولُ اليوم : (لكنْ) مخففة من الثقيلة، لا يفعل شيئاً غير التشويش ! هي لا تعمل، فلِمَ تقول هي مخففة من الثقيلة ؟ صحيحٌ أن مُطوَّلاتِ النحْو حفِظتْ لنا قولَ مَن يقول من العلماء: هي في الأصل (لكنّ) ثم خُفِّفت . ولكن ماذا تجدي علينا تلك الأقوال ؟ إنها أقوال تُحفظ للتاريخ ؛ ولا تَجلِب لطلابنا اليوم غيرَ التشويش، وعلى ذلك أُعيد ما كنتُ قلته في الحلقة السابقة :

(لكنْ) حرفُ عطف، أو حرف ابتداء للاستدراك

١ ـ هي حرف عطف بثلاثة شروط : أن يسبقها نفي أو نهي ، وأن يليها مفرد لا جملة، وألّا تقترن بها الواو . فمتى تحققت هذه الشروط كانت حرفَ عطف .

٢ ـ إذا تخلف شرط من هذه الشروط كانت حرف ابتداء للاستدراك . وهي في قول شوقي : (لم يكن يغزو على تنك لكنْ أخو خيل) حرفُ ابتداءٍ للاستدارك ، فصحيحٌ أنها سبقها نفي ولم تقترن بها الواو، ولكنّ الشرط الثالث تَخَلّف. وهو أن يليها مفرد. فقد جاء بعدها جملة لا مفرد. ولذلك نقول: هي هنا حرفُ ابتداءٍ للاستدراك .

ـ ١٣ ـ

الحكـــاية

قيل إن لِصّاً تبع رجلاً معه مال ، وهو على ناقة له . فلما استيقن اللصُّ أنْ لاسبيلَ إلى سَرقـة ذلـك المال إلا إذا نام الرجل ، شرَعَ اللصُّ يتثاءب ، فتثاءبت الناقة ، وأعدى تثاؤبُها صاحبَها فتثاءب أيضاً ، ورأى ذلك من نفسه ، واستشعر غدْرَ اللص وتربُّصه ، فقال لناقته : (أَعْدَيتِني فَمَنْ أعداكِ)؟ ثم ركَضَها .

وقد سار قولُه هذا ، فجعلته العرب مثلاً تضربه ، إذا رأت الشر يُعْدِي على الشر . ولكنها تستعمله كما قاله صاحبِ الناقة ، بلا تغيير ولا تبديل ، تتوجه به إلى المذكر والمؤنث ، والاثنين والاثنتين ، وإلى جمع المؤنث وجمع المذكر . في كل ذلك تقول : (أَعْدَيتِني فمَن أعداكِ) . فإذا قلتَ لمن يستعمل هذا المثل : لمَ تقول في كل حال : أعديتِني فمن أعداكِ ، كأنك تخاطب مؤنثاً ؟ قال لك : إنما أُعيدُ ماسُمِـع كمـا سُمِـع . أو قال لك : أنـا أحكي ماسمِعتُ . يعني : أنـا أنقل لك ماسُمِع ، كما هو .

وذلك أنَّ (حكى فلان الشيءَ) معناه في الأصل : (أَتىٰ بمِثْله)، أي : ماثَلَه وشابَهَه . ويقال : حكَيْتُ عنه الحديثَ ، أي : نقلتُه عنه .

فالحكايةُ إذاً في الأصل ، هي المشابهة ، ونَقْلُ الحديث كما سُمِع . ويقال اليوم : (هذه حكاية) ، فيفهم الناسُ مِن ذلك : (هذه قِصّة) . وليس الأمر كذلك في أصل المعنى .

ولقد استعمل النُّحاةُ كلمةَ (الحكاية) ، بمعناها الأصلي ، أي بمعنى نَقْلِ مايُسْمَع كما سُمِع ، بلا تغيير ولا تبديل ، فجعلوا منها مصطلحاً نحوياً .

وفي تاريخ النحو أن ذا الرُّمَّة كانت له ناقةٌ اسمُها صَيْدَح ، قَدِم بها على بلالِ ابنِ أبي بُرْدَةَ بنِ أبي موسى الأشعريّ . فمدحه فقال :

سَمِعتُ النــاسُ يَنْتَجِعـونَ[1] غَيْثـاً   فقُـلْتُ لِصَـيْدَحَ آنْـتَـجِـعِـي بِلالا

قال المبرِّد : « قوله : سمعتُ الناسُ ينتجعون غيثاً ، حكاية ، والمعنى إذا حُقِّق إنما هو : سمِعتُ هذه اللفظةَ أي قائلاً يقول : الناسُ ينتجعون غيثاً » . فلما سمعَ ذو الرُمَّة هذا القول ، نقلَه كما سمِعه ، أي : حكاه .

على أن للبيت روايةً أخـرى هي : (سمعتُ النـاسَ ينتجعون غيثاً) ، ولا حكايةَ على هذه الرواية ؛ والناسَ : مفعولٌ به لـ (سَمِعْتُ) .

ففي بيت ذي الرمة إذاً لك الخِيارُ : (سمِعتُ الناسُ) و (سمعتُ الناسَ) ؛ ولكن إذا قلتَ : قرأتُ : (الحَمْدُ لله) ، لم يكن لك خِيارٌ ، ولابدّ في هذه الحال من الحكـاية . لمـاذا ؟ لأنك إنما قرأتَ هذا النصَّ بعينه ، ثم حَكَيْتَ ماقرأتَ . ولايجوز لك أن تقول : (قرأتُ الحمدَ لله) ، لأنك لـم تقرأ ذلك .

قال الـزَجّاجِيّ : « ولو سمعتَ رجلاً يقول : زَيْدٍ أو زيداً أو عَمْراً ، ومأأشبه ذلك ، فأردتَ حكايةَ قوله لقلتَ : قال زيدٍ ، وقال عَمْراً ، فَتَرُدُّ كلامَه بعينهِ فتحكِيه » .

طيب . وكيف نعرب مثلاً قولَهم : (قال زيدٍ) ؟

قال : فعلٌ ماضٍ ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ (هو) .

وزيدٍ : اسم منصوب بفتحة مقدرة ، مَنَعَ مِن ظهورها حركةُ الحكاية .

هذا ؛ على أن بين النحاة اختلافاً فيما تجوز فيه الحكاية ومالا تجوز فيه . ففريق يقول : لاتجوز الحكاية إلا في اسم العلم والكُنية ، وفريقٌ يُجيزُها في غير ذلك : في النكرات والمعارف ، وفي الاستفهام وغير الاستفهام . فقد قيل لبعضهم مثلاً : (عندي تمرتان) فقال : (دَعْني مِنْ تمرتان) . ونقلوا قولَ من قال : (إنّ في الدار قُرَشِيّاً) ، فقال مَنْ سمع ذلك : (ليس بقرشياً) .

قبل حينٍ مررتُ بقصر العدل ، فقال لي أحد السادة المحامين : إن لنا مجلةً اسمُها (المحامون) ، فهل تصِحّ هذه التسمية ؟ وكيف نستعملها في كلامنا ؟ ثم

---

١ ـ يطلبون الكلأ

جاءتني بعد حين رسالةٌ تقول : إن في القرآن الكريم سورةً اسمُها (المؤمنون)، والناسُ يقولون : (سورة المؤمنون) ، فما تعليل ذلك ؟

في الجـواب أقـول : (المؤمنـون) اسمٌ للسورة المعروفة ، تستعمله على الحكاية . والحكاية كما جاء في كتاب (التعريفات) للجُرجانيّ هي : « نَقْلُ كلمةٍ مِن موضع الى موضع آخرَ ، بلا تغييرِ حركةٍ ولاتبديلِ صيغة» .

وعلى ذلك لايحق لك أن تقول مثلاً : « هذه سورةُ المؤمنين » لأنك لاتريد أن تقـول : هذه سورةُ النـاسِ الذين آمنوا . يعني لاتريد أن تضيف هذه السورة الى الناس المؤمنين . وإنما تريد أن تقول : هذه سورة اسمها (المؤمنون) . ولذلك نَقَلْتَ هذا الاسمَ إلى كلامك ، فلم تغيِّر منه ولم تبدل . يعني أنك حكيته كما هو .

فإذا قلتَ لي : وكيف يتبين لنا أن الكلمة مستعمَلةٌ على الحكاية ؟ فإنني أقول :

أولاً : بالـلفظ ، وذلــك أنــك تعلَم أن الأصــل أن يقــال : (هذه سورةُ المؤمنين) ، فإذا سمعتَ فصيحاً من الناس يقول : (هذه سورةُ المؤمنون) ، عرفتَ أنه ـ وهو الذي لايخطىء ـ إنما أراد حكايةَ هذه الكلمة .

ثانياً : يتبين لك ذلـك من إعـرابهـا ؛ ففي إعـرابها يقال : (المؤمنون) : مضافٌ إليه مجرور ، وعلامة جرِّه ياءٌ مقدرةٌ ، منَع مِن ظهورها اشتغالُ المحلِّ بواو الحكاية . وقل مثل ذلك في « هذه مجلةُ المحامون » .

وأما إذا قيل : (مررتُ بخالدٍ) ، فسألتَ : (مَنْ خالدٍ) ؟ فإن الإعراب هو :

مَنْ : اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ .

خالدٍ : خبر مرفوع بضمّة مقدرة ، منَع مِن ظهورِها حركةُ الحكاية [٢] .

بقي أن تسألَني : وما فائدة الحكاية ؟

وأجيب : إن اختلاف حركة الإعراب ، ومَجيأَها [٣] على غير الوجه الذي هُوَ

---

٢ ـ يجوز إعراب (خالد) مبتدأ مؤخرا ، و(من) خبراً مقدماً .

٣ ـ قواعد كتابة الهمزة ماتزال مضطربة في العالم العربي ، وتحكيم القاعدة وإطلاقها أفضل من

لها ، ينبِّهك أسرعَ التنبيه ، على أن اللفظ الذي تسمعه منقولٌ ، ومعادٌ ، على أنه محكي .

ناهيكَ بالإيجاز هَدَفاً ؛ إذ لولا الحكايةُ لقال لك مخاطِبُك : (مررتُ بخالدٍ) فقلتَ له : (مَنْ هذا الذي مررتَ به واسمُه خالدٌ)؟

= الأخذ بالشاذّ ولذلك أوثر كتابتها في مثل : مجيأها ، وهيْأة ، وحطيْأة على الألف . إلاّ أنْ أسهو فأكتب : (حطيْئة) مثلاً ، لغلبة الاعتياد .

ـ ١٤ ـ

الأُستاذ

تتميز حلقة اليوم بقَـدْرٍ من القِصَـر ، ذاك أن المـادة المبحـوثَ فيها ضيقةُ النطاق . وقد سألني البحثَ فيها صديقٌ زميل لاأجد إلى ردّ طلبِه سبيلاً . أما موضوع السؤال فهو كلمة (أُستاذ) .

كلمـةُ (أستـاذ) كلمـة فارسية الأصل ، عَرَّبها العرب ، فأدخلوها لغتَهم ، ومعناها المعلِّم . ولم يشتقُّوا منها كما اشتقوا من المعرَّباتِ في كثير من الأحيان .

فكلمـة (تلميذ) مثلاً معرّبة ، قيل أصلُها فارسيّ ، وقيل أصلُها ساميّ غيرُ عربي . وقـد عرّبهـا العرب واشتقوا منها فقالوا مثلاً : (تَلْمَذَ الطالبُ عند فلان) و(تَلْمَذَ الطالبُ لفلان) ، إذا كان تلميذاً له . وأما كلمة (الأستاذ) فاكتفَوْا بها ولم يشتقـوا منهـا ، وكـلُّ الذي فعلوه بها أنهم جمعوها جموعاً ثلاثة فقالوا : « أساتِذَة وأسـاتِيذ وأُسْتاذُون » . واستعملوا المصدر الصناعيّ منها وهو (الأُسْتاذِيّة) ؛ تقول مثلاً : (فلان أستاذ لا نظيرَ له في أُستاذيّته) . وهذه مسألة قياسية .

وقـد قدّمْنـا آنفـاً أن كلمـة (الأستـاذ) معنـاهـا (المعلِّم) ، ولكنّ معناها واستعمالَها تطوّرا مع الزمن . فقد أطلقوا كلمة (الأستاذ) على الرجل الماهر في الصناعة ، إذا كان يُعلِّمها غيرَه . وأطلقوها على (العالِم) ، فالعالمُ أستاذ . وفي المَغْرب أطلقوها في العصور الوسطى على المُقرِىء الذي يُحسِن القراءاتِ القرآنيةَ السبعَ بوجوهها وأدِلَّتِها .

ولقد أُطلِقَت الكلمة قديماً على بعض الملوك والوزراء . فكافورٌ الإخشيديّ ، ممدوحُ المتنبي كان يُلَقَّب بالأستاذ . قال المتنبي يمدحه :

فمـا الـحَـداثَـةُ مِنْ حِلْمٍ بِمـانِـعَـةٍ
قد يُوجَـدُ الـحِـلْمُ في الـشُّبّـانِ والـشِّيبِ

تَرَعْـرَعَ الـمـلِكُ الأسـتـاذُ مكـتـهـلاً
قَبْـلَ اكـتِـهـالٍ ، أَديبـاً قَبْـلَ تَأْدِيب

ويعني بذلك أن في كافور حِلمَ الكُهول ، وإن لم يكن كَهْلاً ، وأن فيه أدباً مِن قَبْل أن يُؤَدَّب ، لأن أَدَبَه طَبْعٌ فيه .

وقد أُطلِقت كلمةُ (الأستاذ) على ابن العَميد وكنيتُه أبو الفَتْح . وكان وزيراً لرُكْن الدولة البُوَيْهِيّ ، وهو ممّن مدحهم المتنبي فقال فيه :

مَنْ مُبْـلِغُ الأَعْـرابِ أَنِّـي بعـدهـم
شاهَـدْتُ رَسْـطَا لِيسَ والإِسْـكَـنْـدَرَا
وسَـمِـعْـتُ بَطْلَيْمـوسَ دارِسَ كُتْـبِـهِ
مُتَـمَـلِّكـاً مُتَـبَـدِّياً مُتَـحَـضِّـرَا
ولَـقِـيْتُ كُلَّ الـفـاضِـلِينَ كأنّـمـا
رَدَّ الإلـهُ نُفُـوسَـهُـمْ والأَعْـصُـرَا

كمـا كانت تُطلق على والد ابنِ العميد أيضاً ، فكان الأبُ يُلَقَّبُ (الأستاذ الرئيس) وكان الابنُ يلقَّب (الأستاذ) . قال ابنُ فارس : « كنتُ عند الأستاذِ أبي الفَتْح في يومٍ شديد الحَرّ فَرَمَتِ الشمسُ بِجَمَرات الهاجِرة » ثم قال ابنُ فارس بعدُ : « أَقبَلَ رسولُ والِدِه الأستاذِ الرئيسِ يستدعيني إلى مَجلِسه فقُمتُ إليه » .

وأُطْلِقت كلمة (الأستاذ) في علم الكلام على أبي إسحاقَ الإِسْفَرايِنيّ . فإذا قالوا في علم الكلام : (الأستاذ) ، وسكتوا ، فإنما يعنون بذلك الإِسفراييني . وقد توفي في القرن الخامس الهجري .

وفي الدولة الفاطمية كانت طائفةٌ من أعظم أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة يُطلَق عليها : (الأُسْتـاذُون المُحَنَّكُون) ، وإنما سُمُّوا (محنَّكين) لأنهم كانوا يُديرون عمائِمَهم على أحناكهم ، كما تفعل العرب والمغاربة .

أخيراً أذكر أنهم كانـوا في القرن السادس الهجري يقولون : (فلان أُستاذُ الـدار) لِمَنْ كان إليه أمرُ البيوت السُّلْطانية ، من مَطابِخَ وبيوتِ شرابٍ وحاشيةٍ

وخـدمٍ ، ولـه التصرُّفُ التامُّ في استدعاء مايحتاج إليه كلُّ مَنْ في بيتٍ مِن بيوت السلطان مِن النفقات والكُسا ومايجري مَجرى ذلك .

ثم تطور استعمالُها في العصر الحديث . فكلمة (الأستاذ) في أيامنا هذه أعْلى لَقَبٍ في الجامعة ، وتقابِل في الفرنسية كلمة Professeur . يقولون اليوم : (الأستاذ الطبيب فلان) مثلاً ، فَيُفْهَم من ذلك أنه أستاذٌ في عِلم الطب .

وتطلق اليوم أيضاً على المحامي الذي استكمَل مدة تدريبه في المحاماة .

فكلمـة (الأُسـتـاذ) إذاً أعجمية معـربـة ، جَمَعَها العرب فقالوا : (أساتذة وأَساتِيذ وأُستاذون) . وأما معناها فقد تطور حِقبةً بعدَ حِقبة ، ولكنها ظلّت دَوماً تُطلق للإجلال والاحترام .

- ١٥ -

لغــــة الضـــاد

الإنسانُ ينطِق بواسطة جهازٍ صوتي : يبدأ بالرئتين ، حيثُ ينطلق الهواء ، ثم يَمُرّ بالرُّغامى ثم الحَنْجَرةِ ، ثم الفمِ وفيه اللسانُ والأسنانُ وتجاويفُ مختلفة ، ثم ينتهي بالشفتين .

وأما اختلاف الأصوات ، والفرقُ بين حرفٍ وحرفٍ مما يَنْطق به الإنسان ، فإنما تَتَحكّمْ به عَضَلاتٌ تُعدِّل أبعادَ تَجاويفِ الحَلْق والحُفَر الأنفيّة ، وتجاويفِ الفمِ وجوانبِها ؛ ولسانٌ يغيِّر ويبدِّل من أوضاعه ، وشفتانِ يختلف وضعُهما مع كلّ حركة من تلك الحركات .

فإذا لفظتَ الباءَ مثلاً انضمّتِ الشفتانِ وظلَّ اللسانُ مُعَلَّقاً مُتجافِياً عن الأسنان . وإذا لفظتَ الألِفَ (آ) انفتحتِ الشفتانِ والتصق اللسانُ بأسفلِ الفم . وهكذا وهكذا . . . . وتخلص من هذا إلى شيئين :

الأول : أن لكل إنسان جهازاً صوتيّاً ، هو وسيلةُ نُطقِه .

والثاني : أن هذا الجهاز له آليّةٌ متحركة ، تُعطي كلَّ حرف من الحروف صوتَه - أو شخصيته كما يقولون - ولا بد من أن نُضيف شيئاً ثالثاً ، وهو أن الحرف نفسَه كثيراً مايختلف لفظه في لُغَتَين : فالراء مثلاً في العربية يخالِف لفظُها لَفْظَ الراء في الفرنسية والألمانية ، وقل مثلَ ذلك في كثير من الحروف الأخرى .

وأَوْضحُ من ذلك أن نقول : إن أهل لغة من اللغات قد يكون لهم حرفٌ يتعذر على أهل اللغات الأخرى لفظُه . وما السبب في ذلك إلا الاختلاف بين الآليّتين في اللغتين . مثالُ ذلك حرفُ الضاد في العربية فهو لا يوجد أو لا يكاد يوجد في غيرها .

ولقد مرت سنواتٌ والرسائل ماتَنِي تأتيني تسأل : لم سُمِّيَتِ العربية لُغةَ الضّاد ؟ أو تسأل : أصحيحٌ أن اللغة العربية سُميت لغةَ الضّاد لأن حرف الضاد لا وجودَ له في اللغات الأخرى ؟ والمسألة كما ترى ذات وجهين :

الوجه الأول : هل الضاد حرفٌ مقصورٌ على العربية ؟

وفي الجـواب أقـول : لقـد حَدَّدَ الأئمـة قديماً طريقة نُطق الضاد ، ومنهم سيبويهِ . وهي بناءً على تحديدهم أصعبُ الأحرف العربية نُطقاً على أبناء العربية ، بَلْهَ الأممَ الأخرى . فهي إذاً مقصورةٌ على لغة العرب .

وبالحقّ إن قُرّاء القرآن لا يستطيعون أداءَها إلا بعد شيءٍ غيرِ قليل من التمرين والتـدريب . ولقد تعلّمتُ تجويدَ القرآن وأنا غلامٌ صغيرٌ فوجدتُه يسيراً . حتى إذا وصلتُ إلى نُطق الضاد عند الوَقْف ، جَهَدَ أُستاذي في أن يلقّنني لفظَها وجَهَدتُ ، وكابَدَ وكابَدْتُ ، ومازالُ أَشكُّ حتى اليوم في إتقاني نُطقَها .

يقول الدكتور إبراهيم أنيس : « ويظهر أن الضاد القديمة كانت عَصيّةَ النُطقِ على أهالي الأقطار التي فتحها العرب ، أو حتى على بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة » .

ولذلك يحِقُّ لك أن تقول : إن الضاد القديمةَ مقصورةٌ على اللغة العربية .

وقـد يسـأل سائل فيقول : وهذه الضّادُ التي ينطِقها أبناءُ أمتنا اليومَ ماهي ؟ والجواب : أنها ضادٌ أصابها التطورُ ، وبينَها وبينَ الضاد القديمة فرقٌ ليس بالقليل . حتى لقد قال فريق من الباحثين المحدَثين : إن ضادنا اليوم لها مايُدانيها في اللغات الأخرى ؛ فمِن ذلك في الفرنسية مثلاً dans وفي الإنكليزية don't .

على أن أئمة اللغة قد اختلفوا قديماً في ذلك ، فمِنهم من قال : إنها مقصورة على لغة العرب ، كصاحب القاموس المحيط مثلاً الذي قال : « الضادُ حرفُ هجاءٍ للعـرب خاصّة » . ومنهم من قال : انفردت العرب بكثرة استعمالِ الضاد ، وهي قليلةٌ في لغة بعضِ العَجَم ؛ قال ابن جِنّي في سر الصناعة : « واعلم أن الضّاد للعرب خاصّة ، ولا توجد في كلام العَجَمِ إلا في القليل » .

وأما الوجه الثاني للمسألة فهو : لِمَ سُمِّيَت لغتُنا لغةَ الضاد ؟

وأقول : إن مِن المقطوع به أن هذه التسمية لم تُعرف في الجاهلية . وأما في الإسلام فقد رَوَوْا أن رسول الله ﷺ قال : « أنا أَفْصحُ مَن نَطَق بالضّاد » . ولكنّ ذلك

لم يَصِحَّ عندَ أهل الحديث . وقد علق الدكتور إبراهيم أنيس على ذلك فقال : « هذا الحديث كما يقرِّر معظمُ الثِّقاتِ من القدماء لم يَثْبُتْ ولم يصحَّ وليس له سَنَد » .

ويقول فريق من العلماء : إن هذه التسميةَ متأخرة عن القرن الأول والثاني الهجريين . ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : « أما تسمية العربية بلغة الضاد ، فقد ظهر لنا أنها ترجِع إلى القرن الرابع الهجري ، فقد شاعت وذاعت حينئذ للتمييز بين العرب وغيرِهم من الفرس والأتراك ، وكان هذا في بغداد ، ومنها انتقلت هذه التسمية إلى البلاد العربية الأخرى ، وأصبحت قضيةً مسلَّمةً دون تفكيرٍ في أصل مَنْشئِها ، ودون اهتداء إلى المسؤول الأول عنها » .

ويكاد يُجمع اللغويون على أن سبب هذه التسمية هو أن لفظها القديمَ لم يكن يستطيعُه غيرُ العرب . وإذا كان الحديث الذي ذكرناه آنفاً غيرَ صحيح فالذي يبدو حتى الآن ، أن المتنبي أولُ مَن استعملها كنايةً عن العربية إذ قال :

لا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بِي ... وبِنفسي فَخَرْتُ لا بجُدُودِي
وبِهِمْ فَخْرُ كلِّ مَنْ نَطَقَ الضّا ... دَ وعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطّرِيدِ

واستعملها صاحب القاموس المحيط فقال : « الحمدُ لله مُنْطِقِ البُلغاءِ باللُّغَى في البوادي » ثم قال : « باعثِ النبيِّ الهادِي ، مُفْحِماً باللسانِ الضّادِي » .

ثم أخذت هذه الكنايةُ تتفشّى على ألسنة الكتاب والشعراء . على أن قولهم « لغة الضاد » ليس الكنايةَ الوحيدةَ عن لغتنا ، فقد قال الناس عنها « لغة القرآن » وقالوا مِن بعدُ « أم اللغات » وقالوا « بنت عدنان » الخ . . . ولكن ظلّتْ تسميتُها « لغة الضاد » هي الغالبة . قال الشاعر :

إنّ الذي مَلأَ اللغاتِ مَحاسِناً ... جَعَلَ الجَمالَ وسِرَّهُ في الضّادِ

وقال الشاعر العراقي حسين علي محفوظ في تحيته لمجمع اللغة العربية :

لَقَّنَ النّاطقينَ بالضّاد أنّ الضّادَ أعلى شأناً وأعظمُ قَدْراً

وقال الشاعر حليم دموس في اللغة العربية :

ستظلُّ رابطةً تؤلِّفُ بينَنا ... فهيَ الرَّجاءُ لناطقٍ بالضّادِ

- ١٦ -

الشـــــائرة

كنتُ في حلقاتٍ مضَت قبل نحو ثلاث سنوات ذكرتُ للسادة المشاهدين أن في لغتنا كنوزاً ، أُهملت فَقَرَّتْ في بطون الكتب ، لا تصل إليها إلا يدٌ منقِّبة .

من ذلك كنزٌ من المفردات ، نفتقر إليها فلا نجدها بين أيدينا ، فنلفّ وندور لنعبّـر عن معناها ، بكلمة أجنبية ، أو بكلمتين عربيّتين أو كلمات . ولقد جعلتُ البحث عنها وجمعَها أعظمَ همومي منذ أكثرَ مِن خمسةَ عشرَ عاماً .

وقـد تقـول إن هذا زمن طويل ، فاقـرأْ ما في المعجم تصِـلْ إلى ماتريد . وأجيب : إنني لا أريدها معجميّةً محنّطَة ، بل أريدها نابضةً بدم الحياة ، أريدها في آية ، أو حديث . أريدها في قصة ، أو خطبة . أريدها في نصّ شعريّ أو نثري . أريدها ودمُها فيها .

واليومَ أعُود لأَعرِض على السادة المشاهدين شيئاً من هذه المفردات ، لترى ماترك لنا أوائلنا من الكنوز ، ولتضع يدَك على ماآطّرحناه منها ، ونحن إليه مفتقرون .

وسأعرض عليك مادّةً من ذلك ، لترى ما الذي يُمكن أن يُستنبط منها وحدَها ، ثم لتقيسَ على ذلـــك كثيراً من المـوادّ سواهـا ، ولتستنتـجَ مدى غِنى هذه اللغـة الكريمة ، ومدى إهمالِنا لها .

المادة هي : شارَ يَشُور

وقد أماتَها الإِهمالُ وقلّةُ الاستعمال ، مع أن (كلّ الصَّيْد في جَوْفِ الفَرا) كما يقول المثل ؛ فلنبدأْ :

إذا وَضَعتَ السِّلعة في حيثُ يراها الناس فقد عَرَضْتَها . وعَرَضَ المتاعَ للبيع : أظهرَه لِذَوي الرغبة ليشتروه . فعرْضُ السلعة إذاً إظهارُها وإبرازُها .

وتلاحظ أن العَرْضَ هنا لا تُرافقه حركةٌ ، فمتى أظهرتَ الشيءَ ليراه الناس فقد عرضْتَه . ولكنّ العربي لاحظَ أن هناك عرضاً آخر ، عرضاً مع الحركة . وذلك إذا

أردتَ أن تُظهِر من الشيء المعروض محاسنَ لا تظهر إلا بأن تذهبَ به وتجيء ، ليرى الناس ماتريد إظهارَه من محاسنه . وقد لاحظ المتنبي ذلك فقال وهو يصف الخيل :

ومــا الـخَيْلُ إلا كالصـــديق قليلة وإن كثُـرت في عين من لا يُجرِّبُ
إذا لم تشـاهِـدْ غيرَ حسن شِياتهـا وأعضــائهـا فالحسنُ عنـك مُغَيَّبُ

ذاك أن في الخيل حُسنـاً خفيّاً لا تراه إلا إذا عَدَتْ وجَـرَت وأسعـدَتْك في الغَمَرات . فذاك هو حسنها الحقيقي ، حسنها المغَيَّب .

هذا النوع من العرض ، الذي يكون في إقبالٍ وإدبار ، استعمل له العربي مادةً تعبِّر عنه ، هي : (شار يشور) .

قال الحريري في دُرّة الغوّاص : (شُرْت الدابّةَ) : إذا أَجْرَيتَها مُقْبلةً ومُدْبرةً لِتَسْبُـرَ حُضْرَها[1] وتَخْبُرَ جَوهرَها . وقال صاحب اللسان : (وشُرْتُ الدابةَ شَوْراً : عرضتُها للبيع ، أقبلتُ بها وأدبرتُ) .

من مُقـابَلةِ معنى (عَرَض) بمعنى (شار) تُدرِكُ الفـرقَ بينهما . وتعلَم أنّ (عَرَض) لا تؤدي معنى (شار) . إذْ (عَرَضَ الشيءَ) أظهرَه ، و(شارَ الشيءَ) عرضَه في ذهابٍ وإيابٍ لإظهار محاسِنه .

ومنه تدرك الخَلَلَ في قولهم : (هذه عارضة أزياء) لـمَن تلبَس الثوبَ ، تجيءُ به وتذهبُ مراتٍ ، لتظهرَ محاسنَه .

نعم ، لو ألبَسَ التـاجرُ أحدَ التماثيل ثوباً ليراه المارّون ، لَصَحَّ أن تقول : (عَرَضَ التاجرُ الثوب) أي أظهره وأبداه للرّائين . وأما تلك المرأة التي تذهب وتجيء بالثوب لتظهر حُسْنه ، ويسمّيها الفرنسيون Mannequin ، والتي جرى الناس على أن يسمّوها (عارضةَ أزياء) فهي (شائِرَة) ، اسم فاعل مِن (شار يَشُور) فهو شائِر وهي شائِرة .

---

١ ـ عَدْوَها .

وبعدُ فإني مُوردٌ لك هذه المادة في نَصَّين لترى الكلمة حيّةً ينبض دمُها فيها .

قال ابن الأثير في النهاية : « وفي حديث أبي بكر أنه ركب فرساً يَشُوره » .

وقال أيضاً : ومنه حديثُ أبي طلحة « أنه كان يَشُور نفسَه بين يَدَي رسول الله ﷺ » .

ثم علق ابن الأثير على هذا النص فقال : « وقيل : يشور نفسَه : أي يسعى ويَخِفّ ، يظهرُ بذلك قوّتَه . ويقال : شُرْتُ الدابّةَ إذا أُجريتَها لتعرف قوّتها » .

وبعدُ فـ (عَرَضَ الشيءَ للبيع يعرضه) : أظهره لذوي الرغبة ليشتروه ، و(شار الشيءَ يَشُوره) : عرضه في إقبالٍ وإدبارٍ ليُظهر محاسنَه .

و(الشائرة) اسم فاعل للمؤنث . وهي الكلمة المنطبقة على مايُراد من كلمة Mannequin الفرنسية ، أَعْني مَنْ يسمّيها الناسُ اليوم (عارضة الأزياء) .

- ١٧ -

المشـــــوار

كنتُ في الحلقة السابقة وقفت عند مادة : (شار الشيءَ يَشُوره) ، وقلتُ : إن معناها (عَرَضَ الشيءَ في إقبالٍ وإدبارٍ لإظهار محاسِنِه) . أما حلقة اليوم فأديرها حول مفردات أخرى من هذه المادة .

أولاً : الشِّوار ـ والشينُ فيها مثلّثة ـ وهي كلمة استعملتها العرب لتدلّ بها على مَتَاع الرَّحْل ، ومتاع البيت أيضاً . وعلى ذلك تقابِل اليوم ماتُطِلق عليه العامّةُ كلمةَ (العَفْش) ويُطلق عليه الفرنسيون كلمة Bagage .

فعند الحديث عن أن الشِّوار لمتاع المسافر ، نبّه الصّحاحُ واللسانُ والتاجُ على أن الشِّوار لمتاع الرَّحْل ، بالحاء لا بالجيم . لكي لا تظن أنها متاع الرجل . فكل ماينتفع به المسافر ، ويقتنيه ويجعله في رَحْلِه إذا هو ركب ناقته للسفر ، هو متاعُ الرَّحْل ، أي هو (الشِوار) ، أي هو لما تقول عنه العامة : (العفش) .

قال ابن الأثير : « وفي حديث ابن اللُّتْبِيَّة : أنه جاء بشَوارٍ[1] كثير » . وقال عمْرو ابنُ معد يكرب ، يذكر الخيل والغنائم التي آبَ بها بعد المعركة :

ولَـوْ جِئْنَ يَحْمِلْنَ الحَـدِيدَ بِنَـا مَعاً   أَلَا يالَـعَـمْـرِو بعـدَهـا لِشَـوَارِ

يقول : يالَها مِن غنيمةٍ ، ويالَه مِن متاعٍ عُدْنا به بعد المعركة .

ولقـد بحث المشتغلون باللغـة في العصر الحديث ، عن كلمة تقابل كلمة (العَفْش) وتتـرجمها ، فاختار مجمع دار العلوم بمصر كلمةَ (الأثاث) أو (متاع البيت) للتعبير عن (العفش) .

وفي اختياره هذا نَظَرٌ . فما اختارَه مقصورةٌ دَلالَتُه على أثاث البيت ، مع أن كلمة (العَفْش) تُستعمل أيضاً لما يكون مع المسافر ، مما ينتفع به أو يقتنيه . ثم إن (متاع البيت) تعبيرٌ مؤلف من كلمتين ، وما أغنت فيه الكلمة الواحدة خَيْر .

---

١ ـ ذكرنا في مطلع البحث أن الشين مثلثة تُفتح وتُضم وتُكسَر .

وإذا كانت كلمة (الأثاث) لمتاع البيت ، قد استقرت في أفواه الناس ، فإن (متاع المسافر) مايزال عند الناس حتى اليوم هو (العفش)أو (أمتعة السفر) أو Bagage ولذلك أختارُ له كلمة الشِوار .

الشِوار هي الكلمة التي تقابل كلمة Bagage وتترجِمها

ثانياً : المِشوار : والعامّة تستعمل هذه الكلمة لتدل بها على مسيرةٍ قريبة ، كأن يكون ذلك للتمشّي مثلاً ، أو لأمرٍ لا يحتاج إلى إبعادٍ في السير . وهو استعمال صحيح ، جاء في اللسان : « والتَّشْويرُ أن تَشُورَ الدابّةَ تنظر كيف مِشوارُها ، أي كيف سَيْرَتُها » . فتراه يفسّر المِشوار بالسَّيْرة . على أن للمشوار معنى آخرَ نفتقر إليه اليوم . وهو مكان العَرْض في تحرُّكٍ . وكانوا يقولون : « إيّاكَ والخُطَبَ فإنها مِشْوارٌ كثيرُ العِثار » .

ومنه صِحّة استعمال كلمة (المِشوار) للمِنَصّة التي تذهب عليها الشائرة وتعود ، لتعرض الأزياءَ على المشاهدين . . فالمِنَصَّةُ لا تؤدي معنى (المِشوار) بحال ، لأن المنصة للمكان المرتفع ، كالكرسيّ والسَّرير ونحوِ ذلك . وليس لها معنى الموضع الذي يُذْهَبُ عليه ويُجاء .

ومن المفيد إطلاقُ كلمة (المِشوار) للدلالة على خشبات المسرح التي يتحرك عليها الممثلون . وذلك بعد أن أصبحت كلمة (المسرح) اليومَ تُطلق على دار التمثيل ، وعلى خشبات المسرح نفسِها أيضاً ، حيثُ يتحرك الممثلون .

فلكي لا تقول مثلاً : (مسرح القباني مسرحه صغير) تقول : (مسرح القباني مِشْوارُه) صغير . أو تقول : (دخلت مسرح القباني متأخراً فإذا الممثلون على المِشوار) أي على خشبات المسرح .

ولقد كنت أقرأ قبل حين كتاب (الفن الإسلامي في إسبانيا) مؤلفُه مانويل مورينو ، وقد ترجمه الدكتوران : لطفي عبد البديع ومحمود عبد العزيز سالم ، فرأيتُهما يقولان في وصف آثار أبنية مدينة الزهراء (الصفحة ٧٩) : « وكانت فيما يبدو كاملةً ومستقلة ، ولعلها كانت المِشوار أو دارَ العدل ومايتبعها » ويفهم من ذلك

أن (المِشوار) مكانٌ يُعرَضُ فيه ما يتحرك ، وما لا يتحرك ، كالإماءِ والسِّلَعِ ونحوِ ذلك . ولقد أوجز المعجم الوسيط معانيَ (المِشوار) إيجازاً لطيفاً فقال :

١ ـ (المِشوار : المكان الذي تعرَض فيه السلعة) . أي لما لا حركة له .

٢ ـ (والمَدى تُجرىٰ فيه الدابّة حين البيع) . أي لما يتحرك .

٣ ـ (واستُعْمِل في المسافة يقطعها الإنسان) . وهو استعمالُ العامة ، وهو استعمال صحيح .

وبعد فإنني أقول للمشنّعين الذين يؤذي نفوسهم أن يَرَوا غنى اللغة العربية : لا تقولوا إن مادة (شار يشور) هي لعَرْض الرقيق والدوابّ ، وقد جعلتَها أنتَ لكل عَرْض ؛ لهؤلاء أقول :

(شار يشور) إنما يُقصَد منه العَرض ، لا مايُعْرَض . ولقد ذكرنا في الحلقة السابقة أنْ أبا طلحة كان يشور نفسَه بين يدي رسول الله (ﷺ) وكفى بهذا شاهداً ودليلاً .

- ١٨ -
اســـم الفعـــل

في اللغة العربية كلماتٌ لا ينطبق عليها تعريفُ الاسم، ولا تعريفُ الفعل، ولا تعـريف الحرفِ. مثال ذلك (شَتّان) ومعناها (افتَرَقَ)، فهي تدل على زمن ماضٍ، وترفع فاعلاً، ولكنها لا تقبل علاماتِ الفعل. فهي إذاً ليست فِعلاً. فأنتَ تقـول: (افتـرقت الجمـاعـة) فتُـدخـل التـاءَ على آخـر هذا الفعـل، ولكنك لا تقـول: (شَتّانَتْ). شتّان إذاً تُشبه الفعلَ ولكنها ليست فِعلاً.

ثم هي مبنيّة، ولذلك تشبه الاسمَ المبني، مِن حيثُ اللفظُ في عدمِ تصرُّفِها، فهي لا تتصرف؛

هذه الكلمات سماها النحاة أسماءَ أفعال، إليكَ منها هذه الأمثلةَ:

(شتانَ): ومعناه (افترق)، ويدل على زمن ماض.

(أفٍّ): ومعناه (أتضجَّر)، ويدل على زمن حاضر.

(آمينَ): ومعناه (استجِبْ)، ويدل على زمن مستقبل.

أسماء الأفعال هذه - وغيرُها كثير - أتتنا عن العرب كما نطقوا بها، وليس لنا أن نتصرف فيها، أو نغيِّر من لفظها، وضبْطِ حروفها، أو نزيدَ فيها. هكذا جاءت، وهكذا تبقى، وهكذا نستعملها.

ولقد نظر النحاة فيها فرأَوْها أصنافاً. ونعرِض في هذه الحلقة لصنفٍ منها هو المنقول عن جارٍّ ومجرور. ونعني بذلك أن العربي كان يستعمل هذا الجار والمجرور أو ذاك. ثم كأنه نسي أو تناسى معنى استعماله الأصلي، فنَقَلَه إلى معنى جديد، واستعمـال جديد. مثـال ذلك أنك تقول: (عليْكَ دَيْنٌ)؛ و (عليكَ) هنا، جار ومجرور مستعمل في معناه الأصلي. ولكنّ العربي نقل هذا الجار والمجرور الى استعمال جديد فقال: (عليكَ نفسَك) أي الزمْ. ومنه قولُه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكُمْ أنفُسَكُم ﴾ [1] أي الزَمُوا شأنَ أنفسِكم.

---

١ - المائدة / ١٠٥

وإليك مثالاً آخر ، قال القُطامِيُّ وهو عُمَيْرُ بنُ شُيَيْم :

عليكَ بالقَصْـــدِ فيمـــا أنتَ فاعلُهُ إن الـتّـخـلُّقَ يأتـي دونَـهُ الـخُلُقُ

أي (تمسَّكْ بالقصد).

فـ (عليكم) في الآية ، ليس جاراً ومجروراً، وإنما هو اسمُ فعل أمرِ منقول عن جار ومجرور . وقل مثل ذلك في (عليك) في بيت القطامي ، فهو ليس جاراً ومجروراً ، وإنما هو اسمُ فعلِ أمرٍ منقول عن جار ومجرور .

وما قلناه في (على) نقوله في (إلى) قال الفرزدق :

نَظَروا إلـــيكَ بأعـــيُنٍ مُزْوَرَّةٍ نَظرَ التيوسِ إلى شِفـــارِ الجـــازِرِ

فـ (إليكَ) في البيت جارٌ ومجرور، (إلى) حرف جر، والكاف ضمير متصل في محل جر بـ (إلى) . ولكنّ علياً كرم الله وجهه يخاطب الدنيا فيقول : (إليكِ عنّي يادنيا فحَبْلُكِ على غاربِـكِ)، فـ (إليك) في قوله ، كرم الله وجهه ، ليس جاراً ومجروراً ، وإنما هو اسمُ فعلِ أمرٍ بمعنى تَنَحَّيْ وآبْتَعِدي . ، هو كتلة واحدة ، لا تنفك فيه (الكاف) من (إلى) .

(إلى) هنا في قوله : (إليكِ عني) ليس حرف جر ، والكاف ليس ضميراً ، (إليكِ) كلُّها ـ كتلةً واحدةً ـ اسم فعل أمر منقول عن جار ومجرور ، وفاعله ضمير مستتر ، والكاف كما قلنا ليس ضميراً وإنما هو حرف خطاب .

وكذلك الحال في قولك : (إليكَ الكتابَ) أي خُذْه . (فإليكَ) هنا اسمُ فعل أمر وفاعلُه ضمير مستتر ، والكاف حرف خطاب . و (الكتابَ) مفعول به . والفرقُ جليٌّ كما ترى بين (نظروا إليكَ) و (إليكَ الكتابَ) .

وههنا شيء لا يجوز إغفاله ، وقد رأيتُ كثيراً من المشتغلين باللغة يُغْفِلونه ، وهـو أنـك إذ تستعمل الجارَّ والمجرور ، يصح لك أن تقول (نظرتُ إلى خالد) و(نظرتُ إلى فاطمة) و (نظرتُ إليكَ) و (نظرتُ إليه) الخ . . . ولكن حين يَغدو الجـار والمجـرور اسمَ فعـلٍ ، يمتنـع التغيير فيه ، فيلزَمُ حالةً واحدة هي اقترانُه بالكـاف . ولذلك لا تقول : (إليه الكتابَ) مثلاً ، بمعنى لِيَأْخُذْه ، ولا تقول :

(إلى خالد الكتابَ) و (إلى زينبَ الكتابَ) . كلُّ هذا لا يقال ، لأن العرب لم تَقُلْه . بل تقول فقط : (إليكَ الكتابَ ، وإليكِ الكتابَ ، وإليكما الكتابَ ، وإليكُم الكتابَ وإليكُنّ الكتابَ) . فتخاطِبُ المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، ولكنّ الكاف تظل مقرونةً ـ وجوباً ـ بـ (إلى) . لماذا ؟ ليتآلفَ منهما معاً شيءٌ كأنه الكلمةُ الواحدة ، شيءٌ برُمَّتِه ، هو اسمُ فِعلِ أمرٍ . فإذا آنفكّت الكافُ مِن (إلى) بَطَلَ أن يكون الكلامُ اسمَ فعلٍ ، وعاد جاراً ومجروراً .

ثم لا بد من التنبيه على شيء آخر ، وهو أن العرب قالت : (عليكَ بالصدق) مثلاً ، وقالت : (إليكَ عني) ، ولكنها لم تقل : (منكَ الكتابَ) مثلاً ولا قالت : (لكَ الرسالَة) الخ . . . أعني أن العرب لم تنقل كلَّ جارّ ومجرور إلى اسم فعل . ولذلك إذا سمعتَ إحدى الأخوات المذيعات تقول : (لكَ أَلفَ سلام) فنَصَبَتْ كلمةَ (أَلفَ) باعتبارها مفعولاً به لاسم الفعل (لكَ) كما تعتقد هي !! حُقَّ لك أن تُخطِّئها ، وأن تقول لها : الصوابُ أن تقولي : (لكَ ألفُ سلام) .

وإذا قالت : (لكَ سلامَ الأهل)!! فهذا خطأ ، والصواب : (لك سلامُ الأهل) ، وإذا قالت : (لكَ كلَّ التحية)!! فهذا خطأ والصواب : (لك كلُّ التحية) .

لماذا ؟ لأن أسماء الأفعال سماعية ، لا يجوز لك أن تقيس عليها ، ولا يحقّ لك أن تُضيف إليها من عندِ نفسِك .

العربُ لم تستعمل الجارَّ والمجرور (لك) استعمالَ اسمِ الفعل ، ولذلك على الأخت المذيعة أن تُلْزِمَ نفسَها استعمالاتِهم ، وألاّ تُضِيفَ إليها مِنْ عندِ نفسِها .

ـ ١٩ ـ

الإضافـــة

إذا قلتَ : (جلس الصياد على شاطىءٍ) فإن المستمع يفهم ماتقصد إليه ، لأن ماقلتَه كلامٌ مفيد ، كلام تامّ . ولكنّ المستمع مع ذلك لايعلم ماصِفَةُ هذا الشاطىء ، وما موقِعُه من الوجود . ولايعلم كذلك أشاطىءُ جَدْولٍ هو ، أم شاطىء نهر ، أم شاطىء بحيرة أم شاطىُ بحر الخ . . .

إذا قلت : (جلس الصياد على شاطىء) فقد فتحتَ بابَ الاحتمالاتِ الذهنية على مِصراعَيه ، كما يقال . لماذا ؟ لأنك استعملتَ كلمة (شاطىء) استعمالاً مطلقاً ، استعمالاً غيرَ مقيّد .

فإذا كان فَتْحُ بابِ الاحتمالاتِ الذهنية ليس غايةً من غاياتك ، وكنتَ تريد إغلاقه ، فيجب أن تحدّد كلمةَ (شاطىء) فتمنعَ إطلاقَها .

والطُرُق إلى ذلك مختلفة ، منها مثلاً أن تقول : (جلس الصياد على شاطىء البحر) . فـ (شاطىءُ) هنا ، اسمٌ مجرور بـ (على) ، وهو مضاف ، وأما كلمة (البحر) فهي مضاف إليه . والمضافُ إليه متى جاء ، مَنَعَ الاسمَ الذي قبلَه ـ أي مَنَعَ المضاف ـ مِن أن يظلّ عاماً مطلقاً ، وجَعَلَه محصوراً مقيّداً .

كلمةُ (شاطىء) كانت عامّةً مطلقة بغير قيد ، تنطبق على كل شاطىء في الدنيا ، فلما جاءت كلمة (البحر) وهي مضافٌ إليه ، امتنع التعميم وامتنع الإطلاق . وأصبح الشاطىء محصوراً مقيداً ، أصبح (شاطىء بحر) لا شاطىء نهر ولا شاطىء محيط . وبكلمة واحدة أقول : المضاف إليه يقيّد المضافَ ويحدّد مدلولَه . وبكلمةٍ أخرى أيضاً أقول : المضافُ إليه قَيْدٌ للمضاف . وفي مثالنا الذي ذكرناه آنفاً ، البحرُ قَيْدٌ للشاطىء .

بعد هذا ، ليس عندي ما أقوله هنا في مجال الإطلاق والتقييد . ولكن تبقى

مسألة أخرى في موضوع الإضافة ، هي التي ساقت إلى هذا البحث ، وهي أن المضافَ والمضافَ إليه اسمان ، فأيُّهُما أُضيف إلى الآخر ؟

قد يقول متمرِّس بشؤون اللغة : المسألة أهونُ من أن تحتاج إلى سؤالٍ وجواب . وأقول : كلّا ؛ وإليك الدليلَ :

بالأمس جاءتني رسالة من معلِّمة ، هي طالبةٌ في الصف الخاصّ في دار المعلمات في حمص ، أنقل لك مضمونَها موجَزاً ، قالت : كنت أنفِّذ في الصف الخامس الابتدائي درساً نموذجياً موضوعُه (المضافُ إليه) . والأستاذ المشرف المسؤول يستمع إلى ماأقول ؛ فنقلت إلى الطلاب ماجاء في الكتاب المدرسي المطبوعِ حرفاً حرفاً وهذا نصه :

« **المضافُ إليه اسمٌ يضاف إلى اسمٍ قبلَه يسمّى المضاف** »

قالت : فغضب الأُستاذ المشرف ، وقال لي في جلسة المناقشة بعد الدرس : هذا قلبٌ للحقيقة اللغوية ، فالمضافُ إليه لايضاف إلى اسمٍ قبلَه ، بل الاسمُ الذي قبلَه يُضاف إليه . ثم ختمت الأختُ المعلمةُ رسالتَها بقولها : أرجو الإجابة والإيضاح .

ولقد أَبَيْتُ لنفسي أن أخوض في المسألة إلا بعد أن أطّلع على النص في الكتاب المدرسي المطبوع ، فاشتريتُه فوجدتُ في الصفحة **٤١** منه مانصُّه الحرفي :

« **المضافُ إليه اسمٌ يُضاف إلى اسمٍ قبلَه يسمّىٰ المضاف** »

وهذا خطأ . والصواب :

« **المضافُ إليه اسمٌ يضاف إليه اسمٌ قبلَه يسمى المضاف** » .

وإليك من الأمثلة مايقرِّب المسألة إلى الذهن . إذا قيل : هذا المعهد الرياضيّ مثلاً ـ ليس له مدرِّب ، فأَضِيْفُوا إليه مدرِّباً ، فأضافوه ، فعند ذلك يقال : (أضفنا المدربَ إلى المعهد وهو الآن مدرِّبُ المعهد) .

فمَن هو المضافُ في قولك : هذا مدرِّبُ المعهد ؟ (المدرب) هو

المضـاف . طيّب ! والمعهـد ؟ المعهـد : أُضِيف إليه المـدرب . المعهد : أُضِيف إليه اسمٌ قبلَه .

المضافُ إليه إذاً اسمٌ أُضيفَ إليه اسمٌ قبلُه .

وإليكَ مثالاً آخر : إذا قيل : هذه حديقةٌ لاسياجَ لها ، فأَضِيفُوا إليها سِياجاً ، فأَضــافُوه ، فعند ذلك يقال : (أضفنـا السياجَ إلى الحـديقة . وهو الآن سياجُ الحـديقـة) . فأيُّ هو المضـاف ؟ (السياج) هو الـذي أُضيفَ ، (السياجُ) هو المضاف . طيّب ! والحديقة ؟ الحديقة : أُضيف إليها السياج . الحديقة : أُضيف إليها اسمٌ قبلَها .

المضافُ إليه إذاً اسمٌ أُضيفَ إليه اسمٌ قبلَه .

أمـا الآن فإلى (جلس الصياد على شاطىء البحـر) وهـو المثال الوارد في الكتاب المطبوع .

إذا رأيت فنّاناً قد رَسَمَ بحراً ، فقلت له : ليتَكَ تُضيف الى هذا البحر شاطئاً . فأضـافـه ، فعند ذلك يقال : (الفنان أضاف الشاطىءَ إلى البحر) . فأيُّ إذاً هو المضاف ؟ (الشاطىء) هو الذي أُضيف إلى البحر ، (الشاطىء) هو المضاف . طيّب ! والبحر ؟ البحر : أُضيف إليه الشاطىء . البحر : أضيف إليه اسمٌ قبلَه .

فالمضافُ إليه إذاً هو اسمٌ أُضيف إليه اسمٌ قبلَه .

طيب ! والخــطأ في الكتـاب من أين جاء ؟ جاء من الـرغبـة في الحـذْف للإيجاز ، وعدم تَدَبُّرِ هذا الحذف .

وإليكَ البيانَ : إذا قصدتَ إلى الإطالة فإنك تقول عند إعراب (شاطىء البحر) :

شاطىء : مضافٌ إلى البحر ، والبحر : مضافٌ إليه الشاطىءُ .

فإذا أردتَ إلى الإيجاز حذفتَ مالا يَضُرُّ حذفُه بالمعنى كما ترى :

شاطىء : مضاف ~~إلى البحر~~ ، والبحرِ : مضافٌ إليه ~~الشاطىءُ~~ .

فالشاطىءُ إذاً أضيف إلى (البحر) للتقييد ، والعكسُ أيتها الآنسة الكريمة غلط .

إنكِ جَرَيْتِ مع ماجاء في الكتاب المطبوع بغير تَدَبُّر ، فأخطأتِ ولم تُصيبي وكان أستاذُكِ هو المصيب . وأما الكتاب المطبوع فيجب إعادة النظر فيه .

- ٢٠ -

القطـــــــر

الـذي يبـدو أن مادة (قطر) في العربية ، ليس لها جامع يجمع معانيها ، أو دلالةٌ واحـدة تنظِمها . ولقد نظَر ابن فارس ـ وهو المفتون بردّ مفردات اللغة إلى أصولٍ جامعة لهـا ـ نظَر هذا الإمـام في مادة (قطر) فقـال : « هذا باب غيرُ موضـوع على قياس » . « كلمةٌ : متباينة الأصول »

بهـذا الحكم يفتتح ترجمةَ مادة (قطر) . وهو لايرى أن القياس يتحقّق لها إلا في حالة استعمالها بمعنى (قَطَرَ الماءُ ـ يَقْطُر) إذا تتابع . قال : « والقَطْر قَطْرُ الماء وغيرِه ، وهذا بابٌ ينقاس في هذا الموضع ، لأن معناه التتابُع » .

فلْنبـدأْ إذاً بمـا ينقاس ثم ننتقل إلى سواه ؛ تقول : قطَر الماءُ والدمع وغيرُهما مما يَسِيل ، يَقطُر قَطْراً وقُطُوراً وقَطَراناً إذا سال قطرةً قطرةً ؛ ومعنى التتابع في هذا جليّ لاخفاءَ فيه .

وفِعْلُ (قطر يقطُر) كما رأيتَ هنا ، فعلٌ لازم لم ينصب مفعولاً به . ولكنه يُستعمل متعدّياً أيضاً فينصب مفعولاً . تقول : (قطَرَ الله الماءَ من السماء)، أي أَسالهُ قطرةً قطرةً . ومنه قولُهم (قَطَرَ فلانٌ إبله) إذا قَرَّبَ بعضَها إلى بعض على نَسَقٍ ، وشدّها واحداً خَلفَ واحـد . و كانـوا إذا نَفَـدَت أموالُهم قطَروا إبلَهم فساقوها للبيع . ومنه قولهم : (جاءت الإبل قِطاراً قِطاراً) ، أي مقطورة . فالقطار إذاً في اللغة هو قطار الإبل .

وقـد أُطلقت كلمة (القِطار) في العصر الحديث على العربات التي يتّصل بعضُها ببعض ، على التشبيه بقطار الإبل ؛ وهي بالفرنسية Train وأطلقوا على الآلة التي تجر هذا القطار (القاطرة) وهي بالفرنسية Locomotive .

فالقاطرة إذاً اسمُ فاعل ، مِن (قَطَر ـ يَقطُر) فهو قاطِر وهي قاطِرَة .

وحين جاءنـا من سيارات الشحن ماهـو قطعتـان : الأولى آلـة تَجُرّ ، والثانية عربةٌ تَنْجَـرُّ ، أطلقـوا على الأولى : (القـاطـرة) وعلى الثانية : (المقطورة) . وهو استعمال صحيح لا غبارَ عليه .

قال الزمخشري : «وإبلٌ مقطورة ومُقَطَّرة ، وهي مَقْطورٌ بعضُها إلى بعض » .

فاستعمالُهم اليوم للقطار والقاطرة والمقطورة ، إنما هو مِن (قِطار الإبل) لاتّباع بعضِه بعضاً ، وشدِّ بعضِه إلى بعض .

ويقال أيضاً : (تقاطَرَ القوم) إذا جاؤوا أرسالاً ، وهو مأخوذٌ كذلك مِن (قطار الإبل) على المجاز ، ومثلُه قولهم : (تقاطَرت كُتب فلان) : إذا جاءَت كتُبه يتبع بعضُها بعضاً .

ولقد رأيت من المفيد أن أقف هنا لأوجه النظر إلى مسألة ، وهي أن القِطار يجمع على (قُطُر) وجَمْعُ الجَمْعِ (قُطُرات) . ولو رجعتَ إلى كتُب اللغة لما رأيت للقِطار جَمْعاً غيرَهما ، ولَرأيتَ تنبيهاً على أن جمعَ (القِطار) على (قِطارات) غلط . قال الزبيدي في التاج : « ويقال : جاءت الإبل قِطاراً قِطاراً ، أي مقطورة ، والجمعُ قُطُر وقُطُرات . والعامّة تقول قِطارات » .

ذاك أن كلمة (قطار) لاتتحقق لها شروط جمع المؤنث السالم ، ولذلك تُخطِىء إذا جمعتَها على (قطارات) . غير أنني أوجه نظرك إلى أن في اللغة كلمةَ (قِطارَة) ، والقِطارة مرادفةٌ لكلمة (القِطار) ، فهما بمعنى واحد . فإذا قلت : « يركب المسافرون القطارات » وكنتَ تعني بالقِطارات جمعَ القِطارة ، لاجمعَ القطار فقولُك واردٌ وصحيح .

أورد ابن الأثير في النهايةِ مادّةَ (قَطَرَ) وقال : « ومنه حديثُ عُمارَة : أنه مرّت به قِطارةُ جِمال »، ثم قال : « القِطارةُ والقِطار أن تَشُدَّ الإبلَ على نَسَق ، واحداً خلف واحد » . وترى من ذلك أن القِطار والقِطارةَ سواء ، ولكنّ القِطارةَ هي التي تُجمع جمع مؤنث سالماً ، على قطارات . لا أن القطار يجمع على قِطارات .

أما ما لا ينقاس من هذه المادة فإليكَ شيئاً منه :

أولاً : (القِطْر) وهو النُّحاس ، أو النحاس المُذاب . قال تعالى ﴿ حتى إذا جَعَلَه ناراً قال آتوني أُفْرِغْ عليه قِطْراً ﴾ [1] .

---

١ ـ الكهف / ٩٦

ثانياً : (القَطْر) ، والقُطُرُ أيضاً ، مثل عُسْر وعُسُر : العود الذي يُتَبَخَّرُ به . قال طَرَفَةُ :

وتَـنـادَى الـقـومُ في نادِيهِـمُ　　　أَقُـتـارٌ[2] ذاكَ أمْ رِيحُ قُطُرْ

وقال امرؤ القيس :

كأنَّ الـمُـدامَ وصَـوْبَ الـغَـمـامِ　　　وريحَ الـخُـزامـىٰ ونَـشْـرَ الـقُـطُرْ
يُعَـلُّ بهـا بَرْدُ أنْـيابِـهَـا　　　إذا طَرَّبَ الـطائِـرُ الـمُـسْـتَـحِـر[3]

ثالثاً : (تَقَطَّرَ فلان) : إذا رمىٰ بنفسه مِن عُلْوٍ .

رابعاً : (القُطْر) : الناحيةُ والجانب ؛ ومنه قولُهم : (قَطَّرَ الفرسُ راكِبه) إذا ألقاه على قُطْره ، أي جانبه وشِقِّه . وقولهم : (طعنَه بالرمح فقَطَّره) ، أي ألقاه على تلك الهيئة ، قال الشاعر :

قد عَلِمَـتْ سَلمـىٰ وجَـاراتُـهـا　　　ما قَطَّرَ الـفـارِسَ إلّا أَنَـا

قال ابن الأثير في النهاية : « وفي حديث ابن مسعود : لا يُعْجِبَنَّكَ ماتَرى من المرء حتى تَنظُرَ على أيِّ قُطْرَيْه يَقَعُ »، أي على أي جَنْبَيْه يكون في خاتمة عملِه . وقال تعالى : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ آسْتطعْتُمْ أن تَنْفُذوا مِن أقطارِ السماواتِ والأرضِ فَآنْفُذُوا لا تَنْفُذُون إلا بِسُلْطان ﴾[4] فأقطارُ السماوات والأرض : نواحيها ، والمفردُ : قُطْر .

أخيراً أقول : إن أحد الإخوة من كلية الهندسة في جامعة حلب أرسل يسأل : ما الصِّلَةُ بين قولنا : قُطْرُ الدائرة ، وقولنا : القُطْر العربيّ السوريّ مثلاً ؟

وفي الجواب أقول : إن قُطْر الدائرة ، اصطلاح في علم الهندسة ، يُطلَق على الخط المستقيم ، الذي يقسِم الدائرةَ ومحيطَها إلى قسمين متساويَيْن مارّاً بمركزها . وأعتقد أن رَدَّه إلى أحد معاني مادة (قطر) لن يستقيم لكَ ولو حَرَصْتَ .

٢ ـ ريح اللحم المشوي .
٣ ـ المصوِّت عند السَحَر .
٤ ـ الرحمن/ ٣٣ .

وأما استعمال كلمة (القُطر) لكل دولة عربية ، فمع أنه اصطلاح حديث ، فإنه يرتدّ بيُسْرٍ إلى معنى الناحية والجانب . إذ كل دولة عربية ناحيةٌ من نواحي العالم العربي ، وجانبٌ من جوانبه . فإذا أطلقتَ كلمة (القُطر) على قِسم من الأرض العربية ، فلأن هذا القسم جانبٌ من جوانبها وناحية من نواحيها ، فهو إذاً (قُطْرٌ) من أقطارها.

- ٢١ -

موسيقى القرآن

مرَّ بدمشق منذ شهر تقريباً عَلَمٌ من أعلام الأدب والصحافة في قُطرنا، قادماً من أوروبا ، وضمّنا مجلس ، والحديثُ شجون ، فعرَضْنا لذِكر أستاذنا الأستاذ سعيد الأفغاني وجّه الله له الخير. وقصصتُ عليه وقصَّ عليّ، فقال : إنني أُعُدُّ مِن فَضْله عليّ أن أرْسَبَني مرةً في الامتحان . قلت وكيف ذلك ؟! قال :

جلستُ بين يديه يوم الامتحان الشفهيّ أقرأ قطعةً من كتاب الكامل للمبرِّد، فيها ذكرٌ للخوارج، ومقتلِ خارجيٍّ منهم، وقد طُعِنَ فأَنْفَذَه الرمحُ ، فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : ﴿ وعَجِلْتُ إليكَ رَبِّ لترضى ﴾ [1]قال : وكأن الأستاذ استشعر وأنا أقرأ أنني لم أُميّز قولَه تعالى : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ مما سبقه أو جاء بعده مِن كلام الخارجي ، فسألني : أتجد في هذا النص شيئاً من القرآن ؟ قلت : لا ، قال : فهذا الذي قرأتَه ، كلُّه مِن كلام المبرِّد والخارجيّ ؟ قلتُ : نعم . فقال الأستاذ ، وكان يعلم أنني أكتب أحياناً في الصحف : أديبٌ يمر بآية من القرآن في نصٍّ فلا يميزها من كلام البشر ؟! إنني أرى من الخير لك أن تَرسُب في هذه الدورة لعلك تتمرس بقراءة القرآن ، وكتبِ الأدب، في أثناء الصيف ، فيكونَ في ذلك خيرٌ لك ، ولمن تكتب لهم من الناس .[2] .

ثم قال الأخ الأديب معقّباً : ووالله ماأفادني في تمتين لغتي شيء كما أفادتني أشهر الصيف تلك ، إذ قضيتُها كما نصح لي الأستاذ . . ﴿ وعَسىَ أن تَكْرَهوا شيئاً وهو خَيْرٌ لكم ﴾ [3] .

١ ـ طـه / ٨٤
٢ ـ وكان للامتحان يومها دورتان
٣ ـ البقـرة / ٢١٦

وبعدُ، فهل رويتُ لك مارويتُ رغبةً في القصّ ؟ كلا . بل رويتُ لك ذلك لأقول : إن للقرآن الكريم لَموسيقى ليست لِسواه . وإن له لأُسلوباً متفرّداً لا يكون إلّا له . ولو اقتبستَ منه آيةً فوضعتَها في كتاب، فقرأه قارىءٌ أُرْهِفَ إحساسُه، ووُهِبَ أذناً مستشعِرة، ومُكِّنَ مِن أنْ يتمرّس باللغة وآدابها، نعم لو قرأه هذا القارىء لوجد في موضع تلك الآية من كتابك مايميزها ويُفْردها . فإذا مرّ بها ولم يستشعر ذلك، فضعفُ مَلَكاتِه وقلّةُ تمرُّسه هما السبب . وأما القرآن فهو القرآن !!.

لكنّ الذي هو أشدُّ مِن هذا، أن تضع في آيةٍ منه كلمةً مِن عندِك، مكانَ كلمةٍ من تلك الآية . فهنا الطامّة، هنا النَشاز الذي لا تكون معه موسيقى، وهنا الاضطرابُ وانْهـدامُ البنـاء كلّه . ﴿ أَفَـلا يتدبّرون القرآنَ ولو كان مِن عندِ غيرِ الله لَوَجدوا فيه آخْتلافاً كثيراً ﴾ (٤) .

أنْ تَمُرَّ بآيةٍ فلا تستشعرَ أنّها قرآنٌ شيء ، وأن تضع كلمةً أو كلماتٍ من عندك مكـانَ كلمةٍ أو كلماتٍ من الآية شيءٌ آخر. ولكي لا يكون القولُ عَنْتَرَةً في فراغ، وجَعجعةً بغير طحين، فإنني أُمرِّكَ بهذه التجربة لأُلْمِسَكَ عُقْباها :

قال تعـالى : ﴿ يامَعْشَـرَ الجِنّ والإِنْسِ إنِ آستـطعتُم أن تَنْفُـذُوا مِن أَقطار السماواتِ والأرضِ فانْفُذوا لا تنفُذون إلّا بِسُلطان ﴾ (٥) .

المقامُ في الآية كما ترى مقامُ التحدّي ، ولذلك آفتُتِحَتْ بالنِّداء : (يا) ليسمع مَنْ يَرى ومَن لا يَرى !! ثم نُودي المتحَدّىٰ : (معشرَ الجن والإنس). وفي (المعشَر) معنى شاملٌ للجماعة ، ولو جاء التحدي مقصوراً على فئة دون فئة لَقَصَّر عن أن يكون تحدّياً، ولذلك قال : (الجن والإنس)، وبدأ بالجن لأن الجن أقوى ، ولكنه ثنّى بالإنس ، لأن التحدي موجّهٌ إلى كل ذي قوّة . وتلاحظ أنه أَغفَلَ الملائكةَ ، وفي ذلك دِقّةٌ في الأداء بالغة ، ذاك أن الملائكة لا يَعْصون الله ماأَمَرَهم ، ثم هم يَنْفُذون من أقطار السماوات والأرض بأمر ربهم وسلطان منه ، فلا مجال لِتَحدِّي من يأتَمِرُ بأمر الله . إنما يُتَحَدّىٰ مَنْ يُمْكِن أن يَعْصِي .

٤ - النِّساء / ٨٢ .
٥ ـ الرحمـــن / ٣٣

ثم انـظر إلى فِعْـل (نفذ ـ ينفذ) . لقد تكرر ثلاثَ مراتٍ : (أنْ تنفُذوا، فانفُذوا، لا تنفُذون) . فهل كان ذلك لِخُلُوِّ اللغة مِنَ المترادفات ؟ كلّا . وإنما كان ذلك لأن في (نَفَذَ مِن الشيء) معنى خُلُوصِ الصغير من الكبير ، كما ينفُذ السهمُ من الرَمِيَّة . والآية تريد أن تصغر شأن المستكبرين ، وتُهَوِّن قُدرتَهم إذا قِيسوا إلى أرضٍ وسماواتٍ أُحْكِم صُنْعهنّ، حتى استحال منهنّ النُّفوذُ .

وأمـا المـوسيقى في الآية، فأُبـرزُهـا لك بِضِدّها، وقديماً ما قال المتنبي : (وَبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ). تَخَيَّلْ أن نَظْمَ الآيةِ كان مثلًا : « يا أيها الذين آمنوا مِن الجن والإنس » فماذا يَبقىٰ مِن موسيقى الآية ؟! وماذا يبقى من معناها ؟!

أما الموسيقى فتصبح نَشازاً مطلقاً، ومَنْ أُوتِيَ أذناً مستشعِرَةً، وحِسّاً مُرهَفاً لم يُنْكِـر علينـا مانقول . وأما المعنى فيُمْسي سُخفاً مضحكاً . فما معنى أن يتحدّى القـرآنُ المؤمنينَ مِن الجن والإنس ؟! إنمـا يكون التحدي لغير المؤمنين ، يكون للعُصاة الذين يستكبرون فيمشون في الأرض مَرَحاً، يظنون أنهم قادرون على أن يَخـرقـوا الأرضَ أو يبلغوا الجبال طُولاً . فهؤلاء من الجن والإنس يقال لهم : إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفُذوا .

بالأمس جاءتني رسالة من مدينة الرَّقَّة يقول لي مرسلها : إنك بحثتَ في كلمة (القُطْر) قبلَ حين، واستشهدتَ بقوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ فقلتَ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ !!

قال : ولا يجوز هذا التحريف، كما فعلتَ أنت . فإما أن تُقِرَّ بخطئك وتُعلِنَه على الشاشة، وإما أن أَنشُرَ هذه الرسالة في وسائل الإعلام المختلفة .

وأنا أقول للأخ صاحب الرسالة : استرِحْ ولا تنشرْ في الصحف فهاأنذا أجيبك :

١ ـ بالأمس جاءتني رسالةٌ حول هذا البرنامج من مَرْسِين في تركيا، وأنا أشكر لمُرسلها . ومعنى ذلك أن ماأُذيعه يصل في الأقلّ إلى سُوريَةَ ولبنانَ والأردن وتركيا .

ففضيحة الخطأ إذاً على هذه الشاشة أشنعُ من الفضيحة في الصحف !! ولذلك أقول لك : إن تهديدك بالنشر في الصحف لايخيفني . « أنا الغريقُ فما خوفي مِنَ البَلَل » ؟

٢ ـ كلُّ ابنِ آدمَ خَطّاء، والذي لا يخطىء هو الله . ولكنّ الخطأ في القرآن خطأٌ مزلزِل، لأن معناه فِقدانُ الحِسّ الموسيقي عندي، والجهلُ بالقرآن، وانعدامُ الاستشعار اللغويّ والأدبي .

فأما الموسيقىٰ فلستُ كَلّاً عليها، ولا مِنَ العِيال فيها. وأما القرآن فصديقي والله منذُ خمسين سنة . وأما الحِسُّ الأدبيُّ واللغوي فأحمَدُ اللهَ على ماعندي منهما وأسألُه أن يَزيدَني .

ولكنْ بِمَ تدفَعُ أنت عن نفسك إذا قلت لك : إنك أنت المخطىء ؟ وإنك أسمعْتَ أذنَـك مِني ما لم أقُـل ؟ وكيف بك إذا عرضتُ عليك الآن وعلى الناس جميعاً، ماقلتُه في حلقة (القُطر) فأبرزتُ لك حُجَّةً لا تُدْحَض. وإليكها مَرئيّةً مسموعة [٦] .

وبعـد فما أعرضت عن ذكر اسمِك إلا لأنني أشفقتُ أن تكون غداً حديث إخوانك في مدينة الرَّقّة !

٦ ـ قطَعَ التلفزيون يومذاك بثّ هذه الحلقة ، وعرض القسمَ المتعلق بالآية مرئياً مسموعاً كما ورد في حلقة (القطر) .

- ٢٢ -

حلـــو العِشــرة

يقـول ابن فارس في المقاييس : « العين والشين والراء أصلان صحيحان : أحدُهما في عَدَدٍ معلوم، ثم يُحْمَلُ عليه غَيرُه ». ويعني بالعدد المعلوم : العَشَرَة للمذكر، والعَشْر للمؤنث .

ولا أُطيل الوقوفَ عند هذا الأصل فهو معروف ، وإنما أكتفي منه بذكر فائدةٍ قد يُحتاجُ إليها في مجال العدد . وأنقلها لك عن الزمخشري في الأساس، مِن دونِ المـراجـع الأخرى ، لأنني رأيتُه يَبُتُّ فيها ويحسِم . وذلك أنك تقول : « عَشَّرْتُ القومَ » إذا كانوا تِسعةً فجَعلتَهم عَشَرةً . وتقول : « عَشَرْتُ القَومَ » بغير تشديد ، إذا أخذتَ من العشَرة واحداً فصاروا تِسعةً .

فالفرق بين المعنيين ـ كما ترى ـ متعلِّقٌ بالفرق بين اللفظين . فمع التشديد إضافةُ واحدٍ فيبلغُ العددُ العشَرة، ومع التخفيف نقصٌ، فيرجع العدد إلى تِسعة .

مع التشديد زيادةٌ ، ومع التخفيف نقصٌ .

أما الآن ، فإلى الأصل الثاني في مادة العين والشين والراء . وقد أورده ابن فارس فقـال : « فأمـا الأصـل الآخـر الـدال على المخـالـطة والمـداخلة فالعِشْرَة والمُعاشَرَة » قال : «ويقال عاشَرَه مُعاشَرَةً جميلة » . وفي التاج : « عاشَرَهُ مُعاشرةً، وتعاشَروا واعْتَشَروا : تخالطوا » . قال زهيرُ بنء أبي سُلْمَىٰ حين طلّق امرأتَه أمَّ أَوْفى :

لَعَـمْـرُكَ والـخُـطوبُ مُغَيِّراتٌ ... وفي طُول المُعَـاشَـرَةِ التَّقَـالِي(١)
لقـد بالَـيْتُ مَظْعَـنَ أُمِّ أَوْفـىٰ ... ولـكـنْ أُمُّ أَوْفـىٰ لا تُبَـالِـي

والعشير : المعـاشر، كالصديق والمصادِق . وبه فُسِّر قولُه تعالى : ﴿ يَدْعُو

---

١ ـ التباغض

لَمَنْ ضَرُّهُ أَقربُ مِن نَفْعِه ، لَبِئْسَ المَوْلىٰ ولَبِئْسَ العَشِير﴾ [٢] . قال الزمخشري : « وهو عَشِيرُك ، أي مُعاشِرُك ، أيديكُما وأَمرُكما واحد » .

وعَشِيرُ المـرأة : زوجُهـا ، لأنـه يعـاشرها وتعاشره . وعشِيرة الرجل بنو أبيه الأَدْنَوْن ، أو قبيلتُه ؛ والجمع : عشائِر . وإنما سُمِّيَت عشيرةُ الرجل عشيرةً لمعاشرة بعضِهم بعضاً . قال تعالى يخاطب رسولَه الكريم : ﴿ وأَنْذِرْ عَشيرتَك الأَقْرَبين ﴾[٣] .

والمَعْشَرُ : الجماعة ، متخالطين أو غيرَ ذلك . ومنه قوله تعالى : ﴿ يامَعْشَرَ الجِنّ والإنس إنِ آسْتَـطَعْتُم أنْ تَنْفُذُوا مِن أقطارِ السماواتِ والأرض فَآنفُذوا ، لا تنفُذون إلاّ بسُلطان ﴾ [٤] .

قال صاحب اللسان : (والمَعْشَر والنَّفَر والقوم والرَّهْط معناهم الجمع ، لا واحد لهم من لفظهم ، للرجال دون النساء) فأنت لاتقول إذاً لجماعة النساء : (معشر أو نفر أو قوم أو رهط) . وإنما تقول ذلك للرجال دون النساء .

وفي التـاج ، عنـد ترجمـة (المَعْشَـر) مايستحق الإيراد ، قال : « والمَعْشَر كَمَسْكَن : الجماعة » ، ثم قال : (وقيَّدَه بعضُهم بأنه الجماعة العظيمة ، سُمِّيَت ـ أي سُمِّيَتْ بذلك ـ لبلوغها غايةَ الكثرة ، لأن العَشَرَة هو العدَد الكاملُ الكثير ، الذي لا عددَ بعدَه إلا وهو مركَّب مما فيه من الآحاد ، كأحدَ عشَر ، وكذا عِشْرون وثلاثون» الخ . . وعلى ذلك يقول ذو الإصْبَع العَدْوانِيّ :

وأَنْـتُـمُ معـشَـرٌ زَيْدٌ علىٰ مِئَـةٍ ... فأَجْـمِـعُـوا أَمْـرَكُم طُرّاً فَكِيدُوني
فإن علِمْتُمْ سَبيلَ الـرُّشْـدِ فَآنْطَلِقُوا ... وإن جَهِلْتُمْ طريقَ الـرُّشْـدِ فَأْتوني

ويقول البحتريُّ في دالِيَّتِهِ يفخر بطيّئٍ ، وهم رهْطُهُ وقَوْمُه :

ذَهَـبَـتْ طَيّءٌ بسـابِـقَـةِ الـمَـجْـدِ على الـعـالـمـينَ بأْسـاً وجُـودا

---

٢ ـ الحج / ١٣ .
٣ ـ الشعراء / ٢١٤ .
٤ ـ الرحمن / ٣٣ .

مَعْشَرٌ أَمْسَكَتْ حلومُهُمُ الأرضَ وكادتْ مِنْ عِزِّهِم أنْ تَميدا

وفيها يقول أيضاً :

مَعْشَرٌ يُنْجِزُونَ بالخيْرِ والشَّـــرِّيَدَ الدَّهْرِ مَوْعِداً وَوَعِيدَا

بقِيَ بعدَ هذا أن نعرِّج على ماساق إلى هذه الحلقة . فقبل حين عُرِضَت في التلفزيون حلقةٌ من مسلسل أجنبيّ وَصَفَتْ فيه امرأةٌ أحدَ الرجال فقالت : « كان جميلاً حُلْوَ المعشَر تلاحِقُه جميعُ النساء » .

وقول المترجِم : « حلو المَعْشَر » غلطٌ بَيِّن . فـ(المَعْشَر) كما ذكرتُ لك آنفاً : الجماعةُ متخالطين أو غيرَ ذلك . والمعشَر: الجماعة الكثيرة . والمعشر : كل جماعة أمرهم واحد . و(معشر) الرجل : أهلُه.

ولذلك يكون وصفُ الرجل بأنه (حلو المعشَر) كلاماً في غير محلّه . لأن معناه : (هو رجل حلو الجماعة) . وهو معنىً غيرُ مراد ؛ غير وارد هنا . إذ لا علاقة له بوصف الرجل بأنه جميل العِشرة .

وكان الصواب أن يقول الأخ المترجم : كان رجلاً حلو العشرة، أو كان رجلاً حلو المعاشرة، أو كان رجلاً حلو التعاشر.

فكل هذا وارد وصحيح . وأما أن الرجل (حلو المَعْشَر) فغلط .

ـ ٢٣ ـ

إنْ : النافيــة

إذا قلتَ : (جلسَ خالدٌ) تمّ الكلام . فهنا فعلٌ وفاعلٌ مرفوعٌ به ، والفائدةُ تتمّ بالفعل ومرفوعه في قولك هذا . وأما إذا قلتَ : (كان خالدٌ) ، فقولُك هذا ليس كلاماً تاماً . لماذا ؟ لأن الفائدة لم تتمَّ بالفعل ومرفوعه . فالمستمع يظل ينتظر أن تُخْبره : كان خالـدٌ ماذا ؟ حتى إذا قلتَ له : (كـان خالـدٌ مسـافراً) ، قال لك : الآن تمّتِ الفائدة ؛ أو : هذا كلام تامّ .

فالفائدة إذاً في قولك (كان خالد) ، لا تتم بالفعل ومرفوعه ، وإنما تتم بعد مجيء الاسم المنصـوب ، أي (كـان خالـدٌ مسـافراً) . ولذلك يقولون في (جلس خالد) ، جلس : فعل تامّ ، ويقولون في (كان خالد مسافراً) ، (كان) فعلٌ ناقص .

هذا معنى قولهم : « كان وأخواتها أفعالٌ ناقصة » ، فنَقْصُها إذاً هو أنها تحتاج مع مرفوعها إلى منصوب ؛ هذه مسألة أولى .

وأمـا المسـألـة الثانية فهي أن في اللغة أربعةَ أحرفٍ ، ترفع الاسمَ وتنصب الخبر . فهي من هذه الوجهة ، مِن أخوات (كان) ، لأنها تعمل عملَها . ولكنّ النحاةَ نظروا فرأَوْا معناها النفيَ ، ومعنى (ليس) النفيَ أيضاً ، ولذلك قالوا : هي أخوات (ليس) . ولم يقـولوا هي أخوات (كان) . هذه الأحرف الأربعة هي (إنْ ، ما ، لا ، لاتَ) . ولأن حلقاتِ هذا البرنامج ليست دروساً في النحو ، وإنما هي أحاديثُ فيه وفي اللغة ، فسأجتزئُ من هذه الأحرف بـ (إنْ) ، وأَمَسُّها مَسّاً رفيقاً .

تقول : (إنْ خالدٌ مسافراً) ، فيكون المعنى : (ليس خالدٌ مسافراً) ، فـ (إنْ) هنا معناها النفيُ ، كما قدّمنا آنفاً ، وقد رأيتَ أنها رفَعَت الاسمَ ونصبت الخبر.

وقد سُئلتُ حول (إنْ) هذه سؤالين ، أجعلهما محور هذه الحلقة .

أما السؤال الأول فمِن أخٍ معلِّمٍ متقاعد ، قال : كان أستاذُنا كثيراً ما يردّد بيتاً من الشعر ، أذكرُ صدرَه وقد نسيتُ عجُزه ، كان يقول :

«إِنِ المَرءُ مَيْتٌ بِٱنْقِضاءِ حيَاتِه»

قال الأخ المعَلم : وهذا يدل على أنَّ (إِنْ) لا تعمل عمَلَ (ليس)، فهل هذا وارد ؟ وفي الجواب أقول : إنّ ههنا مسائلَ لا مسألة ، وإليكَها :

أولاً : إنّ ماذكرتَه هو صدرُ بيتٍ من شواهد النحو، مجهولِ القائل . وليست روايتُه كما ذكرتَ، بل هي : «إِنِ المَرْءُ مَيْتاً» بنصب كلمة (ميْت) . والبيتُ بتمامه :

إِنِ المَـرْءُ مَيْتـاً بِٱنْقِضـاءِ حياتِـهِ ولـكِـنْ بأَنْ يُبْـغـىٰ علَيهِ فيُخْـذَلا

ومعنـاه : أَنَّ موتَ المـرءِ ليس بانتهاءِ حياتِهِ ، وإنّما موتُه أن يُظْلَمَ فلا يجدَ نصيراً يَنْتَصِفُ له . يعني : أنّ خِذلانَ النَّصير لكَ عندَ نزول الظُلم بِكَ ، أشدُّ مِنَ الموتِ الحقيقيّ . وفي البيت شاهدٌ على أَنَّ (إنْ) النافية، تعمل عملَ (ليس)، فترفع الاسمَ وتنصب الخبر ، وقد رفعَت الاسم وهو (المرءُ) ونصبَت الخبر وهو (ميتاً) .

ثانياً : هل بين النحاة إجماعٌ على أنَّ (إِنْ) هذه، تعمل عملَ (ليس) فترفع الاسم وتنصب الخبر ؟ في الجواب أقول : ليس بينهم إجماعٌ على ذلك، بل بينهم اختلافٌ فيه . ففريق يقول : هي لا تعمل شيئاً، وبعدها مبتدأٌ وخبر . وفريق آخرُ يقـول : بل هي ترفـع الاسم وتنصب الخبـر، ويستشهـدون لذلـك بأن الآية الكريمة : ﴿ إِنّ الذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أمثالُكم ﴾ [1] قد قرأها سعيدُ بنُ جُبَيْر ﴿إِنِ الذين تَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ عباداً أمثالَكم﴾ بنصب العِباد ، أي بإِعمالِ (إِنْ) عَمَلَ (ليس) .

وقد نَقَلُوا عن أهل العالِيَة[2]. قولَهـم : « إِنْ أَحَدٌ خَيْراً مِن أَحَدٍ إلّا بالعافِيَة » .

وأما السؤال الثاني فهو : أيصحّ أنْ يُقال : « المسألةُ الفلانيّةُ إِنْ هي إلا كَلاماً » ؟

وفي الجواب أقول : هذا لا يصحّ ؛ غلط . لأن من شروط إعمالِ (إِنْ) ألّا يكون في جملتها (إلّا)، فإذا استُعْمِلَت (إلّا) في جُملتها، بَطَلَ عَمَلُها ، وأصبح مابعدَها مبتدأً وخبراً .

---

١ ـ الأعـراف / ١٩٤

٢ ـ العالية : قُرىً بظاهر المدينة .

فأنت تقول : (إنْ خالدٌ مسافراً)، أي ليس خالدٌ مسافراً، فتُعْمِلها عَمَلَ (ليس) فترفع بها الاسمَ وتنصب الخبر . فإذا أتيتَ في جملتها بـ (إلّا) بَطَلَ عملُها، فقلت : (إنْ خالدٌ إلا مسافرٌ) . ولا يجوز غيرُ هذا، فهذه قاعدةٌ ، مُجْمَعٌ عليها ولا استثناءَ فيها . ولولا ضيقُ الوقت لَأوْردتُ لك من الشواهد القرآنية على ذلك شيئاً كثيراً ، ولذلك أكتفي بشواهدَ ثلاثةٍ.

ففي سورة فاطر: ﴿ إنْ أنتَ إلا نذيرٌ ﴾ [٣]

وفي سورة الأنعام : ﴿ وقالوا إنْ هي إلّا حياتُنا الدنيا ﴾ [٤] .

وفي سورة إبراهيم : ﴿ قالتْ لهم رُسُلُهُمْ إنْ نحن إلا بَشَرٌ مثلُكم ﴾ [٥] .

مما تقدم نخلُص إلى مايلي :

أولاً : (إنْ) النافية :

عند فريقٍ من العلماء تَعمَلُ عَمَلَ (ليس) : إنْ خالدٌ مسافراً .

وعند فريقٍ آخرَ لا عملَ لها : إنْ خالدٌ مسافرٌ .

ثانياً : يُجْـمع العلماءُ على أنها لا تَعمل، إذا كان في جملتها (إلّا) :

إنْ خالدٌ إلّا تلميذٌ .

ثالثاً : الرواية الصحيحة للشاهد النحويّ على إعمالها هو :

إنِ المَــرْءُ مَيْتــاً بِانْقضــاءِ حَياتِـهِ ولـكـنْ بأَنْ يُبْـغـىٰ عليه فَيُخْــذَلا

٣ ـ فاطـــر / ٢٣

٤ ـ الأنعـام / ٢٩

٥ ـ إبراهيم / ١١

- ٢٤ -

المبتـــدأ والخبـــر

المبتـدأ والخبـر لا يَكاد يجهلهما متعلم ، مهما تكن ثقافته اللغوية ؛ فهما اسمان مرفوعان تتألف منهما جمَلة مفيدة ، مثال ذلك أن تقول : (الدمعُ لؤلؤٌ).

ومن المعروف أن الخبر إنما يُؤتى به ليُخبر عن المبتدأ . فإذا قلتَ : (الدمْع)، احتـاجت هذه الكلمة إلى ماتُخْبِر به عنها . ولذلك تقول : (لؤلؤ). فتخبرُ بهذه الكلمة عن الدمع ماشأنُه . فالمبتدأ إذاً : مُخْبَرٌ عنه ، والخَبَر : مُخْبَرٌ به ؛ المبتدأ محكومٌ عليه ، فإذا قلت : (الدمع) كان لابد من أن تحكم عليه فتقول :(لؤلؤ) مثـلاً . ويجب توجيه النـظر هنـا إلى أن الحكم، لا يكـون إلا على ماهـو معلومٌ معروف . فالقاضي مثلاً لا يحكُم على رجلٍ غيرِ معروفِ الهُويّة؛ وكذلك الشأن في المبتدأ ، لا يُحْكَم عليه إلا إذا كان معلوماً ، إلا إذا كان معروف الهُويَّة .

(خـالـد) مثـلاً، اسم علم، معـرفـة. ولـذلـك يكون مبتدأً فتقول : (خالدٌ مهذبٌ) . و(التلميذ) معرَّفٌ بالألف واللام، ولذلك يكون مبتدأً فتقول : (التلميذ مجتهد) . واسم الإشارة معرفة، ولذلك يكون مبتدأً فتقول : (هذا عالم). . . . . . .

الحُكمُ على مجهـول لَغْو. فما معنى أن تحكم على غيرِ مُعَيَّن ، على غير مُخَصّص ؟ إذا قلتَ : (تلميذٌ مجتهدٌ) فهذا لَغْو . وإذا قلت : (خالدٌ مجتهدٌ) فهذا كلام تامّ ، كلام مفيد .

ومع ذلك فإن النحاة يَتَسَمَّحون ، فيقبلون أن يكون المبتدأ نكرةً على شرطِ أن تكون مفيدةً. وقد ذكروا مواضعَ إفادتِها واستَقْصَوْها، حتى وصلوا بها إلى أكثَرَ من أربعينَ موضعاً . قال ابن مالك :

ولا يَجُـوزُ الابـتِـدا بالـنَّـكِـرَةْ ... ما لم تُفِـدْ كَـ« عِنـدَ زيدٍ نَمِـرَةْ »

ففي قول ابن مالك : (عند زيد نمرة) نمرة : مبتدأ مؤخر وهو نكرة ، ولكنْ تَقدَّم عليه الظرفُ فجاز الابتداءُ بالنكرة لأنها أفادت .

وفي قولـك : أرجـلٌ قَدِمَ أم امرأة ؟ الهمزة للاستفهام، و(رجل) نكرة، وهو مبتدأ، وجملة (قدم) خبر. طيب ! لِمَ جاز أن تكون كلمةُ (رجل) مبتدأً مع أنها نكرة ؟

جاز ذلك لأن هذه النكرة معتمدةٌ على استفهام ، والنكرةُ في سياق الاستفهام تصبح مفيدةً . بهذا أصل إلى غايتي من هذه المقدمة وأوجز لك ماقدمته :

الأصل في المبتدأ أن يكون معرفةً، ولكنْ يجوز أن يكون نكرةً على شرط أن تكون مفيدةً، كأن يسبقها استفهامٌ مثلاً .

طالب جامعي من كلية الهنـدسة في جامعة دمشق كان قبل حين كتب إلي يقول : قال الشاعر : « أَلؤلؤٌ دمعُ هذا الغَيْثِ أم نُقَطُ »؟

وقد أعرَبَ بعضُهم كلمةَ (لؤلؤ) مبتدأً، وأعرب كلمةَ (الدمع) خبراً . وأنا أرى العكس فأيُّنا المصيب ؟

وفي الجواب أقول : إن مَن أعرب كلمة (لؤلؤ) مبتدأً مع أنها نكرة، فقد رأى أن النكرة في سياق الاستفهام تُفيد فتكونُ مبتدأً ، وهذا تُجيزُه الصناعةُ النحوية . وقد بيّنتُ لك ذلك آنفاً .

وأما أنت فقلت : (الدمع) هو المبتدأ ، لأنه معرفة . (ولؤلؤ) خبرٌ مقدّم، وهو نكرة . فأخذتَ بالأصل . قال ابنُ يعيش في شرح المفصَّل : « اِعلمْ أن أَصْل المبتدأ أن يكون معرفةً، وأَصْلَ الخبر أن يكون نكرةً، فإذا اجتمع معك معرفةٌ ونكرةٌ فحَقُّ المعرفة أن تكون هي المبتدأ، وأن يكون الخبرُ النكرةَ. لأنك إذا ابتدأت بالاسم الذي يعرفه المخاطَب كما تعرفه أنت، فإنما ينتظِر الذي لا يعلَمُه ».

وانظر إلى الأئمة كيف أعربوا قوله تعالى : ﴿ أفسحر هذا ﴾ [1] تَرَهُمْ أعرَبوا كلمةَ (هذا) مبتدأً مؤخراً، وكلمةَ (سحرٌ) خبراً مقدماً، لأن هذا هو الأصل .

قال العُكْبَرِيُّ : قولُه تعالى : (أفسحر) هو خبرٌ مقدم. وقال ابن الأنباري : أفسِحْرٌ هذا ؟ (هذا) في موضع رفعٍ ، لأنه مبتدأ. و(سِحْرٌ) خبرُه مقدمٌ عليه ..

وتستنتج مثلَ ذلك من كلام الزمخشري في الكشاف . قال : « أفسحرٌ هذا ؛

---

١ ـ الطـور / ١٥

يريد : أهذا المِصداقُ أيضاً سِحرٌ » ؟ فترى الزمخشريَّ يقدِّم المعرفةَ ، ويؤخِّر النكرة ، لأن ذلك هو الأصل .

وأعودُ بك إلى ابن يَعِيش ، لأذكر لك ماقاله في مجيء النكرة مبتدأً ؛ قال : « وقد ابتدؤوا بالنكرة في مواضعَ مخصوصةٍ لحصول الفائدة . . . . منها : النكرةُ إذا اعتمَدَتْ على استفهام . . وذلك نَحْوُ قولِك : أَرَجُلٌ عندك أم امرأة » ؟

وقياساً على ذلك أقول : أنت لا تخطىء إذا جعلتَ كلمة (لؤلؤ) مبتدأً ، إذ قد سبقها استفهام ، ولكنْ هل يُحَقِّقُ هذا الإعرابُ المعنى الذي أراده الشاعر ؟

الشاعر قال : (ألؤلؤٌ دمعُ هذا الغيث) ؟ فهل أراد أن يقول لك : (اللؤلؤ دمع) كلّا . بل أراد أن يقول : (الدمع لؤلؤ) . ولذلك تكون كلمة (الدمع) مبتدأً مؤخراً ، وكلمة (لؤلؤ) خبراً مقدماً .

ولو عكستَ لما قلنا لك إنك أخطأت ، ولكنْ نقول لك : إنك أطَّرَحْتَ المعنى ، والمعنى إمامٌ ، وأعرضتَ عن الأصل ، فأخذتَ بما ليس أصلاً ، وكان الأصل أحقَّ بأن يُؤخَذَ به .

- ٢٥ -

التقـــــاه

صاحبُ اللسان يترجم مادة (لَقِيَ) فيقول : كل شيء استَقْبَلَ شيئاً، أو صادفه، فقد لَقِيَه . وبالحق ، إنك تظلّ تلمس ذلك مهما تتقلبْ هذه المادة ، فتجدُه في ٱلتَقَىٰ الشيئان، وفي لَقِيَه ولاقاه وتَلَقّاه الخ . . . في كل ذلك تَجِدُ معنى المقابلة والمصادفة .

قال الراغب الأصفهاني : (اللِّقاء مقابَلَةُ الشيء ومصادفتُه معاً، وقد يُعَبَّرُ به عن كل واحدٍ منهما) . ويعني ذلك أنك قد تجد في بعض استعمالات هذه المادة معنى المقابلة أحياناً ، وقد تجد فيها معنى المصادفة أحياناً أخرى ، وقد تجد فيها المعنيين جميعاً .

أما ابن فارس فيقول : (اللِقاءُ المُلاقاةُ وتَوَافِي الاثنين متقابلَيْن) . وترى ذلك في قولـه تعـالى : ﴿ فإذا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقاب ﴾ [١] ففي هذا توافٍ وتقـابُـل . وتراه في قوله تعالى ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلتَقِيان ، بينهما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيان ﴾ [٢] فالتَّوافي والتَقابُلُ هنا مستغنيان عن الإيضاح . وقال الشمّاخُ بنُ ضِرار :

رَأَيْتُ عَرابَـةَ الأوْسِـيَّ يَسْـمُـو ... إلـى الـخَـيْراتِ مُنْقَـطِعَ القَـرِين
إذا مارايَةٌ رُفِـعَـتْ لِمَـجْـدٍ ... تَلَقّـاهـا عَرَابَـةُ بالـيَمِـين

(تلقّاها) : يعني أخذها ، وكيف يأخذها إن لم يستقبِلْها .

الشواهد على ذلك كثيرة، من القرآن الكريم، وكلام العرب . ولكنني أجتزىء بما قدّمتُ لأقِفَ عند فِعلِ (التَقَى) إذ هو غايتي في هذه الحلقة .

أولاً : يجـري الناس في الأكثر على أن يستعملوا فعل (التقى) لازماً، غير

---

١ ـ محمـــد / ٤ .

٢ ـ الرحمن / ١٩ ـ ٢٠ .

ناصب مفعـولاً به. يقولون مثلاً: (التقى الرجلان، والتقى الجيشان) الخ . . وهو استعمال صحيح سليم، لا غُبارَ عليه .

ففي سورة القمر ﴿ وفَجَّرْنا الأرضَ عُيوناً فآلتَقَىٰ الماءُ على أَمْرٍ قَدْ قُدِر﴾ [٣] . أي : ماءُ السمـاءِ وماءُ الأرض . وفي سورة آل عِمران ﴿ إن الذين تَوَلَّوْا منكم يومَ آلتَقَىٰ الجَمْعَانِ إنما آسْتَزَلَّهُمُ الشيطان ﴾ [٤] . وفي سورة الأنفال ﴿ وإذْ يُريكُمُوهُمْ إِذِ آلتَقَيْتُمْ في أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ﴾ [٥] . فهذه ثلاثةُ شواهدَ على استعمال فعل (التَقَى) لازماً، في أحوال الكلمة المختلفة .

ويقولون أيضاً : اِلتقىٰ فلانٌ مع فلان ، وهذا اسْتعمالٌ لَيْسَ له شاهدٌ يؤيّده ، غير أنَّ ابـنَ الأثير في النهـاية اسْتَعْمَلَهُ فقـال : (التقى مع) ، ولكنَّ ابنَ الأثيرِ لايُسْتَشْهَدُ بِلُغَتِه. فالرجلُ مُتَوَفّىً سنةَ ٦٠٦ للهجرة.

جاءَ في النهـاية ما أُوْرِده لك : «دَخَـلَ أَبـو قارِظٍ مكّةَ فقالتْ قريشٌ حَلِيفُنا وعَضُدُنا ومُلْتَقىٰ أكُفِّنا» . فقال ابنُ الأثير في التعليق على ذلك : «أيْ أَيْدِينا تَلْتَقِي مَعَ يَدِه» . فإذا اسْتَنَدَ كاتبٌ إلى لُغَةِ ابنِ الأثيرِ فاستشهد بها كما يُسْتَشْهدُ بالقرآن والحديث وكلام العرب . فقالَ : اِلتقى فُلانٌ مع فلانٍ فذلك شَأْنُه.

ثانياً : أقول : ماسُئِلتُ عن شيء من اللغة ومفرداتها، كما سُئلتُ عن جواز استعمال (التَقَىٰ فلانٌ صديقَه) مثلاً، أو (التقى خالدٌ سعيداً) الخ . . فلقد جاءتني رسائلُ حول ذلك ، وسُئلت مراتٍ في الطريق، ولذلك أدرت حلقة اليوم حول هذه المسألة . وأبادر فأقول : إن فِعل (التقى) ، كما يجيء لازماً ، يجيء متعدياً فينصب مفعولاً به . فإذا قلتَ: (التقى خالدٌ سعيداً) مثلاً، فنصبتَ به كلمةَ (سعيداً) على أنها مفعول به، فاستعمالُكَ هذا صحيح فصيح ، ما في ذلك شك . وإليك الأدلةَ على ذلك والشواهِدَ :

---

٣ ـ القمر / ١٢ .
٤ ـ آل عمران/ ١٥٥ .
٥ ـ الأنفال / ٤٤ .

قال صاحب القاموس : « لَقِيَه . . . لِقاءً كَتَلَقّاه وٱلتَقَاهُ » . فتراه يورد فعل (التقاه) متعدّياً ناصباً للضمير . وقال ابنُ سِيدَه : « وتَلَقّاه وٱلتَقَاه » . وقال الزمخشري في الأساس : « لقيتُه ولاقَيْتُه وٱلتَقَيْتُه » . ثم أورد قول الشاعر :

لَمّا ٱلتَقَيْتُ عُمَيْراً في كَتِيبَتِهِ عايَنْتُ كَأْسَ المَنَايا بَيْنَنا بِدَدَا[6]

ولو لا ضيقُ الوقت وخَشيةُ الإطالةِ لَنَقَلْتُ لك الكثيرَ من أقوال الأئمة في ذلك ، إذ هم جميعاً على أنّ (التقى) يُستعمَلُ لازماً ومتعدياً .

بعد هذا أنتقل إلى الحديث عن مصدر الفِعل (لَقِيَ) ، ففي اللسان : « قال ابنُ بَرّي : المصادرُ في ذلك ثلاثةَ عَشَرَ مَصْدراً » . ونجتزيء نحن في حلقتنا هذه باثنين فقط .

الأول : (اللِّقاء) وهو مشهورٌ ، كثيرٌ استعمالُه .

والثاني : (تِلقاء) وهو مصدرٌ من المفيد البحثُ فيه .

قال علماءُ اللغة : المصادر لا تأتي على وزن (تِفْعال) وإنّما تأتي بفَتْح التاء (تَفْعال) كتَذْكار وتَكْرار وتَرْداد الخ . . وقد شذّ مصدران هما : (تِلقاء وتِبيان) . وقد وَرَدَا في القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ ونَزَّلْنا عليكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكلِّ شَيْء ﴾[7] . وفي سورة يونس ﴿ قُلْ مايكونُ لي أنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ نَفْسِي ﴾[8] .

وقد نقل ابنُ منظور أنّ (تلقاء) مصدرٌ نادر، لا نظيرَ له إلا (التِبيان) قال الراعي الشاعر :

وما صَرَمْتُكِ حتى قُلْتِ مُعْلِنَةً لا ناقَةٌ لِيَ في هذا ولا جَمَلُ
أَمَّلْتُ خَيْرَكِ ، هل تَأْتِي مَواعِدُهُ فاليومَ قَصَّرَ عنْ تِلْقائِهِ الأَمَلُ

ولعل من المفيد أن أذكر لك أنهم توسّعُوا في هذا المصدر (تلقاء) فاستعملوه

---

٦ ـ بِدَد : ج : بِدَّة وهي النصيب .
٧ ـ النحل / ٨٩ .
٨ ـ يونس / ١٥ .

ظرفَ مكان، بمعنى (جِهَةِ اللِقاءِ والمُقابَلَةِ) ، ونصبوه على الظرفية . قال تعالى : ﴿ ولَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسىٰ ربِّي أنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيل ﴾ [٩] .

وبعد فمما تقدم نخلُص إلى مايلي :

١ ـ مادة (لقي) فيها معنى المُلاقاة، وتوافي آلاثنينِ متقابِلَيْن كما قال الراغب . ومعنى (المصادفة والاستقبال) كما جاء في اللسان وغيره .

٢ ـ (التقى) يُستعمَل لازماً فيقال : (التقى الجيشان) مثلاً ، ويستعمل متعدّياً فيقال : (التقى خالدٌ سعيداً) مثلاً .

٣ ـ (تِلقاء وتِبيان) مصدران شَذّا فجاءا على وزن (تِفعال) وإنما الأصل أن تكون المصادر على وزن (تَفْعال) كتَرداد وتَكرار .

٤ ـ (تِلقاء) مصدر، ولكن توسّعوا فيه فاستعملوه ظرفَ مكان .

---

٩ ـ القصص / ٢٢ .

- ٢٦ -

ميْــت وميّــت

معنى (ماتَ يَمُوت) معـروفٌ مشهـور ، ويَسْمُجُ البحثُ فيما هو معروفٌ مشهور ، ولكنّ أَصْلَ المادة، فيه مايقال ويستفاد. فالذي عليه العلماء أن الموت هو السُّكـون، وأن كلَّ ماسَكَنَ فقـد مات . وأمـا ابن فارس فله رأيٌّ آخـرُ . قال في المقاييس : « الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذَهاب القوة من الشيء ، منه المَوتُ خِلافُ الحياة » .

وكـأن هذا الإمـام استشعـر أن ماذَهَبَ إليه محتـاجٌ إلى حُجّـةٍ مسـوِّغـة ، فقال : « وإنما قلنا أصلُه ذهابُ القوة ، لما رُوي عن النبي (ﷺ) : مَنْ أَكَلَ مِن هذه الشجرة الخبيثة فلا يَقْرَبَنَّ مَسجِدَنا ، فإنْ كنتم لا بدَّ آكِلِيها فأمِيتُوها طَبْخاً » .

وعـلى ذلـك فإن الـذي يذهب إليه ابن فارس، أنّ (أَمِيتُـوهـا طَبْخـاً) يعني : « أذْهِبُوا قُوَّتَها بالطَّبْخ ». والحقُّ أنّ العرب لا تَقْصر استعمالَ (مات يموت) على الـذي يفـارق الحياة ، بل تُطْلِقُـه على كل ماسَكَن وذهبت قوّتُه. ومن ذلك قولهم : « ماتت الريح ، إذا ركدت وسَكَنَت . قال الشاعر :

إنّـي لأَرْجُـو أنْ تَمـوتَ الـرِّيحُ   فَأَسْـكُـنَ الـيَوْمَ وأَسْـتَـريحُ

ويقولون : (ماتت النار) إذا بَرَدَ رمادُها، فلم يَبْقَ من الجَمر شيء. ويقولون : (مات فلانٌ فوقَ الرَّحْل) : أي : استَثْقَلَ في نومه . وفي دعاء الانتباه : « الحمدُ لله الـذي أَحْيَانا بعد ما أَماتَنا وإليه النُّشور »، سَمّىَ النوم موتاً، لأنه يزول معه العقل والحـركة ، تمثيلاً وتشبيهاً لا تحقيقاً . ويقولون : (مات الثوبُ) إذا بَلِيَ . و(مات الطريقُ) انقطَع . و(مات الماءُ بهذا المكان): إذا نَشَّفَتْه الأرض .

وفي المفردات أنّ مِن أنواع المَوْت : الحُزْنَ والخوفَ المُكَدِّرَ للحياة . ومنه قوله تعالى : ﴿ ويأتِيهِ الموتُ مِن كلِّ مكانٍ وما هو بِمَيِّت ﴾ [1] .

---

١ - إبراهيم / ١٧

وقـد يستعـار الموت للأحوال الشاقة كالفقر مثلاً . ففي حديث موسى عليه السلام : « قِيل له إنّ هامانَ قد ماتَ، فلَقِيَه ، فسأَلَ رَبَّه فقال له : أما تعلَم أنّ مَن أفقرْتُهُ فقد أَمَتُّه »؟ وقد يُستعار الموت للمَعْصية ، ومن ذلك الحديث : « أَوَّلُ مَنْ ماتَ إبليسُ » لأنه أول مَنْ عَصىٰ .

بعد هذا أقول : إن رسالةً جاءتني من حيّ السبيل في حلب تقول : أيقال لمن مات : (مَيْت أم مَيِّت)؟ وفي الجواب أقول : لا اختلافَ بين العلماء في أن مَنْ فارق الحياة يُطلق عليه مَيْت ومَيِّت . وهم مجمِعون أيضاً على أن الذي لم يَمُت يقال له : (مَيِّت). قال تعالى : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنّهمْ مَيّتُون ﴾[2] أي : إنك ستموت وإنهم سيموتون . ففِيمَ اختلافُهم إذاً ؟ اختلافُهم مقصورٌ على كلمة (مَيْت): هل تُطلَق على الحيّ باعتبارِه سَيَموت ؟ وأعيد موجِزاً ، لأجمع ماتفرق من الأقوال في المسألة .

مَنْ فارَقَ الحَياةَ :	مَيْتٌ ومَيِّتُ	علـى هـذا إجماع .
ومَنْ هو حيٌّ :	مَيِّتٌ	باعتباره سيموت ، وعلى هذا إجماع .
ولكنْ أيقالُ عن الحيّ :	مَيْتٌ	باعتباره سيموت؟ هذا موضع خلاف .

ولقد نظرتُ في أقوال كثير من العلماء، فرأيت الفَيّوميَّ وحدَه يصرِّح بغير خفاء أن الحَيّ لا يقال له : (مَيْت). وأما الآخرون فإما أن يقولوا : مَيْت ومَيِّت سَواء . وإمـا أن يَمُرّوا بالمسألة فيقولوا : هو مَيْت ومَيِّت . فتخلص من ذلك إلى أنهم لا يفرقون بين اللفظين . وإليك شيئاً من ذلك :

قال الزمخشري في الأساس : (وهو مَيْت ومَيّت) فلم يفرّق .

والراغب الأصفهاني في المفردات لا يفرّق .

والجوهري يقول : (فهو مَيِّت ومَيْت) فلا يفرّق. بل يقول يُخَفَّف فيقال : (مَيْت) .

---

٢ ـ الزمـر / ٣٠

وصاحب اللسان لا يفرّق قال : (ورجل ميِّت ومَيْت)، وإن كان عاد فقال : « وقيل : المَيْتُ الذي مات » وتلمس في قوله : (وقيل)، شيئاً غيرَ قليل من التَحرُّز، واجتناب القَطْع .

وأما الزجاج فيقول مانصُّه الحرفي : « المَيْتُ المَيِّت بالتشديد إلا أنه يُخَفف، يقال مَيْت ومَيِّت والمعنى واحد ». وليس بعد هذا الوضوح وضوح .

على أن الذين يقولون : إن كلمة (المَيْت) لا تُطلق على الحيّ، يَسْتظهِرون بأن الخليلَ بنَ أحمد قال: أنشدني أبو عَمْرو :

أَيَا سَائِـلِي تَفْـسِـيرَ مَيْتٍ ومَـيِّتٍ فَدُونَـكَ قد فَسَّـرْتُ إنْ كُنْتَ تَعْقِلُ
فَمَـنْ كان ذا رُوحٍ فذلـك مَيِّتٌ وما المَيْتُ إلاّ مَنْ إلى القَبْرِ يُحْمَلُ

ولكنّ الذين لا يفرقون بين المَيْت والمَيِّت يستظهرون بقول عَدِيِّ بن الرَّعْلاء :

ليس مَنْ ماتَ فآسْـتَـراحَ بِمَـيْتٍ إنّـمـا الـمَـيْتُ مَيِّتُ الأَحْـيَاءِ
إنّـمـا الـمَيْتُ مَنْ يَعِـيشُ شَقِـيّاً كاسِـفـاً بالُـهُ قَليلَ الـرَّجَـاءِ

وترى ابن الرعلاء قد سَوّى بينهما . ولقد علق ابن منظور على قوله فقال : « فجَعَل المَيْتَ كالمَيِّت ». ويستظهرون كذلك بقول الشاعر :

ألا يَالَـيْتَـنِـيْ والـمَـرْءُ مَيْتٌ ومـا يُغْنِـي عن الحَـدَثـانِ لَيْتُ

فجعل المَيْتَ المُخَفَّف للحيّ الذي لم يَمُت . إذْ معنى قولِهِ : (المرء مَيْت) الإنسانُ سيموت، الإنسان صائرٌ إلى الموت .

وقد ناقش بعض العلمـاء هذه المسألةَ نِقاشاً لغويّاً فقالوا : أما القياسُ فإنّ (مَيْت) المخفّف، إنمـا أصلُه (ميّت) المشدد، فخُفِّف، وتخفيفُه لم يُحدِث فيه معنىً مخالفاً لمعناه في حال التشديد، كما يقال هَيْن وهَيِّن ولَيْن ولَيِّن . فكما أن التخفيف في (هَيِّن ولَيِّن) لم يُحِلْ معناهما، كذلك تخفيفُ (ميّت) . وأما السماع فإنا وجدنا العربَ لم تجعل بينهما فرقاً في الاستعمال، ومن أَبْيَن ماجاء في ذلك قول الشاعر :

ألا يالـيتـنـي والـمـرءُ مَيْتٌ ومـا يُغْـني عنِ الحَـدَثـان لَيْتُ

بعد هذا كلِّه، لا التفاتَ إلى ماجاء في بعض الكتب المُحدَثة من التفريق بينهما، كالمعجم الوسيط مثلاً .

ومع ذلك رأيتُ من المفيد أن أذكُر أن القاموس المحيط ـ وهو كتابٌ قديم ـ يقول حرفياً : « ماتَ يَمُوت ويَمَاتُ ويَمِيْتُ ـ فهو مَيْتٌ ومَيِّت » فلا يفرّق بينهما ، ثم يقول « ضِدُّ حَيٍّ » يعني : «ماتَ ضِدُّ حَيٍّ ». ولكنّ الأستاذ العدناني رحمه الله نقل ذلك فقال : « فهو مَيْت وميّت ضِدُّ حيٍّ » ! فجعل كلمةَ (حَيٍّ) اسماً مضافاً إليه، مع أنها فعلٌ ماض، ولفظُها الصحيحُ « حَيَّ » وهذا التصحيفُ سهوٌ منه رحمه الله . وقد بنى عليه أن صاحب القاموس يفرّق بين (ميْت وميّت) وليس الأمرُ كذلك .

وبعد فإننا بعد هذا البَسْط نخلُص إلى أن «المَيْت والمَيّت بمعنى واحد »، وإنما هو التثقيل في الأصل ثم التخفيف . فإذا قال قائل : إن الفيومي قال : المَيْتُ مقصورٌ على مَن فارق الحياة ، فإننا نقول له : والزَجّاج يقول : مَيْت ومَيِّت والمعنى واحد .

- ٢٧ -

البنيـــــة

بَنى الدارَ - يبنيها ، نقيضُ هَدَمها - يهدِمها . قال ابن فارس : « الباء والنون والياء أصل واحد وهو بناء الشيء بضم بعضه إلى بعض ، تقول : بنَيتُ البناء - أبْنيه » .

أمّا ما تَبْنِيه فهو (البناء والبِنْية والبُنْية) ، والبُنْيان أيضاً . قال تعالى : ﴿ إنّ الله يُحِبُّ الذين يُقاتِلون في سبيلِهِ صَفّاً كأنهم بُنْيانٌ مَرْصُوص ﴾ (١) .

بالأمس كتب إلي أحد السادة الأساتذة من عَمّان في الأردنّ الشقيق يقول : قبلَ سنواتٍ سمعْتُ من إحدى الإذاعات العربية في برنامج (أخطاء لغوية شائعة) أن كلمة (بُنْيَة) بضمِّ الباء ، خطأً شائع ، والصواب (بِنية) بكسر الباء ، ثم اطّلعتُ على المعجم الوسيط فرأيته يستخدم البِنية والبُنية بنفس المعنى » . هكذا قال .

المسألةُ إذاً تدور حول (البِنية والبُنية) ، وإليك قِصّتَهما مِن أوّلها :

الجوهري في الصحاح يقول : « والبُنى بالضمّ مقصور ، مثلُ البِنى ، يقال : بُنْيَةٌ وبُنى ، وبِنيةٌ وبِنى بكسر الباء » . وهذا نصٌّ لا لَبْسَ فيه ، ولا مزيدَ في وضوحه لمستزيد ، فقد قال : « البُنى بالضمّ مثلُ البِنى » . فالكلمتان إذاً متماثلتان .

متماثلتان في اللفظ ؟ كلّا . هما في اللفظ مختلفتان ، كما ترى .

فقولـه إذاً : (والبُنى مثـلُ البِنى) مقصورٌ على المعنى . هما في معناهما متماثلتان . في المعنى تَساوٍ ، وفي اللفظ اختلاف . هذا ماأراد إليه الجوهريّ إذ قال : (والبُنى مثـلُ البِنى) ، ثم أُورَدَ بعـد سطرين مثالاً فقال : (وفلانٌ صحيحُ البِنية : أي الفِطرة) . ومنشأ هذا المِثال في اعتقادي أن العربي نظر إلى بعض مَن خلق الله من البشر ، فرأى فطرةً بنى الله النفسَ أو الجسدَ عليها ، تتماسكُ تماسُكَ لَبِناتِ البِناء ، فقال : (فلان صحيح البِنية) ، أي صحيح بناء النفس أو الجسد .

مِن هنـا كان استعمـال العربي كلمةَ (البِنية) . لا أن (البِنية) من الوجهة المعجمية معناها الفطرة . لو كان للبِنْية من الوجهة المعجمية معنى الفطرة في أصل اللغة ، لقال الجوهري : (البِنية هي الفِطرة) ؛ كما يقول في العادة حين يترجم الألفاظ . ولكنه لم يقل ذلك ، ولا قاله إمامٌ غيرُه في حدود علمي وما قرأتُه . وإنما قاله المُحْدَثون .

هذه واحدة ، وأما الثانية فهي أن الجوهري قال : (فلانٌ صحيحُ البِنية) ، فذهب المحدَثون إلى أن من الخطأ أن يقال : (فلان صحيح البُنية) بالضم .

لماذا ؟ لأنهم كانوا يريدون أن يقول الجوهري : (فلانٌ صحيح البِنية وفلانٌ صحيح البُنية) . ناسين أنه قال لهم قبل سطرين : (البُنى مثلُ البِنى) . وتأمَّلْ قولَه : (مثل) ، فهي كلمةٌ مقولةٌ لِمعنىً ، ولم يَقُلْها الجوهريّ لغواً .

لقد قال : (البُنى مثلُ البِنى) وإذْ قد جعلهما متماثلتَيْن،فلَكَ أن تقول : (البِنية ، والبُنية) ، بغير تفريق أو تمييز

وبعـد ، فأُورد لك من كلام الأئمـة ماترى معه العَجَب ، إذْ تعارضُه بكلام المُحدَثين . قال الزمخشري في الأساس : (وبَنَيْتُ بِنيةً عجيبةً ، ورأيتُ البُنى فما رأيتُ أعجبَ منها) ؛ فلم يفرّق بينَهما .

وقـال صاحب القاموس المحيط : (والبنية بالضم والكسر ، مابَنَيْتَه) . فلم يفـرِّق بينهمـا . ولكنّ صاحبَ الحاشية على القاموس قال : (قوله والبنية بالضم والكسر الخ . . جعلوها[٢] بالكسر في المحسوسات ، وبالضم في المعاني والمجد) .

ولكن انظر إلى ماأَوردَه صاحبُ اللسان ، قال : (والبِنية والبُنية مابَنَيْتَه ، وهي البِنى و البُنى) فلم يفرق بينهما . ثم قال : وأنشد الفارسيّ عن أبي الحسن :

أولئـك قومٌ إن بَنَـوْا أَحْسَنُـوا البُنى وإنْ عاهَدُوا أَوْفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

---

١ ـ الصف / ٤

٢ ـ يعني ليست كذلك في الأصل .

قال : « ويروى أحسنوا البِنى ، قال أبو إسحاقَ إنما أراد بالبِنى جمعَ بِنْية » .

فهذا شاهدٌ مِن شعر الحطيئة على أنك تقول في المجد والشرف (البِنى والبُنى) فاللفظان عند الأئمة بمعنى . فريق قال (البُنى) وفريق قال : (البِنى) ، والمعنى واحد ، هو الشرف . ولم يفرقوا في بيت الحطيئة بين اللفظين كما فرق صاحب الحاشية على القاموس .

بعد هذا انظُرْ إلى ماذهب إليه المرحوم الأستاذ العدناني قال : (ويُطْلِقون على لخِلقة التي يكون عليها كلُّ موجودٍ أَوّلَ خَلْقِه اسمَ البُنية والصواب : البِنية) .

هكذا قال ، رحمه الله ، وما قرأت ولا سمعت في حياتي أديباً أو غيرَ أديب اطلق كلمة البِنية أو البُنية على الخِلقة التي يكون عليها كلُّ موجودٍ أَوّلَ خَلْقِه .

وكلُّ المسألة أن الجوهريّ قال : (وفلان صحيحُ البِنية أي الفطرة) ، فجاء صاحبُ المَتْن فقال اعتماداً على ذلك : (البِنية : الفِطرة) ، وقرأ العدنانيُّ ذلك، ثم نظر في المعجم الوسيط فرآه يقول : (الفِطرةُ : الخِلقةُ التي يكون عليها كلُّ موجودٍ أَوّلَ خَلْقِه) . فأخذ العدناني هذه الترجمة حرفياً فقال : « ويطلقون على الخِلقة التي يكون عليها كلُّ موجودٍ أَولَ خَلْقه اسمَ البُنية والصواب البِنية) .

ثم انظر ماذا قال أخيراً . قال : « وقد تَعْني البِنيةُ مابُنِيَ أيضاً » .

ولكنّ المسألة ليست مسألةَ (قد تعني) !! بل هي تعني أبداً ، ولن تَعْنِيَ غيرَ ذلك .

البِنيةُ والبُنْية مابُنِيَ

صاحب القاموس يقول : والبُنية بالضم والكسر مابَنَيْتَه .

والأستاذ العدناني يقول : وقد تعني البِنْية مابَنَيْته !! فتأمّل.

وبعد ، فإنّ :

١ ـ بَنى يَبْني : نقيضُ هَدَم يَهدِم .

٢ ـ البِنية والبُنية بالكسر والضم ، مابنَيْتَه ؛ لا فرقَ بينهما في حقيقةٍ أو مجاز ، في المحسوسات والمعقولات .

٣ ـ يقال : (فلان صحيح البنية) أي صحيحُ الفطرة . بمعنى أن الله تعالى قد بناه هذا البناءَ ، لا بمعنى أن البنية في أصل اللغة هي الفطرة، فذلك ما لم يقله إمام من أئمة اللغة .

ـ ٢٨ ـ

بُنْيَــــويّ

كنتُ في الحلقة السابقة ، عرضت للبُنية والبِنية ، استجابةً لرسالة جاءتني من لأردنّ الشقيق . وقد كان في الرسالة جانبٌ آخَرُ يتعلق بالنسب إلى (بُنية) . فقد ذكر الأستاذ صاحب الرسالة أنه عند النسبة إلى (البُنية) يقول : (بُنْيَويّ) فهل هذا الاستعمال صحيح ؟ هذا هو السؤال الثاني في الرسالة .

وبين يَدَيِ البحث أقول : إن الخوض في النسب غيرُ مستحبٌّ عند الناس ، لأن النسب قواعدُ صارمةٌ لا لِينَ فيها ، كَصَرامةِ الرياضيات . فما هو كذا ، فالنسبة إليه كذا ، والأمرُ محسوم . ولكنّ كثرةَ استعمال النسب في الكلام تُوجِبُ فَهْمَ قواعدِه واستظهارَها . وما بحثُ اليومِ إلا محاولةُ تيسير قاعدةٍ منها وتذليلِها .

البنية : اسمٌ ، مادّتُه (بنىٰ ـ يبني) ويلاحظ فيه أن الحرفَ الثانيَ منه ـ وهو النون ـ حرفٌ ساكن ، وأن الحرف الثالث هو الياء ، ثم أضيفَ إلى هذا الاسم تاءُ التأنيث ، فقلنا : البنية . فكيف ننسُب إليه ؟

في الجواب أقول : لو لا هذه التاءُ المربوطة في آخر الاسم لا نتهت المسألة بكلمةٍ واحدة .

وذاك أن الاسم المنتهيَ بياءٍ أو واو ، شأنُه يسير ، فالنسبة إليه لا تُوجِبُ تغييراً في حروفه . ففي النسبة إلى الظَبْي تقول : (ظَبْيِيّ) ، وإلى الرمي (رَمْيِيّ) ، وفي النسبة إلى الغزو تقول : (غَزْوِيّ) وإلى النحو : (نَحْوِيّ) وهكذا . . . . .

هذا لا اختلاف فيه بين العلماء ، فهم مُجمِعون عليه ، وإنما هم يختلفون إذا كان في آخره تاءُ التأنيث المربوطة مثل (ظبية وغزوة) الخ . . .

فأمّـا الخليلُ بنُ أحمد وسيبويهِ فيحذفان هذه التاءَ فيبقى بين يدَيْك (ظبي وغزو) ، فتنسب بلا تغيير في الحروف فتقول كما قلنا آنفاً : (ظَبْيِيٌّ وغَزْوِيٌّ) وهذا يعني أن التاء وعَدَمَها سواء عندهما :

ففي النسبة إلى :	ظَبْي وظَبْية	تقول :	ظَبْيِيّ
وفي النسبة إلى :	غَزْو وغَزْوَة	تقول :	غَزْوِيّ
وفي النسبة إلى :	بُنَيَّة	تقول :	بُنَيِّيّ

والقاعدة كما ترى سهلةٌ يسيرة : إذا لم يكن في الاسم تاءُ التأنيث فانسُب رأساً ، وإذا كان فيه تاءُ التأنيث فاحذِفْها وانسُبْ ، كأنها لم تكن .

وأمّا يونُسُ بنُ حبيب ، وهو شيخُ سيبويهِ ، فكان يقول بحَذْفِ التاء وقلْبِ الياءِ واواً وفتْحِ ماقبلَها .

ففي النسبة إلى (ظَبْية) يحذِف التاءَ ، فيبقىٰ (ظَبْي) ثم يقلب الياءَ واواً ، أي (ظَبْو) ، ثم يفتح ماقبلَ الواوِ أي (ظَبَو) ، ثم ينسب فيقول (ظَبَوِيّ) .

وبإيجاز ، يقول في النسبة إلى (ظَبْية و دُمْيَة و فِتْيَة وبُنْيَة) :

ظَبْيَة	ثم ظَبْي	ثم ظَبْو	ثم ظَبَو	ثم ينسب : ظَبَوِيّ
دُمْيَة	ثم دُمْي	ثم دُمْو	ثم دُمَو	ثم ينسب : دُمَوِيّ
فِتْية	ثم فِتْي	ثم فِتْو	ثم فِتَو	ثم ينسب : فِتَوِيّ
بُنْية	ثم بُنْي	ثم بُنْو	ثم بُنَو	ثم ينسب : بُنَوِيّ

وهكذا ، فعلى مذهب الخليل وسيبويه ، تقول : (بُنْيِيّ) ، وعلى مذهب يونس بن حبيب : تقول : (بُنَوِيّ) ، وكلتا الطريقتين جائزة .

وأما (بُنْيَوِيّ) كما جاء في رسالة الأستاذ فغلط ؛ وسبب الغلط أنك أضفتَ إلى الاسم واواً مِن عندِ نفسِك ؛ والواو في مذهب يونس لا تُضاف إلى الكلمة مجلوبةً من الفراغ ، وإنما هي مقلوبةٌ عن الياء .

هو يقول : اقلِب الياءَ واواً ، وافتَحْ ماقبلَها ، فقلْ : (بُنَوِيّ) .

فالغلط إذاً أن تُبْقِيَ الياءَ ، وتُضيفَ مِن عند نفسِك واواً ، فتقول (بُنْيَوِيّ) . فهذا غير جائز . ولذلك قلنا هو غلط .

وقد يقول قائل : أيمتنع في اللغة امتناعاً مطلقاً أن يقال : (بُنْيَوِيّ) .

وفي الجواب أقول : لا يمتنع ذلك امتناعاً مطلقاً ، ولكنّ المعنى في هذه

الحال يختلف . وبيانُ ذلك أن كلمة (بُنية) اسمٌ مفردٌ ، والنسبة إنما تكون إلى المفرد ، ولذلك تقول : (بُنْيِيّ) على مذهب الخليل و سيبويه ، أو (بُنَوِيّ) على مذهب يونس .

وأما (بُنْيَوِيّ) فهي نسبةٌ إلى الجمع ، والنسبةُ إلى الجمع غيرُ واردة ، إلّا إذا نشأ سببٌ معنويّ لا يتبيّن القصدُ منه إلا بأن تنسُب إلى الجمع .

وأزيدك إيضاحاً فأقول : (بُنْية) اسمٌ مفرد ، جمعُه السالمُ (بُنْيات) . فإذا كان في كلامك معنىً لا يتبيّن ولا يتّضح إلا بأن تنسُب إلى (بُنْيات)، فعند ذلك تنسُب إلى الجمع فتقول (بُنْيَوِي) ، نسبةً إلى (بُنْيات) لا إلى (بُنْيَة) .

وبيان ذلك أن القاعدة تقول :

إذا نسبتَ إلى جَمْع المؤنث السالم ، وكان ثانيِه ساكناً ورابعُه أَلِفَ الجمع ، (وهذا كلُّه ينطبق على بُنْيات : فهو جمع مؤنث سالم ، وحرفُه الثاني ساكنٌ ـ وهو النـون ـ وأَلِفُ جمعِه رابعة) ، فعندَ ذلك يجوز لك أن تحذِف تاءَ الجمعِ وتقلبَ الألِفَ واواً فتقول : (بُنْيَوِيّ) ، نسبةً إلى الجمع لا إلى المفرد .

مما تقدم نخلص إلى مايلي :

١ ـ النسبة إلى بُنْية (بُنْيِيّ) .

٢ ـ وفي مذهب يونس (بُنَوِيّ) .

٣ ـ (بُنْيَوِيّ) في النسبة إلى المفرد غلط

٤ ـ يجـوز أن تقـول : (بُنْيَوِيّ) نسبـةً إلى جمـع المؤنث السالم ، لسبب معنوي ؛ وذلك اذا كانت النسبة إلى المفرد توقع في اللَّبْس ، ففي هذه الحال فقط تقول : (بُنْيَوِيّ) .

- ٢٩ -

الشـــــاطـر

(شَـطَرَ الشيءَ - يَشْـطُرُه) جعلَه نِصْفَين . ففي المقـاييس : « الشين والـطاء والـراء أصلان ، يدلّ أحدُهما على نِصف الشيء » . وحديث سَعْد « أنه استأذن النبي (ﷺ) أن يتصـدَّق بمـالِه. قال: لا، قال: فالشَّطْرَ، قال: لا. قال: الثُّلُثَ، فقال: الثُّلُث، والثُّلُثُ كثير » . قال دريدُ بنُ الصِّمَّة :

يُغَـارُ علَيْنـا واتِـرينَ فَيُشْـتَـفَـىٰ بنـا إنْ أُصِبْنـا ، أو نُغِيرُ على وِتْـرِ
قَسَمْنـا بذاكَ الـدَّهـرَ شَطْرَيْـنِ بَيْنَنا فلا يَنْـقَـضِـي إلا ونَـحْـنُ على شَطْرِ

و(شَـطَّرَ الشيءَ): نَصَّفَه . وكلُّ مانُصِّف فقد شُطِر. و(شاطَرْتُه مالِي): ناصَفْتُه، أي قاسمتُه بالنِّصْف، فأمسكتُ شطرَه، وأعطيتُه شطرَه الآخرَ .

وقـد ذكـر ابنُ فارس الأصلَ الثاني فقال : « وأما الأصل الآخر فالشَّطِيرُ : البعيدُ ، ويقولون : شَطَرَتِ الدّارُ » . وقال صاحب التاج : (ويقال للغريب شَطِير لتَباعُدِه عن قومه) .

قال الشاعر :

لا تَدَعَـنِّـي فيهِـمُ شَطِيْرا إنِّـي إذَنْ أَهْـلِكَ أو أَطِـيرَا

وقال غسانُ بنُ وَعْلَة :

إذا كُنْـتَ في سَعْـدٍ وأُمُّـكَ مِنْـهُـمُ شَطِيْراً فلا يَغْـرُرْكَ خالُـكَ مِنْ سَعْـدِ

أي : لا تَغْتَرَّ بخُؤولتِك، فإنك فيهم مَنْقوصُ الحظّ .

قال ابنُ فارس : « ومنـه قولُهم: شَطَرَ فلان على أهلِه » إذا تَركَهم مُراغِمـاً مخالِفاً . والشـاطِر : الذي أَعْيا أهلَه خُبثاً. وهذا هو القياس، لأنه إذا فَعَلَ ذلك بَعُد عن جماعتهم ومُعْظَمِ أمرِهم » .

كلمة (الشاطِر) هي غايتي في هذه الحلقة . ففي الطريق دنا مني قبلَ أيام فتىً تدُلّ ثيابُه على أنه طالب في الحلقة الثانوية، وقال : هل كلمة (شاطر) عربية ؟

نعم، كلمةُ (شاطر) عربية . ولكنّ معناها تطوّر تطوراً أبعَدَها عن أصل معناها، وألبَسَها معنىً لم يكن لها . فالشاطر في أيامنا تطلق على الذكيّ السبّاق .

يقولون اليوم للفتى الذكي (تعالَ ياشاطر) ، و(أحسنتَ يا شاطر)، وفي الحكايات بطلٌ أسطوريّ لا يُعْجِزهُ شيءٌ، يسمّونه: (الشاطر حسن) وهكذا . . على حين لم يكن لهذه الكلمة هذه المعاني أصلاً، وإنما هو التطوّرُ في معاني المفردات .

قال صاحب التاج : « والشاطر مَن أعْيا أهلَه ومؤدِّبَه خُبْثاً ومَكراً ، جَمْعُه الشُّطّارُ كَرُمّان ، وهو مأخوذٌ مِن (شَطَرَ عنهم) إذا نَزَح مراغِماً ، وقيل إنه مُوَلَّد » . ثم أورد فِعْلَه فقال : « وقد شَطَرَ يشْطُر وشَطُرَ يَشْطُر شَطارةً » . ثم قال : « قال أبو إسحاق : قولُ الناس فلانٌ شاطِر، معناه أنه آخذٌ في نَحْوٍ غيرِ الاستواء » .

وبالحق ، إذا تتبّعتَ استعمالَ هذه الكلمة في كتب التاريخ والأدب في الحِقَب المختلفة، رأيتَها قد أُطلقتْ على مَن تباعَدُوا عن الاستواء . فقد أُطلقت على اللصوص وقاطِعي الطرُق ، والفُتّاكِ والفُساق والسَّفِلَة .

فالجاحظ يصفهم في كتاب الحيوان بأنهم لصوص قال : « وقال صاحب الكلب في وصيّة عثمانَ الخياطِ للشُّطّار اللصوصِ : إيّاكُمْ إياكم وَحُبَّ النساءِ وسماعَ ضربِ العود وشُربَ الزبيبِ المطبوخ » .

والمسعودي يذكر في مروج الذهب أن أحد الشعراء نظم قصيدة في حرب الأمين والمأمون وماأصاب الناس فيها من الضُرّ فقال :

فأصبحَ بعضُ الناسِ يَقْتُلُ بَعْضَهُمْ ... فَمِنْ بين مَقْهورٍ ذَلِيلٍ وقَاهِرِ
وصارَ رئيسُ القومِ يَحْمِلُ نفسَه ... وصارَ رئيساً فيهِمُ كلُّ شاطِرِ

وهم في قصيدةٍ أخرى أصحابُ فُسوق ، قال الشاعرُ يذكر ماكان من ضلالته، ثم توبته اقتداءً بالخليفة المأمون :

لا أَسْتجيبُ لِمَنْ دَعَا لِهُدىً ... وأُجيبُ شُطّاراً ودُعّارَا
أَعصي النَّصيحَ وكلَّ عاذِلَةٍ ... وأُطيعُ أَوْتاراً ومِزْمارَا
وصَحَوْتُ بالمَأمونِ مِنْ سُكْري ... ورأيتُ خَيْرَ الأمْرِ ماآخْتارَا

وابنُ بَطّوطةَ يذكر في رحلته تَفَشِّيَهُم في أيّامه واجتماعَهُم على قَطْع الطرُق فيقول : «الشُطّارُ بمعنى الفُتّـاك مِن اصطلاح العراقِيين ، ويُعْرَفون في خُراسان بسر ابداران، وفي المغرب بالصُقُورَة » .

ويشهد صاحبُ نفْحِ الطيب لشُطّار الأندلس بِمَرَحٍ ذكيٍّ وخِفّةِ ظِلّ، قال : « ولشُطّار الأندلس من النوادر والتنكيت والتركيبات وأنواع المضحكات ماتملأ الدواوينَ كَثْرَتُه » .

وتَفَهَمُ ممّا جاء في صفتهم متفرِّقاً أنهم كانت لهم ألبسةٌ وأزياءٌ يُعرَفون بها .

فمن زِيِّهم : طُرَّةٌ مُصَفَّفَة[1]، وكُمّانٍ واسعانٍ، وذَيْلٌ مَجْرورٌ، ونَعْلٌ مُطَبَّقَة[2] .

ويروي صاحب الأغاني خَبراً مَرْوِيّاً عن داوودَ المكيِّ يُثْبِتُ تميّزَهم بأزيائهم . قال في روايته : « كُنّا في حلقة ابنِ جُرَيْج وهو يحدّثنا ، وعندَه جماعة ، فيهـم عبدُالله بنُ المبارَك ، وعِدّةٌ من العراقيين ، إذ مرّ به ابنُ تَيْزَنَ المُغنّي ، وقد ٱئْتَزَر بمِئْزر على صَدْره وهي إزْرَةُ الشُطّار عندنا » .

فـ(الشّـاطر) كما بيّنتُ لك آنفاً هو في الأصل مَن أعْيا أهلَه ومؤدّبَه خُبثاً ومَكراً، وهو عربي . ثم تطوّر معنى الكلمة فأُطلقت في العصر العباسي على السَّفِلَةِ واللصوص وقاطعي الطريق، ثم تطور معنى الكلمة أيضاً في عصرنا هذا، فأطلقت على الفتى الذكيّ السبّاق .

---

١ ـ أي شعر مصفف.

٢ ـ أُلصِق عليها قشر اللؤلؤ.

- ٣٠ -

اللّـــــــه

(أَلَهَ ـ يَأْلَهُ) : عبَدَ يَعْبُدُ ؛ ولهذا الفعل معان أخرى أعرض لها في أثناء البحث .

قال ابن فارس : « الهمزة واللام والهاء أصل واحد وهو التعبّد . فالإلهُ : الله تعالى ، وسمي بذلك لأنه معبود » . . . و« الإلاهةُ الشمس ، سُميت بذلك لأن قوماً كانوا يعبدونها » .

قالت ميّةُ بنتُ أم عُتْبَةَ : فَبَادَرْنا الإلهة أَنْ تَؤُوبَا .

وكلمة : (الإله) ليست مقصورة على الله وحده ، وإنما تطلق على كل معبود . فلو عبد الإنسان القمر مثلاً لكان القمر إلاهاً ، ولو عبَد النجم لكان النجم إلاهاً ، ولو عبد الشمس لكانت الشمس إلاهاً أو إلاهة الخ . . .

وخالقُ الكون (إلاهٌ) كذلك ، لأنه معبود ، فكلمة (الإلاه) تقال إذاً لكلّ معبود . وأما كلمةُ (الله) ، فلا تُطلق إلا على الخالق بحق ، فهي مقصورة عليه تعالى ، لا يَشْرَكُه فيها معبودٌ آخر . ولكن ماحقيقة هذا الاسم ؟

هذا سؤال جاءني في رسالة من أخ مشاهد في مصياف . وفي الجواب أقول :

إن بين العلماء اختلافاً في ذلك وأقوالاً :

قال صاحب القاموس : واختُلف فيه على عشرين قولاً .

ـ منها أن أصله سُرياني . ومنها أنه اسم مُرْتَجَلٌ غيرُ مشتَقّ ، ومنها أنه مشتق مِن (أَلِه) أي تحَير ، وسُمي تعالى (إلاهاً) لتحيّر العقول في كُنْه ذاته وصفاته . وأن العقول تَأْلَهُ ـ أي تتحير ـ في عظمته .

ـ ومنها أنه مشتق من (أَلِهْتُ) بمعنى (لجأتُ) ، لأنه سبحانه المَفْزَعُ الذي يُلجأ إليه في كل أمر . قال الشاعر : « أَلِهتُ إليْنا والحوادثُ جَمَّةٌ » .

ـ ومنها أنه مِن (لَاهَ يَلِيْهُ) أي احتجب وتستّر . يقال : (لاهَتِ العَروسُ) إذا احتجبتْ . فهو سبحانه (إلاهٌ) لأنه احتجب من جهة الكيفية عن الأوهام

ومهما يَدُرِ الأمرُ فاسمُ الجلالة : (الله) إما أنه مُرْتَجَلٌ غيرُ مشتّق ، وهذا قولُ

الأكثرين ، وإما أنه مشتق . فإذا كان مشتقاً فأصلُه (لاه) مِن (لاهَ يَليه) أي تَستّر ، واحتجَبَ عن أن تدركه الأبصار . ثم تُدْخِلُ عليه الألفَ واللامَ فتقول (اللاه)[1] ثم تفخّم فتقول : (الله) .

أو أصلُه (إلاه) مِن (أَلهَ الرجلُ يألهَ) أي : عبَدَ يَعْبُد . فهو إذاً (إلاه) ، ثم حذفوا الهمزة للتخفيف ، لكثرة الاستعمال . ثم تُدْخِلُ عليه الألفَ واللام فتقول (اللاه)[1] ، ثم تفخم فتقول : (الله) .

ولْنعرِّجْ على خواصّه ، بعد أن بحثنا في حقيقته اللغوية . ذاك أن لهذا الاسم الشريف من الخواصّ ما ليس لغيره . وأُورِد لك من ذلك ما يأتي :

١ ـ أنه سبحانه تفرّد بهذا الاسم ، فلا يُطلق (الله) إلا عليه .

٢ ـ تُقْسِمُ به فتقول : (تَاللّهِ لأفعَلَنّ) مثلاً ، وهذه التاء لا تدخل إلا على هذا الاسم ، فأنت لا تقول (تَزيدٍ) ولا (تَخالدٍ) ولا (تَالرحمانِ) ولا (تَالرحيمِ) . هذه التاء مقصورة في اللغة على هذا الاسم وحدَه . ففي سورة الأنبياء : ﴿ وتَاللّهِ لأَكِيدَنَّ أصنامَكم بعدَ أن تُوَلُّوا مُدْبرين ﴾[2] . وفي سورة يوسُف : ﴿ قالُوا تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسُفَ حتى تكون حَرَضاً أَوْ تَكونَ مِنَ الهالِكين ﴾[3] .

٣ ـ هذا الاسم يُنادى ، مع أنّه معرَّفٌ بالألف واللام ، وذلك لا يكون في غيره . وإنما ينادى المعرَّفُ بالألف واللام بأن يقال : (يا أيّها الرجلُ) و (يا أيّها الغلامُ) مثلاً . قال المبرِّد في المقتضب : (واعلم أن الاسم لا يُنادى وفيه الألف واللام) ، ومن ثَمّ لا تقول : (يا الرجلُ تعَالَ) .

وقال سيبويه : (واعلمْ أنه لا يجوز لك أن تنادي اسماً فيه الألفُ واللام البتّة ، إلا أنهم قد قالوا : يا أَللهُ اغفِرْ لنا ، وذلك مِن قِبَلِ أن آسمَه يلزمُه الألفُ واللام لا يفارقانه) .

٤ ـ الأصل في همزة الوصل أن تسقُطَ في دَرْجِ الكلام ، ولكنها تُلفظ في هذا الاسم تفخيماً له ، فتقول : (يا أَلله) .

---

١ ـ بالترقيق لا التفخيم .
٢ ـ الأنبياء / ٥٧ .
٣ ـ يوسف / ٨٥ .

٥ ـ هذا الاسم تسبقه (ها) ، فتَقوم مَقامَ واوِ القسم ، وتكون عوضاً منها . تقول : (لا ها الله) أي : (لا وَالله) ، ولا يقال هذا في غيره من الأسماء . قال سيبويه : وإذا قلتَ : (لا ها اللهِ لا أفعل) لم يكن إلا الجرّ ، وذلك أنه يريد (لا واللّهِ) . ولكنه صار (ها) عوضاً من اللفظ بالحرف الذي يَجُرّ .

٦ ـ من أساليب القسم أن تقول مثلاً (وَحَياتِك لَأفعَلَنَّ) فتأتيَ بالواو وجوباً ، ولا يجوز لك أن تقول (حياتِكَ لأفعلنّ) ، وأما إذا أقسمتَ بالله فيجوز لك أن تقول : (اللهِ لأفعلنّ) فيُحذَفُ حرفُ الجر ، ويظلّ يعمَل محذوفاً .

٧ ـ يقال مثلاً : (يا أللهُ اغفِر لي) ، ولكن يجوز أن تُحذَفَ (يا) ويُعوَّض منها بِميمٍ مشدّدةٍ في آخر هذا الاسم ، فيقال : (اللهم) . قال سيبويه : وقال الخليل رحمه الله : (اللهمّ) نداء ، والميمُ بَدَلٌ مِن (يا) . ومع ذلك جمع العرب بين (يا) والميم المشددة وإن كان هذا قليلاً ، قال الشاعر :

إنّـي إذا ماحَـدَثٌ أَلَـمّـا ... دَعَـوْتُ يا لّلهُـمّ يا لّلهُـمّـا

وقد يحذفون الألف واللام مِن : (اللّهُمّ) فيقولون : (لاهُمَّ) . قال الشاعر :

لاهُمَّ أنتَ تَجْبُرُ الكَسِيْرَا

٨ ـ من خصائص هذا الاسم أنهم يحذفون ألفه عند كتابته ، والأخُ صاحبُ الرسالة سألني هل يجوز إثبات هذه الألف عند كتابته ؟

وفي الجواب أقول : إن رَسْمَ اسمِ (اللّه) تعالىٰ بغير ألِف ، دليلٌ على تفخيم لفظه : (الله) . ولو أُثْبِتَتْ أَلِفُه لأمكنَ أن يُقْرأَ (اللّاه) مرقّقاً . فرَسْمُه كما نكتُبُه اليوم ذو فائدة لا تتحقّق إلا بحذف ألِفه .

أخيراً أرى من المفيد أن نختم الحلقة بطريقة لفظه :

فالعربُ تُفخِّم اللام من هذا الاسم ، إذا كان قبلَها فتحةٌ أو ضمّةٌ ، فالفتحةُ ومعها التفخيم كقولك : (ياأَللّهَ) ، والضمّة ومعها التفخيم كقولك : (رسولُ الله) . وهم يرقّقونها إذا كان قبلها كسرة، وذلك كقولك : (باسمِ الله).

- ٣١ -
نَفِــد ، نَفَــذ

نشـأ الشـاعـر قيسُ بنُ الخَـطِيم أَيِّداً قويَّ السـاعدين ، فنازَعَ يوماً فتى من لفتيان ، فقال له الفتى : والله لو جعلتَ شِدّةَ ساعِدَيْك على قاتل أبيك وجدّك ، لكـان خيراً لك . فقال : ومَن قاتِلُ أبي وجدي ؟ قال : سَلْ أُمَّك تخبرْك . فأخذ السيف وقال لأمه : والله لَتُخْبِرِنني مَنْ قَتَلَهما أو لأَتحامَلَنَّ على هذا السيف حتى يخرجَ من ظهري .

فقـالت : أمـا جدك ، فقتله رجل من بني عَمرِو بنِ عامرِ بن ربيعةَ يقال له مالك . وأما أبوك ، فقتله رجل من عبد القيس . فقال : والله لا أنتهي حتى أقتل قاتل أبي وجدي . ثم إنه دُلَّ على مالكٍ قاتلِ جدّه عَدِيّ ، فضرب رأسَه بالسيف فقتله .

ثم انـطلق ، حتى أتى الـرجـلَ العَبديّ ، قاتلَ أبيه الخَطِيم ، فطعنَه قيسٌ بالحربة في خاصرته ، فأنفذَها من الجانب الآخر ، فمات مكانَه . وفي ذلك يقولَ :

ثَأَرْتُ عَدِيّاً والخَـطيمَ فلم أُضِـعْ   وَصِـيَّةَ أَشْـياخٍ جُعِـلْتُ إزاءَهـا
ضَرَبْتُ بِذي الخُـرْصَيْنِ[1] رِبْقَـةَ مالِـكٍ   فأُبْـتُ بنَـفْسٍ قد أَصَبْتُ شِفـاءَهـا

ثم يذكر كيف طعن ابنَ عبد القيس قاتلَ أبيه فيقول :

طَعنتُ ابنَ عبـدِ القيسِ طعنـةَ ثائـرٍ   لهـا نَفَـذٌ لولا الـشَّعـاعُ[2] أضَـاءَهـا
مَلَكتُ بهـا كَفِّي فأَنْهَـرْت[3] فَتْقَهـا   يَرى قائِـمٌ مِن دونِـهـا ماوَراءَهـا

يقـول : طعنتُـه فَنَفَذَتِ الطعنةُ ، فجاوَزَت جانبَه الآخرَ ، حتى أضاءَ نَفَذُها خَرْقَها ؛ ولولا انتشارُ الدم الفائر ، لأَبْصَرَ مَنْ هو دونَها الشيءَ الذي وراءَها.

في البيتين روعـةٌ تطِير بالعقـول ، ولقـد أغـرتْنِي روعَتُهما بإيرادِهما ، وذِكْرِ قِصَّتِهما ، وإنما أريد من كل ذلك قولَه : (لها نَفَـذٌ) .

---

١ ـ ذو الخرصين اسم سيفه .
٢ ـ ماتطاير من الدم .
٣ ـ جعلت فتقها كالنهر .

(النَفَـذْ) هو المنفَذ والمَخرَج والخَرْق . قال ابن الأثير في النهاية : والنَفَذ بالتحريك المخرج والمَخلَص . ويقال : لِمَنفذ الجراحة (نَفَذٌ) .

و (النفذُ) يجمع على (أَنفاذ) ، قال جرير في هجائه البَعيث :

وعـاوٍ عَوىَ مِن غير شيءٍ ، رَمَيْتُه   بقـارِعَـةٍ أَنْفـاذُهـا تَقْـطُر الـدَّمَـا

ويعالج ابنُ فارس هذه المادة فيقول : « النون والفاء والذال : أصلٌ صحيح يدل على مَضاءٍ في أمرٍ وغيره »

وفي المصباح : « نَفَذَ السهمُ ينفُذ نُفوذاً ونَفاذاً : خَرَقَ الرَمِيَّةَ وخرج منها » . وعلى هذا ، إذا قلتَ : نَفَذ فلان من الطريق فمعناه : خرج من الطريق إلى الجهة الأخرى . ومنه قوله تعالى : ﴿ يامَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ إن استطعتُم أن تَنْفُذوا مِن أقطار السماوات والأرض فانفُذوا ، لا تَنفُذون إلا بسُلطان ﴾[٤] .

ومن المجاز قولُهم : رَجلٌ نافِذٌ : أي ماضٍ في جميع أموره ، وطريقٌ نافِذ : غيرُ مسدود ، يسلُكه كلُّ أحدٍ ؛ وأمرُ فلان نافذ : أي مطاع . ومنه قولُهم : فلان ذو نفوذ ، أي : ذو سلطان وقوة .

ويتعدّى فِعْلُ (نَفَذَ) بالهمزة فتقول : (أَنْفَذَ خالد الأمرَ) إذا قضاه وأمضاه .

وفي حديث بِرّ الوالـدَين « الاستغفـار لهمـا وإنفاذ عهدهما » ، أي إمضاء وصيّتهما ، وماعهدا به قبل موتهما .

بقي من البحث في (نفذ) أن أقول : الناس يطلقون اليوم كلمة (النافذة) على الشُبّاك ، فيقولون مثلاً : (فتحت النافذة وأغلقت النافذة) ، وهو استعمال لا عيبَ فيه ، ولكنّ القدماء لم يكونوا يستعملون (النافذة) بهذا المعنى ، وإنما كانوا يستعملونها صِفةً للطعنة بالرمح ، فيقولون : (طَعَنَه طَعنةً نافذة) . وأما استعمالُ النافذة بمعنى الشبّاك فهو استعمالٌ مُحْدَث .

وبعد فالبحث في مادة (نفذ) قد انتهى ، وكان الذي ساق إليه رسالةً جاءتني

---

٤ ـ الرحمن / ٣٣

من حلب يقول مرسلها حرفياً : (أيهما الصحيح في معنى نفذ ؟ اخترق أم لم يعد له وجود) ؟

ولذلك أراني مضطراً إلى أن أُلِمّ بمادة (نفد) أيضاً إلمامةً عَجْلىَ .

يقول ابن فارس : « النون والفاء والدال، أصلٌ صحيح ، يدل على انقطاعِ شيءٍ وفنائه » . وقال الزبيدي : « ونَقَل شيخنا عن الزمخشريّ في الكشاف أنه لو استَقْرأَ أحدٌ الألفاظَ التي فاؤُها نونٌ وعينُها فاءٌ ،[5] لَوَجَدَها دالّةً على معنى الذهاب والخروج » .

وبالحقّ : لو نظرتَ الى (نَفِدَ الزّادُ) لَرأيتَ فيه ذهاباً وخروجاً؛ ولو نظرت إلى (نَفَذَ السهمُ) لرأيتَ فيه أيضاً ذهاباً وخروجاً؛ ولكنّ بين الذهابَيْن والخروجَيْن فَرقاً ملموساً:

ففي (نَفِدَ الزّادُ) خروج ، ولكنه بمعنى الفناء والانقطاع .

وفي (نَفَذَ السهمُ) خروج ، غير أنه بمعنى الثَّقْب والاختراق .

بعد هذا أوجه النظر إلى أن الكثير من الناس يقول : (نفَد صبري) بفتح الفاء؛ وهو غلط . والصواب : (نفِد صبري) بكسر الفاء . قال تعالى : ﴿ ولو أنّ ما في الأرض مِن شجرةٍ أقلامٌ ، والبحرُ يَمُدُّه مِن بَعْدِهِ سبعةُ أَبْحُرٍ مانَفِدَتْ كلماتُ الله ﴾[6] . قال الزَجّاج : معناه (ماآنقطَعَتْ ولا فَنِيَت) . ويروى أن المشركين قالوا في القرآن : هذا كلام سيَنْفَدُ وينقَطِع ؛ فأَعْلَمَ اللهُ تعالى أنّ كلامَه وحِكمتَه لا تَنْفَد .

وأما المضارع فبالفتح : (ينفَد) . قال تعالى : ﴿ ماعِنْدَكُم يَنفَدُ وما عندَ اللهِ باقٍ ﴾[7] . أي : ماعندكم يفنىٰ ويذهب، وما عند الله باقٍ . وقد وَرَدَ الماضي والمضارع معاً في آية واحدة من سورة الكهف، قال تعالى : ﴿ قُلْ لو كان البحرُ مِداداً لِكلماتِ ربّي لَنَفِدَ البحرُ قبل أن تَنْفَدَ كلماتُ رَبّي ﴾[8] .

---

٥ ـ يعني أن الحرف الأول منها نونٌ والثاني فاء

٦ ـ لقمان / ٢٧

٧ ـ النحل / ٩٦

٨ ـ الكهف / ١١٠

أمـا المصـدر فهـو (النَّفَـاد) . قال تعـالى : ﴿ إنّ هذا لَرِزْقُنـا ما لَهُ مِنْ نَفَاد ﴾[9] أي : ماله من فناء؛ وعلى هذا تقول : (نَفِدَ الزادُ يَنْفَدُ نَفَاداً) إذا فَنِيَ .

وهو فعلٌ لازم ـ كما رأيتَ ـ لا ينصِب مفعولاً به . فإذا زدتَ فيه الهمزةَ تَعَدّى ، أو ظلّ لازماً . هذا وارد ، وهذا وارد . تقول : (أَنْفَدَ الرجلُ مالَه) ، إذا أفناه هو. وتقول : (أَنْفَدَ الرجلُ) ، إذا ذهب مالُه أو فَنِيَ زادُه . قال إبراهيمُ بنُ هَرْمَة :

أَغَـرُّ كَمِثْلِ البَدْرِ يَسْتَمطِرُ النّدىٰ ... ويَهـتَـزُّ مُرتـاحـاً إذا هُوَ أَنْـفَـدَا

وقـولُهم : (استَنْفَدَ الأمرُ أغراضَه) : دائرٌ على ألسنة الناس، وهو استعمالٌ صحيح ، معناه : حقَّقَ الأمرُ أغراضَه، ولم يَبْقَ داعٍ لوجوده .

من جميع ماتقدم نخلُص إلى مايلي :

(نَفَذَ السهمُ يَنْفُذُ نَفاذاً ونُفُوذاً) : خرق الرَّمِيَّةَ وخرج منها.

و(نَفِدَ الزادُ وغيرُه يَنْفَدُ نَفاداً) : فَنِيَ وذهبَ وانقطع .

---

٩ ـ ص / ٥٤

- ٣٢ -

ثَــــــوْرِيّ

(ثار ـ يثور ثَوَراناً : هاج) والثائر : الغضبان . ويقال للغضبان أَهْيَجَ مايكون : (قد ثار ثائِرُه، وفار فائِرُه)، وذلك إذا غضب وهاجَ غضبُه .

وثار إليه : وثب. ويقال : (انتظرْ حتى تَسْكُنَ هذه الثورة)، وثار الدخان والغبار : ظَهَرَ وَسَطَعَ . وعند ابن فارس في المقاييس : (ثار الشيءُ) انبعث .

ماقدمت به يكاد يعرفه معظم الناس . وإنما مهّدتُ به لأصل إلى غايتي في هذه الحلقة . فلقد كتب إلي أحد الإخوة المشاهدين من إدلب يقول : ورد في كتاب الأدب الحديث، الجزء الأول، الكتاب المقرر للصف الثالث الثانوي بفرعيه العلمي والأدبي، عبارةُ : (الأدب الاجتماعي الثوري)، والأصح : (الأدب الاجتماعي الثوروي) . وأنا أقول للأخ صاحب الرسالة : إنك إذْ قد قلتَ: هذا أَصَحُّ ، فقد لَزِمَكَ أن تبرهن على دعواك . وفي كل حال سنبسط القول في المسألة لنرى الصحيح والأصح وغير الصحيح .

المسألة المطروحة تدخل في بحث النسب . والأصلُ أن الاسم إذا زِيدَ في آخره ياءٌ مشددة، قبْلَها كسرةٌ، نشأ من ذلك زيادة في معنى الاسم، إذ يتحصل لك: معنى الاسم، وشيءُ آخرُ منسوبٌ إلى ذلك الاسم ومرتبطٌ به . فإذا قيل لك: (هذا رجلٌ دمشقيّ) مثلاً، فهمتَ مِن كلمة (دمشقيّ) شيئين :

الأول : دمشق . والثاني : أن بين هذا الرجل ودمشقَ رابطةً هي رابطةُ السُّكْنىٰ والإقامةِ ونحوِ ذلك . فتستغني بقولك : (دمشقيّ) عن أن تقول : (رجل منسوب إلى دمشق) .

والنحاة يسمُّون (دمشق) في هذا الباب : (المنسوب إليه). وأما (الرجل) فيسمُّونه : (المنسوب) . فكلمة (دمشقيّ) إذاً، تدل على شيئين في آنٍ واحد : المنسوب والمنسوب إليه .

وللنسب أحكـامٌ ـ قواعـدُ ـ أذكر منها مايتعلق بـ [ثوري وثوروي] فقط ، لأن هذه الحلقات لا تتسع لِبحوثٍ نحويةٍ تَجمعُ وتَمْنع . فلنبدأ :

إذا قلت : هذا رجل ثوري ، فـالرجل منسوب، والثورة منسوب إليه .

والمنسوب إليه ـ وهو هنا الثورة ـ إذا كان مختوماً بتاء التأنيث، فلا بدّ عند إجراء النسب مِن حذفها . وعلى ذلك تقول في النسب إلى :

القاهرة قاهريّ، وإلى مكّـــة مكّـيّ ، وإلى البَصرة بَصـريّ ، وإلى الكُوفة كـوفيّ ، وإلى الوَردة ورديّ ، وإلى الزَهرة زهـريّ ، وإلى فاطمـة فاطميّ ، وإلى الثورة ثـوريّ . هذه قاعدة ، هذه مِسطرة، فَقِسْ عليها .

وإذا كان المنسوب مؤنثاً ، كأن يكون امرأةٌ من الكوفة أو البصرة أو القاهرة مثلاً، فبعد الياء المشددة تَزيدُ تاءَ التأنيث . تقول : هذه امرأةٌ كوفيّة ، وتِيكَ امرأةٌ بصريّة ، وتلك امرأةٌ قاهريّة، وهكذا . . .

فالأدب الاجتماعيّ إذاً أدب ثوريّ ، لأنك تنسُبُه إلى (الثورة) . والقصيدة ، قصيدةٌ (ثورية) وهكذا . . .

ولكنْ لقائل أن يقول : أيمتنع في اللغة أن يقال : ثَوْرَويّ ؟

وفي الجواب أقول : لا يمتنع أن يقال : (ثورويّ) . ولكن المعنى عند ذلك يختلف ، وإليك البيانَ :

كلمـةُ (ثـورة) اسمٌ للمرّة. تقول : (ثار فلان ثورةً) : أي ثورةً واحدةً. فإذا جَمعتَ قلتَ : ثَوْرات . فـ (ثورات) إذاً جمع ، ثانِيه ساكنُ (ثوْ)، ورابعُهُ أَلِفُ الجمع : (ا ت).

والقاعدة تقول : إذا نسبتَ إلى الجمع وكان ثانِيه ساكناً ورابعه ألفاً للجمع ، جاز لك أن تقول : ثوريّ ، وثَوْرَويّ أيضاً.

فإذا كان الأدب الاجتماعي منسوباً إلى (الثورة) فهو (ثوريّ) ليس غير .

وإذا كان منسوباً إلى (الثَوْرات) جاز لك أن تقول: (الأدب الثوريّ)، وجاز لك أن تقول: (الأدب الثَوْرَويّ) . فبين هذا وذاك فرقٌ كما ترى.

- ٣٣ -

يا أَبَـتِ

إذا ناديتَ صديقَك فقلت له : (ياصديقي) ، قال النحاة : هذا منادىً مضافٌ إلى ياء المتكلم . ونظراً إلى ما في هذا النوع من النداء مِن أحكامٍ مقصورةٍ عليه ، فإن النحاة يَخُصّونه ببَحثٍ مستقل يبسُطون القولَ فيه ، حتى إذا انتَهَوْا من ذلك قالوا لك : إذا ناديتَ (الأبَ) أو (الأمَّ) ، وكانا مضافَيْن أيضاً إلى ياء المتكلم ، فإن تلك الأحكـامَ تنـطَبِقُ عليهمـا . ولكنْ تنطبق عليهما أيضاً أحكامٌ أخرى مقصورةٌ عليهما مِن دون سائر المنادَيات . فهما على ذلك ممتازان من باقي المناديات . وهما محورُ هذه الحلقة .

وقبل أن أبسُط القول في ندائهما أقول : إن كل ماينطبق على (الأب) من الأحكام عند النداء ، ينطبق على (الأمّ) أيضاً ، فهما في النّحْووفي الحياة سواء .

ولـذلك أبحث في كلمة (الأب) وحدَها للإيجاز ، ولأن رسالةً جاءتني من أستاذٍ محامٍ في اللاذقية ، يسألني فيها البحث في نداء كلمة (الأب) حَصْراً .

(الأبُ) أصلُه (أَبَوٌ) بالتحريك ، ثم حُذِفَت منه الواو ؛ يدلّك على ذلك أنك تُثَنّيه فتقول : (هذان أَبَوان) . وقد تُطلَق كلمةُ (الأَبَوَيْن) على الأبِ والأمّ .

فإذا وُلِدَ لك وَلَدٌ ، وأخبَرْتَ بذلك قلتَ : (أَبَوْتُ) أي : صِرْتُ أباً . قال الشاعر :

أُطلبْ أبـا نخلةَ مَن يأْبـوكـا[1]
فقـد سألنـا عنـك من يعزوكـا
إلـى أبٍ ، فكـلُّهـمْ ينـفـيكـا

بعد هذا ننتقل إلى المنادى المضاف إلى ياء المتكلم عموماً ، وإلى الأب خصوصاً .

---

١ ـ أي من يقول إنه والدك .

١ ـ المنادى المضافُ إلى ياء المتكلم ، يجوز لك حَذْفُ يائِه ، قال تعالى : ﴿ ذلك يُخَوِّفُ الله به عِبادَه ياعبادِ فاتَّقُون ﴾[2] :

(ياعبادِ) : منادىً مضافٌ إلى ياء المتكلم ، وقد حُذِفتْ ياؤه ؛ وعلى هذا ، يجوز لك أن تقول : (ياأبِ) ؛ تحذِفُ الياءَ وتُبَقِّي الكسرةَ دليلاً على ماحُذِف .

٢ ـ المنادى المضافُ إلى ياء المتكلم ، يجوز لك فَتْحُ يائِه ؛ قال تعالى: ﴿ قل ياعباديَ الذين أَسْرَفوا على أنفسِهم لا تَقْنَطُوا مِن رحمةِ الله ﴾[3] .

وعلى ذلك يجوز لك أن تقول : (ياأَبِيَ) بفتح الياء .

٣ ـ المنادى المضافُ إلى ياءِ المتكلم ، يجوز لك تسكينُ يائه ؛ ففي بعض القِراءات : ﴿ يا عباديْ لاخوفٌ عليكمُ اليومَ ولا أنتم تَحْزنون ﴾[4] :

وعلى ذلك يجوز لك أن تقول : (ياأَبِيْ) بسكون الياء .

٤ و ٥ : معاً ؛ قال الشاعر :

وَلَسْتُ بِراجِعٍ ما فاتَ مِنّي بِلَهْفَ ولا بِلَيْتَ ولا لَوَانّي

وأنت ترى أن الشاعر لم يقل : (بِلَهْفِ) ؛ بل قال : (بِلَهْفَ) ؛ وذلك أنه أراد : ولستُ براجِعٍ مافاتَ منّي بقولي : يالَهفِي . فالأصلُ إذاً (يالَهفِي) .

ثم صار (يالَهْفَا) ، وذلك بقلب الياءِ ألفاً ؛ ثم صار (يالَهْفَ) ، وذلك بحذف الألِف . أي : يا لهفِي ثم يا لهفَا ثم يا لهفَ .

وعلى ذلك يجوز أن تقول : (ياأَبَا) كما قلتَ : (يالَهْفَا) فتقلب الياءَ ألفاً . ويجوز لك أيضاً أن تقول : (ياأَبَ) كما قلتَ : (يالَهْفَ) ، فتحذف الألف .

٦ ـ قال تعالى : ﴿ رَبِّ السِجْنُ أَحَبُّ إليَّ ﴾[5].

ولكنْ في بعض القراءات ﴿ رَبُّ السِّجنُ أحبُّ إليّ ﴾ : حُذِفَت الياءُ ، وبُنِيَ المُنادى على الضمّ ؛ وعلى ذلك يجوز لك أن تقول في النداء : (ياأَبُ) .

---

٢ ـ الزمر/ ١٦

٣ ـ الزمر/ ٢٣

٤ ـ الزخرف/ ٦٨

٥ ـ يوسف / ٣٣

فهذه سِتُّ حالاتٍ ، تنطبق على كل منادىً مضافٍ إلى ياءِ المتكلم . غير أن كلمة (الأب) كما ذكرنا آنفاً تنفرد بحالات ، تمتاز بها من دون سائر المناديات : من ذلك أنك إذا قلت : (يا أبي) ، جاز لك أن تحذف الياءَ وتأتيَ بتاءٍ عوضاً منها فتقولَ : (يا أبَتَ ويا أبَتُ ويا أبَتِ) تفتح التاءَ أو تضمها أو تكسرها

ولا يجوز هذا في غير النداء . أعني لا يجوز أن تقول : (أبتِ مسافرٌ) إذ ليس في هذا القول نداءٌ . أبتَ ، وأبتُ ، وأبتِ ، لا تكون إلا في النداء حصراً .

الأستاذ المحامي صاحب الرسالة قال مازحاً : مِن أينَ زَحَفَتْ هذه التاءُ المبسوطةُ في قوله تعالى : ﴿ يا أَبَتِ إني رَأيتُ أُحَدَ عَشَرَ كوكباً ﴾ (٦)

ونحن نقول للأستاذ : هذه التاءُ لم تزحَفْ زَحْفاً ، وإنما جاءتْ تسعىَ على قَدَمَين ، لِتَحُلَّ مَحلَّ الياءِ في قولك : (يا أبِي) ، ولتكونَ عِوَضاً منها .

أخيراً أذْكر أن من الصيغ السماعية النادرة ، أنهم جَمَعوا بين التاء وياء المتكلم . قال الشاعر :

أيا أَبَتِيْ لازِلْتَ فِيْنَا فإنّما ... لنا أَمَلٌ في العَيْش مادُمْتَ عائِشَا

---

٦ ـ يوسف / ٤

ـ ٣٤ ـ

السـياحـة

فِعلُ (ساح يَسُوح) بالواو ، لا وجودَ له في اللغة . فَمَن استعمله فإنما يستعمل مختَرَعاً لا أصلَ له . الموجود هو (ساح يَسِيح) بالياء . قال تعالى : ﴿ فَسِيْحوا في الأرض أربعةَ أشهُر ﴾[1] .

وللمـادة مَعـانٍ ؛ لكنّ الأصـل فيها هو (سَيَحانُ الماء على الأرض) . ثم استُعمِـل في غير المـاء مجـازاً . فأنت تقـول على سبيل الحقيقة : (ساح الماءُ يسيح) ، إذا سال وجرى على وجه الأرض . ثم تقول على المجاز: (ساح الرجل في الأرض سياحةً) إذا تنقّل من بلد إلى بلد .

ولا بد هنا من توجيه النظر إلى مسائلَ أراها مُهِمّة .

الأولى : أن التطور قد أصاب معنى (ساحَ الرجل) ، فاستُعمل في غير معناه الذي كان له في الأصل . فقد كانوا يريدون بالسياحة قديماً : (الذهابَ في الأرض للعبادة والترهّب) . هذا هو الأصل ، ثم تطوّر معنى المادة .

والناسُ إذا قالوا اليومَ : (فلان يُكثِر من السياحة) فإنما يعنون بذلك أن فلاناً يكثر من التنقل من بلد إلى بلد ، طلباً للتنزه أو الاستطلاع .

الثـانية : أن اسم الفـاعل (سائح) ، قد أصاب معناه تطوّرٌ لاحق أيضاً ، فأُطلق على (الصائم) . قال تعالى : ﴿ عسىَ ربُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أنْ يُبْدِلَه أزواجاً خيراً مِنكُنَّ : مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ﴾[2] . قال الراغب في المفردات : « سائحاتٍ أي صائمات » ثم تابع فقال : (الصوم ضربان : حقيقيٌّ ، وهـو ترْك الـطعام ، وصومٌ حُكْمِيٌّ ، وهو حِفظ الجوارح عن المعاصي ، كالسمع والبصر واللسـان . فالسائحُ هو الذي يصوم هذا الصومَ دونَ الصومِ الأول) .

---

١ ـ التوبة / ٢

٢ ـ التحريم / ٥

على أن علماءَ آخرينَ قد فسّروا (السائح) بأنه الصائم صوماً حقيقياً . قال تعالى : ﴿ التائبون العابدون الحامِدون السائِحون ﴾[٣] . فقالوا في تفسير ذلك : (السائحون) هم الصائمون . ومِن أولئك العلماءِ الزَجّاجُ . فقد قال : « السائحون : في قول أهلِ التفسيرِ واللغةِ جْميعاً الصائِمون » .

وقال ابن الأثير ، وهو يَبسُط القولَ في تعليل هذا التطور: « وقيل إنما قيل للصائم سائح لأن الذي يَسِيح متعبِّداً ، يَسِيح ولا زادَ معه ، إنما يَطْعَمُ إذا وجد الزاد ، والصائم لا يَطعَم أيضاً فلشَبَهه به سُمِّي سائحاً » .

ولا تعارضَ بين قوله تعالى في معرِض المديح : (الحامِدون السائحون) ، وماجاء في الحديث : (لا سياحةَ في الإسلام) ، نعم لا تعارضَ . ففي الآية الكريمة مدحٌ للسائحين بمعنى الصائمين ، وفي الحديث : السياحةُ بمعنى مفارقةِ الأمصار وسُكْنَى البراري ، تَعَبّداً وترهّباً .

أورَدَ ابنُ الأثير الحديثَ : (لا سياحةَ في الإسلام) ثم قال :« وأصلُه من السَّيْح ، وهو الماء الجاري المنبسط على وجه الأرض . أراد مفارقةَ الأمصار ، وسكنى البراري ، وترْكَ شهود الجُمُعةِ والجماعات » .

بعد هذا أقف عند كلمة (السُّوّاح) . فقد جاء في حديث سياسيّ في التلفزيون أُذيعَ قبل حين : « يَؤُمُّ البندقية كلَّ عامٍ من السُّوّاح كذا وكذا » .

وجاء في إعلانٍ من إعلانات الدورة الرياضية لدول البحر الأبيض المتوسط مانَصُّه : (عشرات الألوف من رياضيّين وإداريّين وسُوّاح » .

وكلمةُ (السُوّاح) غلط ، والصواب (السُيّاح) .

وقد نبّه اللغويّون على ذلك منذ مطلع هذا القرن . ومَنْشأُ الغلط أنّ (ساح يسُوح) بالواو ، لا وجودَ له في العربية . فأنت تقول مثلاً في الواويّ :

(قاد يقود فهو قائدٌ وهم قُوّاد) ، و(عادَه يعودُه فهو عائدٌ وهم عُوّاد) .

ولكنك لا تقول : (ساح يسوح) بالواو ، ولذلك لا تقول : (هم سُوّاح) .

---

٣ ـ التوبة / ١١٢

وأما في اليائيّ فتقول :

(غاب يغِيب فهو غائِبٌ وهم غُيّاب) ، و(عاب يعِيب فهو عائبٌ وهم عُيّاب) .

وعلى هذا تقول : (ساح يسيح فهو سائحٌ وهم سُيّاح). ولا مُسَوِّغَ هنا لقلب الياء واواً .

(السُوّاح غلط) ، والصواب (السُيّاح)

- ٣٥ -

الثأر والانتقام

بين كلمتَي الثأر والانتقام فرقٌ لا يُلِمُّ به كثير من الناس. فالثأر: الطلبُ بالدم، يقال: «ثأرت فلاناً» أي قتلتُ قاتلَه. ويقال: «ثَأَرْتُ بفلان» أي قتلتُ قاتلَه، أيضاً.

ولكنّ للثأر معنىً آخرَ؛ فالثأر أيضاً: قاتِلُ الإنسان الحميم. يقال: (هذا ثأْري)، أي هذا قاتلُ حميمي.

قال جرير يهجو الفرزدق بنَ غالب، ويعيرّه بأن أباه قُتِل ولم يثأر الفرزدقُ به:

وامـدحْ سَراةَ بنـي فُقَـيْمٍ إنهم قتلوا أبـاك، وثـأرُه لم يُقْتَـلِ

أي قاتلُ أبيك لم يُقتَل. وأرى من المفيد هنا أن أذكُر أن غالباً أبا الفرزدق لم يُقتل، وإنما مات حتف أنفه. ولذلك أُورِد قصة البيت ليتبيّن ما يريده جرير بقوله للفرزدق إن بني فُقَيْمٍ (قتلوا أباك).

وقصة البيت: أن جماعة من فُقَيْمٍ خرجوا يريدون البصرة، وفيهم صبيٌّ يسمى ذكوان ومعه أمُّه. فمروا بخابية ماء وعليها أَمَةٌ تحفظها، فأشرعوا فيها إبلَهم، فنهتهم الأمَةُ فضربوها، واسْتَقَوْا في أسقيتهم، فجاءت الأمَة أهلها ومنهم الفرزدق فأخبرتهم. فركب الفرزدق فرساً له، وأخذ رمحاً، فأدرك القومَ فشقّ أسقيتَهم.

ثم إن ذكوان شبّ، وخرج يومَ عيدٍ فركب ناقة له، فرآه ابن عمٍّ له فقال له: «ما أحسنَ هيئتَك يا ذكوان لو كنتَ أدركتَ ما صُنع بأمّك!!» يريد بقوله هذا أن يهيجه ليمحوَ ما لحق بأمّه من الإهانة إذ شقّ الفرزدق أسقية قومها. فاستنجد ذكوان ابنَ عمٍّ له، فخرجا حتى أتيا غالباً أبا الفرزدق متنكِّرَيْن، يطلبان له غِرّة. وأمكنهما ذلك، فقالا له: (هل من بَعيرٍ يُباع)؟ فقال: (نعم).

وكان معه بعير ، فعرضه عليهما ، فقالا : (حُطّ لنا حتى ننظر إليه) . ففعل غالب ذلك ، وتخلف معه الفرزدق وأعوان له . فلما حطّ غالب عن البعير ما كان عليه ، نظرا إليه وقالا له : « لا يعجبنا » . فتخلف الفرزدق ومن معه على البعير ، يحمّلون عليه، وتقدَّم أبوه غالب . ولحق ذكوانُ وابنُ عمه غالباً ـ وكان يركب مع زوجته أمِّ الفرزدق على بعير في مِحْمَل ـ فعقر ذكوان البعير ، فسقط غالب وامرأته . ثم شدّا على بعير أخت الفرزدق فعقراه ثم هربا . فذكروا أن غالباً لم يزل وَجِعاً من تلك السقطة ، حتى مات .

وقد رأى جرير في ذلك قتلاً يستوجب الثأر ، لذلك قال : « قتلوا أباك ، وثأرُه لم يُقتلِ » أي قاتلُه لم يُقتل.

هذا معنى الثأر . معناه الأول : الطلب بالدم ، ومعناه الثاني : قاتل الانسان الحميم .

أما الآن فإلى الانتقام : الفعل في الأصل ،(نَقَم ينقِم)، ومن معاني هذا الفعل: (أنكر يُنكر) . ففي سورة البروج :﴿ وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾[1] . أي ما أنكروا منهم إلا إيمانَهم .

ومن معانيه أيضاً : (بالَغَ في كراهة الشيء) . قال ابن قيس الرُقيّات :

ما نقـمـوا من بنـيْ أمية إلا   أنـهـم يحـلُمـون إنْ غضبـوا

أي ما كرهوا منهم غيرَ ذلك .

أما الفعل المزيد من هذه المادة ، وهو (انتقم)، فيأخذ معناه منحىً آخرَ غيرَ الإنكار والكراهة . (انتقم) معناه (عاقب) ؛ تقول : (انتقم الله منه) أي عاقبه ـ وتقول : (لم أرْضَ منه حتى انتقمت) أي حتى كافأته عقوبةً بما صَنَع .

جاء في الحديث : أنه ﷺ ما انتقم لنفسه قطّ إلا أن تُنتهَك محارم الله . أي ما عاقب أحداً على مكروه أتاه من قِبَلِه .

---

١ ـ البروج /٨

وفي سورة الروم : ﴿ فانتقَمْنا من الذين أَجْرَمُوا ، وكان حقّاً علينا نَصْرُ المؤمنين ﴾[2] . أي عاقبْنا الذين أجرموا .

وفي سورة الزُخْرُف : ﴿ فلما آسَفُونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾[3] . أي فلما أغضبونا عاقبناهم فأغرقناهم .

ومن أسماء الله تعالى (المنتقم) . أي البالغ في العقوبة لمن شاء .

ومن المفيد أن أذكُر هنا أن مثلاً عربياً يقول : « مَثَلي مَثَلُ الأَرْقَم إن يُقْتَلْ يَنْقَمْ » . الأرقم : نوع من الحيّات ، والناس يتّقون قَتْلَه لشبهه بالجانّ . وكانوا في الجاهلية يزعمون أن قاتله ربما مات ، وربما أصابه خَبَل .

وفي هذا المَثَل نَظَرٌ ، فالانتقام هنا ـ وإن كان سببُه قَتْلَ الحيّة ـ فإنه لا يتوجه الى معنى الثأر ، وإنّما يتوجه إلى معنى العقوبة . لأن الثأر إنما ينصبّ على القتل والطلب بالدم . على حين هو في المثَل عقوبة .

يدلّكَ على ذلك أنهم في الجاهلية كانوا يزعمون أن قاتلَه ربما مات ، أو أصابه خبل . ولم يقولوا ربّما قُتِل . فلا التفاتَ إذاً إلى ما قاله يوماً أحدُهم وهو يعقّب على هذه الحلقة : (بل الانتقام هو الثأر) . فالموت الطبيعي والخبل إنما هما عقوبة ، إنما هما انتقام ، وليسا ثأراً . نعم ، لا التفاتَ الى قوله ، فالثأر هو الطلب بالدم حصْراً . فتأمَّلْ قولَه هذا ، واذكرْ أن الله تعالى يتمدّح فيقول : ﴿ إن الله عزيزٌ ذو انتقام ﴾[4] !! . ثم اعجَبْ ماشئتَ أن تعجب .

بقي أن أقول : إن الذي ساقني إلى البحث في الفرق بين الثأر والانتقام أمران : الأول : أن عدداً من السادة القضاة والمحامين طلبوا إلي ذلك ، في مجلس حضره السيد نقيب المحامين بدمشق . والثاني أن الفرق بين الكلمتين لا يُلِمّ به إلا من اطّلع على مادتَي البحث ووقف عليهما وقليلٌ منْ يفعلُ ذلك .

---

٢ ـ الروم / ٤٧

٣ ـ الزخرف / ٥٥

٤ ـ إبراهيم / ٤٧

- ٣٦ -

المبني للمجهول

البناء للمجهول في اللغة طريقة من طرائق التعبير . يعمِد إليها الأديب حين يحتـاج إليها ، أو حين يشعر أنها أَلْيَقُ أو أنسب الخ . . . ولا يُؤتىٰ بها في فصيح الكلام وبَـليغِه إلا لِدواعٍ وأسباب .

فمن الأسباب أن تعمِد إلى الاختصار . تقول مثلاً في الإطالة : (بدأ الطلابُ الدراسة) ، وهذا مبني للمعلوم ؛ فإذا أردت إلى الاختصار والإيجاز قلتَ : (بُدِئَتِ الدراسةُ) ، فَحذفتَ الفاعلَ ، وهو الطلاب ، وبنيتَ للمجهول اختصاراً .

ومن الأسباب مثلاً أن يكون مَنْ فَعَل الفِعلَ مجهولاً ، وذلك كأنْ يسرِقَ لصٌّ كتابَك ، فتقولَ : (سُرِق الكتابُ) فَتَبْنِيَ للمجهول ، لأنك لا تعرف الفاعل .

ومن الأسباب أيضاً أن يكون مَن فَعَل الفِعل شائعةً معرفَتُه . فالسارقُ مثلاً : إنما يَسجُنُه القاضي ، وعلى ذلك تقول : (سُجِن السارقُ) ، فتبني للمجهول ، لأن الناس جميعاً يعرفون الفاعلَ ، يعرفون أنه القاضي ، فتستغني عن ذكره لشيوعه .

وقـد يقـول قائـل : أيمتنع البناءُ للمجهول إذا لم يتبيّنْ له سبب ؟ وأقول : لايمتنع هذا ، ولكنّ المسألة مسألةُ الفصاحة والبلاغة ، فما بُني للمجهول لسبب ، هو أدنى إلى البلاغة والفصاحة ممّا يُبنىٰ للمجهول اعتباطاً . ولقد عِبْنا يوماً قولَ مَن يقـول : (الـزجـاجُ مكسـورٌ مِن قِبَـل زيد) وقلنا : (الزجاجُ مكسور) هو التعبير السليم ، حين تَجْهَلُ مَن كَسَرَه . فإذا علمتَ أن زيداً هو الذي كسره ، فلا معنى لأن تبنيَ للمجهول ما هو معلومٌ فتقول : (الزجاجُ مكسورٌ مِن قِبَل زيد) .

ومع أن ماقلناه لا يُدْفَع ، فقد تَصَدّىٰ لنا آنذاك كاتبٌ فقال : بل هذا تركيبٌ سليم لا عيبَ فيه . ونحن نقول : اللهم أَشْعِرْ قلوبَنا حَلاوةَ الحقّ .

على أن النظر في استعمال البناء للمجهول ، قد ساقني إلى تجربةٍ مفيدةٍ أقُصُّ عليك قِصَّتَها :

لقد نظرتُ في كتاب الله تعالى فرأيتُ مادة (خَلَقَ ـ يَخْلُقُ) مِن أكثر المواد استعمالاً فيه . فأحصيتُ مابني للمجهول منها ، فرأيْته أَحَدَ عَشَرَ موضعاً فقط . فتتبّعتُها موضعاً موضعاً ، فرأيتُ مِن أسباب استعمالها مايأخذُ بالألباب . فإذا وازَنْتَ بينَ مواضعِها وهي مبنيةٌ للمعلوم ، ومواضعِها وهي مبنيةٌ للمجهول ، رأيتَ العَجَبَ العُجَاب .

قال تعالى من سورة الإنسان ﴿ نحن خلَقْناهُمْ وشَدَدْنا أُسْرَهُم ﴾ [1] هنا إظهارٌ لقدرة الله على الخَلْق ، وتفضُّلِه بِشَدِّ الأَسْر ، والإمدادِ بالقوة . هنا إذاً مَقامُ تَمَدُّح ، ولذلك جاء الفعلُ مبنيّاً للمعلوم .

وانظر الآن إلى قوله تعالى : ﴿ يُريدُ الله أنْ يُخَفِّفَ عنكمْ ، وخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفا ﴾ [2] . المقامُ هنا مقامُ تهوينٍ لشأن الإنسان ، لا مقامُ إظهارٍ لِقُدرة الخالق ، ولا مقامُ تَمَدُّح ، ولذلك بنِيَ للمجهول : ﴿ وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً ﴾ .

ولكنْ هاهنا شيءٌ آخرُ ؛ فلو سألتُك : لِمَ خُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً ؟ أكنتَ مستطيعاً غيرَ أن تقول : تلك حكمةُ الله ؟

وأعود فأسألك : أَأَطْلَعَ الله على حكمته المُغَيَّبَةِ هذه أحداً مِن خَلْقه ؟ فتجيب : ﴿ عالمُ الغَيْبِ فلا يُظْهِرُ على غَيْبِه أحداً ﴾ [3] . عند ذلك أقول لك : فإذْ قد كانت حكمةُ الله مجهولةً ، فإن الذي يليق بالمجهول مِن الحال ، مجهولٌ من التركيب اللفظيّ . ولذلك بنِيَ للمجهول فقال ﴿ وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً ﴾ .

والذي يَزيدُك عَجَباً وإعجُاباً أن هذا في القرآن الكريم مطّردٌ لا يتخلّف . فكلّما قال تعالى عن الإنسان (خُلِق) بالبناء للمجهول ، فانتظرْ بعده صِفةَ ضَعفٍ في الإنسان أو عَجْزٍ أو هَوان .

---

١ ـ الإنسان / ٢٨

٢ ـ النساء / ٢٨

٣ ـ الجن / ٢٦

ففي سورة النســاء كمـا بيّنْتُ لك : ﴿ وخُلِق الإنســان ضعيفاً ﴾ وفي سورة الأنبياء ﴿ خُلِقَ الإنسانُ مِنَ عَجَل ﴾[4] . أي لكثرة عَجَلَتِه في أحواله كأنه مخلوقٌ مِنَ العَجَلِ نفسِه ؛ والعَجَلَةُ في الإنسان عجزٌ، ولذلك بَنِيَ للمجهول .

وفي سورة المَعَـارِج : ﴿ إنّ الإنســانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾[5] والهَلَعُ صِفَةُ ضَعْفٍ وعَجْز وهوان ، ولذلك بَنِيَ للمجهول .

وفي سورة الـطّارق ، بنى للمجهـول في مقـام الهَـوان مَرّتَين متلاحقتين : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق ﴾ ﴿ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِق ﴾[6] .

لقـد قلتُ في مطِلع حديثي إن البنـاء للمجهول لا يُؤتَىَ به عبثاً في الكلام الفصيح البليغ ، بل له أسبـاب . ولقد بيّنتُ لك شيئاً من تلك الأسباب في مادة (خلق) ، في خمســة مواضعَ مِن القرآن الكريم . وبقي منها ستّة مواضعَ ، كان يمكن أن أبحث فيهـا اليوم ، ولكنني خشِيتُ الإطالة والإملال ، فآثرتُ أن تكون موضوعَ الحلقة المقبلة .

---

٤ ـ الأنبياء / ٣٧

٥ ـ المعارج / ١٩

٦ ـ الطـارق / ٥-٦

- ٣٧ -

المبنيُّ للمجهـول / ٢

كنتُ في الحلقة السابقة بحثتُ في البناء للمجهول ، وقلت : إنه لا يُؤتىٰ به في الكلام الفصيح البليغ عبثاً ، بل يؤتى به لأسباب . وذكَرتُ آنذاك ، أنني نظرت في مادة (خلق ـ يخلق) في القرآن الكريم ، فرأيتها مِن أوسع موادّه استعمالاً .

فأحصيتُ ماجاء منها مبنياً للمجهول ، فوجدتُه أحدَ عَشَرَ موضعاً فقط ، وقد بحثتُ في خمسة مواضعَ منها ، وبيّنتُ أنك كلما رأيت في القرآن الكريم (خُلِقَ الإنسان) بالبناء للمجهول فانتظرْ بعدَه صفةَ ضَعْفٍ فيه أو عجز أو هوان . وها هو ذا القرآن بين الدَّفَتَيْن ، فانظر هل ترى مايرد قولي أو ينقضه ؟

أمـا الآن ، فإلى مابقي من تلك المـواضـع ، لأطلعَـكَ على أسباب البناء للمجهول فيها .

لقد نَزَل القرآن الكريم ، فكشف عن تناقض مَنطِق الإنسان الجاهليّ . فلقد كان الجـاهليُّ يرى رؤية العين أن الأشياء لا تُوجَد مِن نفسِها ، فلما جاءتْه رسالةُ مُوجِـدِهـا وخالِقِها ، أنكرها ؛ وهذا تناقضٌ واضح . فانظر إلى البناء للمجهول ، كيف صيغ في مقام السخرية من هذا المنطق ، والتهكم به . قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾[1] ؟ ! فأفسَدَ منطِقَهم وسَخِرَ منه وتَهكَّم به ، وأوقَعَهم في حَيْرةٍ لا يَقدِرون معها على شيء . فلا هم يَجرؤون أن يقولوا خُلِقْنا من غير شيء ، لفساد ذلك عقليّاً وتجريبياً . ولا هم يَجرؤون أن يقولوا خَلَقْنا أنفسَنا ، لأنهم يعلمون أن ذلك كذِبٌ وآفتراءٌ وآدّعاءٌ باطِل .

إن البِناءَ للمجهول لا يُؤتىٰ به عَبَثاً .

وإليكَ الآن سبباً طريفـاً هو التحقير ، وقـد استعمـل القـرآنُ الكـريم فِعْل

---

١ ـ الطور / ٣٥

(يُخْلقــون) مبنياً للمجهــول ثلاثَ مراتٍ في ثلاثِ آيات ، ليحَقِّـر ما كان يعبُـد الجـاهليون مِن آلهة . وقد اكتفيتُ منها بآية واحدة لتشابُهِ الآيات الثلاث . وأوجّه نظرَك إلى أن فِعْل الخَلْق يأتي فيها جميعاً مبنياً للمعلوم أولاً ، ثم يتلوه المبنيُّ للمجهول .

قال تعالى ﴿ واتَّخذُوا مِن دونهِ آلهةً لا يَخْلُقُون شَيْئاً ﴾[٢] هذا مبني للمعلوم . وكان يُمْكِن أن تنتهي الآية هنا ، وفيها ما فيها من إظهارِ عجزِ تلك الأصنام : « لا يَخْلُقــون شيئـاً » . ولكنْ يبقى التحقير !! ولـذلـك تلاه المبنيُّ للمجهــول فوراً : ﴿ واتَّخَذُوا مِن دونهِ آلهةً لا يَخْلُقُون شَيْئاً وهم يُخْلَقون ﴾ . لو كان المَقام مقامَ تَمَدُّح لقال تعالى مثلاً : (لا يَخْلُقُون شيئاً وأنا أَخْلُقُهم) ولكنّ المَقامَ مَقامُ تحقير ، ولذلك بَنى للمجهول فقال : « لا يَخْلُقونَ شيئاً وهم يُخْلَقون ﴾

على أن البنـاء للمجهــول في مادة (خلق) قد أُتِيَ به في (سورة الفَجْـر) ليجلِبَ صورةً هائلةً ، مَنشَأُ الهَوْل فيها مايُصاحِب المجهولَ مِن غموض . فتتخيّلُ وتتخيّلُ وتتخيّلُ ، فلا يصـل خيالُـك إلى نهـايةِ الهَوْل . وكيف يصل إلى ذلك ، وماتَصِفُه الآيةُ مجهولٌ هَوْلُه ، لا تُعْرَفُ له غايةٌ ؟! فإذا تَمّ للقرآن ذلك ، أظْهَرَ بعدَه قدرةَ الله على تدمير ذلك الهائل الذي لم يُخْلَقْ مِثلُه . فتتجلى قدرة المدمِّر وجبروتُ بطشِه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ ربُّك بعادٍ ، إِرَمَ ذاتِ العِمادِ ، التي لم يُخْلَقْ مِثْلُها في البلادِ ﴾[٣] إلى أن قال : ﴿ فَصَبَّ عليهمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ ، إنّ ربَّكَ لَبِالمِرْصاد ﴾[٤] .

وأرجـو أن تكـون لاحـظت التبايُنَ بين ﴿ لم يُخلق مثلُها في البلاد ﴾ وبين ﴿ سَوطَ عذاب ﴾ ، (سوط) فقط !! لا مِطرقـة !! ولا سِواهـا من أدوات التدمير الضخمة !! صحيحٌ أن المعنى شِدّة العذاب ، ولكنّ الألفاظ لها ظلالٌ ، فهل تجد

---

٢ ـ الفرقان / ٣

٣ ـ الفجر / ٦ ـ ١٤

٤ ـ الغاشية / ١٧ ـ ٢٠

مِن ظِلال السَوط في نفسك غيرَ دقّتِه ونُحولِه ولِينه ؟ فانظر إلى عظمة الصورة ، كيف بَعَثَها هذا التباينُ بين السَوطِ وبينَ ﴿ لم يُخْلَق مثلُها في البلاد ﴾ .

أخيراً قد يسأل سائل فيقول جاء في سورة الغاشية ﴿ أفلا يَنْظُرون إلى الإبل كيف خُلقتْ ، وإلى السماءِ كيف رُفعتْ ، وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ ، وإلى الأرض كيف سُطِحَت ﴾(٥) فلِمَ بُنِيَ خَلْقُ الإبــلِ للمجهـول وهـو من أعـظم ما في حياة الجاهليّ ؟ ومِثلُ ذلك رفْعُ السماء ونصْبُ الجبال وسَطْحُ الأرض ؟

وأقول إن في البناء للمجهول هنا لَسِرّاً عجيباً . وذلك أن مايريده القرآن هنا ، إنما هو توجيه النظر إلى الفِعلِ ، ولذلك بَنىَ للمجهول ، فاستَتَرَ الفاعل ، فبَدَت هذه الأفعالُ كأنها تجري مِن نفسها : (كيف خُلقت ، كيف رُفعت ، كيف نُصبت ، كيف سُطحت) حتى إذا رَسَخَت عظَمةُ هذه الأفعال في نفس ذلك الجاهلي ، وكان عنهـا غافـلاً ، نَزل فِعْـلُ الأمـر على سَمْعـه نُزولَ الصـاعقـة : ﴿ فذَكِّر إنّما أَنتَ مُذَكِّر ﴾(٦) . لقد بُنِيتْ هذه الأفعال للمجهول لأن الغاية توجيهُ النظر إليها ، لا إلى مَنْ فَعَلها ، ولذلك استَتَرَ الفاعل .

والـذي يدلُّـك على ذلـك أن هذه الأفعال نفسَها أو نحوَها قد جاءت مبنيةً للمعلوم فذُكِـرَ فاعلُهـا . متى ؟ حين كانت الغـايةُ إظهارَ قدرة الفاعلِ . وذلك أن مُشْركي مكّةَ قد أنكروا أن يُبْعَثوا بعد الموت ، ورأَوْا ذلك أمراً مُعْجِزاً : وإليكَ حكايةَ قولِهم في سورة (ق) ﴿ فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب ، أئذا مِتْنا وكُنّا تُراباً ؟!! ذلك رَجْعٌ بَعيد ﴾(٦) هذا قولهم .

فاستمع الآن إلى جواب الفاعلِ القادر : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقَهم كيف بَنَيْـناها وزيّـنّاها ومالَها من فُروجٍ (٧) والأرضَ مَدَدْناها وألقَيْـنا فيها رَواسِيَ وأنبتـنا فيها مِن كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ . تبصرةً وذِكرى لِكلِّ عَبدٍ مُنيب . ونَزَّلْـنا مِنَ السماءِ ماءً مُبـاركاً فَأَنْبَتْـنا به جنّاتٍ وحبَّ الحصيد . والنَخْلَ باسِقاتٍ لها طَلْعٌ نَضِيد . رِزقاً

---

٥ - الغاشية / ٢١
٦ - ق / ٢ - ٣
٧ - فُروج : شُقوق

للعبادِ وأَحْيَيْنـا به بَلدةً مَيْتاً كذلـك الخُروج ﴾[8] أي كذلك الإحياءُ بعدَ الموت والإخراجُ من القبور للحساب ؛ وكما قَدَرْنا على كل تلك الأفعال نَقْدِر أيضاً على هذا الفعل .

فلماذا بَنى للمعلوم هنا ولم يَبْنِ للمجهول ؟ فَعَلَ ذلك لأن المُهِمَّ هنا إظهارُ قدرة مَن بنىٰ السمـاء وزيّنها ومدَّ الأرض وألقىٰ الرواسيَ وأنبت الزرعَ ونزّل الغيثَ وأطلعَ النخلَ وأحيىٰ البلدةَ المَيْتَ . المُهِمُّ هنا هو قدرةُ الفاعل ، ولذلك ذكرَه فبَنىٰ للمعلوم .

حيث تكون الغايةُ إظهارَ قدرة الفاعل ، يَظْهر الفاعل . وحيث تكون الغايةُ إظهارَ عظمة الفِعل يستتر الفاعل فلا يظهر .

البناء للمجهول لا يؤتى به في الكلام الفصيح البليغ عبثاً .

أخيراً بقي أن أذكر لك أن الذي ساق إلى البحث في البناء للمجهول ، أنني تلقَّيتُ حتى اليوم أكثرَ من عشْرِ رسائلَ ، كلُّها تسألني : أنقول في النشيد الوطني لقُطْرِنا : (أبت أن تَذِلَّ النفوسُ الكرام) بالبناء للمعلوم ؟ أم نقول : (أبت أن تُذَلَّ النفوسُ الكرام) بالبناء للمجهول ؟

وحول ذلك أدير الحلقة المقبلة .

---

٨ ـ ق / ٦ ـ ١١

- ٣٨ -

أَبَتْ أن تَذِلَّ النفوسُ الكِرام

الفِعل الذي ينصب مفعولاً به ، مثل : (كَسَرَ سعيدٌ الزجاجَ) تبنيه للمجهول فتقول : (كُسِرَ الزجاجُ) ، أي تحذِف الفاعلَ وهو (سعيد) وتجعل المفعول به وهو (الزجاج) نائبَ فاعل .

وأما الفعل الذي لا ينصب مفعولاً به أصلاً ، مثل (ذَلَّ يَذِلُّ) ، فبناؤه للمجهول بهذه الطريقة غير ممكن . فإذا زِدْتَ في أوّل هذا الفعل همزةً فقلتَ : (أَذَلَّ) ، فعند ذلك يتعدّى فينصب مفعولاً به . تقول مثلاً : (أَذَلَّ الطَمَعُ الرجلَ) وتبني للمجهول في هذه الحال ، فتقول : (أُذِلَّ الرجلُ) و(يُذَلُّ الرجلُ) .

ولا بد من التنبيه هنا على أن بين (ذَلَّ) الذي لا تبنيه للمجهول ، و (أَذَلَّ) الذي تبنيه للمجهول ، فرقاً بَيِّناً إليكَهُ في مثالين :

أولاً : إذا ذَلَّ الإنسانُ ، ووَصَفْتَه فإنك تقول : (ذلَّ فلانٌ ، يَذِلُّ ، فهو ذَليل) . ومنه قول المتنبي :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ ... رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمامُ

ولو سألتَ أحدَ المشتغلين باللغة : عَلامَ تَدُلّ صيغةُ (ذليل) هذه ؟ لقال لك : هذه إحدى صِيَغ الصِّفة المشبهة ، وهي تدل على أن صِفةَ الذُّلِّ ثابتةٌ في هذا المُتَحَدَّثِ عنه ثُبوتاً عامّاً ، شاملاً جميع الأزمنة : الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، وأن هذه الصفةَ تلازمه طولَ حياته ؛

ثانياً : (أَذَلَّ ، يُذِلُّ) ، وهذا ينصب مفعولاً به . تقول : (أَذَلَّ الطمَعُ فلاناً) .

ومنه قولُ أبي العتاهية يهجو سَلْماً الخاسر :

تعَالَى اللهُ ياسَلْمَ بنَ عَمْرٍو ... أَذَلَّ الحِرْصُ أَعْناقَ الرِّجالِ

ولو سألتَ مشتغلاً باللغة : ماذا جَلَبَ هذا الاستعمالُ مِن المعاني ؟ لقال

لك : هذا الاستعمال معناه أن أعناقَ الرجالِ أصلاً عزيزةٌ ، غيرَ أن الحِرصَ والطمعَ غَلَبَا الأنفةَ والحَمِيَّةَ عندهم فَأَذَلّا أعناقَهم . فالعُنُقُ إذاً مُذَلٌّ لا ذَلِيلٌ .

(مُذَلّ) : اسم مفعول ، و(ذَلِيل) : صفة مشبهة ؛ وبينَهما من الفرق ما اللّهُ به عليم .

(مُذَلّ) اسم مفعـول ، واسمُ المفعـول يدل على معنىً غيرِ دائم ، اسمُ المفعول يدل على الحال ، يدل على الحدوث ، ولا يدل على دوام .

إذا قلتَ (الحبل مقطوع) فكلمةُ (مقطوع) وهي اسم مفعول ، تدل على الحال ، ولا تمتد إلى الماضي ، لأن الحبل قبلَ لحظة لم يكن مقطوعاً ؛ ولا تمتد إلى المستقبل ، فقد تَصِلُ منه ماانقطع بعدَ لحظةٍ ، فينتفي أن يكون مقطوعاً .

وليس الأمرُ كذلك في كلمة (ذليل) ، فـ (ذليل) صفةٌ مشبهة ، تدل على صفةٍ ثابتةٍ ثبوتاً عامّاً يشمل الماضي والحاضرَ والمستقبلَ ويمتد طولَ الحياة .

ولكي أقرب الفرق بينهما إلى الذهن أقول :

إذا قلتَ (الرداءُ طويل) فكلمةُ (طويل) صفةٌ مشبهة ، ومعناها أن الطول في الرداء صفةٌ ثابتة فيه ، ملازمةٌ له في الماضي والحاضر والمستقبل . وأما إذا كان طولُه غيرَ كافٍ ، فزاد فيه الخيّاطُ قطعةَ قُماش ، فعند ذلك لا تقول : (الرداء طويل) بل تقول (أطالَ الخياطُ الرداءَ ، فالرداء مُطال) . ومعنى ذلك أن الرداء لم يكن طويلاً أصلاً ، وإنما أطالَهُ الخياطُ ، فهو (مُطال) . فبين الصيغتين كما ترى فرقٌ شاسع .

فإذا استعملت (ذلَّ يَذِلُّ فهو ذَليل) فقلت :

حمــاةَ الــديارِ عليكــمْ سَلامْ أَبَــتْ أن تَذِلَّ الـنُّـفُـوسُ الكِــرامْ

فقولك هذا أَعْرَقُ في نَفْيِ الذُلِّ وإبائِه ، لأن المعنى (أَبَتِ النفوسُ الكرامُ أن تكون ذليلةً في كل حال ، وإباءُ الذل صفةٌ ثابتةٌ في هذه النفوس ثبوتاً عامّاً شاملاً جميعَ الأزمنة : الماضي والحاضر والمستقبل ، وطولَ حياةِ هذه النفوس) .

وأما إذا استعملتَ (أَذَلَّ يُذِلُّ فهو مُذَلّ) فقلت :

حمــاةَ الــديارِ عليكــمْ سَلامْ أَبَــتْ أن تُذَلَّ الـنُّـفُـوس الكِــرامْ

فقولك هذا أَقَلُّ إعراقاً في نَفْي الذل وإبائِه ، لأن معناه : (أَبَتِ النفوسُ الكِرامُ أن تكون مُذَلَّةً) ولا يعني أنها جُبِلَتْ على إباءِ الذل وفُطِرَتْ عليه .

وقد يقول قائل : إن كلمة (الكِرام) قرينةٌ على إباء الذل في كل حال ، إذ النفوسُ الكِرامُ عزيزةٌ أبداً . وأقول : أيُّ التعبيرَيْن أَذْهَبُ في إباءِ الضَّيْم ؟ وأيُّهُما أَعْرَقُ في العِزّة ؟ الصيغةُ التي تدل مِن نفسِها بنفسها على إباء الذل دَوْماً ؟ أم الصيغةُ التي لا تدلّ على ذلك إلا بقرينة ؟ الأُولى أعرقُ لا شكّ .

ولقد كنت بيّنْتُ بالدليل في الحَلْقَتَيْن السابقتين ، أن البناء للمجهول لا يُؤْتى به في الكلام الفصيح البليغ عَبَثاً . فهل في البناء للمجهول في قولك : (أبت أن تُذَلّ النفـوسُ الكرام) فضلُ معنى ، أو صورةٌ أو خيالٌ أو تعظيم أو . . . ؟ كلا بل العكسُ هو الصحيحُ هنا ، إذْ فيه قَصْرُ إباءِ الذل على الحاضِر وحدَه . ولذلك أقول : الأَعْلى والأفصحُ والأبلغُ أن تقول : « أبت أنَ تَذِلّ النفوس الكرام » . لأنها إذا أَبَتْ أن تذِل ، فقد أَبَت الذُلَّ في كل حال ، وأما إذا أَبَت أن تُذَلّ ، فقد أَبَت الذل في حالٍ واحدة .

وبعد فلقد تلقَّيْتُ حول هذه المسألة أكثرَ مِن عَشْرِ رسائلَ مِن مدارسَ ومواطنين . ولقد قدرتُ أن المسألة ذاتُ علاقةٍ بالنشيد الوطني لبلادنا ، وأن الاعتباطَ في هذا غيرُ وارِد . فاطّلعتُ على ديوان الشاعر المرحوم خليل مردم في مكتبة الأسد الوطنية ، وهو محفوظٌ فيها برقم ص ٦٨٥٧٣ فوجدتُ اللامَ المشددة مضبوطةً بالفتح ، وأما التاءُ والذالُ فبغَير ضَبْط .

ولذلك قصدتُ مكتبةَ قصرِ العدل بدمشق ، وبدأت بالاطلاع على الجريدة الرسمية فيها منذ عام ١٩٣٨ ، ورجعت القهقرى حتى عام ١٩٣٢ ، فلم أقع على القصيدة ، وعلى هذا فإن ماذكرتُه من ترجيح (أن تذِلّ) على (أن تُذَل) إنما هو رأي شخصي ، لا يقدِّم في الأمر ولا يؤخِّر ، وسأظلّ أُتابِع البحثَ حتى أَقَعَ يوماً على النصّ مضبوطاً بالشَّكْل ، وأعودَ فأبلغ السادةَ المشاهدين ضَبْطَ الكلمةِ من الوِجهة الرسمية ، لا الوجهة الأدبية واللغوية .

- ٣٩ -

تَـــواجَـــــــدَ

فِعلُ (وَجَدَ يَجِدُ) فِعلٌ يعرفه المتعلم وغيرُ المتعلم ، تقول مثلاً : (وجَدَ فلان ضالّته يَجِدُها) ، إذا رآها ولقيها وأدركها . لكنّ في هذه المادة مسألتين يحسُن التنبيهُ عليهما .

الأولى : أن لبعض حروف الجر مع هذه المادة شأناً عجيباً . وذاك أنها إذا صحبتْها أنشأتْ لها معانيَ بعيدةً عن معنى (وجَدَ فلانٌ ضالّته) .

فمَعَ حرف الجر (على) يصبح معنى الفعل (غضِب) . تقول : (وجَد فلان على خالـد) ، فيكـون المعنى (غضِب فلان على خالـد) . ففي النهـاية لابن الأثير : « وفي حديث الإيمان : إني سائِلُك فلا تَجِدْ عليَّ » أي لا تغضبْ من سؤالي .

ومـع حرف الجـر (البـاء) يصبـح المعنى (أَحبَّ يُحبُّ) . ففي النهاية : « يقال : وَجِدْتُ بفُلانَةَ وَجْداً ، إذا أَحْبَبْتَها حُبّاً شَديداً » . قال الشاعر :

وَوَجْـدِي بهـا وَجْـدُ المُضِـلِّ بَعِيرَهُ بمكّـةَ لم تَعْـطِفْ عليه العَـواطِفُ

فالوجد هنا : مايجده الإنسان من الحب . وقال أبو طالبٍ عمُّ النبيِ في مَدْحِ رسولِ الله (ﷺ) :

لَعمـري لقـد كُلِّفْتُ وَجْـداً بأحمدٍ وإخـوتِـهِ دَأْبَ المحِبِّ المُـواصِلِ

فالوجْدُ هنا الحُبّ ، وأراد بإخوةِ الرسولِ عَلِيّاً وعَقيلاً وجَعفراً .

وأما المسألة الثانية فهي أن لهذه المادة مصادرَ كثيرةً ، تفترق أحياناً ، وتتّفق أحياناً أخرى ، وأعني بالافتراق أن الفعل إذا تَغَيّر معناه ، كان له مصدرٌ يدلّ على المعنى الجديد . أي أنك قد تعرف معنى الفعل من مصدره .

فإذا قلتَ لي : (وَجَدَ يَجِد مَوْجِدَةً) ، قلت لك : هذا معناه غَضِب .

وإذا قلتَ لي : (وَجَدَ يَجِدُ جِدَةً) ، قلتُ لك : هذا معناه اِغتنى . قال أبو العتاهية :

إنّ الشبابَ والفراغَ والجِدَةْ مَفْسَدَةٌ لِلمرءِ أيُّ مَفْسَدَةْ

وإذا قلت لي : (وَجَدَ يَجِدُ وُجْداً) ، قلتُ لك : هذا معناه السَّعَةُ واليَسار . قال تعالى : ﴿ أسكِنُوهُنَّ مِن حيثُ سَكَنْتُم مِنْ وُجْدِكُم ﴾ [1] أي : سَعَتِكم .

وإذا قلتَ لي : (وَجَدَ يَجِدُ وِجْداناً) ، قلتُ لك : هذا معناه وَجَدَ الضالّة وأَدْرَكَها . قال المتنبي :

يا مَنْ يَعِزُّ عَلَينا أنْ نُفارِقَهُمْ وِجْدانُنا كُلَّ شيءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

ومِنْ هنا مَا قال ابنُ القَطّاع في كتاب « الأفعال » :

« وَجَدتُ الشيءَ وِجداناً ، بعدَ ذهابه ؛ وفي الغِنى بعدَ الفقر ، جِدَةً وَوُجْداً ؛ وفي الغضب مَوْجِدَةً ؛ وفي الحُزن وَجْداً » . فتراه يُورد لكل معنى مصدرَه .

ولكنّ بعض هذه المصادر قد تتفق في اللفظ وتتفارق في المعنى . مثال ذلك (الوَجْدُ)فهو مصدرٌ لإدراك الشيء ، وللغضب ، والحب ، والحزن . فمن الحُبِّ قولُ الراجز:

إنْ تَبْخَلِي ياجُمْلُ أو تَعْتَلِّي
أو تُصْبِحي في الظاعِنِ المُوَلِّي
نُسَلِّ وَجْدَ الهائِمِ المُغْتَلِّ

ومِنَ الحزنِ قولُ الشاعر :

فما وَجَدَتْ كَوَجْدِي أُمُّ سَقْبٍ[2] أَضَلَّتْهُ فَرَجَّعَتِ الحَنِينا

(فما وجدت كوجدي) أي ماحزِنَتْ كحُزني .

ومثالٌ آخرُ هو (الوِجْدان) ، فهو مصدرٌ لإدراك الضالّة ، وللغضب أيضاً .

---

١ ـ الطلاق / ٦
٢ ـ السقب : ولد الناقة .

فمِنْ إدراكِ الضالّةَ قولُ المتنبي الذي ذكرناه آنفاً : (وِجْدانُنا كلَّ شيء بعدَكم عدمُ) . ومن الغضب قولُ صَخْر الغَيِّ الشاعر :

كِلانا رَدَّ صاحِبَهُ بيأْسٍ على حَنَقٍ وَوِجْدانٍ شَدِيدِ

فالوجدان هنا الغضب .

بقي أن أذكر أن رسالة جاءتني من أخٍ من حمص ، وهاتفاً جاءني من إدلب ، يطلبان البحثَ في قول بعضهم : (يَتَواجَدُ فلان في بيته) مثلاً ، أو (يتواجَدُ الموظفون في مكاتبهم) .

وأقول إن كِلا الاستعمالين غيرُ صحيح ، غلطٌ لا شكَّ فيه ؛ وإليك البيانَ :

أولاً : قولُ بعضهم : (يتواجد فلان في بيته) مثلاً ، لم يَقُلْه عربيّ ، وهو استعمال مُرْتَجَل ، لا أصلَ له ، قد اختُرِعَ اختراعاً ؛ وهو مردود مرفوض ، لأن فيه خروجاً بهذه المادة عن معانيها اعتباطاً . ويغنيهم عن ذلك أن يقولوا : (فلان في بيته) .

ثانياً : يقول بعضهم :(يتواجد الموظفون في مكاتبهم) مثلاً ، ويَبْنون استعمالَهم هذا على أنّ (تَواجَدَ) وزنُه (تَفَاعل) ، وهذه الصيغة من معانيها المشاركة ، فكما يقال : (تَضارَبا وتَقاتَلا وتَضارَبوا وتَقاتَلوا) يقال أيضاً : (تواجَدَا وتواجَدُوا) .

وهذا وَهَمٌ وغلَطٌ ، لأن مادة (وجد) ليس فيها معنى الحضور ، ولا معنى التلاقي ؛ فهم يستعملون المادة إذاً في غير معناها . ثم ليس كلُّ ما كان على وزن (تَفَاعَلَ) يدل على المشاركة ؛ فـ(تعالى الله) ليس فيه معنى المشاركة ، و(تباعَدَ فلانٌ) ليس فيه معنى المشاركة ، و(تمارض فلانٌ) ليس فيه معنى المشاركة الخ . . . .

ثالثاً : إذا قلتَ : (تضارَبَ سعيدٌ وخالد) فهُنا اشتراكٌ في الفاعِلِيّة . إذْ كلٌّ منهما فَعَلَ فِعْلَ الضرب . ولكنّ هنا اشتراكاً ضِمْنِيّاً في المفعولية أيضاً ؛ إذْ كُلٌّ منهما

قد أصابَه الضَّرْبُ . فهل يَتَحَقَّقُ هذا في (تواجَد الموظفون) ؟ وهم يريدون به أن كلَّ واحد منهم يكون موجوداً؟ لايتحقق . ولذلك نقول : هذا غلَط .

رابعاً : إنّ (تواجَدَ) له استعمالٌ واحد في اللغة فقط ؛ وذلك إذا أَوْهَمَـكَ إنسانٌ أنّ فيه حالةَ الوَجْدِ وهي ليست فيه . ففي هذه الحال تقول : (تواجَدَ فلان) .

ومثلُ ذلك (تغافَلَ فلان) ؛ وذلك إذا لم يكن غافلاً أصلاً ، وإنما هو يُوهِمُك أن فيه غفلةً . ومثلُ ذلك تَجاهَلَ وتَمارَضَ الخ . . .

وأُوردُ لك كلمةَ (تَواجَدَ) في نصٍّ جاء في كتاب المستطرف ، لترى صِحة استعمالها . ففي ذِكْرِ مايُعابُ على الضَّيف قال : « ومنهم - يعني من الضيوف - مَنْ تعجبه نفسُه ، ويَستحسن لباسَه ، ويستطيب رائحتَه ، وإذا سَمع الغناء تواجَدَ وأظهَرَ الطَّرب ، وحرّك رأسَه ، ويقوم قائِماً يتمايل » . فقولُه : (وإذا سمع الغناءَ تواجَد) معناه : أرىٰ مِن نفسِه الوَجْد .

ومن الغريب أن المعجم الوسيط قد نصَّ في طبعته الأولى والثانية على أن (تواجَـدَ فلان) معنـاه : أرى مِن نفسِـه الوجد ؛ ولكنّ الطبعةَ الثالثة جاء فيها : (وتواجَدَتِ الجماعةُ ، اجتمع بعضُها إلى بعض) . قال : « وهو مُوَلَّد » . فكيف يَنْبِـذُ هذا الاستعمـالَ بالأمسِ ، ثم يجعلُه مُوَلَّداً اليومَ ؟! الحقُّ أنه استعمالٌ غيرُ صحيح ، غلَط . ولو أن مجمع اللغة العربية وافق على ذلك ، لاختلف الأمر ؛ لأن مايُقِرُّه المجمعُ في العادة ، إنما يكون بعد البحث والمناقشة ثم التصويت . ثم إن اللغـة لا تفتقـر إلى هذا المعنى ؛ أليس استعمـالُ الالتقـاء والتَّلاقِي خَيْراً من التواجُدِ ؟ والتواجدُ هنا غلط . قال طَرَفَةُ :

وإنْ يَلْتَـقِ الـحـيُّ الجميعُ تُلاقِني ... إلى ذِرْوَةِ البَيْتِ الرَّفيعِ المُصَمَّـدِ

وفي سورة آل عِمران : ﴿ إنّ الذين تَوَلَّوْا منكم يوم التقىٰ الجمعانِ ﴾ [٣] .

ثم أليسَ التَوافِي ألطَفَ وأجمَلَ وأدقَّ في أداء المعنى ؟ قال كُثَيِّر :

وَوَاللهِ ماقـارَبْـتُ إلا تَبـاعَـدَتْ ... بِصَـرْمٍ ولا أَكْـثَـرْتُ إلاّ أَقَـلَّتِ

---

٣ ـ آل عمران / ١٥٥

وكُنّا سَلَكْنا في صَعُودٍ مِنَ الهوىٰ فلمّا توافَيْنا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ

ـ (تَواجَدَ فلان في بيته يَتَواجَد) غلط .

ـ ومثلُه في الغلط : (تَتَواجَدُ المُدمِّرةُ الفُلانيَّةُ في الخليج العربي) .

ـ و (يَتَواجَدُ الموظفونَ في مكاتبهم) غلطٌ أيضاً ؛ فهذه تعابيرُ من مِعْجَنٍ واحد .

ـ وأما الصواب فقولُك : (يَتَواجَدُ فلان) إذا كان يُري مِنْ نفسِه الوَجْد .

ـ ٤٠ ـ

المَحَـــــلاّت

إذا جمعت المفرد المؤنث ، جَمْعاً سالماً ، أَضَفْتَ إليه أَلِفاً وتاءً زائدتين في آخره . فتقول في جَمْع مريم وزينب وتفاحة وصحراء وذكرى : مريمات ،زينبات ، تفاحات ، صحراوات ، ذكريات ، وهكذا. . . . . .

وأمـا ماهو مؤنثٌ ، ولا يُجمع جمع مؤنث سالماً ، فقد قَيّدَتْه كتُب النحو ، ونصّتْ عليه ، وذَكَرَت العِلّة فيه . فالعربي يقول مثلاً : هذه امرأةٌ صبور ، فإذا جَمع لم يقل : هنّ نساءٌ صَبُورات . بل قال : هنّ نساء صُبُر . وهو يقول مثلاً : هذه امرأةٌ حامِلٌ ، فإذا جمع لم يقل : هنَّ نساءٌ حامِلات . بل قال : هنّ نساءٌ حَوامِل .

ولو كانت هذه المسألة من همومي في هذه الحلقة ، لَبَسَطْتُ القولَ فيها ، لكنّ همي هو أن أبيّن أن المفرد المذكّر قد يُجْمَع أحياناً جمْعَ مؤنثٍ سالماً .

خذْ كلمةَ (جَبَل) مثلاً : الجَبَلُ مفرد مذكر لا يعقل . فإذا وصفتَه مجموعاً جاز لك أن تقول في الوصف : (هذه جِبالٌ شاهقات) . لماذا ؟

لأن صفةَ المذكر المفرد غيرِ العاقل ، تُجمَع جمْع مؤنثٍ سالماً . وعلى ذلك تقول : رأيتُ سهولاً فسيحاتٍ ، ومررت بأنهار جارياتٍ وهكذا . . . فهذه مسطرة .

ومِن ذلك أيضاً أن هذا المذكر الذي لا يعقل ، إذا صَغَّرتَه جَمَعْتَه جمْعَ مؤنثٍ سالماً . خذْ كلمةَ (كِتاب) مثلاً ، تُصَغِّرُه فتقول : (كُتَيِّب) ، ثم تجمع فتقول : اشتـريت كُتَيبّـات . وقـل مِثـل ذلـك في كلمة : (دفتر) ، فأنت تصغِّره فتقول : (دُفَيْتِر) ، ثم تجمع فتقول : عندي دُفَيْتِرات . وهكذا. . .

ومما هو مذكر ، ويُجمَع جمع مؤنث سالماً : المصدرُ الذي تزيد حروفُه على ثلاثة أحرف :

فالفِعـل : (أَكـرَم يُكرِم) مصدرُه (إكرام) . وهذا أكثرُ من ثلاثة أحرف ،

ولذلك تجمعه على (إكْرامات)، (وعَرَّف يُعَرِّف) مَصدرُهُ (تَعْريف) . وهذا أكثرُ مِنْ ثلاثَةِ أَحرف، ولذلك تَجْمَعُهُ على (تعريفات) وهكذا . . . فهذه مسطرة

أخيراً أذكـر لك من ذلـك الاسمَ الأعجمي ، الـذي لم يُعْهَـد له جَمـعٌ ، كالتلفزيون مثلاً ، فإنّك تظلّ تجمعه على (تلفزيونات) ، حتى تضعَ له المجامع اللغوية اسماً مستحدثاً ، أو تُعَرِّبَه .

بعد هذا أقول : إن طالباً جامعياً من كلية الهندسة في جامعة دمشق ، كان قبْلَ حين وجّـه إلي رسالة فيها نحوُ عشَرةِ أسئلة ، وتحتاج الإجابة عنها إلى نحو عشْرِ حلقات في نحوِ عشَرة أسابيع !! وأجيب في هذه الحلقة عن سؤالين منها :

السؤال الأول يقول : المصدرُ لا يُجمع ، فإذا اضطُرِرنا إلى جمْعه ، فهل نجمعه جمعَ مؤنثٍ سالماً ؟

وأقول : لقد ذكرتُ لك آنفاً أن المصدر الذي تزيد حروفه على ثلاثة أحرف ، يُجمـع جمـعَ مؤنثٍ سالمـاً . وعلى ذلك تَجمَع المصدر : (استعمال) فتقول : استعمـالات . وتجمـع المصدر (اقتراح) فتقول : اقتراحات . وتجمع المصدر (تعريف) فتقول : (تعريفات) وهكذا . . . .

وأمـا ماكـان ثلاثيَّ الأحـرف فتجمعـه جمـعَ تكسير ، كمـا تجمع سواه من الأسمـاء : فالعِلْم تجمعـه على (علوم) ، والـظَنُّ على (ظُنون) ، والبَيْع على (بُيُوع) وهكذا . . .

ومـع أننـا لا نبحث في المصـادر في هذه الحلقة ، وإنما نبحث في جمع المؤنث السالم فإنني أقول لك : إن المصدر إنما يُجمَع إذا أُريدَ أنواعٌ مختلفةٌ منه .

السؤال الثـاني : هل نجمع الكلمات مثل (مَحَلّ) على (مَحَلّات) وفي الجـواب أقـول : المَحَـلُّ اسمُ مكـان ، وهـو قبـل الإدغـام (مَحْلَل) ، ووزنُـه (مَفْعَل) . ثم تُدغِم فتقول : (محلّ) .

وماكان وزنُه على (مَفْـعِل) فجمعُه (مَفَاعِل) ، لأن كل ما كان على أربعة أحرف ، وأوّلُه ميم زائدة ، يُجمَع على (مَفَاعِل) .

فقبْلَ الإدغام إذاً (مَحْلَل = مَفْعَل) و جمعه (مَحَالِل = مَفَاعِل) . وبعدَ الإدغام (محلّ ومحالّ) ، وأما (المَحَلاّت) جَمْعاً لـ (مَحَلّ) فغلط .

وأورد لك الكلمة مفردةً ثم مجموعةً في كلامٍ لعليٍّ كرم الله وجهه . قال عليه السلام ، وذَكَرَ أهلَ القبور : « وما عَنْ طولِ عهدِهم ولا بُعْدِ مَحَلِّهم عَمِيَتْ أخبارُهم » . فهذا مفرد . وقال وقد رجع من صِفّين فأشرَفَ على القبور بظاهرِ الكوفة : « يا أهلَ الديار الموحِشة ، والمحالِّ المقفرة » . فهذا جَمْع . ثُمَّ إليكَ جُمْلةً مِنْ هذا الجَمْعِ في خُطْبَةٍ واحدةٍ مِنْ خُطَبه :

قال يوصي الناس بالزهد والتقوى ، ويبيّن لهم حال الدنيا : « أهلُها على ساقٍ وسِياق ، ولَحاقٍ وفِراق ، قد تَحيَّرتْ مَذَاهِبها (جمع : مَذهَب) وأعْجَزَتْ مَهَارِبُها (جمع : مَهرَب) ، وخابَت مَطَالِبُها (جمع : مَطلَب) ، فأسلَمَتْهم المعاقل (جمع : مَعقِل) ولفظَتْهم المَنَازِل (جمع : منزِل) » الخ . .

ماكان على أربعة أحرفٍ ، أوّلُه ميم زائدة يجمع على (مَفَاعِل) .

ولسائلٍ أن يسأل : أليس في العربية كلمةُ (مَحَلاّت) ؟

وأجيب : بلىٰ ، ولكنْ على أنها جمعٌ لكلمة (مَحَلَّة) بمعنى (منزِلِ القوم) ، لا على أنها جمعٌ لكلمة (مَحَلّ) .

فالمحلةُ اسمٌ مفردٌ منتهٍ بتاءِ التأنيث المربوطة ، وما كان كذلك يُجمَع جَمْعَ مؤنثٍ سالماً .

فإذا قلتَ : (مَحَلاّت) ، فهذا جمعٌ لـ (مَحَلّة) . بمعنى (منزل القوم) وليس جمعاً لـ (محلّ) . وقس على ذلك سِواه .

ـ ٤١ ـ

مُطّـــرِد

الكلمات في العربية لها أوزان ، أركانُها الفاء والعين واللام ، أي (فعل) . فإذا قلتَ : صَبَرَ فوزنُه فَعَلَ ، وإذا قلتَ : شَرِب فوزنُه فَعِل ، وإذا قلتَ : حَسُنَ فوزنُـه فَعُل ، وهكذا . فإذا زِدتَ حرفاً من أحرف الزيادة أو أكثر في الكلمة ، فإنك تزيد مثلَ ذلك في المِيزان .

فصادَقَ : وزنُه فاعَلَ . و عَظِيم : وزنُه فَعِيل ، واستخرج : وزنُه استفعل ، وتَمايَل : وزنُه تَفاعَل ، واحتَمَلَ : وزنه افْتَعَل ، وكذلك ارتفع واختصم واحترق واستمع ، كل ذلك وزنه (افتعل) .

ولقـد قدمت هذه المقـدمة لأصل إلى وزن (افتعل) إذ هو غايتي في هذه الحلقة . ولذلك أكثرتُ منه فقلت : احتمل وارتفع واختصم واحترق واستمع . . . . . .

ولماذا أكثرتُ من ذلك ؟ أكثرتُ منه لأُثَبِّتَ هذا الوزنَ في ذهنِك ، حتى إذا اطمأنَنْتُ إلى أنكَ حفِظْتَه ، ورَسَخَ في ذاكرتك ، انتقلتُ إلى الحديث عن امتياز هذا الوزن في العربية . فوزن (افتعل) في العربية وزنٌ ممتاز .

طيب ! وبم يمتاز ؟ يمتاز بأن هذه التاء وهي الحرف الثالث منه ، تنقلب إلى طاء : تاؤه تصبح طاءً .

طيب !! ومتى يكون ذلك ؟ في الجواب أقول : هناك ، في الأبجدية العربية أربعة أحرف متتابعة هي : (صاد، ضاد، طاء، ظاء)؛ إذا جاء حرفٌ منها في أول الفعل الثلاثي ، ومثال ذلك (صَبَرَ)، وصُغْتَ منه (افتعل) فإنك لا تقول : (اِصْتَبَر) بل تقول : (اِصْطَبَر) فتقلبُ التاء طاءً . هذه هي المسألة .

وأعترف أنني أَطَلْتُ فيها ، ولكنّ عذري أنني أردتُ أن يَعِيَ المسألةَ كلُّ من

سمعها ، مهما يكن ضَعْفُ صِلَتِه باللغة . وإلاّ فالاختصار ميسور ، وإليكَها موجزةً .

أولاً : الفاء والعين واللام ميزانُ كلِّ كلمةٍ ثلاثية : (صَبَرَ) مثلاً وزنُه (فَعَلَ) .

ثانياً : إذا أَدخلتَ على الكلمة حرفاً من حروف الزيادة أو أكثر ، فيجب أن تزيد مثلَ ذلك في المِيزان : (احترق) مثلاً وزنُه (افتعل) .

ثالثاً : إذا كان الحرف الأول من الكلمة في الأصل هو الصاد أو الضاد أو الطاء أو الظاء فإن التاء من (افتعل ويفتعل والافتعال) الخ . . تُقْلَبُ طاءً .

أما الآن فإلى الأمثلة :

(صَبَرَ) وزنُه (فَعَلَ) ، وانتبهْ، فالحرفُ الأول **صاد** . فإذا أردتَ أن تصوغَ منه على وزن (**افتعل**) ، فالأصل أن تقول (**اصتبر**) ، ولكنّ هذا لا يُقال في العربية ، وإنما يُقال : (**اصطبر**) بقلب التاء طاءً . لماذا ؟ لأن أول حرف مِن الكلمة هو **الصاد** . وإليك مثالاً ثانياً :

(ضَرَبَ) وزنه (**فَعَلَ**) وانتبه ، فالحرف الأول **ضاد** ، فإذا أردتَ أن تصوغ منه على وزن (**افتعل**)، فالأصل أن تقول (**اضترب**)، ولكن هذا لايُقال في العربية ، وإنما يقال (**اضطرب**) بقلب التاء طاءً . لماذا ؟ لأن أول حرف من الكلمة هو **الضاد** . وإليك مثالاً ثالثاً :

(طَرَدَ) وزنُه (**فَعَلَ**)، وانتبه ، فالحرف الأول طاء . فإذا أردت أن تصوغ منه على وزن (**افتعل**) فالأصل أن تقول (**اطترد**)، ولكن هذا لا يقال في العربية وإنما يقال : (**اططرد**) بقلب التاء طاءً . وتلاحظ أن الحرفين هنا متماثلان، ولذلك تُدْغِم فتقول: (**اِطّرد ويطّرد ومُطّرد واطّراد**) الخ . .

أما الظاء فنادرٌ استعمالُها في مثل هذا، ولذلك نُهمِلها ولا نُمثِّل لها .

بالأمس جاءتني رسالة من أستاذ جليل، من المشتغلين باللغة والمؤلِّفين فيها ، لا أَملِكُ أن أردّ له طلباً، ومع الرسالة صحيفةٌ يوميةٌ فيها هذا العنوان : (النجاح المضطرد)!! وقد أحاط الأستاذ العنوان باللون الأحمر ليحدد لي موضع الغلط . وسألني أن أعالجه ، ففعلتُ .

ولعل من متمِّمات هذه الحلقة أن نسأل الأخ الكاتب : من أين أتيت بهذه الضاد فقلت : (مضطرد)؟!

أول حرف في (طرد) هو الطاء فكيف جعلتَها ضاداً ، فقلت : **مضطرد ؟!**

الأصل (مُطْتَرِد) ثم تُقلب التاءُ طاءً، فتقول : (مُطْطَرِد)، فتلتقي طاءان فتدغم فتقول: (مُطَّرِد)، أي تشدّد الطاء، هذا هو الصواب . وأما (مُضْطَرِد) بالضاد، فغلطٌ تأباه العربية .

- ٤٢ -

مـــع

أَسيرُ في هذه الحلقات منذ زمن بعيد، على أن أتجنب الهجومَ بالموضوع على الناس ، مُدارياً بذلك إعراضَ كثيرين ممّن لا يروقُهم الحديثُ في اللغة، ويترقّبون أفلامَ السهرة أو مسلسلاتِها. أقول في نفسي : لو هجمتُ بالموضوع عليهم لنَفَروا منه نُفوراً . ولكن التمهيد لحديث اليوم استعصى عليّ ؛ ذاك أنه يدور حول كلمة : إن كانت من أوسع الكلمات استعمالاً ، فإنها ضيِّقٌ نِطاقُها، محدودٌ تَصَرُّفُها ، ثم هي حرفان فقط . إنها كلمة (مع). ماحقيقتها ؟ولقد عمَدت إلى البحث فيها بعد أن تلقّيت رسالتين تطلبان ذلك .

(مَع): اسم ، ويدلّك على اسميّتها أنها تُنوّن ، والتنوين إنما هو للأسماء. تقول مثلاً :(سافر سعيدٌ وخالدٌ معاً) فتنوِّن ، فهي إذاً اسم .

وهي تكون ظرفاً للمكان، وظرفاً للزمان أيضاً، والقرينةُ هي الفَيْصَل . تقول مثـلاً : (جلس سعيد مَـعَ خالد في الغرفة) . والقصدُ في هذا المثال متّجهٌ إلى المكان ، لأن قولك : (في الغرفة) قرينةٌ ، دلّت على أن القصد إنما هو المكان . وتقول : (استيقظتُ مع الفجر)، فتلاحظ أن القصد مُتّجهٌ إلى الزمان ، لأن قولك : (مع الفجر) قرينة دلّت على أن القصد إنما هو الزمان .

فإذا لم يكن في الكـلام قرينةٌ تدل على الزمان أو المكان، كقولك مثلاً : (سلّمتُ على المسـافـرين مع المـودّعين) فأنت بالخيار : إن شئت أعرَبْتها ظرفاً للمكان منصوباً، وإن شئتَ أعربتَها ظرفاً للزمان ، منصوباً. وعلامة النصب الفتحة ، وبعدَها مضافٌ إليه ؛ هذه هي المسألة الأولى .

ثانياً : قد يُحـذَفُ المضافُ إليه بعدَها، فتُنْصَب وتُنوَّن ، وتكون في الأكثر حالاً. وذلك كأن تقول: (سافر سعيد وخالد معاً) . ومعناه : سافَرَا متصاحِبَين . ومنه

قولُ متمِّم بن نُوَيرةَ يرثي مالكاً أخاه :

فلمّا تَفَرَّقنا كأنّي ومالكاً ... لِطول اجتماعٍ[1] لم نَبِتْ ليلةً معا

وقد تأتي لجمع المذكر ومنه قولُ الخنساء :

وأفْنَى رِجالي فبادُوا مَعاً ... فأصبَحَ قَلبي بهم مُستَفَزّا

وقد تأتي لجماعة الإناث، ومنه قولُ الشاعر مُتمّم بن نُويرة :

يُذَكِّرنَ ذا البَثِّ الحزين ببثِّه ... إذا حنَّتِ الأولى سَجَعْنَ لها معا

هذا ، على أن سياق الكلام قد يقتضي أن تكون خبراً، أعني أن تكون ظرفاً متعلقاً بالخبر المحذوف ، وذلك كأن تقول : (نحن معاً) . فـ (نحن) : مبتدأ ، و (معاً) : ظرف متعلّقٌ بالخبر المحذوف . ومنه قولُ الشاعر :

أفيقوا بَني حَزْنٍ وأهْواؤنا مَعاً ... وأرْحامُنا مَوْصولةٌ لم تُقضَّبِ

فـ (أهواؤنا): مبتدأ، والخبر محذوف يتعلق به الظرف (معاً)، والتقدير : (أهواؤنا كائنةٌ معاً) أي (أهواؤنا مجتمعة) .

ثالثاً ـ قد تأتي ظرفاً بمعنى (عند) وهذا قليلٌ بل نادر. وكان يُمكن آطّراحُه لولا سببان : أولُهما أن سيبويهِ نصَّ على ذلك، ومثّل له بقوله: (ذهبتُ مِنْ مَعِه). والسبب الآخر أنني آطّلعتُ بالأمس على كتاب في النحو، صَدَر في قطرٍ عربي شقيق، ذكر فيه المؤلف في الصفحة ٣١٤ أن (مع) قد تأتي بمعنى (عند).

طيّب ! هذا صحيح . ولكن المؤلف مثّلَ لذلك فأخطأ الصواب، إذ قال : « بدأتُ عملي معَ طلوع الفجر ». ويعني المؤلّف بهذا : « بدأتُ عملي عند طلوع الفجر » . وليس الأمر كذلك.

وتسألُني أينَ الغلط ؟ وأقول لك : إذا كانت (مع) بمعنى (عند) فلا بد من أن تكون مجرورةً بـ (من) وجوباً. كما رأيتَ في مثال سيبويه: (ذهبتُ مِنْ مَعِه). قال المراديّ في الجنى الداني : « مع ظرف لازمٌ للظرفية، لا يخرج عنها إلا

١ـ أي بعد طول اجتماع .

إلى الجرّ بـ (من) كما تقدم ». يعني كما تقدم في مثال سيبويه : (ذهبتُ مِن مَعِه).

وقال عباس حسن : مَعْ « قد تستعمل ظرفاً بمعنى (عند) فتُجَرُّ عند ذلك بمِن وجوباً ».

وتبقى مسألة مُهمّة، وهي أن المشهور فيها فتحُ العَين، ولكنّ من العرب مَنْ يسكِّنها فيقول مثلاً : (الكتابُ مـعْ خالد) ومنه قولُ جرير :

فَرِيشِـي مِنْكُـمْ وهَـوايَ مَعْـكُـمْ ... وإنْ كانـتْ زِيارَتُـكُـمْ لِـمـامَـا

وقـد ذكر سيبويه أنّ تسكينها لا يجوز في النثر ، بل يجوز في الشعر ، لأنه ضرورة شعرية . ولكن العلماء ردُّوا قولَه هذا، فذكروا أن من العرب مَنْ يسكنها في النثر والشعر جميعاً، فإذا قلتَ : (الكتابُ معَ خالد) فهذا ظرفٌ منصوب بالفتحة . وإذا قلت : (الكتابُ مـعْ خالد) فهذا ظرف مبني على السكون في محل نصب.

والمسألةُ كان يمكن أن تنتهي هنا، ولكنّ نحوياً هو النحاس، أو ابن النحاس قال: إذا سُكِّنَتْ عينُها انقلبتْ إلى حرف جر .

وقد أبى أكثر النحاة هذا القول، وردُّوه. قال السّيوطي في الهَمْع : « اِسميَّتُها حينَ السكون باقيةٌ على الأصح ». لماذا ؟ قال : « لأنّ معناها مبنيّةً ومعربةً واحدٌ ». يعني أن تسكينَها لم يُغيِّر من معناها . ثم قال : « وزَعَم النحاس أنها حينئذٍ حرف . وليس بصحيح ».

وقال ابنُ عقيل : « وزَعَم بعضُهُم أن الساكنةَ العَيْنِ حَرْف » . . . « وآدّعى النحاسُ الإجماعَ على ذلك، وهو فاسد ».

وقال ابن هشام في المغني : « وقولُ النحاس إنها حينئذ حرفٌ بالإجماع، مردود » .

وقال المراديّ عن حرفيتها : « قاله ابن النحاس، والصحيح أنها اسم ».

ولقـد وَرَدَ في إحدى الرسالتين اللتين ساقتا إلى هذا البحث: « هل تكون (مَعْ) حرف جر »؟ وأقول: كلا ، لا تأتي (مع) حرفَ جر.

وتبقى من البحث نُكْتة ؛ وهي : ما الفرق بين قولنا مثلا: (سافروا معاً) و (سافروا جميعاً) ؟

ويجيب النحـاة : إذا قلتَ: سافـروا معاً، كان الوقتُ واحداً. وإذا قلتَ : سافروا جميعاً، احتمل ذلك أن يكون الوقتُ واحداً، واحتمل أنهم سافروا في أوقات مختلفة.

من جميع ماتقدم نخلُص إلى مايلي :

١ ـ مع اسم، ولا تكون حرفاً ، والدليل تنوينُها .

٢ ـ هي ظرف للمكان ، أو ظرف للزمان ، والقرينة هي الفيصل.

٣ ـ قد يحذف المضاف إليه بعدها فتنصب وتنون . فتكون حالاً في مثل : (سافروا معاً)، وتكون خبراً في مثل: (نحن معاً).

٤ ـ قد تكـون بمعنى (عنـد) وتُجـرُّ في هذه الحال بـ (من) وجوباً. قال سيبويه: (ذهبت مِن معِه).

٥ ـ هي في الأكثـر مفتـوحـة العين منصـوبة، وقد تُسكَّن عينُها فتُبنَى على السكون في محلّ نصب .

ـ ٤٣ ـ

الإعــراب

(الإعـراب) في اللغـة هو الإفصـاح والإبـانـة ، فإذا قلتَ : (تكلّم فلان فأعرَب) ، فمعنى قولك هذا : أن فلاناً تكلم فأفصح عما يريد .

وللإعراب في اللغة ـ أعني للإفصاح في العربية ـ طُرُق ، منها صيغة الكلمة ، أي قالَبُها اللفظي : فصيغة (فاعِل) تدل على مَن فَعَل الفِعل ، فإذا قلتَ : (كاتب أو قارىء أو طالب أو سامع) الخ . . دلّتك الصيغة مِن نفسِها على مَن فَعَل فِعْل الكتابة أو القراءة أو الطلب أو السمع .

وصيغة (مفعول) تدل على الذي يقع عليه الفعل ، فإذا قلت : (مكتوب أو مقروء أو مطلوب أو مسموع) الخ . . دلّتك الصيغة من نفسها على الذي وقع عليه فِعْلُ الكتابة أو القراءة أو الطلب أو السمع .

فالصيغـة في العـربية إذاً تدلّـك من نفسهـا بنفسها على الفَرْق بين الفاعل والمفعـول ، كما بّينتُ لك . وقُلْ مثلَ ذلك في الفَرق بين معنى صيغة (نَقَل) و (انتقل) ، والفرق بين صيغة (خَرَج) و (استخرج) الخ . . . فالصيغة إذاً طريقةٌ من طرائق التعبير في العربية .

وإليك طريقـةٌ أخرى هي الحركات في أواخر الكلماتِ أو مايُسمى حركاتِ الإعـراب ، أي حركـات الإفصـاح عن المعنى المقصود ، في هذا الموضع من الكلام ، أو ذاك .

فالكاتبُ قد يزورني فأقول : (زارني الكاتبُ) فأدلُّ بهذه الضمّة فوق الباء على أنه هو الذي فَعَل فِعْل الزيارة ، أي هو الفاعل . والكاتب قد أزروه فأقول : (زرت الكاتبَ) فأدل بهذه الفتحة فوق الباء ، على أن فِعل الزيارة قد وقع عليه ، أي هو المفعول . وإذا كان لهذا الكاتب صديقٌ قُلنا : (هذا صديق الكاتبِ) فدلَلْنا بهذه الكسرة تحتَ الباء ، على أننا نُضيفُ الصديقَ إليه .

ولـو أنعمتَ النظر في الأمثلة التي ذكرتُها لك لرأيتَ أن الحركةَ الواحدةَ من حركات الإعراب ، تُفصِح لك بِتَغيُّرِها بين فتْحٍ وضَمٍّ وكَسْر ، عن معنىً قد لا تصل إليه في كثير من اللغـات الأخرى إلا بعد تغييرٍ في تركيب الجملة ، أو تقديمٍ أو تأخيرٍ ، أو حذفٍ أو إضـافـةٍ ، على حين غيَّرتَ في العـربية حركـةً فقط في آخر الكلمـة . فقلتَ : (الكـاتبُ) فدَلَلْتَ على الفاعل ، و (الكاتبَ) فدللت على المفعول ، و (الكاتبِ) فدللتَ على الإضافة .

يقـول ابن فارس : « فأما الإعراب فبه تُمَيَّزُ المعاني ، ويوقَفُ على أغراض المتكلمين . وذلك أن قائلاً لو قال : (ما أَحْسَنْ زَيْدْ) غيرَ مُعْربٍ ، أو (ضَرَبْ عمْرْ زَيْدْ) غيرَ مُعْربٍ ، لم يوقف على مُراده . فإذا قال : ماأَحْسَنَ زيداً ! أو ماأَحْسَنُ زيدٍ ؟ أو ما أَحْسَنَ زيدٌ ، أبان بالإعرابِ عن المعنى الذي أراده » .

يُريد ابنُ فارس بذلك أن يقول : إذا قلتَ : (ما أَحسن زيداً) ! دل هذا على التـعجب مِن حُسن زيدٍ ، وإذا قلتَ:(ما أَحسنَ زيدٌ) دل هذا على أن زيداً لم يُحْسِن ، وإذا قلتَ : (ماأحسنُ زيدٍ) ؟ دل هذا على أنـك تسأل : ماهو أحسنُ شيءٍ في زيد ؟

ويقول ابن فارس : « من العلوم الجليلة التي خُصَّتْ بها العرب : الإعرابُ الذي هو الفارقُ بين المعاني المتكافئة في اللفظ[1] ، وبه يُعرَف الخبرُ الذي هو أصل الكلام . ولولاه مامُيِّزَ فاعلٌ مِن مفعول ، ولا مضافٌ مِن منعوت ، ولا تعجّبٌ مِن استفهام الخ . . »

ويقـول الـزجـاجيّ في كتـابـه الإيضاح : « إن الأسماء : لما كانت تَعْتَوِرُها المعاني فتكونُ فاعلةً ومفعولةً ، ومضافةً ومضافاً إليها ، ولم تكن في صُوَرِها وأبنيتها أدّلةٌ على هذه المعاني ، بل كانت مشتركةً ، جُعِلت حركاتُ الإعراب فيها تُنْبِىءُ عن هذه المعـاني . فقـالـوا : ضربَ زيدٌ عمْراً ، فدلّوا برفع زيد على أن الفعل له ،

---

١ ـ يريد المتماثلة ، مثل كاتِبٌ وكاتِبٌ .

وبنصب عمْرو على أن الفعل واقعٌ به » . وأتى بأمثلة أخرى ثم قال : « وكذلك سائرُ المعاني ، جُعِلت هذه الحركاتُ دلائلَ عليها » .

قبـل حين جاءتني رسالة من حلب يقول مرسلها : « إن مشكلة العربية هي مشكلة الإعراب . فما دَوْرُ الإعراب في اللغة ومامعناه » ؟

وأقول للأخ صاحب الرسالة : لقد بيّنتُ لك معنى الإعراب وفائدتَه . ويقي أن أقول : إن العربية ليس لها مشكلةٌ ، والإعرابُ فيها مزيّة تمتاز بها . ومع ذلك ، وللعلم بالشيء ، أقول لك : إن محمدَ بنَ المستنير ، ولقبُه (قُطْرُب) وهو تلميذُ سيبويهِ ، خرج على الناس يوماً برأيٍ لم يقبله أحد فقال : « لم يُعْرَب الكلامُ للدلالة على المعـاني والفرقِ بين بعضِها وبعضٍ » ثم قال ما معناه : « إنما أُعربَتِ العربُ كلامَها للتخلّص من الساكنَين ، ودفعِ البطءِ عندَ الدَّرْج » . ويعني بذلك أن العرب لولا الرغبةُ في الإسراع عند دَرْجِ الكلام لقالوا مثلاً :

التلميذْ المجتهدْ محبْ لقراءةْ الكتبْ

ولكنّ العلمـاءَ تصـدَّوا لهذا الرأي ، فبيّنوا فساده . فقالوا ما معناه : لو كان التخلص من الساكن هو الغايةَ لاستعملوا حركةً واحدة تُخلِّصهم منه ، ولقالوا مثلاً :

التلميذَ المجتهدَ محبَّ لقراءةَ الكتبَ .

وقال آخرون مانصُّه : « لو كان كما زَعَم لجازَ خفضُ الفاعل مرةً ورفعُه أخرى ونصبُـه ، وجـازَ نصبُ المضافِ إليه » . قالوا هذا لأن المتكلم مخيَّرٌ عند ذلك ، يستعمـل ماشاء من الحركات . ثم قالوا : « وفي هذا فسادٌ للكلام ، وخروجٌ عن أوضاع العرب ، وحكمةِ نظامِ كلامِهم » .

ولم يتـابع قُطْرُباً أحدٌ من العلماء قطّ ؛ حتى جاء عصرنا هذا فقام الدكتور إبـراهيم أنيس يؤيّد هذا الـرأي ، وشـايعته قِلّة . ومهمـا يَدُرِ الأمـر فإن النقـد العلميَّ الرصينَ قد ضاءَلَ من شأن هذه الآراءِ وأظهرَ فسادَها .

وإن من الحق أن نقول : إن مايشُقُّ على دارسي النحو ليس الإعرابَ وإنما هو مغالاةُ النحاة قديماً في التعليل والتقييد ، والإفراطُ في التزام القياس . ويكفي أن

تعلم أن ابنَ فارس قد حظر ضروراتِ الشعر ، وعدّها كلَّها غَلطاً وخطأً ، حتى ألّفَ في ذلك رسالةً سماها (كتابُ ذمِّ الخطأ في الشعر) . وقد اطّلعتُ على مخطوطته في مكتبة برلين وعندي صورةٌ منها . ولقد ضاق صدر الشعراء قديماً بهذه القيود ، حتى لقد هَجَوا النحاةَ ونحوَهم . فعبد الله بنُ أبي إسحاقَ الحَضْرَمِيُّ ـ وهو مولىً ـ قد لحّنَ الفرزدقَ في بعض قوله ، فغضب الفرزدقُ وقال : « والله لأهجُونَّك ببيتٍ يكون شاهداً على ألسنة النحويّين أبداً » . ثم هجاه فقال :

فلو كانَ عَبْـدُ اللهِ مَوْلىً هَجَـوْتُـهُ ... ولــكـــنَّ عَبْـدَ اللهِ مَوْلـىٰ مَوَالِـيَا

والطريف في القصة أن الحضرمي هذا ، سمع هذا البيتَ فوجَد أن الفرزدق قد لَحَن فيه أيضـاً ، فذكَـرَ أن الصـواب أن يقولَ الفرزدق :« ولكنّ عبدَ الله مولىٰ موالٍ » لا « مَولىٰ مواليا ».

وعبّر الشاعر عمْرو[2] الكلبي أَلْطَفَ تعبيرٍ عن الضيق بهذه القيود فقال :

١ ماذا لَقِينَا مِنَ المُسْتَعْرِبينَ [3] ومِنْ ... قِياسِ نَحْـوِهِمُ هذا الذي ٱبْتَدَعُوا
٢ إن قُلتُ قافيةً بِكْــراً يكـونُ بهـا ... بَيْتٌ خِلافُ الذي قاسُوهُ أوْ ذَرَعُوا[4]
٣ قالُـوا لَحَنْتَ وهذا ليس مُنْتَصِباً ... وذاكَ خَفْضٌ وهــذا ليس يَرْتَـفِــعُ
٤ وخَرّضُوا[5] بَينَ (عبدِ اللهِ) من حُمُقٍ ... وبينَ (زيدٍ) فطالَ الضَّـرْبُ والوَجَعُ
٥ كَمْ بَينَ قومٍ قد ٱحْتـالُوا لَمْنطِقِهِمْ ... وبينَ قومٍ على إعــرابِهِمْ طُبِعُــوا
٦ ماكُلُّ قَوْلِيَ مَشْروحاً لكمْ فَخُذُوا ... ماتَعْـرِفـونَ ، ومـا لَمْ تعرِفُوا فَدَعُوا

---

٢ ـ في بعض المراجع «عمّار»
٣ ـ قال «المستعربين» لأن كثيراً من النحاة ليسوا عرباً .
٤ ـ انظر إلى قوله (ذرعوا) فقد جعل النحو يقاس بالذراع !!
٥ ـ قالوا كذباً . وفي بعض المراجع «وحرّضوا» .

ـ ٤٤ ـ

غَزْوَةُ ذاتِ الصَّوارِي

كان الأحباشُ قد احتكروا قديماً طريق التجارة في البحر الأحمر ، وكان الفُرسُ قد احتكروا طريق تجارة الهند في الخليج العربي ، وأما العرب في صحرائهم فكانوا مفتقِرين إلى الأشجار والحديد والقَطِران الخ . . ممّا لا تقوم صناعة السفن إلاّ به . ولذلك لم يكن لهم في جاهليتهم أُسطولٌ يَمْخُر عُبابَ البِحار .

صحيحٌ أن منهم مَن كان يُقيم على السواحل ، أو قريباً منها ، فيستعمل المراكب ، ومنهم مَن كان يرى السفنَ تذهب وتؤوب في دِجلةَ والفرات . ومنهم مَن يُشَبِّه الناقةَ وهي تقطع الصحراء بالسفينة وهي تشقُّ الماءَ ، كما قال طَرَفَةُ مثلاً ، إذ وصف الهوادجَ وهي على ظهور الجمال فقال :

كأنّ حُدوجَ المالكيّةِ غُدْوَةً خَلايا سَفِينٍ[1] بالنَّواصِفِ من دَدِ[2]

ووصَفَ عُنُقَ ناقتِه الأتلعَ الطويلَ فقال فيه :

وأتلَعُ نَهّاضٌ إذا أَتْلَعَتْ به كسُكّانِ[3] بُوصِيٍّ[4] بدِجلةَ مُصْعِدِ

غير أن سن المقطوع به أن الجاهليين حين جاء الإسلام لم يكن لهم مايُقال فيه إنه أُسطول . ولعل مما يُستأنس به أن كلمة الأُسطول أصلاً أعجمية ، وأنها لم تَرِد في شعرهم . وسننتظر مئاتِ السنينَ حتى نسمعَ البحتريَّ يستعملها في شعره فيقول :

يَسُوقُونَ أُسطولاً كأنّ سَفِينَهُ سَحائِبُ صَيفٍ مِن جَهامٍ ومُمْطِرِ

لقد كان العرب بدواً وحضراً ، فإذا رحلوا ركبوا النوقَ والجِمال ، وإذا قاتلوا

---

١ ـ يعني السفن العظيمة

٢ ـ مكان معروف

٣ ـ هو مايقال له الدفّة

٤ ـ السفينة

ركبـوا الخيولَ . وأما تَسليحُ السُّفُن وإنشاءُ الأساطيل ، والقتالُ فوق الماء ، فكان قديماً مِن اختصاص الحَبَشة والفُرس والرّوم . ولكن الفتوح العربية قَلَبَت المعادلةَ ـ كما يقال اليوم ـ فما زال العربي ، بعد أن جاء الإسلام ، يُوالي الفتوحَ حتى رَكَزَ راياتِه على شواطىء بحر الروم : مِن مِصرَ إلى بلاد الشام .

ولقد أَبى عُمَرُ (رض) أن يُغْزِيَ الناسَ في البحر مادام حياً . وكأني بالصورة القرآنية ﴿ وهي تَجري بهمْ في مَوْجٍ كالجبال ﴾[٥] قد جعلته يُشفِق على رِجاله من الهُوِيّ في أمواجٍ هذه حالُها . فلما أَلَحَّ عليه معاويةُ في غزو البحر ، كتب عمرُ إلى عمرو بن العاص أنْ « صِف لِيَ البحرَ وراكبَه » فكتب إليه عمرٌو يقول : « إني رأيت خَلْقاً كبيراً يركبه خلقٌ صغير ، إن رَكُنَ خَرَّق القلوب ، وإن تحرّك أَزاغَ العقولَ ، يزداد فيه اليقينُ قِلّةً ، والشـكُّ كثـرةً . هم فيه كَدُودٍ على عُودٍ ، إن مال غَرق وإن نجا بَرِق »[٦]. فكتب عمرُ إلى معاويةَ : « لا والذي بعث محمداً بالحق لا أَحمِلُ فيه مُسلماً أبداً » .

وعلى ذلـك اتّخَـذَ العـربُ سياسـةً بحريةً دفاعيةً ، معتمِدين فيها على بناءِ الحصون والقِلاع على السواحل ، وحشدِ المُقاتِلةِ فيها .

فلمـا كانت خلافةُ عثمانَ ، لم يزل به معاويةُ حتى عزَمَ على ذلك ، ولكنه أَوْصاه أن يُخيِّرَ الناسَ ، وقال له : لا تَنْتَخِبِ الناسَ ولا تُقْرِعْ[٧] بينَهم ؛ خَيِّرْهُم : فمَنِ اختارَ الغزوَ طائعاً فاحْمِلْه وأَعِنْه .

قال الطبري : واستعمل معاويةُ على البحر عبدَ اللهِ بنَ قيسٍ الجاسِيّ ؛ وهذا يعني أن أسطول بلاد الشام قد أخذ يَنْشأ ، لأن مِن متمِّماتِ نشوئِه تعيينَ قائدٍ له . ويقـول الطبريّ إن الجاسيَّ غزا خمسين غزاةً في البحر فلم يغرق فيه أحد ، ولم يُنْكَب ؛ فإذا كان ذلـك ، فإن المنـطق يُوجِب أن تكون تلك الغزواتُ الخمسونَ متـواضِعـةَ الغـايات ، وأنّ هذا الأسطولَ الناشىءَ لم يَلقَ أسطولَ الروم في معركةٍ

---

٥ ـ هود/ ٤٢

٦ ـ تحيّر ودهِش

٧ ـ لا تضربِ القُرعة بينهم

كبيرة . ومهما تكن الحال ، فإن الرُّوم لم يكونوا غافلين عن الخطر ، فمناطق الثغور الشامية قد امتدّتْ حتى شَمالِيِّ أنطاكِيَةَ ، والأسطولُ العربيُّ أخذَ أمرُه يتعاظَم يوماً بعد يوم .

ولذلك حاول جواسيسُهم أن يُوقِعوا بهذا الأسطول الناشيء . فلقد أسرع جاسوسانِ من جواسيسهم إلى سِجن طرابُلُس ، وأطلقا مَن فيه مِن أسرى الروم ، ثم هاجموا جميعاً دارَ الحاكم العربي فذبحوه وقتلوا أتباعه ، وأحرقوا قسماً من الأسطول العربي ، الراسي في الميناء ، وأحرقوا من العُدَد والعَتاد مابذل العربُ جهداً كبيراً في جَمْعه وإعدادِه ، ثم فَرُّوا سالِمين .

ولكنّ الضربة مع ذلك لم تكن قاصمةً ولا حاسمة ، فما لبث الأسطول العربي في سواحل الشام أن أُعيد تأهيبُه وإعدادُه . عند ذلك قرّر ملكُ الروم كونستانس الثاني ـ والعربُ يسمُّونه : قُسطنطين والقُسطنطين وقُنْسطانْز ـ قَرَّر حَسْمَ المسألة . فخرج في خمسِمئة مركبٍ أو ستِّمئَة .

وبلغ ذلك عبدَ الله بنَ أبي سَرْح ـ وهو أخو عثمانَ بنِ عفانَ من الرَّضاعة ـ فسار بأسطوله من مصر ، حتى إذا وصل إلى ساحل عكّا ، التقى الأسطولَ الشاميَّ هناك ، فانضم إليه ، وأَبْحَرَ في مِئتَي سفينةٍ . ولما وصل إلى ساحل ولاية (ليكيا) في آسيا الصغرى ، ويسميها الغربيون Lycie بَلَغَه اقترابُ أسطول الروم ، فألقى مراسِيَه قُربَ شواطىء [فوينكس Phoenix] .

وما لبث أسطول الروم أن وصل ، وألقى مراسيَه هناك كذلك . وكانت الريح شديدةً فأَمَّنَ الفريقانِ بعضُهم بعضاً ، فباتُوا ليلتَهم . فلما كان مِنَ الغَدِ، أرسل إليهم قائدُ الأسطول العربي يقول : إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى الساحل حتى يموت الأعجزُ منّا ومنكم . فأجابوا : بل البحرُ بيننا وبينَكم .

فدارت المعركة ، حتى إذا أوشكت سِهام العرب ورماحُهم أن تنفَد أيقن قُسطنطين أن الفوز لأسطوله . ولكنّ العرب وقد رأَوُا العدو يُماطِل ، وذخيرتَهم من النبال والرماح تكاد تنفَد ، ربطوا سفنَهم بعضَها إلى بعض ، وصَفَّ عبدُ الله بنُ أبي سرح رجالَه على

نواحي السفن ، وقَـذفوا بالخطاطيف ، فجَذَبوا بها سُفن الروم إليهم ، فجعلوا مِن ظهور السفن المتـلاحمـة ميدانَ قتـالٍ أَشَبـهَ بميادين البـرّ ؛ ولكنّ الروم وثبوا في سفن العرب فنقضوا تلك الصفوفَ .

يقـول مالكُ بنُ أَوْسٍ يصف المعركة : كنتُ معهم ، فدنَونا منهم ، فربطْنا السفنَ بعضَهـا إلى بعض ، حتى كنـا يضـرب بعضُنـا بعضـاً على سفننـا وسفنهم ، فقاتلنا أشدَّ القتـال ، ووَثَبتِ الـرجـالُ على الـرجـال ، يضطربون بالسيوف على السفن ، ويَتَواجَؤون بالخنـاجـر . حتى رجعت الـدماء إلى الساحل تضربُها الأمواج . وطَرحت الأمواجُ جثثَ الرجال رُكاماً .

وبدأ قسطنطين يدرك أن الدائرة دائرةٌ عليه ، حتى إذا استيقن ذلك فَرَّ متنكِّراً بلباس ابن أحد ضاربي الطُبول في سفينته وهرب على ظهر مركب آخر .

وسُمِّيت المعركةُ غزوةَ ذاتِ الصَّواري . وكانت حداً فاصلاً في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، ثَبَّتَتْ للعرب التفوقَ فيه على البيزنطيين ومَكَّنَتْ لهم في مياهِه .

قبل أن أختم الحلقة أورد مايلي :

١ ـ جرت المعركة في خلافة عثمان ، قطعاً .

٢ ـ قال بعض الـرواة : إن الغـزوة كانت سنة إحدى وثلاثين للهجرة ، وتوافق سنة ٦٥١ للميلاد . وقال آخرون كانت سنةَ أربعٍ وثلاثين للهجرة ، وتوافق سنة ٦٥٤ للميلاد .

٣ ـ تقول الموسوعة العسكرية : إن المعركة جرت في البحر من ناحية الإسكندرية ، وهذا مخالفٌ لما تنص عليه المراجع ؛ فالمعركة لم تجرِ في المياه المصرية ، وإنما جرت عند سواحل (ليكيا) في آسِيا الصغرى .

وبعـدُ ، فلَيْس فيمـا أوردتُـه شيءٌ مِن عندي ، وإنما هو اختيارٌ وتنسيق ، اعتمدتُ فيهما مِن كتب التراث على :

١ ـ تاريخ الطبري ـ ٢ ـ الكامل لابن الأثير ٣ ـ الفتوح لابن الأَعْثَم .

ومن كتب المحدَثين على :

١ ـ تاريخ الأمم الإسلامية ، للخضري

٢ ـ الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ، للدكتور إبراهيم العَدَوي .

٣ ـ تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، للدكتور العبادي ، والدكتور سالم .

٤ ـ الفتوحات الإسلامية ، لدحلان

٥ ـ الموسوعة العسكرية .

وقد تكرّم بالمناقشة عدَّد من السادة المختصين بهذه الشؤون ، وكان للأستاذ محمد محفّل فضلٌ في صبره على أسئلتي الهاتفية .

وأما الذي ساق إلى هذا البحث فرسالةٌ جاءتني من السادة المعلمين في مدرسة عليّ بن أبي طالب في حلب ، حول هذه الغزوة . فبدأتُ بذكرها ، وجعلتُ البحثَ في اسمها موضوعَ الحلقة المقبلة .

- ٤٥ -

ذاتُ الصَّوارِي ، لا السَّوارِي

كنت في الحلقة السابقة فَصَّلتُ القولَ في غَزوة ذاتِ الصَّواري . وكان معلمو مدرسة عليّ بن أبي طالب في حلب كتبوا إليّ يقولون : أهي ذات السَّواري بالسين ، أم ذات الصَّوارِي بالصاد . فإلى السَّواري أولاً :

(سَرىَ يَسْـري) و (أَسْرىَ يُسْرِي) أيضاً ، سار ليلاً . فإذا قُلتَ : (سَرىٰ فلان) استغنيتَ عن أن تقول : (ليلاً) ، لأن الكلمة مختصّة باللّيل . فمتى قلت : (سَرىَ فلان) كان معناه (سار في الليل) حصراً .

وقـد يخـطِر في ذهنـك قولُـه تعالى : ﴿ سُبحانَ الذي أَسرىَ بِعبدِه لَيلاً من المسجـدِ الحـرامِ إلى المسجِدِ الأقصى ﴾[1] فتقول : ها هي ذي الآيةُ تقول : ﴿ أَسرىٰ بعبده ليلاً ﴾ وفي الجواب أقول : إنّ ذِكْر الليل في الآية إنما هو للتأكيد ، وإلاّ فإن (السُّرىٰ) لا يكون إلا في الليل حَصْراً .

ولقد وقف العلماء عند الآية ونَصُّوا على أنّ ذِكر الليل فيها إنما هو للتأكيد . قال عليٌّ كرم الله وجهه : « والله لقد رَقَّعْتُ مِدْرَعَتي هذه حتى استحيَيْتُ مِن راقِعِها ، ولقد قال لي قائل : ألا تَنبِذُها عنك ؟ فقلت : اُغرُبْ عنّي ، فعند الصَّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرىٰ » . فقوله عليه السلام : « عند الصباح يحمد القوم السرى » معناه أن الصباح إذا طلع على مَن كان يسير ليلاً ، فرأى ماقطَعَه من المسافات في الليل ، حَمِد السَّيرَ ليلاً ، وتضاءل عنده ما لا قىٰ في سَيْر الليل مِن مشقّةٍ وسَهَر .

على أنه كرم الله وجهه قد استعمل هذه المادةَ في خطبة له تَجلّىٰ فيها معنى السير في الليل تجلّياً حاسماً . قال : « ألا وإنّ مَنْ أدركها منا[2] ، يَسْري فيها بِسراجٍ

---

١ - الإسراء / ١٧

٢ - يعني الفتن

منير » . فانظر إلى ابن أبي الحديد كيف شرح ذلك ! قال : « وإن من أدركها منا يسري في ظُلماتِ هذه الفتن بسراج منير » . فمتى تكون الظلماتُ ؟ في الليل . ومتى يُستعمَل السِّراج ؟ في الليل .

وأما (السَّوارِي) فجَمْعُ (سارِيَة) . وهي مِن السحاب : التي تَجيءُ ليلاً ، أو تُمْطِرُ ليلاً . فهي إذاً اسمُ فاعل مِن (سَرى - يَسْري) .

والسارِيةُ : القومُ يسيرون ليلاً . وتُطلَقُ (السارية) أيضاً على الأُسطوانة . ففي الأساس للزمخشري : « وقعدتُ إلى سارِية المسجد ، وقعدوا إلى السَّوارِي » .

ولقد جاء في المعجم الوسيط مانَصُّه : « وسارِيةُ العَلَم قائمُه » . وأرى ذلك مقبولاً ، إذْ هو توسُّعٌ في استعمال الكلمة ، اعتماداً على أن العَلَم يُرفَع على أُسطوانةٍ من الحديد أو الخشب الخ . . .

ولكنْ جاء فيه أيضاً ؛ وفي محيط المحيط لبطرس البستاني من قبله ، أن (السارِيَة) عند الملاحين عَمودٌ من الخشب يُنْصَبُ عليه الشراعُ . ومعنى هذا أنها في استعمال الملاّحين وحدَهم لا في كلام العرب ، ولا عند أهل اللغة .

ولقد كانت تلك المعركة البحرية في خِلافة عثمانَ ؛ وعلى هذا يستحيل أن يكون اسمُها ذاتَ السواري بالسين ، لأنهم يومذاك لم يكونوا يستعملون لُغة الملاحين !! بل كانوا يستعملون لغةَ القرآن والحديث ، وماقالته العرب .

والغريبُ أن الأستاذ العدنانيّ رحمه الله ذكر ذلك العمود فقال : « ويُجيز المعجمُ الوسيط أن يُسمّىٰ سارِية » . ولكنّ السوسيط لم يُجِز ذلك ، بل قال : « السارِيةُ عند الملاحين عَمود . . . » ولو أجزنا لأنفسنا ماأجازه لنفسه الأستاذُ العدناني لقلنا بعد حين : « وجَزَم الوسيط والعدنانيّ ، وبَتَّ الوسيطُ والعدناني ، وقَطَع الوسيطُ والعدناني » !! وهما لم يَجْزِ ما ، ولم يَبُتّا ، ولم يَقْطَعا .

أما الآن فإلى الصاري والصَّواري .

مادةُ (صَرَى - يَصْري) فيها معانٍ ، ولكنّ أَلْصَقَها بموضوعنا هو : (عَلا -

يَعْلو) . تقـول : (صَرىٰ الشيءُ ـ يَصْـري) إذا عَلا . وتقـول : (صَرَتِ النـاقةُ عُنُقَها ـ تَصْريه) إذا رفعَتْه مِن ثِقَل ما تَحْمِل ، فهي (صارية) .

فإذا قلتَ إن الصّاري مأخوذٌ مِن (صَرىَ ـ يَصْري) إذا عَلا وارتفع ، فإنك لا تجور على الحقيقة اللغوية للكلمة . لأن (الصاري) إنما هو عمودٌ عالٍ مرتفعٌ ، يُرْكَزُ قائماً في وَسَطِ السفينة . ففي النهاية لابن الأثير : « وفي حديث ابنِ الزُبير وبناءِ البيت : فأَمَرَ بصَوارٍ فنُصِبَتْ حولَ الكعبة » . قال : « الصواري : جمع الصاري وهو دَقَلُ السفينة(٣) الذي يُنصَب في وَسَطِها قائماً ، ويكون عليه الشِراع » .

على هذا فإن تلك الغزوة هي (ذات الصَّواري) ، وأما قولُ بعضِهم : (ذات السَّواري) اسماً لهذه الغزوة فغلطٌ .

وبعـد فلي على (الصـواري) و(ذات الصواري) تعليقاتٌ أرجو أن يكون مفيداً إيرادُها .

١ ـ تجـد لكلمـة (الصاري) في كتب اللغة معنى العَمودِ القائم في وَسَط السفينة ، ولكنك تجد مِن معانيه أيضاً : (الخشبة المعترضة في وَسَطِ السفينة) ، والغـريبُ أن الأستـاذ العـدنـاني رحمـه الله أخذ بالمعنى الثاني فقال : (صاري السفينـة : الخشبـة المعتـرِضـة في وَسَطها ويكون عليها الشراع) . وهذا وَهَمٌ . فالشراع لا يُعلَّق على الخشبة المعترِضَة في السفينة ، بل يعلقِ على العمود القائم في وَسَطِها .

٢ ـ يقول الدكتور العدوي : « عُرِفت هذه الوقعة في المراجع العربية بذات الصواري ، بسبب كثرة صواري السفن المشترِكة في القتال » وهذا ماكنت أعتقده من قبلُ . ولكنني وأنا أقرأ وَصْفَ المعركةِ في تاريخ الطبري وابنِ الأثير ، استوقفني قولُ الطبري : « حتى بلغوا ذاتَ الصواري فَلَقُوا جُموعَ الروم » . فذات الصواري إذاً كما يقول الطبري مكانٌ يُبلَغ ، وليس المعركةَ الكثيرةَ الصواري .

---

٣ ـ عمود السفينة

ثم يقـول الـطبري « وأقام عبدُ الله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة الروم » فذاتُ الصواري أيضاً عنده ، مكانٌ أقام به قائدُ الأسطول العربي أياماً .

ويقـول ابن الأثير : « وانهـزم قُسطنـطين جريحـاً ، ولـم ينـجُ من الروم إلا الشَّرِيد ، وأقام عبدُ الله بنُ سعدٍ بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورَجَع » . فذاتُ الصواري عند ابن الأثير أيضاً مكانٌ أقام فيه قائدُ الأسطول أياماً .

ولقـد فرِحْتُ بهـذا الاستنتـاج أيَّ فرَحٍ . وكـدتُ أطير !! وكذلك حالُ مَنْ يَقْضُون عمرهم في تتبّع الكلمة ، فهي تُقيمُهم وتقعدهم وتَموجُ بهم .

ولكنّ كل ذلك انطفأ في لحظة ، إذ رأيتُ الدكتور سيد عبد العزيز سالم قد سَبَقَ إلى ملاحظة ذلك فتنبّه له ونبّه عليه ، في كتاب « تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام » . فذكَر أن اسمَ المعركة لا يرتَدُّ إلى كثرة الصواري ، بل إلى مكان على ساحل (ليكيا) تكثُر فيه الأخشابُ الجيدةُ التي تُتَّخذ في صِناعة الصّواري ، كالبَلُّوط مثـلاً ، حيثُ جرتِ المعركة ، وقد اعتمد على ماكنتُ اعتمدتُ عليه مِن أقوالِ الطبري وابن الأثير .

أخيراً أقول : لقد جرت المعركة يوم ٢٩ آب ، وقد جعلتِ الجمهوريةُ العربيةُ السوريةُ هذا اليوم من كل عامٍ يومَ عيدٍ لقُوّاتها البحرية

- ٤٦ -

يــــاءُ المتكلِّـــــم

إذا قلتَ : (رآني خالـدٌ) فهـذه الياءُ في آخـر (رآني) يسمّيهـا النحاة ياءَ المتكلم ، لأنهـا إنمـا تدل على المتكلم . وهي تتصل بالحروف كقولك : (لي) وتتّصــل بالأسمـاء . كقـولـك : (هذا كتـابي) . وتتصـل بالأفعـال كقـولـك : (سألني) ، وهذا ماض . و (يسألني)،وهذا مضارع ، و (اسألْني)،وهذا أمر . هذه هي المسألة الأولى ، وهي معروفة .

المسألة الثانية : أن هذه الياء تُحذف جوازاً من آخر الاسم ومن آخر الفعل ، ولكن يبقى مايدل عليها ، وهو الكسرة .

فمِن حَذْفِها متصلةً بالاسمِ قولُه تعالى :﴿ ربِّ اجعَلْني مُقِيمَ الصلاةِ ومِن ذُرِّيَّتِي ربّنا وتَقَبَّلْ دُعاءِ ﴾ [1] . فلقد حُذفت الياء في الآية ، ولكن بقي مايدل عليها وهو الكسرة : (دعاءِ) . ولو لا ذلك لكانت القراءة (وتقبلْ دعاءً) . فالكسرة إذاً بقيت لتدل على أن الكلام قبل الحذف هو (دعائِي) .

وأمـا حذفُ هذه الياء متصلةً بالفعـل فكثير في القـرآن الكـريم ، ومنه قوله تعـالى : ﴿ فأما الإنسانُ إذا ماابْتَلاهُ ربُّه فأكرَمَه ونعَّمَه فيقولُ رَبّي أكرَمَنِ ، وأما إذا ماابتلاه فقَدَرَ عليه رزقَه فيقولُ رَبّي أهانَنِ ﴾ [2] . وتلاحظ أن الكسرة بقيت في آخر الفعلين : (أكرمنِ ، أهاننِ) لتدل على الياء المحذوفة .

أما الآن فإلى المسألة الثالثة :

من الأفعال المضارعة خمسةُ أفعال ، تُرفَع بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذف

---

١ - إبراهيم / ٤٠ .
٢ - الفجر / ١٥ - ١٦ .

النون . ففي حالة الرفع تقول مثلاً : يستعجلون تستعجلون يستعجلان تستعجلان تستعجلين .

وفي حالة النصب تقول مثلاً : لن تستعجلوا، لن تستعجلا ، لن تستعجلي .

وفي حالة الجزم تقول مثلاً : لا تستعجلوا ، لاتستعجلا ، لاتستعجلي .

فتحذف النون في حالتي النصب والجزم

فإذا كان هذا الفعل متعدياً ، إلى ضمير المتكلم وهو الياء ، فإنك في حالة الرفع تقول : (تستعجلونني) ؛ فالنون الأولى علامة الرفع ، والنون الثانية للوقاية .

فإذا جزمتَ هذا الفعلَ (بلا) الناهية مثلاً فإنك تقول : (لا تستعجلوني) فتحذف النون الأولى ، لأن الفعل مضارعٌ مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ، وأما النون التي تراها باقيةً في آخر الفعل فهي نون الوقاية ، والياء بعدها ياء المتكلم .

فإذا حذفتَ الياءَ وحذفُها جائز، قلتَ : (لا تستعجلونِ) فتكسر النون للدلالة على حذف الياء .

بعدَ هذا أقول : إن أخاً من (منبج) سألني فقال : قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ سأُرِيكمْ آياتِي فلا تَسْتَعْجِلون ﴾ [٣] . فلماذا لم يأتِ فِعل (تستعجلونَ) !! مجزوماً (بلا) الناهية ؟

وفي الجواب أقول : إنّ فِعْلَ (تستعجلون) في الآية مجزومٌ ، لا مرفوعٌ كما تَوَهَّمْتَ ؛ أنت ضبطتَ نونَ (تستعجلون) بالفتح ، فرسَمْتَ فتحةً فوق النون ، وهي في القرآن الكريم مضبوطةٌ بالكسر : (تستعجلونِ) ، فأنت إذاً أخطأتَ في القراءة ، وفي الكتابة . وارجِع إلى الآية تجدِ النون مكسورةً: (تستعجلونِ) ، لأن الأصل : (لا تستعجلوني) :

لا ناهية جازمة ، (تستعجلوا) مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ، والواو فاعل ، وأما النون الباقية المحركة بالكسرِ ، لا بالفتح ـ كما توهمتَ ـ فهيَ نون الوقاية .

---

٣ ـ الأنبياء/ ٣٧ .

ثم إن في الكلام ياءً محذوفةً هي المفعول به ، وحذفُها جائزٌ ـ كما قدمنا في مطلع البحث ـ والأصل : (لا تستعجلوني)، ثم بعدَ حذف الياء : (لا تستعجلونِ). وما كَسْرُ نونِ الوقايةِ إلا دليلٌ على الياء المحذوفة .

- ٤٧ -

مِـن ضوابــط القــراءة

اللغـةُ مكتـوبٌ وملفـوظ . ولكـلٍّ قواعـدُ وأصـول . لكنّ المشتغلين باللغة والمعلمين والناسَ جميعاً ـ كما أرى ـ أكثرُ حِرصاً على قواعد الكتابة . حتى لَيُؤلّفون الكتب في الإملاء ، وأما اللفظ فيهملون شأنه إهمالاً .

فإذا أردتَ أن تستمع إلى اللفظ الصحيح ، فلا مناصَ لك من أن تُلقِيَ السمعَ إلى المُجيدين مِن قُرّاء القرآن . أقول : (المجيدين) ، لأنك قد ترى بعضَهم يَجور على صِحّة اللفظ لِيَصِحَّ له أداءُ المَقامِ اللَّحْنِيّ ، كما يقولون .

في حلقة اليوم أعرض لشيء من قواعد اللفظ في العربية :

القاعدة الأولى : أن الكلام لا يُبْدَأُ بساكن .

فإذا سمعتَ أحـدَهم يقـول : (سْتَخْـرَجَ) أو (سْتَخْـرِجْ) ، أو يقـول : (ضْربْ) أو (سْأَلْ) ، فاحكُمْ بغَلَطِه . صحيحٌ أنّ الأصل هو (ضْربْ) و (سْأَلْ) ولكنّ العربي لا يبدأُ كلامَه بساكن ؛ فإذا احتاج إلى ذلك استعارَ ألِفَ وَصْلٍ فحرَّكَها بالكسـر أو الضم ، ليتـوصّـل إلى النُطق بالساكن ، فيقول : (اِضربْ ، اِسألْ ، اِستخرجْ ، اِستَخْرَجَ) الخ . .

ولقد عالج ابن جِنّي هذه المسألة في (سر الصناعة) فقال : « واعلَمْ أن هذه الهمزةَ إنما جِيءَ بها توصُّلاً إلى النطق بالساكن بعدَها ، لَمّا لم يُمْكن الابتداءُ به » .

والعربيُّ إذا تكلّم فَدَرَجَ ، استغنى في الدَّرْج عن هذه الألِف ، فأَسقَطَها مِن لفظِه ، فقال مثلاً : (جاء آلعالِمُ فآسألْه وآشْكُرْه وآستعصِمْ بعِلْمه) .

وابنُ جِنّي إمامٌ في اللغة ، ولكنه فيلسوف فيها أيضاً . وعلى ذلك يتخيَّلُ سائلاً يسأله : لِمَ اختيرَت الهمزةُ لِيقَعَ الابتداءُ بها دونَ غيرها مِن سائر الحروف ؟

ويجيب عن هذا السؤال بقوله : « لأن العادة فيها في أكثر الأحوال حَذفُها للتخفيف ، وهي مع ذلك أصلٌ ؛ فكيف بها إذا كانت زائدةً ؟! ألا تَراهُم حَذَفوها أصلاً في نَحْوِ : خُذْ وكُلْ ومُرْ » ؟! يعني بذلك أن الأصل (أَخَذَ وأَكَلَ وأَمَرَ) ثم حذفوا الهمزة الأصلية .

القاعدة الثانية : أن العربي لا يقف على متحرك .

فلا يقول مثلاً : (جاء الولدُ) ويسكت ، بل يقول : (جاء الولدْ) ، ولا يقول : (رأيت التلميذَ) ويسكت ، بل يقول : (رأيت التلميذْ) فيقفُ على الساكن . الخ . . .

ثم إنه لا يقف على منوَّن ، مع أن التنوين سُكون ، فلا يقول مثلاً : (جاء خالدُنْ) و (مررت بخالدِنْ) ، بل يقول : (جاء خالدْ) و (مررت بخالدْ) فيحذف التنوين ويُسَكِّن . وأما في حالة النصب ، فإنه لا يحذف التنوينَ ، بل يقلِبُه ألفاً ، فلا يقول مثلاً : (رأيت خالدَنْ) بل يقول : (رأيت خالدَاْ) .

وعلى هذا ، لا يجوز أن تقول : (شربت ماءْ) ولا (شربت ماءَنْ) بل تقول : (شربت ماءَاْ) و (رأيت سماءَاْ) و (عرَفت رجالاً ونساءَاْ) وهكذا . . . . .

القاعدة الثالثة : أنه لا يلتقي ساكنان .

فإذا التَقَيا تخلّص العربي من التقائهما بتحريك الساكن الأوّل .

فقد يحرِّكُه بالكسر ، فهو لا يقول : (سافرَتْ لْبِنْت) ، بل يكسر الساكنَ الأول فيقول : (سافرتِ الْبِنت) . ولا يقول : (زارنا شيخُنْ سْمُهُ خالد) ، بل يكسر الساكنَ الأول فيقول : (زارنا شيخنِ اسْمه خالد) . هذا في الأكثر .

ولكنْ قد يتخلص من التقاء الساكنين بالضم أحياناً . فهو لا يقول مثلاً : (لكمْ لْحقّ) ، بل يضمّ الميمَ الساكنةَ فيقول : (لكمُ الْحقّ) .

وقد يتخلص من التقاء الساكنين بالفتح أحياناً ، فهو لا يقول : (جئتُ مِنْ لْبيت) ، بل يفتح النونَ الساكنة فيقول : (جئت منَ الْبيت) .

وقد يتخلص من التقاء الساكنين بالحذف لفظاً لا كتابة ، فهو لا يقول مثلاً :

(زارناْ لْأستاذ) أو (زوروْ لْأستاذ) أو (زوريْ لْأستاذ) ، بل يحذف الألف مرةً فيقول : (زارنَ لْأستاذ) ، والواوَ مرةً فيقولْ (زورُ لْأستاذ) ، والياءَ مرةً فيقول : (زورِ لْأستاذ) .

وهكذا ترى العربي يلجأ إلى كل وسيلة ممكنة للتخلص من التقاء الساكنين .

بالأمس جاءتني رسالة من أخٍ مواطن من بلدة العَبْر من ضواحي حماة يقول فيها : في العربية لا يلتقي ساكنان ، ولكنّ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه خطَب أصحابَه مؤنّباً مستنهضاً فقال : « فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حَمارَّةُ القيظ ، أمهِلنا يُسَبَّخُ[1] عنا الحَر ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صَبارّةُ القُرّ[2] ، أمهِلنا ينسلخْ عنّا البرد » . فقال عليه السلام (حَمأرّة وصَبأرّة) فكيف يكون ذلك ؟

وفي الجواب أقول : نعم ، الأصلُ ألا يلتقيَ ساكنان ، وقد فصّلتُ القولَ في تخلُّصِ العربي من التقائهما . ولكنّ هذه القاعدةَ الكلية تتخلّف في حالَتَين .

الحالة الأولى : أن يلتقي الساكنان في الوقف ؛ وذلك في مثل قولك : جاء سَعِيْدْ . فالياء هنا ساكنة أصلاً ، وأما الدال فسُكِّنَتْ للوقف . فهذا جائز .

والحالة الثانية : أن يكون الساكنُ الأول حرفَ علة ، قبلَه حركةٌ تناسبه ، أي أن يكون الساكنُ الأولُ ألفاً قبلَها فتحةٌ ، أو واواً قبلَها ضمةٌ ، أو ياءً قبلَها كسرة . وأن يكون الساكنُ الثاني حرفاً مشدّداً .

ففي هذه الحال يجوز التقاء الساكنين أيضاً . وإليك الأمثلة .

حَمَارَّة : هنا ألِفٌ قبلَها حركةٌ تناسبها ، هي فتحةُ الميم . وبعدَها راءٌ مشدّدة . ولذلك قال : (حَمَارَّة) ، فأتبع الساكنَ ساكناً ، أي جاز أن يلتقي ساكنان .

وفي سورة الفاتحة : (ولا الضَالِّين) : فهنا ألِفٌ قبلها حركةٌ تناسبها ، هي

---

١ ـ يخفّف

٢ ـ شدة البرد

فتحةُ الضـاد . وبعـدَها لامٌ مشدّدة ولذلك قال تعالى : (ولا الضالِّين) ، فأتبعَ الساكنَ ساكناً ، أي جاز أن يلتقي الساكنان .

وفي سورة الأنعـام التقى الساكنان مرّتين في تركيب واحد ، وهو قوله تعالى ﴿ أتُحاجّونّي في الله ﴾ [٣].

ففي الأولى : (أتُحَاجُّو) : فهنا ألِفٌ قبلَها حركةٌ تناسبها هي فتحةُ الحاء ، وبعدَها جيمٌ مشدّدة .

وفي الثانية : (جُوْنِّي) : فهنـا واوٌ قبلها حركةٌ تناسبها هي ضمةُ الجيم ، وبعدها نونٌ مشدّدة . فهذا جائز في العربية .

مِن كل ذلك نخلُص إلى مايلي :

١ ـ لا يُبدأ في العربية بساكن ، فلا يقال : (ضْرِبْ) بل يقال : (اِضْرِب) .

٢ ـ لا يوقَف على متحرك ، فلا يقال : (جاء الولدُ) بل يقال : (جاء الولدْ) .

٣ ـ لا يلتقي في العربية ساكنان إلا في حالتين :

الأولـــى : عند الوقف مثل : (جاء سعيْدْ)

والثانية : أن يكون الساكن الأولُ حرفَ علةٍ قبلَه حركةٌ تناسبه ، وبعدَه حرفٌ مشدَّد ، مثل (حمَارَّة ، وصبَارَّة ، وعَامَّة ، وشَابَّة ، وخَاصَّة) إلخ . . .

---

٣ ـ الأنعام / ٨٠

ـ ٤٨ ـ

تحيـــة طيبـــة

يقال في العربية : (حَيِيَ فلانٌ وحَيَّ فلانٌ) ، خلافُ ماتَ . أما المضارع فهو (يَحْيا) . قال تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَة ﴾[1] ولكنّ للآية قراءةً أخرى هي : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حَيِيَ عن بينة ﴾ .

ففي القراءتين شاهدٌ لِصحّة استعمال اللفظين في الماضي : (حَيَّ وحَيِيَ) .

و (أَحْيَا الله الأرضَ) معناه : كانت ميّتةً بالمَحْل فأحياها الله بالغيث . ومنه في اللغة (الحَيَا) وهو المطر ، وذلك لإحيائه الأرضَ بعد موتها . قال الزمخشري : « ووقع في الأرض الحَيا وهو المطر » .

بعد ماتقدم أنتقل إلى جانب آخرَ من جوانب هذه المادة ، وهو كلمة (التَّحِيّة) . وقد كانت جاءتني رسالة من (الباب) تسألني البحثَ في هذه الكلمة .

للتحيّة في اللغة ثلاثةُ معانٍ ، منها :

المُلْك : قال عَمرو بنُ معد يكرب ، يذكُر الدروعَ ومَنْ يلبَسُها من الأبطال الذين كان يقودهم في المعارك :

وكُـلِّ مفُـاضَـةٍ[2] بيضـاءَ زَغْفٍ[3] وكُـلِّ مُعـاوِدِ الـغـاراتِ جَلْدِ
أَسِـيرُ به إلـى الـنُّـعـمـانِ حتّـى أُنِـيخَ على تَحِـيَّتِـهِ بجُـنْـدِي

قال : (حتى أنيخ على تحيته) أي حتى أنيخ على مُلْكه .

ومن معاني التحية : البَقاء : قال زهيرُ بنُ جَناب لما حضرَتْه الوفاةُ يُخاطب أبناءَه :

أَبَـنِـيَّ إنْ أَهْـلِكْ فإنّـي قد بَنَـيْتُ لَكُـمْ بَنِـيَّهْ

---

١ ـ الأنفال / ٤٢ .

٢ ـ درع واسعة

٣ ـ ليّنة .

وتَـرَكْـتُـكُـمْ أولادَ سـا دات زِنـادُكُـمْ وَرِيَّهْ
ولَـكُـلُّ ما نالَ الـفـتـى قد نِلْتُـهُ إلاّ الـتَّـحِـيَّهْ

ذكَرَ ابنُ الأعرابي أنّ قول الشاعر : (قد نِلتُه إلا التحية) معناه : قد نلته إلا البقاءَ ؛ لأن زُهيراً كان مَلِكاً في قومه .

ومن معاني التحية السَّلام : وهذا المعنى هو المشهورُ المعروف اليوم . قال عمرو بنُ مَعْد يكرب :

وخَـيْلٍ قد دَلَـفْـتُ لهـا بِخَيْلٍ تَحِـيَّةُ بَيْنِـهِـمْ ضَرْبٌ وَجِـيْعُ

ويتضح معنى السـلام في التنـزيل العـزيز أحسنَ مايكون الاتضاحُ . قال تعـالى : ﴿ وإذا حُيِّيتُـمْ بتَـحـيَّةٍ فَحَيُّوا بأحسنَ مِنهـا أو رُدُّوهـا ﴾[4] وفي سورة النور : ﴿ فإذا دخَلْتُم بُيوتاً فسلِّموا على أنفُسِكُم تَحِيَّةً مِن عندِ اللهِ مباركةً طيبة ﴾[5] .

قال الراغب في المفردات : (وأصلُ التحية مِن الحياة ، ثم جُعِلَ ذلك دُعاءَ تحية) . وقال أيضاً : (فالتحيةُ أن يُقال : حيّاك الله ، أي جعل لك حياةً ، وذلك إخبارٌ ، ثم يُجعل دعاءً ، ويقال : حَيّا فلانٌ فلاناً تحيةً ، إذا قال له ذلك) .

وعلى هذا فالتحيةُ المُلْك ، والتحيةُ البَقـاء ، والتحيةُ السَّلام . وقد أوردتُ لكلٍّ من هذه المعاني شاهداً يُحتجّ به في اللغة . ولقد ترى لأئمة اللغة آراءً في معنى التحيّة ، في هذا الموضع أو ذاك ، ولكنها لا تخرج أخيراً عن المعاني الثلاثة التي ذكرتُها لك . وإليك من ذلك نماذج :

أوردَ صاحبُ النهـاية : (إن المـلائكة قالت لآدم عليه السلام : حيّاك الله وبيّاك)[6] . ثم قال : « حيّاك : أبقاك ، من الحياة » ، « وقيل : سلّم عليك ، وهو من التحية : السلام » .

وقال الفراء : (حيّاك الله) : أبقاك الله ، و(حيّاك الله) : أي ملكك الله ، و(حيّاك الله) : أي سلّم عليك .

---

٤ ـ النساء / ٨٦ .
٥ ـ النور / ٦١ .
٦ ـ بوّأك مكاناً حسناً .

وذكــر ابن الأثير مثلَ ذلـك في حديثـه عن قول المسلمين في التشهـد : (التحياتُ لله) فقـال : (التحيّات : جمع تحية . قيل أراد بها السلام ، يقال : حياك الله أي سلّم عليك ، وقيل التحية : المُلك ، وقيل : البَقاء) .

فترى اللغويين يفسّرون المعنى وَفقَ السّياق .

ولكنْ لِمَ يُقـال في التشهـد : (التحيات لله) ولا يقـال : (التحية لله) ؟ أعني : لِمَ يُستعمل الجمعُ ولا يستعمل المفرد ؟

عالج ذلك ابن الأثير فقال : وإنما جَمَعَ التحيةَ ، لأن ملوك الأرض يُحَيَّوْنَ بتحياتٍ مختلفـة ، فيقـال لبعضهم : أبيتَ اللعن ، ولبعضهم : أنْعِم صَبـاحـاً ، ولبعضهم : اِسلَمْ كثيراً ، ولبعضهم : عِش ألفَ سنـة ؛ فقيل للمسلمين قولـوا : (التحياتُ لله) . أي الألفاظُ التي تدلّ على السلام والمُلك والبَقاء هي لله تعالى .

أخيراً أذكر أن المسلمين يقولون في الأذان : (حَيَّ على الصلاة ، حَيَّ على الفلاح) ومعنى ذلك : هَلُمُّوا إليهما ، وأَقْبِلوا وتعالَوْا مُسرِعين .

وبعد فقد سئلت : أيصحُّ أن يقال : (تحيةً طيبةً وتحيةً لك) ، بالنصب ؟ وإذا صح ذلك فما إعرابُ تحيةً ؟

وفي الجواب أقول : نعم يصح أن تقول : تحيةً طيبةً وتحيةً لك ، بالنصب .

ويكون إعرابُ (تحيةً) مفعولاً مطلقاً . وذلك أنّ (تَحِيّةً) مصدرُ وَقَعَ موقع الـدعـاءِ ، فنـاب عن فِعله المحـذوف ، وذلك كما تقول : (رحمةً لفلان وعذاباً لفلان) ، فرحمةً وعذاباً مصدران وَقَعا موقع الدعاء ، فناب كلٌّ منهما عن فِعله المحذوف .

ولكن يجوز لك أن تقول أيضاً : (تحيةٌ لك) فتبني تركيبَك على مبتدأٍ وخبر . قال تعالى : ﴿ ولقد جاءَتْ رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرى قالوا : سلاماً قال : سلام ﴾[7] .

أي قالـوا : (نسلِّم سلامـاً) فقـال : (سلامٌ عليكم) . فـ (سلامـاً) في الآية : مفعول مطلق ، و(سلامٌ) : مبتدأٌ محذوفُ الخبر .

---

٧ ـ هــود / ٦٩ .

ـ ٤٩ ـ

الصَّنــــائع

قال تعالى : ﴿ وتَرى الجِبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تَمُرُّ مَرَّ السحاب صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كلَّ شيء ﴾[1] .

(الصُنْعُ) مصدرُ (صَنَعَ الشيءَ ـ يصنَعُه) ، فهو صانع ، والجمعُ صُنّاع .

قال الراغب في المفردات : « الصُنعُ : إجادةُ الفِعل » .

ويقال للرجل الحاذق المُجيد : « صَنَعٌ » ، إذا كانت له صَنْعةٌ يعملها بيده ، ويكسِب بها . ففي حديث عمَرَ حين جُرح ، قال لابن عباس : انظر من قتلني . فقال : غلامُ المُغيرةِ بن شُعبة ؛ فقال : الصَّنَع ؟ قال : نعم .

وأما المرأة الحاذقة المُجيدة فهي صَناعٌ ؛ قال الشاعر :

خَرْقــاءُ بالخَيرِ لا تَهْــدِي لوِجْهَتِـهِ وهي صَناعُ الأَذى في الأَهْلِ والجارِ

وفي الحديث : (إذا لم تَسْتَحْيِ فاصنـعْ ماشِئت) . ومعناه الأقرب هو : الحثُّ على الحياء والأمرُ به ؛ ومنه قولُ الشاعر :

إذا لم تَخْشَ عاقِبــةَ الــلَّيالِسي ولـم تَسْـتَـحْيِ فاصنَــعْ ماتَشــاءُ

وتقول في الإِحسان : (صَنَع فلانٌ إلى فلان معروفاً) أي قَدَّمه .

وتقول في الإِساءة : (صنَعَ فلانٌ بفلانٍ قبَيحاً) أي فَعَله .

فالفرقُ شاسعٌ كما ترى بين (صَنع إليه) و (صَنع به) .

من زيادات هذا الفعل مايستعمله الناس اليومَ ، وذلك قولُهم : (صانَعَ فلانٌ فلاناً) أي داراه وداهنَه . وأَصلُ ذلك أن تصنعَ لفلانٍ شيئاً لِيصنعَ هو لك شيئاً آخر .

قال زهيرُ بنُ أبي سُلمى :

ومَنْ لا يُصــانِـعْ في أُمـورٍ كثيرةٍ يُضَــرَّسْ بأَنـيابٍ ويُوطَــأْ بِمَـنْسِمِ

---

١ ـ النمل / ٨٨

أي : مَنْ لا يُدارِ الناسَ في أمورهم ، غلبوه وقهروه وأذلّوه . ومنه قولُ العرب : (فرسٌ مصانع) ، وهو الذي لا يعطيك جميع ماعنده من السير ، وإنما يُوافِي بما يَبذُله ، ويَصونُ بعضَه . ومنها : (تصنَّعَ فلان) إذا تَزَيَّن ، وتكلَّف حُسنَ السَّمْتِ ، والباطنُ مدخولٌ . فالمتصنِّع إذاً هو المتكلِّف الصلاح ، وليس به .

بعد هذا أقف عند كلمتين :

الأولى : الصِّناعة : وهي حِرفةُ الصانع ، ووَزْنُ (فِعالَة) قياسيٌّ في الدَّلالة على الحِرفة ، مِن كلِّ فعلٍ ثلاثي . فحِرفة التاجر (تِجارة) ، وحرفة الحدّاد (حِدادة) ، وحرفة النجّار (نِجارة) وحرفة الصانع (صِناعة) الخ . .

الثانية : الصَّنيعَةُ ، والصَّنيع أيضاً . وهما بمعنىً واحدٍ ، هو ما أَسْدَيْتَهُ مِن معروف . ففي الصنيع يقول سُوَيْدُ بنُ أبي كاهل :

نِعَمُ للهِ فينا رَبُّنا وصَنيعُ اللهِ ، واللهُ صَنَعْ

وفي الصنيعة يقول الشاعر :

إنّ الصَّنيعةَ لا تكونُ صَنيعةً حتى يُصابَ بها طريقُ المَصْنَعِ

وجمعُ الصنيعةِ صَنائع . وفي الحديث : « صنائعُ المعروفِ تَقِي مَصارِعَ السُّوء » .

منذ حين جاءتني رسالة ، أرسلها إليَّ أربعة من الطلاب الجامعيين في قسم الجغرافية ، فيها جملة من الأسئلة منها : هل يجوز أن يقال « مُدرسة الصَّنائع » ؟

وفي الجواب أقول : إن للجموع في اللغة العربية مساطرَ تَقِيسُ بها ، فإذا انطبقت المِسطرة على ماتَقِيسُه صَحَّ لك الأخذُ به واستعمالُه ، وسواءٌ بعدَها أَوَرَدَ ذلك في المعاجم وكتُبِ اللغة أم لم يَرِد . القاعدة تقول :

كلُّ اسمٍ مؤنث (والصناعةُ اسمٌ مؤنث) ، مؤلّفٍ مِن أربعةِ أحرف (والصناعةُ أربعة أحرف ولا عِبرةَ بوجودِ التاءِ المربوطة هنا) قبلَ آخره حرفُ مَدٍّ زائد (والصناعةُ قبلَ آخِرِها حرفُ مدٍّ زائدٌ هو الألف) .

نعم ، كلُّ اسمٍ مؤنثٍ ، مؤلفٍ من أربعة أحرف ، قبلَ آخره حرفُ مدٍّ زائد ، فإنه يجمع على (فَعَائِل) .

الشروط الثلاثة التي ذكرتُها لك متحقِّقَةٌ في لفظ (الصِّناعة) ، فهو : اسمٌ مؤنث ، أربعة أحرف ، قبل آخره حرفُ مدّ زائد . وعلى ذلك يَصِحُّ لك أن تَجمَعَه على (صنـائِـع) . ألستَ تجمـع الرِسالة على رسائِل ، والبِضاعة على بَضائع ، والـدِّعـامَة على دعائِم ؟فاجمعِ (الصِناعة) إذاً على (صَنائع) بغير تردّد ، فهذه مِسطرة ، هذا قياس .

فإذا قال قائل : إن كتب اللغة تنصّ أيضاً على أن جَمْعَ (الصَنِيعة صَنائع) ، فإذا جمعنا كلًّا من الصناعة والصنيعة على (صنائع) التبس الأمر .

ففي الجواب عن ذلك نقول : لقد قيل ذلك منذ أكثرَ مِن ستين سنة ، ولكنّ سِياقَ الكلام هو الذي يمنع اللَّبْس . فإذا قيل : (إن فلاناً ذو صنائعَ عندي لا أكاد أُحصيها) ، فُهِمَ من السياق أنك تريد بالصَنائع جمعَ صنيعة وهي المعروف . وإذا قيل : (إن اقتصاد البلاد يقوم على الصِّنائع) ، فُهِمَ من السياق أنك تريد بالصنائع جمعَ صناعة .

ومع ذلك يجوز لك أن تجمع الصِناعة على صِناعات ، لأن الصِناعة اسمٌ مُنْتهٍ بتاء التأنيث ، فيُجْمَعُ جمعاً سالماً .

(الصناعات) جائز ، و (الصنائع) جائز ، فاخترْ لنفسك مايَحْلو •

ـ ٥٠ ـ

الغــــــارة

يقـول ابن فارس في ترجمـة مادة (غور) : (الغينُ والـواوُ والـراء أصـلان صحيحـان : أحدُهما خُفوضٌ في الشيء ، وانحطاطٌ وتطامُنٌ ، والأصلُ الآخر : إقدامٌ على أخْذِ مالٍ قهراً أو حرباً) .

فمِنَ الأصلِ الأول ، وهـو الخُفوض في الشيء : ماسَمَّوْا به تِهامةَ وما يلي اليَمنَ (الغَـوْر) قالـوا : سُمِّيت بذلـك لأنهـا خِلافُ النَّجْدِ ؛ والنجدُ مرتـفعٌ من الأرض . ومنه كذلك (غَوْرُ الأردنّ) وهو مكان معروف بانخفاضه .

والغَوْر : القَعْرُ مِن كل شيء ؛ وفي مفردات الراغب : (الغَوْرُ : المُنْهَبطُ من الأرض) . ومنه قولُهم : عرَفتُ غورَ هذه المسألة . ويقال : فلانٌ بعيدُ الغَوْر ، أي جيّدُ الرأي ، متعمِّقُ النظر . ويقال : فلان بحرٌ لا يُدرك غَورُه .

وفي التنـزيل العـزيز : ﴿ قلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَصبحَ ماؤكُم غَوراً فَمَنْ يأتِيكُمْ بماءٍ مَعِين ﴾[1] أي إن أصبح ماؤكم غائراً .

أما الفِعل : (غار ـ يغور) فمعروف ، يستعمل في الماء فيقال : (غار الماء) إذا ذهب في الأرض . ويستعمل في غير الماء فيقال مثلاً (غارت عينُه) إذا دخلت في رأسه . قال الشاعر :

وَسَـائِـلَةٍ بِظَهْـرِ الـغَـيْبِ عنّي أَغـارَتْ عَينُـهُ أَمْ لَمْ تَغَـارَا

ويقال أيضاً : (غارت الشمس غِياراً) إذا غابتْ ، قال أبو ذؤيب :

هَلِ الـدَّهْـرُ إلاّ ليلةٌ ونَهـارُهـا وإلاّ طُلوعُ الـشـمسِ ثُمَّ غِيارُهـا

ويقال : (غار فلان في الأمور) إذا أَدَقَّ النَظَرَ فيها .

---

١ ـ الملك / ٣٠

أما الأصل الثاني فهو الغارَة ، والغارة : الجماعةُ من الخيل تُغير على العدوّ لأخذ المال قهراً أو حَرباً ؛ قال الكُمَيْتُ بنُ مَعْروف :

ونَحنُ صَبَحْنا آلَ نَجْرانَ غارةً تميمَ بنَ مُرٍّ والرِّماحَ النَّوادِسَا[٢]

يعني : خيلاً مُغيرةً ؛ وفي الأساس : صَبَّحْتُهُم الغارَةَ .

والمُغير : اسمُ فاعلٍ مِن (أغار) ، وفي الحديث : « مَنْ دخلَ إلى طعامٍ لم يُدْعَ له ، دخَلَ سارِقاً وخرج مُغيراً » .

فالمغير في الحديث اسمُ فاعل ، من (أغارَ ـ يُغِير) إذا نَهَب . شبّه دخوله عليهم بدخول السارق ؛ وخروجَه بمَن أغارَ على قومٍ ونَهَبَهم . وكما يقولون : أغار بنو فلان على بني فلان ، فإنهم يقولون أيضاً : أغار ، في غير هذا المعنى . يقولون مثلاً : (أغار ـ الفرَس) إذا أسرع واشتدّ عدوُه ، ولو لم يكن ذلك في الغارة على القوم . ومنه قولُهم : (أغار الرجل) إذا عَجَّل في المشي وأسرع ، ويقال : (أغار) أيضاً لِمَن أتىٰ الغَوْر . قال الأعشى :

نَبيٌّ يَرىَ ما لا تَرَوْنَ وذِكْرُهُ أَغارَ لَعَمْري في البِلادِ وأَنجَدَا

فـ (أغار) هنا معناه أتىٰ الغَوْر .

بعد هذا أقول : إن رسالة جاءتني من رأس العين في الحسكة ، يقول مرسلها : ما الفرقُ بين الغارَة والإغارة ؟ وفي الجواب أقول :

إذا قلتَ : (الأَكْلُ في الصَّحْفَة) فإن كلمة (الأكل) في هذا المِثال ، شيءٌ تُدْركُه الحواسُّ : يُرىٰ ويُذاق ويُشَم ويُلمس ، ولذلك يقول النحاة : (الأكلُ) هنا اسمُ عَيْن .

وأما إذا قلتَ : (أَكْلُكَ الطعامَ بغَيْرِ مَضْغٍ مُضِرّ) ، فإن كلمة (الأكل) في هذا المِثال ، لا تدركها الحواسّ ، فأنت لا تَرى مادةً محسوسةً اسمُها (الأكل) وإنما تَرى عَمَلاً ، ترى فَكَّيْنِ يتحركان ويَمْضغان ، أعني أنك ترى عَمَلاً يُسَمّيه لناسُ (الأكل) ، والنحاة يقولون : كلمة (الأَكْل) في هذا المثال مَصدَر .

ـ الرماح النوادس : الرماح يُطعن بها .

فهنا إذاً فَرْقٌ بين الأكل الموضوع في الصَّحْفَة ، والأكل الذي هو عَمَلٌ يُعْمَل .

فالأكل الذي هو في الصحفة : اسمُ عَيْنٍ ، والأكلُ الذي هو عَمَلٌ : مصدر .

مايَدُلّ على محسوس : اسمُ عَيْنٍ ، ومايدل على عَمَل : مصدر .

بعدَ هذا ننتقل إلى الإغارة والغارة :

أولاً : الإغـارة : مصـدرٌ ، عَمَـلٌ ، فإذا رأيت الطائراتِ تنقضّ على العدوّ فتقذِفُ بصواريخِها عليه ، فعَمَلُها هذا إغارة . هذا عَمَل ؛ الإغارةُ عمل ، الإغارةُ مَصْدَر .

ثانياً : الغارة : اسمُ عَين ، وأعني بذلك أن الطائراتِ المحمّلةَ بالصواريخ ، وفيها الطيارون المتهيئون للطيران والإغارة ، كل هذا معاً وأنتَ تَراه في المَطار هو (غارة). هو اسمُ عَين ، إنه ليس عَمَلاً ، إنه ليس مصدراً .

ثالثاً : قد تكون الكلمةُ اسمَ عَيْن ، ومصدراً ، معاً . فيلتقيان في هذه المادة اللغوية دونَ تلك ، وليس في كل مادة من مواد اللغة . وتعرف ذلك بالرجوع إلى كتب اللغة ، والذي يفرِّقُ بين المعنيين سِياقُ الكلام .

مثال ذلك : كلمة (غارة) التي نحن بصددها ، فهي اسمُ عين ، كما ذكرت لك ، ولكنها مصدرٌ أيضاً .

فإذا قيل : هذه الغارةُ خمسُ طائرات ؛ فالغارة في هذا المثال اسمُ عين ، وإذا قيل : عادت طائراتُنا بعد الغارة سالمةً ، فالغارة هنا مصدر ، لأنك إنما أردتَ عملَها وإغارَتَها على العدوّ .

(الإغارةُ) مصدرٌ فقط . و (الغارة) اسمُ عينٍ ومصدرٌ معاً . أعني هو اسم يقوم مَقام المصدر . ومِثلُه : أطعتُ الله إطاعةً وطاعة .

- ٥١ -

يَهــــدِّي

يقول الأعشى يصف ماآلَتْ إليه حالُه بعد كِبَرِه وكَفِّ بصره :

رَأَتْ رجلاً غائبَ الوافِدَيْنِ[١] مختلِفَ الخَلْقِ أَعْشى ضَريرَا

فإنّ الحَوادثَ ضَعْضَعْنَني وإن الذي تَعْلَمينَ[٢] آسْتُعِيرَا

إذا كان هاديْ الفَتىٰ[٣] في البلا دِ صَدْرَ القَناةِ[٤] أَطاعَ الأَميرَا[٥]

فالهادِيَةُ إذاً هي العَصا ، لأنها تتقدّم مُمْسِكَها ، كأنها تُرشِده . وكلُّ متقدم هادٍ . ولذلك كانت العرب تقول : (أقبلَتْ هَوادِي الخَيْل) أي أقبلت أعناقُ الخيل ، لأن أعناقَها تتقدّمُها إذا هي أقبلتْ . ومن هذا قولُهم : (هَداه يَهْدِيه هِدايةً) إذا أرشَدَه . والمادة كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم . وقد تتبّعَ الرازي استعمالها فيه فقال : قد وَرَدَ (هَدىٰ) في الكتاب العزيز على ثلاثة أوجه :

١ ـ مُعَدّىً بنفسه ، كقوله تعالى : ﴿ اِهدِنا الصراطَ المستقيم ﴾ [٦] . وقوله : ﴿ وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْن ﴾ [٧] .

٢ ـ ومُعـدّىً باللام ، كقوله تعالى : ﴿ الحمدُ لله الذي هَدانا لِهذا ﴾ [٨] وقوله : ﴿ قُلِ اللهُ يَهْدي لِلحقّ ﴾ [٩] .

---

١ ـ يريد : العينين .
٢ ـ أي : تعلمين من شبابي .
٣ ـ مايتقدم الفتى .
٤ ـ يريد : العُكّازة .
٥ ـ أطاع من يقوده إذا مشى .
٦ ـ الفاتحة / ٦ .
٧ ـ البلد / ١٠ .
٨ ـ الأعراف / ٤٣ .
٩ ـ يونس / ٣٥ .

٣ ـ ومُعدّىً بـ (إلى) كقوله تعالى : ﴿ واَهْدِنا إلى سَواءِ الصِّراط ﴾ [١٠] .

وعلى ذلك تقول : (هَدَيْتُه الطريق وهديتُه لِلطريق ، وهديتُه إلى الطريق) . كل ذلك ، إذا دللتَه عليه وأرشدتَه إليه .

وتقول أيضاً : (هديتُ له الطريق) على معنى بَيَّنْتُ له الطريق ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُم ﴾[١١]أي أفلم يُبَيِّنْ لهم .

أمـا الهُـدى فهـو الـرشـاد ، وهو ضِدُّ الضلال . وقوله تعالى : ﴿ إنَّ علينا لَلْهُدىٰ ﴾[١٢] : معناه إن علينا أن نبيّن طريقَ الهدى من طريق الضلال .

وهذا معروف ، وإنما ذكرته لأوجّه النظر إلى أن الهُدىٰ يُذكَّر ويؤنث تقول : هذا هُدى ، وهذه هُدى . وأما البحث كله فقد ساق إليه ما في الآية **٣٥** من سورة يونُس مِن استعمال هذه المادّة ، وإليكها ، يقول تعالى : ﴿ قلْ هلْ مِن شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدي إلى الحَقّ ، قُلِ اللّهُ يَهْدِي للحقّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إلى الحقّ أَحَقُّ أنْ يُتَّبَعَ أمْ مَنْ لا يَهِدِّي إلاّ أن يُهْدىٰ ، فمالَكُمْ كيفَ تحكُمون ﴾ .

استعمـالُ (هَدىٰ يَهْدي) في الآية استعمالٌ معروف ، ولكنّ قوله تعالى : ﴿ أمْ مَنْ لا يَهِدِّي ﴾ هو الاستعمال الغريب فيها ؛ ولقد سئِلتُ أن أبحث في ذلك .

لا يَهِدِّي = لا يَهْتَدِي .

والنـاس اليوم يقـولـون : (يَهْتَـدِي) ولا يقـولـون (يَهِـدِّي) ، ولكنّ هذا الاستعمال القرآنيّ واردٌ في العربية . قال صاحب اللسان : « وفلانٌ لا يَهْدِي الطريقَ ولا يَهْتَدِي ولا يَهَدِّي ولا يَهِدّي » . وكلُّها بمعنى واحد .

(يَهِـدِّي) أصلهُ (يَهْتَـدِي) ، وسـأسيرُ معك خطوةً خطوةً لأبيّن لك كيف انتقَلَتْ (يَهْتَدِي) إلى (يَهِدِّي) .

الأصل (يَهْتَـدِي) ، ولكنّ من المعلوم في اللغة أنّ بين التاء والدال قُرباً ،

---

١٠ ـ ص / ٢٢ .

١١ ـ طه / ١٢٨ .

١٢ ـ الليـل / ١٢ .

وعلى ذلك أَبْدَلُوا التاء دالاً ، لما بينهما من القرب ، فأصبحت الكلمة (يَهْدَدِي) ، ثم أدغموا فقالوا (يَهْدْدِي) فالتقى ساكنان : الهاء ساكنة ، والدال الأولى ساكنة .

ومن القواعد المقررة أن الساكنينَ إذا التقَيا فإن الأول منهما يُحرَّك بالكسر ، وهذا مافعلوه ، فإنهم حَرَّكُوا الأولَ بالكسرِ وهو الهاء ، لالتقاء الساكنين ، فقالوا : (يَهِدِّي) ، والأصلُ (يَهْتَدِي) . وأوجز لك هذه الخطوات :

يَهْتَدِي ثم يَهْدَدِي ثم يَهْدْدِي ثم يَهِدِّي .

بعد هذا يبقى من المادة جانبٌ آخرُ لم نعرِض له ، وهو (أَهْدَىٰ ـ يُهْدِي ـ إهداءً) . قال ابن فارس : « الهاء والدال والحرف المعتل ، أصلان :

أحدُهما التقدّم للإرشاد » . (وقد بحثنا في هذا الأصل) .

« والأصل الآخرُ ما أَهْدَيْتَ من لَطَفٍ[١٣] إلى ذِي مَوَدّة » .

وإنما أقف عند هذا الأصل الثاني لأوجه ، النظر إلى أن كثيراً من الناس يقولون مثلاً : « أَهْدَيْتُ خالداً كتاباً » وهذا غلط ، والصواب « أهديتُ إلى خالدٍ كتاباً » ، أو « أهديتُ لِـخالدٍ كتاباً » . فلا بد من إدخال اللام أو (إلى) على مَنْ تُهدِي إليه فتقول : « أهديت له » أو « أهديت إليه ».فإذا وَضَعْتَ الهديةَ في طَبَقٍ وقدّمتَها عليه ، فهذا الطَبَقُ في هذه الحال يسمى : (المِهْدَىٰ) .

وبعد فممّا تقدم نخلص إلى مايلي :

١ ـ هَدَيْتُه : تقدَّمْتُه لأُرشدَه .

٢ ـ يَهْتَدِي ويَهِدِّي بمعنىً واحد .

٣ ـ أهديتُ فلاناً كتاباً غلط ، والصواب : أَهديتُ له ، أو أهديتُ إليه .

٤ ـ المِهْدَىٰ : الطبقُ ، تُهدَىٰ عليه الهديّة .

---

١٣ ـ اللطف : التحفة .

- ٥٢ -

تـــــوأم

المُـواءَمَة : الموافقة . يقال : (واءَمَ فلانٌ فلاناً مواءَمَةً ووِئاماً) أي وافَقَه ففعلَ كما يفعـل . قال ابن فارس : « الواو والهمزة والميم كلمة تدل على موافقة ومقاربة ، يقولون : الوِئامُ الموافقة » قال : « ومَثَلُهم : لو لا الوِئامُ هَلَكَ الأنام » . ومعنى المَثَل : لو لا موافقةُ الناس بعضِهم بعضاً في الصُحبة والعِشرة لكانت الهَلَكَةُ .

ويقال : « فلان يغنّي غِناءً متوائِماً » إذا وافقَ بعضُه بعضاً ، ولم تختلف ألحانُه قال الشاعر :

أرىٰ ناقـتِـي حَنّـتْ بلَيلٍ وسـاقَـهـا غِنـاءٌ كنَـوْحِ الأعْـجَـمِ المُتَـوائِمِ

فريق من العلماء يقول : إن كلمة (التوأم) مشتقةٌ من (الوئام) . قال الخليل ابن أحمد : « وأَصْلُه وَوْأَم ، فأُبدِلَ مِن إحدى الواوين تاءٌ » .

ولكنّ فريقاً آخر يرى أن التاء في كلمة (توأم) أصلية ، ومنهم ابنُ عُصفور ، فقد جزم بأن تاء (التوأم) أصلية ، لأن العرب أثبتتْ هذه التاء في الجمع وغيرِ الجمع . وحُجّتُه : أنها لو كان أصلُها الواو لَنَطَقُوا بها يوماً من الدهر .

ولذلك ترى كثيراً من الأمهات توردها في (وأم) ، وتوردها مرةً أخرى في (تأم) . يقول الأزهري : « وقد ذكرت هذا الحرف في باب التاء ، وأعدتُ ذكره في باب الواو لأُعَرِّفَك أن التاء مبدلةٌ من الواو » ثم يقول : « وأصلُ ذلك من (الوِئام) وهو الوِفاق » .

وصـاحب القاموس المحيط أيضاً يوردها في البابين جميعاً ؛ وكذلك يفعل صاحب اللسان ، على حين يُورِدها الجوهريّ في (تأم) فقط .

بعـد هذا أذكُـر أنني كنت قبل سنوات بحثتُ في كلمة (التوأم) ، وما كنت لأُعيد البحثَ فيهـا لو لا أن رسـائـلَ كثيرةً طالبتْني بذلك ، كان آخرُها رسالةً من أكاديميّة الأسد للهندسة العسكرية . ثم اتّصلتْ بي مدرِّسةٌ تسألني مثلَ ذلك ، وأن أبيّن كيف تُكتب همزتُها .

يقال : (أَتْأَمَتِ المرأةُ) إذا وَلَدَت اثنين في بطْن واحد ، فهي (مُتْئِم) . فإذا كان ذلك ، قالوا : (تاءَمَ الولدُ أخاه ، وتَأْمَه أيضاً) . أي وُلِدَ معه ، فهو تِئْمُه .

فأما الذكَر منهما فهو (تَوأَم).وأما الأنثى (فتَوْأَمَة) ، قال الأخطل :

ولَـيْلَةِ ذي نَصَـبٍ بِتُّـهـا على ظَهْـرِ توأَمَـةٍ ناجِـلَهْ

ومعروفٌ أن التوأم ضئيلِ الجسم ، وعلى ذلك قولُ الشاعر :

تَحْـسَـبُـهُ مِمّـا به نِضْـوَ سَقَـمْ أو تَوْأَمـاً ، أَزْرى به ذاكَ الـتَّـوَمْ

أي تحسبه توأماً أزرى به وجودُ ذك التوأم معَه . والعربي لا يحب ذلك ، بل يحب أن يكونَ الرجل واضحاً (غيرَ توأم) ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا شِئتَ لم تَعْـدَمْ لَدى البـابِ مِنْهُمُ جَمـيلَ الـمُـحـيّا واضـحـاً غيرَ تَوْأَمِ

فتراه يمدحهم بأن مَن تراه منهم واضحٌ غيرُ توأم . ويقول عنترة :

بَطَلٌ كأنّ ثيابَـه في سَرْحَـةٍ[1] يُحْـذَىٰ نِعـالَ السِّبْت[2] ليس بتَـوْأَمِ

أي هذا البطل ليس ضئيلَ الجسم توأماً ، وإنما هو بطلٌ كأن ثيابَه على شجرةٍ عظيمة .

ولعلك لاحظتَ في الأبيات الثلاثة أن كلمة (التوأم) دلّتْ على مفرد :

ففي البيت الأول : (تحسبه توأماً) . وفـي الثـاني : (جميل المحيا غير توأم). وفـي الثـالث : (بطل ليس بتوأم)

ولكن كلمة (توأم) تطلق على الاثنين أيضاً ، يقال : هذا توأمٌ وهذان توأمٌ .

حتى إن أحـد علمـاء اللغـة وهـو الليث قال : همـا توأم فقط ، ولا يقـال : (هما توأمان) . فَرَدَّ العلماءُ قولَه وخَطَّؤوه . فلَكَ إذاً أن تقول (هما توأم) و (هما توأمان) أيضاً .

وقد أوجز صاحب القاموس المحيط كلَّ ذلك فقال : « ويقال توأم للذكر ، وتوأمة للأنثى ، فإذا جُمعا[3] ، فهما توأمان وتوأم » . أما الجمع فهو تُؤَامٌ وتَوَائِم .

فأما (التُّؤام) فشاهدُه قولُ الراجز :

---

١ ـ الشجرة العظيمة الممتدة .

٢ ـ الجلد المدبوغ .

٣ ـ يعني فإذا اجتمعا .

قالـتْ لنا ودمعُـها تُـؤَامُ

كالـدُرِّ إذْ أسـلَمَهُ النِّظامُ

على الذين آرتَحَلوا السَّلامُ

وأما (التَّوائِم) فشاهده قولُ المُرَقِّش : (وجَزْعاً[٤] ظَفارِيّاً[٥] ودُرّاً تَوائِما)

ويُجمَعُ (التوأم) جمعاً سالماً فتقول : (هم تَوْأمون) . قال الكُمَيْت :

فلا تَفْـخَـرْ فإنّ بَنِـي نِزارٍ لِعَـلاّتٍ[٦] ولَـيْسُـوا تَوْأَمِـينَـا

بعد ماتقدم أقول : إن همزة (توأم) ككُلّ قواعد الهمزة في العالم العربي ، ماتزال مضطربةً ، لم تأخُذْ حظَّها من الاستقرار حتى اليوم وهو أمرٌ مؤسف .

ويكفي برهـانـاً على ذلـك أن المعجم الوسيط أوردها في باب الواو على الألف : (توأم) ، وأوردها في باب التاء مفردةً على السطر : (توءم) .

ولو خُيِّرتُ لاختَرْتُ أن تُكتَب على الألف ، طرداً للقاعدة العامّة في كتابة الهمزة . فهي مفتـوحـةٌ وقبلَهـا ساكن ، والفتحةُ أقوى من السكون ، ولذا أختار أن أكتبها على الألف : (توأم)، مع أن مدارس قطرنا اليوم تكتبها مفردة على السطر باعتبارها شاذةً .

إن مما يُؤْسِف ألاّ تجتمع كلمةُ علماءِ الأمة العربية على كتابة همزة !!

وبعدُ ، فمِن جميع ماتقدم نخلُص إلى مايلي :

هـــو : تَوْأَم .

وهـــي : تَوْأَمَة .

وهمـا : تَوأَمُ وتوأَمان .

وهـم : تَوائِمُ وتُؤَام .

---

٤ ـ الجزع : الخرز .

٥ ـ ظفار : بلد قرب صنعاء .

٦ ـ أي هم أبناء أمهات شتى من رجل واحد .

ـ ٥٣ ـ

المــــذكر والمــــؤنث

التاءُ المربوطة ، أداةٌ يفرِّق بها العربيُّ بين المذكَّر والمؤنث . يقول مثلاً : (خالدٌ مسافر) ، فإذا تحدث عن زينب مثلاً قال : (زينبُ مسافرة) . ففي التذكير قال : (مسافر) وفي التأنيث أضاف تاءً مربوطة فقال : (مسافرة) .

ولكنّ في العربية حالاتٍ معينةً يستوي فيها المذكر والمؤنث . أعني أن العربي في هذه الحالات لا يفرق في اللفظ بين المذكر والمؤنث . يقول مثلاً عن الرجل : (هذا رجلٌ جريح) ، ويقول عن المرأة : (هذه امرأةٌ جريح .)

وقبل أن أعرِض لإحدى هذه الحالات ، وأبسطَ القولَ فيها أوجّه النظر إلى أن هذا الاستعمال الذي يكون فيه المذكر والمؤنث بلفظ واحد ، له شرطٌ لا يمكن إغفاله . وهو أن يفهم المستمع أن المقصود بالكلام مؤنث . فعند ذلك تستغني عن التاء . هذا الشرط يعبر عنه النحاة بقولهم : (أَمْن اللَّبْس) . وهم لم يشترطوه إلا لأنهم رأوا أن الاسم أحياناً إذا لم يكن فيه علامة تأنيث قد يُوقع في اللَّبْس ، فلا يدري المستمع أهو لمذكر أم لمؤنث ؟

مثالُ ذلك أن محدِّثك قد يَرى امرأةً جُرحت فيقول : (رأيتُ الجريحَ) فيوقِعُكَ في اللَّبْس . فلا تدري : آلجريحُ رجلٌ أم امرأة ؟ ولإزالة اللَّبْس يوجب النحاة أن يستعمل محدثُك التاءَ المربوطة في هذه الحال ، فيقول : (رأيتُ الجريحة) ؛ فإذا كان اللبس مأموناً كأن يقول مثلاً : (رأيتُ الفتاةَ) فإن النحاة يقولون لك : لا تأتِ بعلامة التأنيث هنا ، ولا تقل (رأيتُ الفتاةَ الجريحةَ) . بل قل : (رأيتُ الفتاةَ الجريحَ) ، فهنا يستوي المذكر والمؤنث لأن كلمة (الفتاة) أزالت الالتباس .

بعد أن أوضحنا هذا الشرط الذي لا يجوز إغفاله ؛ ننتقل إلى حالة من الحالات التي يستوي فيها المذكر والمؤنث . وهي : أن يكون وزن الكلمة (فَعُول)

ومعناها (فاعِل) . ومثال ذلك أن تقول (هذا رجل صبور) وتعنيَ بذلك أنه صابر . و(هذه امرأة صبور) وتعنيَ بذلك أنها صابرة .

صيغة (فَعُول) إذاً ، إذا كان معناها (فاعِل) ، مثل : (صبور بمعنى صابر) ، لا تلحقها التاء المربوطة في آخرها عند التأنيث . وعلى ذلك تقول للرجل : (أنتَ صبور) وتقول للمرأة : (أنتِ صبور) .

بالأمس جرى حديثٌ حول قول إحدى الأخوات المذيعات : (الوالدة الحنونة) ، وهل يصح هذا ؟

وأقول : الأصل أنه لا يصح ، وأن الصحيحَ أن يقال : (الوالدة الحنون) لأن المادة (حَنَّ - يَحِنُّ) ، فإذا صُغْتَ منها على وزن (فَعول) قلت : (حَنون) ومعناه (حانّ) ، وقبل الإدغام (حانِن) أي وزنه (فاعل) . ولقد ذكرنا آنفاً أن من الحالات التي يستوي فيها المذكر والمؤنث (فعول) بمعنى (فاعل) . وأذكر لك هنا للاستئناس قول شوقي في مسرحية كليوباترة :

(رَجَّعَتْ عن شَجْونا الرِّيحِ الحَنُون)

وتلاحظ أنه قال (رجّعتْ) فأتى بتاء التأنيث في آخر الفعل ، لأن الريح مؤنث . فلا لبسَ إذاً في التعبير ، ولذلك حين وَصَفَ الريح قال : (الريح الحنون) ولم يقل : (الريح الحنونة) .

هذا هو الأصل وهذا هو القياس . وقد استمر العمل به منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا هذا ، ولكن مجمع اللغة العربية بالقاهرة نظر في أقوال عدد من أئمة النحو فرآهم يقولون : (هذا هو الغالب) ، فسِواهُ إذاً جائز .

رأى سيبويهِ مثلاً يذكر أن صيغة (فَعُولة) - بالتاء - جاءت في شيءٍ من كلام العرب بمعنى (فاعِلَة) . ورأى ابنَ مالك والسيوطيّ يذكران أن حذف التاء هو الغالب ، فسواه إذاً جائز . ورأى الرضيّ في شرح الكافية يذكر أن (فَعُول) ممّا لا يلحقه تاء التأنيث غالباً .

ولعل المجمع أراد التيسير على الناس ، فخَلَصَ في عام ١٩٦٨ إلى قرار أجاز

فيه تأنيثَ صيغـة (فعول) بمعنى (فاعل) مطلقاً . يعني : أجاز لك أن تقول : (المرأة الغفورة) مثلاً ، و (الزوجة الصبورة) .

وعلى ذلك نقول للأخت المذيعة : إن قولَكِ : (الأمّ الحنونة) قد كان خطأً منذ الجاهلية حتى عام ١٩٦٨ ، وأما بعد أن اتّخذ مجمعُ اللغة العربية بالقاهرة قرارَه المذكور آنفاً ، فيجوزُ لكِ أن تقولي : (الأم الحنونة)، وإن لم يكن قولُكِ هذا هو الأفصح .

ـ ٥٤ ـ

الحُنَفـــــاء

إذا قيل : (فلانٌ في قَدَمَيه حَنَفٌ) فمعنى ذلك : في قدميه مَيْل . فالحَنَفُ : إقبالُ كلٍّ واحدة منهما على الأخرى بإبهامِها . قال الأصمعي : « الحَنَفُ أنْ تُقْبلَ إبهامُ الرجل اليمنى على أختِها مِن اليُسرى ، وأن تُقْبل الأخرى إليها إقبالاً شديداً » .

فإذا كان ذلك في المرأة قيل : امرأة حَنْفاء . وإذا كان في الرَّجُل قيل : رجُلٌ أَحْنَف . ومن أعلام الأمّة المشهورين : الأحْنَفُ بنُ قيس ، واسمُه صَخْر . وإنما لُقِّب بالأحنف ، لِحَنَفٍ كان في قَدَمِه . وكانت دايَتُه تُرقِّصُه وهو طفلٌ فتقول :

والله لو لا حَنَفٌ برجْلِه
ما كانَ في فِتْيانِكُمْ مِنْ مِثْلِه

وأما الفعل فهو : (حَنَفَ ـ يَحْنِف) أي مال ، و (حَنِفَ ـ يَحْنَفُ) أي آعوجّت قدَمُه .

قبل حين ، جاءتني رسالة من درعا يسأل مرسلها : ما معنى حنفاء ، في قوله تعالى : ﴿ وما أُمِروا إلا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١) .

وفي الجواب أقول : إن كلمة (حُنَفاء) وردت في آيتين من القرآن الكريم : الأولى في سورة البيِّنة ، وهي التي تلَوْتُها آنفاً . والثانية في سورة الحجّ . قال تعالى : ﴿ فاجتَنِبُوا الرِجْسَ مِنَ الأوثانِ وآجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفاءَ لله غيرَ مُشْرِكين به ﴾ (٢) .

والحنفاء جمع حَنيف ، وقد كان فريق من العرب في الجاهلية ، نَبَذوا عبادة الأصنام ، والتمَسُوا مِلَّة إبراهيم ، وضربوا في الأرض بَحْثاً عن دِينه ، مائلين عن عبادة الأصنام ، فسُمُّوا : الحنفاءَ . وإليكَ نصّاً مِن سيرة ابن هشام يذكُرُهم :

---

١ ـ البينة / ٥

٢ ـ الحج / ٣١

« قال ابنُ إسحاقَ : واجتمعت قريشٌ يوماً في عيدٍ لهم عندَ صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحَرون له ويَعكِفون عنده ويُدِيرون به . وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً . فخلَص منهم أربعةُ نفرٍ نَجِيّاً : ثم قال بعضُهم لبعض : تصادَقُوا ولْيَكْتُمْ بعضُكم على بعض . قالـوا : أَجَـل » وذكـرَ أسماءَهم ثم تابع : « فقال بعضُهم لبعض : تَعَلَّمُوا[3] ، واللهِ ما قومُكُم على شيءٍ ، لقد أخطؤوا دينَ أبيهم إبراهيم . ماحَجَرٌ نُطِيفُ به ، لا يسمع ولا يُبصِر ولا يَضر ولا ينفع ؟ ياقومُ ٱلتمِسوا لأنفسكم دِيناً ، فإنكم والله ماأنتم على شيء ؛ فتفرّقوا في البلدان يلتسمون الحنيفيّةَ دينَ إبراهيم » .

وقد سمِّي هؤلاء الحنفاءَ ، والأحنافَ أيضاً . وكتب التاريخ والتفسير تحفَظ لنا بعضاً مما كان عليه الحنفاء في الجاهلية . فإذا قرأتَ ذلك خلَصتَ إلى سِماتٍ من حَنيفيّتِهم . وأُوردُ لك منها مايلي :

١ ـ التَّعَبُّدُ والنُّسْك : ذكرَ ابنُ دُرَيْد في كتاب الاشتقاق ، أن زيدَ بنَ عَمْرِو بن نُفَيْل أدركَ أيامَ الرسول ؛ قال : « وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبلَ الوحْي قد حُبِّبَ إليه الانفرادُ ، فكان يخلو في شعاب مكّة.قال : فرأيتُ زيدَ بنَ عَمْرِو بن نُفَيْل في بعض المَشاعِب ، وكان قد تفرّد أيضاً ، فجلستُ إليه ، وقرَّبْتُ إليه طعاماً فيه لحم » .

٢ ـ نَبْـذُ مايُذْبَحُ على الأصنام : كان زيدٌ هذا ، يَعِيبُ على قريش ذبائِحهَا ويقـول : « الشـاةُ خلقها الله وأنزل لها من السماء ماءً وأَنبتَ لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم ِ الله تعالى »؟!

٣ ـ السجـود لله والصـلاة والحـج : قال ابن هشـام : (قال ابن إسحاق : وحـدثني هشـامُ بنُ عُروةَ عن أبيه عن أمّه أسماءَ بنتِ أبي بكر قالت : لقد رأيتُ زيدَ بنَ عمْـرو بن نُفَيل شيخـاً كبيراً مُسنِداً ظهرَه إلى الكعبة وهو يقول : يا معشَرَ قريش ، والـذي نَفسُ زيدِ بن عمْـرو بيدِه ماأَصبـح منكم أحـدٌ على دِين إبراهيم

---

٣ ـ تعلَّموا : اعلموا .

غيري . ثم يقول : اللهمّ لو أني أعلم أيُّ الوُجوه أَحبُّ إليكَ عبدتُكَ به ، ولكني لا أعلمه . ثم يسجد على راحته . وكان يقول : إلهي إلهُ إبراهيمَ ، وديني دينُ إبراهيمَ) .

ونَقَلَ جواد علي ماأورده لك : « وزُعِمَ أنه كان يراقب الشمس ، فإذا زالت[٤] آستقبَل الكعبةَ فصلى وسجد سَجْدَتَين ثم يقول : هذه قِبلة إبراهيمَ وإسماعيلَ لا أعبُد حَجَراً ولا أُصلّي له ، ولا آكل ماذُبِح عليه ، ولا أستقسم بالأزلام ، وإنما أُصلّي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعَرَفَة ، وكان يُلبّي فيقول : لبّيكَ لا شريكَ لك ، ولا نِدَّ لك ؛ ثم يَدْفَعُ مِن عَرَفَةَ ماشِياً وهو يقول : لبّيكَ مُتَعَبِّداً مَرْقوقاً » .

٤ ـ نبذ الخمرة : وقد حَرَّموها على أنفسهم .

٥ ـ إنكارُ وَأْدِ البنات : كان زيدُ بنُ عمْرو يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : مهلاً لا تقتلْها ، أنا أَكفيكَ مَؤونَتَها . فيأخذُها ، فإذا ترعرعتْ ، قال لأبيها إن شئتَ دفعتُها إليك ، وإن شئتَ كفيتُكَ مَؤونَتَها .

ولقد لقِيَ الحنفاءُ الأذى من قومهم . قال ابن هشام في السيرة : «وكان الخَطّاب[٥] قد آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة ، فنزل حِراءَ ، مُقابِلَ مكّة . ووَكَّلَ به الخطّابُ شباباً من شباب قريشٍ ، وسفهاءَ مِن سُفهائِها . فقال لهم : لا تتركوه يدخلُ مكةَ . فكان لا يدخلها إلا سِرّاً منهم ، فإذا علموا بذلك آذَنُوا به الخَطّاب فأخرجوه وآذَوْه كراهيةَ أن يُفْسِدَ عليهم دينَهم » .

هذا بعضٌ ممّا عُرف عن الحنفاءِ في الجاهلية ؛ وإنما اجتزأتُ بزيدِ بن عمْرو ابن نُفَيل خشيةَ الإطالة . وهو بَعْدُ يمثِّلُهم . ولعلكَ لاحظت أن ماكانوا عليه لا يُكَوِّنُ دِيناً تامّاً مُتماسِكاً ، وإنما هو حَنْفٌ عن دِين آبائِهم ، وحَنْفٌ عما كانوا يعبُدون .

---

٤ ـ زالت : يعني مالت عن كبد السماء ، لا أنها غربت

٥ ـ هو الخطاب بن نفيل ، عم زيد .

وقد وافقَ تركهُم عبادةَ الأصنام ما في الإسلام من التوحيد ، ولذلك جاءت كلِمَتا (حَنِيف وحُنَفاء) في القرآنَ في مَعرِض المديح . وقد أرجع القرآنُ الحنيفيّةَ إلى إبراهيمَ . والأصلُ أن مَن كان على دين إبراهيمَ فهو عند العرب (حَنِيف)، فلما جاء الإســلامُ سُمِّيَ المسلمُ (حَنِيفاً). قال الأخفش : الحَنِيفُ المُسْلِم ، وقيل له : (حنيف) لعُدولِه عن الشِّرك ومَيلِه عنه ، قال الشاعر :

فقُلْتُ له خُذْهـا بِضَـرْبَـةِ ماجـدٍ   حَنِيفٍ على دِينِ الـنبيِّ مُحَمَّـدِ

والدين الحنيف : الإسلام . والحنيفيّة : مِلَّةُ الإسلام . قال (ﷺ) : بُعِثْتُ بالحنيفيّة السَمْحَةِ السَّهْلَة .

- ٥٥ -

طَلَــــبَ

إذا قلتَ : (طَلَبْتُ الشيءَ) فمعنى ذلك في اللغة ، أنك التمستَه ، وحاولت أن تَجِده وتأخُذَه . ومن هنا مايقال اليوم مثلاً : « الشرطة تطلُبُ المجرمَ » أي تلتمسه وتحاول أخْذَه .

قال ابن فارس : « الطاء واللام والباء أصلٌ واحد يدلّ على ابتغاء الشيء » .

فمعنى طلبَ الشيءَ إذاً التمسَه وابتغاه ، وليس معناه (استَعْطاه) كما يُظنّ اليوم .

ولقدِ آختَرْتُ لك من كتاب الأغاني نصّاً يَكْثُر فيه استعمال مادة (طلب) لتضع يدك على أن معناه في الأصل (التمس) وهو نصٌّ حرفيٌّ حُذِفَ منه مالا يَعْنينا هنا : « خرج زيدُ بنُ أيّوبَ يَوماً من الأيّام يريدُ الصَّيد في ناس من أهل الحِيْرة ، فَآنْفردَ وتباعدَ ، فلبثَ أصحابُ زيدٍ حتى إذا كان الليلُ طَلَبوهُ ، وظنُّوا أنَّه قد أُمعن في طلَب الصَّيدِ ، فباتُوا يَطلُبونَه ، حتى يَئسوا منه ثم غدوا في طلبه فاقْتفوا أثره حتى وجدوه قتيلا » . وترى أن معنى المادة فعلاً ومصدراً هو (التمس) .

بالأمس جاءتني رسالة من دير الزور ، تسألني البحثَ في مادة (طلب) ، فكانت السائق إلى هذا البحث .

(طَلَبَ يَطْلُبُ) فعلٌ متعدٍّ بنفسه ، أي ينصب المفعول بغير واسطة . وعلى ذلك تقول : (طلب خالدٌ الشيءَ) . وهو كالأفعال الأخرى في العربية تَستعمل معه الحروف والظروف ، ليتمَّ لك بذلك قصدُك .

أنت تقول مثلاً : (جلس خالدٌ فوقَ السطحِ ، وجلس تحتَ الشجرةِ ، وجلسَ مع صديقِه ، وجلس في البيت ، وجلس على الكرسيّ ، وجلس للراحة ، وجلس إلى صديقه) الخ . . كل ذلك ليتمَّ لك قصدُك . فلكل حرفٍ معنى بل معانٍ ، وإنما تختار مايُعينك على أن تعبّر عما يجول في نفسك .

ولذلك تنظر في المعجم فلا تجد (جلس فلانٌ في البيت) ، لأن المشتغلين باللغة يعلمون أنّ (في) حرفٌ يدل على الظرفية . وأنت تستعمله بعد (جلس) لتدل بذلك على أن المكان الذي تحقق فيه الجلوس هو البيت ، أي لتدل بذلك على الوعاء المكانيّ الذي تَحقّقَ فيه الجلوس ؛ وقلْ مثلَ ذلك في الحروف الأخرى . فإذا كان الفعلُ يتعدى بحرفٍ يلزمُه أبداً ، فإنك تستعمله مع هذا الحرف ، ثم تستعين بعد ذلك بما يعبِّر عن قصدك من الحروف .

مثلاً : (احتاج) يلزمه حرفُ الجر (إلى) ، ولذلك تقول : (احتاج خالدٌ إلى كتاب) . فإذا أردتَ بيانَ الظرف الذي تحققت فيه حاجة خالد قلت : (احتاج خالدٌ في بيته إلى كتاب) .

هذه مسألة ؛ وأما المسألة الأخرى فهي أن الأديب قد يُضَمِّنُ فِعلاً من الأفعال معنى فِعل آخرَ ، فيُعَدِّي هذا بما يَتَعّدى به ذاك . خذ مثلاً فِعْل (قَبِلَ) ، فهو فعل يتعدّى بنفسه بغير واسطة . ولذلك تقول : (قبلتُ رأيَك) مثلاً . فإذا قبلتَ الرأيَ راضِياً به لا مُذْعِناً ، جاز لك أن تقول : (قبلتُ برأيك) ، لأن المعنى الذي قصدت إليه هو : (قبلتُ راضياً برأيك) . فتضمِّنُ (قَبِلَ) معنى (رَضِيَ بـ) . أُريد أن أقول : (قَبِل) لايتعدى بالباء أصلاً ، و (رَضِيَ) يتعدى بالباء ، فتضمِّنُ (قبلَ) معنى (رضي بـ) . فتقول : (قبلت برأيك) .

بعد ماتقدم ، نعود إلى (طَلَب) . (طَلَبَ) يتعدّى بنفسه ، ولذلك تقول : (طلبتُ الشيءَ) ، ولكنهم يضمّنون هذا الفعلَ معنى (رغب إليه) ، ولذلك يقولون : (طلب إليه) والمعنى : (طلب راغباً إليه) .

وقد نَبّه الزبيديّ على ذلك فقال : « وقالوا طلب إليه سأله ، وقيل : طلب راغباً إليه ، لأن الجمهور على أن (طلب) لايتعدى بالحرف ، فخرّجوا مثله على التضمين ؛ كذا قال شيخنا » . فمِن هنا إذاً قولُك : (طلب إلى) بمعنى (رغب إلى) .

في مطلع العصر الحديث تناول الشيخ إبراهيم اليازجي فِعْل (طلب) فقال مانصُّه : « ويقولون طلب إليه أن يخيط له ثوباً ، وساوَمَه في ثمن السلعة ، فطلب إليه كذا وكذا ، وإنما يقال : طلبَ إليه بمعنى رغبَ إليه ، أي سأله بضراعة ، والوجهُ طَلَبَ منه » .

وترى من النص أن الشيخ اليازجيَّ قَصَرَ استعمالَ (طلبَ إليه) على السؤال بضراعة . فإذا لم يكن تضرُّعٌ قلتَ : (طلبَ منه) . وذلك لم يقُلْه أحد ، وإنما هو رأيٌ يستشعِرهُ اليازجيّ بغير مؤيِّد ؛ لاتشهد له النصوص ، ولا أقوالُ العلماء. وإنما الـذي ساق اليازجيَّ إلى ذلـك ، أنّ مِن معاني (رغِبَ إليه) تضرَّع ؛ ولكنّ مِن معانيها أيضاً (سأل) . فتأمّل !! .

الفيوميُّ مثلاً قَصَرَ الترجمة على تعدية (طلبَ) بنفسه . فيقول : (طلبتُه ـ أطلُبه) . ولايزيد على ذلك ؛ ومعنى هذا أنه يترك لك أن تستعمل مِن حروف الجر مع هذا الفعل مايناسب معناه قصدَك .

بعد هذا ، يبقى من البحث أن نعالج (طَلَبَ منه) . الزمخشري ينفرد من اللغويين الآخرين فيقول في أساس البلاغة : (وطَلَبَ مني فأُطْلَبْتُه ، فأسعفته) . وأما بعض المراجع الأخرى فتُورِد (طَلَب مِن) في أثناء الترجمة في الأغلب .

الأخ صاحبُ الرسالة يميل إلى اعتبار (نطلب منكم) بمعنى الأمر ، و (نطلب إليكم) بمعنى الرَّجاء .

وحـولَ ذلك أقول : لقد بيّنتُ آنفاً أن الحروف لها معانٍ مختلفة ، والأديبُ يستعمل مع المادة مايناسب قصدَه من الحروف .

فمرةً الباء : (طلبَ به) ، كما تقول : (طلبَ بالدم وطلبَ بالثأر) .

ومرةً اللام : (طلبَ له) ، قال اللِّـحيانِيّ : (اطلُبْ لي شيئاً : ابغِهِ لي) .

ومرةً إلى : (طَلَبَ إليه) بمعنى (رغبَ إليه) .

ومرةً مِن : (طلبَ منه) بمعنى ابتداءِ الغاية .

مما تقدم نخلص إلى مايلي :

١ ـ (طَلَبَ إليه) : معناه رغب إليه .

٢ ـ (طلب منه) معناه ابتداءُ الغاية .

٣ ـ إن قول اليازجيّ : (طلبَ إليه مقصورٌ على السؤال بضراعة) لامؤيِّد له .

٤ ـ إن معانيَ الحروف متعدِّدة ، وإنما يَستعمل الأديبُ منها ماكان معناه موافِقاً القصدَ : طلب به ، وطلب له ، وطلب إليه ، وطلب منه ، فلكلٍّ معنى .

ـ ٥٦ ـ

الضِّعْـــف

في العادة لا أذكُر أسماءَ مَن يكتبون إليّ ، إلا أن يكون لذلك سبب . وأنا اليوم مضطرٌ إلى ذكر مَنِ اسمُه (محمود) واسمُ أسرتِه أوّلُه الهمزة ، لأن رسالته شديدة الخصوصية . فهو يسأل عن اسمِ بُقَعٍ تظهر في وَجْهِه ووَجْهِ أبيه ، عن طريق الوراثة فيما يبدو . وأنا أقول لصاحب الرسالة إنني لا أجيب عن رسالتك لأنها مسألة خاصة ، تتعلق بوجهك ووجه أبيك فقط . ولن أجعل من التلفزيون أداةً لوصف حالتِكما المرضيّة ، وهي لا تُهِمّ أحداً سِواكما . ثم إن لمثل هذه الحالات المرضيّة مصادرَها فارجِعْ إليها تجدْ بغيتك .

بعد ذلك ننتقل إلى ماتدور حوله حلقة اليوم . يقول ابن فارس في المقاييس : « الضاد والعين والفاء أصلان متباينان يدل أحدهما على خلاف القوة[1] ، ويدل الآخر على أن يُزاد الشيءُ مثلَه »[2] .

في مسألة (الضِعْف) ومايدل عليه ، أقوال كثيرة . وانظر في كتب اللغة تجدْ بين العلماء في ذلك اختلافاً كبيراً . فالجوهري في الصحاح يقول :

(وضِعف الشيء مِثْلُه ، وضِعفاه مِثلاه ، وأضعافه أمثاله) .

ولكن انظر إلى صاحب القاموس ماذا يقول : قال : «وضِعف الشيء بالكسر مِثلُه ، وضِعفاه مِثلاه ، أو الضِعف المِثْلُ إلى مازاد . ويقال : لَكَ ضِعفُه يريدون مِثلَيه ، وثلاثةَ أمْثالِه ، لأنه زيادةٌ غير محصورة » .

أما صاحب اللسان فيبدأ ترجمته للكلمة بقوله : (وضِعْفُ الشيءِ مِثلاه) .

وتجد ممّا تقدم أنك بعيدٌ عن الحسم في معنى الضِعْف . وأزيدك من هذا أقوالاً وأمثلة : ففي النهاية لابن الأثير : (يقال : إن أعطيتَني درهماً فلك ضِعفُه أي درهمان ، وربما

---

١ ـ أي الضَعف : بفتح الضاد .

٢ ـ أي الضِعف بالكسر .

قالـوا: فَلَكَ ضِعفـاه، وقيل : ضِعفُ الشيءِ مِثلُه، وضِعفـاه مِثـلاه » ، ثم قال : « قال الأزهـري : الضِعفُ في كلام العـرب المِثْـلُ فما زاد ، وليس بمقصورٍ على مِثلَين، فأَقَلُّ الضِعفِ محصورٌ في الواحد ، وأكثره غيرُ محصور » .

وقد أورد صاحب اللسان مايلي : « يُقال هذا ضِعفُ هذا ، أي مِثلُه ، وهذا ضِعفاه : أي مِثـلاه ، وجـائزٌ في كلام العرب أن تقول : هذا ضِعفُه ، أي مِثلاه وثلاثةُ أمثالِه، لأنّ الضِّعْفَ في الأصل زيادةٌ غير محصورة ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ فأولئك لهم جَزاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلوا ﴾ [٣] ؟ لم يُرِدْ به مِثلاً ولا مِثلَين، وإنما أراد بالضعف : الأضعاف » . ثم قال : « فأَقَلُّ الضِعف محصور، وهو المِثل . وأكثرُه غيرُ محصور » .

وإليكَ مثالاً آخر : المُطَرِّزيّ في (المُغْرِب) ينقل عن الشافعي في رجلٍ أوصىٰ فقال : (أَعْطُوا فلاناً ضعف مايُصيبُ وَلَدي) . قال : (يُعْطىٰ مِثلَهُ مَرَّتَين ، ولو قال : ضِعفَيْ مايُصيبُ وَلَدي ، يُنْظر : إن كان أصابه مئةٌ أَعطيتَه ثلاثَمِئَة) .

ثم إليك مثالاً أخيراً ، قال تعالى :﴿ يانساءَ النبيِّ مَنْ يأتِ مِنْكُنَّ بفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لها العذابُ ضِعْفَيْنِ وكان ذلك على الله يَسِيراً ﴾ [٤] .

ثم قال تعالى في الآية التي تليها :﴿ ومَنْ يَقْنُتْ مِنكنّ لله ورسولِهِ وتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَين ﴾ [٥] .

فانـظر إلى آراء العلمـاء في الآيتين : قال الفـريق الأول :« يضـاعف لهـا العذابُ ضِعفين » معناه : تُعَذَّب ثلاثةَ أَعْذِبَة ، فقد كان عليها أن تُعَذَّبَ مرةً، فإذا ضُوعِف ضِعْفَين صار العذابُ ثلاثةَ أعذبة .

وقال الفريق الثاني : إن سياق الآية، والآيةِ التي بعدَها، دلّ على أن المراد من قوله « ضِعفَين » : « مَرّتـان » . أَلَا تراه يقول بعد ذِكر العذاب ﴿ومَن يقنتْ منكن لله ورسوله وتعملْ صالحاً نُؤْتها أجرَها مرّتين﴾ فإذا جعل الله تعالى لأمهات المؤمنين من الأجر مِثلَيْ ما لغيرهنّ تفضيلاً لهن على سائر نساء الأمة ، فكذلك إذا أتت إحداهنّ بفاحشة، عُذِّبَتْ مِثلَي

---

٣ ـ سبأ / ٣٧

٤ ـ الأحزاب / ٣٠

٥ ـ الأحزاب / ٣١

مايُعَذَّبُ غيرُها . ولا يجوز أن تُعطىٰ على الطاعة أجرَين، وتُعذبَ على المعصية ثلاثةَ أعذِبة .

بعد ماقدمتُه لك ـ ومثلُه كثيرٌ في كتب اللغة ـ تجدُ نفسَك ماتزال محتاجاً إلى تعريفٍ قاطعٍ لكلمة (الضِعْف) .

الراغب الأصفهاني في كتاب المفردات هو الذي يعطيك ماتطلُبُه ، جَلِيّاً ، لا لَبْسَ فيه ولا إبهام . يقول :

« والضِعفُ : هو مِن الألفاظ المُتَضايِفَة التي يقتضي وجودُ أَحَدِهما وجودَ الآخر، كالنِّصْفِ والزَّوْج » . يعني : أنت لا تقول: « نِصف » حتى يكون هناك نِصْفٌ آخر، ولا تقول « زوج » حتى يكون هناك زوجٌ آخرُ .

ثم يقول : « ومتى أُضيفَ إلى عَدَدٍ ، آقتضىٰ ذلك ، العَدَدَ ومِثلَه . نحوُ أن يقال : ضِعْفُ العشَرة وضِعفُ المئة . فذلك : عِشرون ، ومِئَتان ، بلا خلاف . وعلى هذا قولُ الشاعر :

جَزَيْتُكَ ضِعْفَ الوِدِّ لَمّا اشْتَكَيْتَهُ   وما إنْ جَزاكَ الضِعْفَ مِنْ أَحَدٍ قَبْلي»

هذا عن الضِعف؛ وأما عن الضِّعْفَيْنِ فيقول :

(وإذا قيل أعطِه ضِعْفَيْ واحدٍ ، فإن ذلك آقتضىٰ الواحد ومِثلَيه ، وذلك ثلاثةٌ، لأن معناه : الواحدُ واللذانِ يُزاوِجانِه ، وذلك ثلاثةٌ . هذا إذا كان الضِعفُ مضافاً . فأما إذا لم يكن مضافاً فقلت : « الضِعفَين » فإن ذلك يَجري مَجرى الزوجين ، في أنّ كلَّ واحدٍ يُزاوِجِ الآخرَ فيقتضي ذلك « اثنين » ، لأن كل واحد منهما يُضاعِفُ الآخرَ ، فلا يَخرجان عن الاثنين) .

فبين يديك إذاً ثلاثة أحكام :

١ ـ ضِعفُ الواحدِ اثنان   وضِعف الثلاثة ستة   وضِعف الأربعة ثمانية   إلخ . .
وضعف العشرة عشرون   وضعف المئة مئتان   وضعف الألف ألفان   إلخ . .
هذا حكم .

٢ ـ ضِعفَا الواحدِ ثلاثة   وضعفا الاثنين ستة   وضعفا الثلاثة تسعة   إلخ . .
وضعفا العشرة ثلاثون   وضعفا المئة ثلاثُمئة   وضعفا الألف ثلاثة آلاف   إلخ . .
وهذا حكم ثان .

٣ ـ الضعفان اثنان .

قبل حين جاءتني رسالة من دَرعا يقول مرسِلُها : مامعنى الضِعف والضِعْفَين ؟ وقد أجبتُ عن هذا .

ثم قال : مستطيل مساحته ٨٠٠ م٢ وطوله ضِعفُ عَرْضه فما هو طولُه ؟

وفي الجواب أقول : إن الضِّعف في مثالِك الذي أُوردتَه لا يمكن أن يكون إلا مِثْلَيْن حَصْراً . لماذا ؟

أولاً : لأن طول المستطيل أكثرُ مِن عرضه بالضرورة، فلا يمكن أن يكون طولُه مِثلَ عرضِه .

ثانياً : إن المستطيل لا يمكن أن يكون طولُه أمثالَ عرضِه بغير حَصر . إذ لا بد في مسائل الحساب من التحديد . وإذ قد آنْتفى المِثلُ ، وآنْتَفَتِ الأمْثال ، فلم يبقَ إلا أن يكون طولُ المستطيل مِثلَيْ عرضِه، وفي مثالك : عرضُه عِشرون وطولُه أربعون . وعلى هذا يجب أن تجري مسائل الحساب ، أخذاً بما قَرَّرَه الإمامُ الراغب :

ضِعفُ الواحد اثنان .

ضِعفا الواحد ثلاثة .

الضِعفان اثنان .

- ٥٧ -

الوالدان

كتب إلي أحد السادة المشاهدين يقول : « إن كلمة (والدة) تعني أنها وَلَدَتْ ، وابنُها يناديها ياوالدتي ، أي يامَنْ وَلَدْتِني . ولكنهم ينادون الأبَ أيضاً بكلمة (والدي) ، فهل هذه الكلمة لها المعنى نفسُه ؟ إذا كان كذلك فهذا خطأ لأن الأبَ لايَلِدُ بالطبع ».

هذا نَصُّ الرسالة على التقريب . وفي الجواب عن ذلك أقول :

يترجم العلماءُ مادّةَ (و ل د) فيقولون : (وَلَدَتِ المرأةُ - تَلِدُ - وِلادةً . .) ، إذا وَضَعَتْ حَملها من ذكرٍ أو أنثى . وقد يُتبعون هذا بالقول : (وكُلُّ حاملٍ تَلِد) .

وذلك أن الحَمْلَ ، ثم الولادة عن حَمل ، مقصورانِ على المرأة . ولهذا لايقولون : (وَلَدَ الرجلُ) بمعنى (وضع عن حَمْل) ، وإنما يقولون : وَلَدَ الرجلُ ، إذا كان المعنى (أَنسَل) .

فـ (النَسْـل) : الـولـد . و(تَنـاسـلَ بنو فلان) : إذا كَثُر أولادهم . و(تناسلوا) : أي وُلِدَ بعضهُم من بعض .

وتجدُ الشاهد لذلك في قوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بهذا البلد وأنت حِلٌّ بهذا البلد ، ووالدٍ وما وَلَد . . . ﴾[1] فإنك ترى : (وما وَلَدَ) قد استُعملت للمذكر بغير لَبْس ، والمعنى : (أَنْسَلَ) ، وليسَ (وَلَدَ عن حَمْل) !

أورَدَ أبو حيّان - صاحبُ البحر المحيط - في تفسيـر (ووالِدٍ وما وَلَد) أقوالاً مختلفة ، أنقلُ لك منها مايلي ، قال : (. . . والظاهر أن قوله ووالدٍ وما ولد لايُراد به مُعَيَّن ، بل ينـطلق على كلّ والـد - وقال مجاهد : آدم وجميع ولده - وقيل نوح وذرّيّته - وقيل : (ووالدٍ) رسولُ الله ﷺ ، (وماوَلَد) : إبراهيم - وقال الزمخشري :

---

١ - البلد/ ٣

فإن قلتَ ماالمراد بوالِدٍ وماوَلَد ؟ قلتُ : رسولُ اللهﷺ ومَنْ وَلَدَه . أَقْسَمَ ببَلَدِهِ الذي هو مسقط رأسه . وبمَنْ وَلَدَه وبه) .

وترى مِن كل ذلك أنَّ (وَلَدَ ـ يَلِدُ) تُقال للمذكر ، ولكنْ بمعنى (الإنسال) ، لابمعنى (الولادة عن حَمْل) . ومثلُ ذلك ما ترى في سورة الإخلاص : ﴿ قلْ هُوَ اللهُ أَحَـد ، اللهُ الصَّمَـد ، لم يَلِدْ ولم يُولَدْ [٢] .... ﴾، ففاعل (لم يلِدْ) ضميرٌ مذكر : (هو) ، والمعنى (لم يُنْسِل) ، وليس معناه (لَمْ يَلِدْ عن حَمْل) .

أخيراً ، أُورد لك الآية : ﴿ إنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عبادَكَ ولا يَلِدوا إلا فاجراً كَفّاراً ﴾[٣] . وفيها صِيغةُ(لايلِدوا) ، وهي لجماعةِ الذكور ، والمعنى (لايُنْسِلوا) وليس (لايَلِدوا عن حَمْل) .

هذا عن الفعل ، وأما الاسمُ فإليكَ بيانَه :

الأبُ : والد . والأمُّ : والد أيضاً ، بغير هاء ، على خلاف الأصل . وصحيحٌ أن إطلاق (الوالد) على الأمّ قليل ، ولكنه وارد . ولذلك تقول : (هذا والدي ، وهذه والدي) .

وعلى هذا ، إذا قُلْتَ (هما والدِانِ) فهذا على التحقيق ، إذ الأب والد، والأمُّ والد .

ولكنّ جماعةً من الأئمة قالوا (الأبُ : والد ، والأمُ : والدة ، وهما والدان تغليباً) . وأبيّنُ لك معنى (التغليب) :

في علم (البـلاغـة) بحثٌ يُسَمّونه : (إخراج الكلام على خلاف مُقتضى الـظاهر) ، ومعنى هذا التعريف : أن ظاهِرَ الأمر قد يقتضي هذا اللفظَ ، أو هذا القولَ ، ولكننا لسبب بلاغيٍّ نُخرِج الكلامَ على خلاف ما يقتضيه ظاهرُ القول .

أَحَـدُ فروع هذا البحث البلاغيِّ الذي يُسَمّونه (**إخراج الكلام على خِلافِ مُقتضى الـظاهـر**) يسمى (التغليب) . ويَعْنـون به إعْـطاءَ الشيء حُكْمَ غيـره ،

---

٢ ـ الإخلاص/ ٣

٣ ـ نوح/ ٢٧

وإطلاقَهُ عليه مجازاً . أي أنهم في هذه الحال يُجرون المختلِفَيْن إجراءَ المتَّفِقَيْن ، فَيُرجِحّون أحدَهما على الآخر . وهو كثيرٌ في العربية .

وذلك كَأنْ تُغَلَّبَ المذكَّرَ على المؤنث . مثالُ ذلك قولُه تعالى في مريَم بنةِ عِمران : ﴿ وصَدَّقَتْ بكلماتِ رَبِّها وكُتُبِهِ وكانَتْ من القانِتين ﴾[4] فهنا تَغليبٌ للمذكَّر على المؤنَّث ، إذْ دخلَتْ (مريمُ) في حُكْم الـذكـور على التَّغْليب . فلم يقـل تعالى : ﴿ وكانَتْ من القانتات ﴾ بل قال : ﴿ وكانت من القانتين ﴾ .

ومِثْلُ ذلك في التغليب قولهُ تعالى : ﴿ حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينَك بُعْـدَ المَشْـرقَيْن فبئْسَ القَـرين ﴾[5] فقـد قال : ﴿ بُعْدَ المشرقَيْن ﴾ ، وهما مَشْرِقٌ ومَغْرِبٌ . فهنا تَغليبٌ للمشرق ، لأنّه أشهرُ الجِهَتَين .

وفي سورة الفاتحة : ﴿ الحمد لله ربِّ العالَمين ﴾ . فكلمة ﴿ العالَمين ﴾ هنا ، تَشْمَلُ العاقِلين وغيرَ العاقِلين . وفي هذا تغليبٌ للعاقِلين .

أما الذي يُماثِلُ مسألةَ صاحب السؤال مماثَلَةً تامّةً فهو قولُه تعالىٰ : ﴿ وأمّا الغُلامُ فكان أبَواهُ مؤمِنَين ﴾[6] . ففي قوله (أَبَواهُ) تغليبٌ للأب على الأمّ . وهو كما ذكرتُ لك آنفاً بابٌ من أبواب علم المعاني في بحوث البلاغة . وهو كثيـرٌ في التنزيل العزيز وفي كلام الفصحاء .

من جميع ماتقدم نخلُص إلى مايلي :

١ ـ يُقالُ للمرأة (وَلَدَتْ ـ تَلِدُ) إذا وضَعَتْ حَمْلها مِن ذكر أو أنثى .

٢ ـ يقالُ للرجل (وَلَدَ ـ يَلِدُ) بمعنى (نَسَلَ) و (أَنْسَلَ) .

٣ ـ يقال للأمِّ والأب : (والِدان) تحقيقاً ، في رأي مَن يقول من العلماء : (الأُم والِد) بغير هاء .

٤ ـ يقال لهما : (والِدان) تغليباً ، في رأي مَن يقول من العلماء (الأُمُّ والدة) بالهاء .

---

٤ ـ التحريم/ ١٢

٥ ـ الزخرف/ ٣٨

٦ ـ الكهف/ ٨٠

- ٥٨ -

تَنَمَّرُوا لنا

إذا قلتَ إنّ الكلمة كالكائن الحي ، فإنّك لاتُبعِد في التشبيه . ومن الطريف أنّها قد تنتقل من شيء إلى آخر ، كما يتحوّل الإنسان من دار إلى دار .

قرأتُ يوماً لعالم لغوي فرنسي مثالاً لانتقال الكلمة من شيء إلى شيء ، وهو مثالٌ طريفٌ أَرويه لك .

قال مامعناه : كلمة Bureau كانت تَدُلُّ في الأصل على نوع غليظٍ من الصوف المنسوج ، فلما شرع الناسُ يُغَطّون به أثاثَ الغرف ، انتقلت الكلمة إلى الأثاث فسَمَّوْهُ Bureau .

ولأن طاولة الكتابة نوعٌ من الأثاث سمَّوْها Bureau .

ثم إن الغرفة يجلس فيها موظفون ، ولذلك انتقلت الكلمة إليهم فقالوا لموظفي الدائرة Bureau وهكذا . . .

هذا قانون عام من قوانين اللغة ، ينطبق على العربية كما ينطبق على سواها من اللغات . ولو أن علماء اللغة العربية قديمـاً أو حديثاً ، وضعوا كتاباً يرصد تطوّر المفردات ، ويسير مع كل كلمةٍ ماسارت ، يفسّر انتقالَ معناها ، ويشرح أسبابَه ، ويبيّن تطورَ استعمالها ، لكان لنا من ذلك كنز علمي لايقدر بثمن .

ولقـد حاولت أن أقتفي تطورَ كلمـةٍ من مفـردات اللغـة ، هي النون والميم والـراء . والـذي أرجـوه ألاّ أكون شاسعَ الابتعاد عن الصواب . وبعدُ فما أقوله ، لايسيء إلى اللغة في شيء ، وإنما هو رأيّ ، لكَ أن تقبله ولك أن تردّه .

الأصل أن السماءَ زرقاءُ لايُمازج زرقتَها لونٌ آخر ، فإذا رأى العربي في أوائل الخريف قطعةَ سحابٍ تمُر فيها ، ورأى لونَها يخالف لون السماء ، قال : « هذه نُمْرَة » .

والأصل أن تَلِد الفرس ، فيكونَ الغالبُ على لون وَلَدِها السوادَ أو البياض أو الشقرة إلخ . . . . وقد تكون في لونه نُكْتة[1] تخالف لونَه الغالبَ ، فإذا رأى العربي ذلك قال : « في لون المُهر نُمْرَة » . وقل مثلَ ذلك في ولد الناقة ، وفي ولد النعجة ، وفي كل شيء يراه حوله في الطبيعة . فالنكتة عند العربي من أي لون كانت هي « نُمْرَة » .

هذا هو أصل المادة في اعتقادي ، (النُمْرَة) هي الأصل . ومازلتُ أَسمع الناسَ في دمشق مذ كنت طفلاً ، ـ إذا رَأَوْا التفاحة قد تغير لونُ جزءٍ صغير منها ولم يُضِرَّ بها ـ يقولون : (التفاحة منمّرة) ، و (نمّرت التفاحة) .

أما المرحلة الثانية في تطور هذه الكلمة : فهي أنهم كان لابد لهم مِن وَصْف هذا الشيء الذي تظهر فيه (النُمْرَة) ، ليَمِيزوه من سواه . ولذلك قالوا : (جَمَلٌ أَنْمَر) و (خروف أَنْمَر) ، إذا كان فيه نكتة بيضاء وأخرى سوداء .

فإذا وصفوا الأنثى قالوا : (ناقةٌ نَمْراء) و (فرسٌ نَمْراء) وهكذا . .

فإذا رَأَوْا ذلك متفشياً في القطيع قالوا : (هذه نَعَمٌ نُمْر) ؛ أي في ألوانها بياض وسواد .

فالنُمْرَة إذاً أوّلاً ، ثم الأَنْمَر والنَمْراء والنُمْر .

ولقد رَأَوْا وحشاً مفترساً تَلزَمُه هذه النُكَتُ ولاتفارقه ، بل تكون صفةً ثابتة فيه أبداً ، فقالوا : (هذا نَمِر) . وقالوا لأنثاه : (هذه نَمِرَة) وجمعوا فقالوا : (نُمُور) .

قال صاحب اللسان : وسُمّي النَمِرُ بذلك لِنُمَرٍ فيه ، وذلك أنه من ألوان مختلفة .

بعد هذا تلي المرحلةُ الثالثة : وذلك أنهم لاحظوا أن النَمِرَ وحشٌ خبيث ، شديدُ الحقد ، شديدُ الغضب ، فإذا رأَوْا إنساناً يَمُد صوتَه متوعِّداً متهدداً ، كأنه النَمِر المتهيّىء للافتراس ، قالوا : (تَنَمَّرَ فلان) . قال صاحب القاموس : (تَنَمَّرَ : تَمَدَّدَ في الصَوت عند الوعيد وتَشَبَّهَ بالنَمِر) .

---

١ ـ النكتة : كالنقطة .

وإذا كانـوا استعملوا كلمـة (تَنَمَّرَ) للغضب والتوعد والتهديد ، فإنهم ظلوا يستعملونها بمعنى اختلاف الألوان أيضاً . قال عمرو بن معد يكرب :

قومٌ إذا لبسوا الحديـــدَ تَنَمَّروا حَلَقاً[٢] وقِدّا[٣]

فقالوا في معناه : تَشَبَّهوا بالنَمِر لاختلاف ألوان القِدِّ والحديد .

ثم تطور استعمـال المادة تطوراً رابعاً . وإليك البيانَ : قالوا : كانت ملوك العرب ، إذا جلست لقتل إنسان ، لبستْ جلود النَّمِر ، ثم أَمَرَتْ بقتل مَنْ تريد قتلَه . فمِنْ لُبْس جلود النَّمِر على الحقيقة إذاً ، نشأ التطور الرابع . وتجده واضحاً أحسن الوضوح في السيرة النبوية لابن هشام . قال : خرج رسول الله ﷺ ، من المدينة عام الحُدَيْبِيَة ، يريد زيارة البيت ، لايريد قتالاً . فبعثت إليه قريش عُروة بن مسعود ، فأتى رسولَ الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال : (يا محمد أَجَمَعْتَ أَوْشابَ الناس[٤] ، ثم جئت بهم إلى بَيْضَتِـك[٥] لِتَفُضَّهـا بهم[٦] . إنهـا قريش قد خرجت معها العُوذُ المَطافيل[٧] . قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عَنوةً أبداً) .

قال : (قد لبسـوا جلود النمـور) مع أنهم لم يَلبَسوها على الحقيقة ، ولم يخرجوا لحربه أصلاً . وإنما هي الكناية عن الغضب وشدة الحقد ، تشبيهاً بأخلاق النمر وشراسته .

هذا هو التـطور الرابع في استعمال هذه المادة . وأورد لك مثالاً آخر لهذه المـرحلة اخترته من العصر الأموي : قيل إن عبد الملك بنَ مروان نظر وهو يجود بنفسه إلى ابنه الوليد يبكي عليه عند رأسه فقال : (ياهذا ، أحنين الحمامة ؟ إذا أنا

---

٢ ـ الحلق : الدروع .
٣ ـ القد : جلد كانوا يلبسونه في الحرب .
٤ ـ أوشاب الناس : أخلاطهم .
٥ ـ بيضتك : أهلك وقبيلتك .
٦ ـ تفضها : تكسرها .
٧ ـ يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والأطفال ، وإنما كانوا يفعلون ذلك إذا أرادوا الاستقتال ، لأنّ رؤيتهم أطفالَهم ونسـاءَهم تزيدُ في حميّتِهم فيقاتلون مستقتلين .

متّ فشمِّرْ واتّزِرْ ، والبَسْ جلدَ النمر ، وضَعْ سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذاتَ نفسه لك فاضربْ عنقَه ، ومن سكت مات بدائه) .

البحث في تطوّر الكلمة ينتهي هنا ، ولكنني أحببت أن أقول في ختامه : إن كتاباً في قواعد اللغة العربية[8] ، أتى بمثال للجملة الواقعة جواباً لـ (لولا) فقال : (لولا بأسنا لتنمروا علينا) . ومِن حقّنا أن نسأله : من أين أتيت بـ (تنمروا علينا) ؟ هذا استعمالِ من مخترعاتك . العرب لم يقولوا : (تنمّروا علينا) بل قالوا : (تنمروا لنا) قال الأصمعي : (وتنمّر له : تنكّر وتغيّر وأوعده . لأن النمر لايُلقىٰ إلا متنكراً غضبان) .

وأُورِدُ لك هذا الاستعمال في نصٍّ أُمويّ . قال الديال بن حرملة ، وقد دخل مكة فيمن دخلها من رجال المختار بن أبي عُبيد الثقفي لقتال ابن الزبير : « فما شَعَرَ ابنُ الزبير إلا والرايات تخفق على رأسه . . . . فقال ابن الحنفيّة : لاتقاتلوا إلا مَنْ قاتلكم . فلما رأى ابنُ الزبير تَنَمُّرَنا له ، وإقدامنا عليه ، لاذَ بأستار الكعبة ، وقال : أنا عائذ الله » .

اللغـةُ لاتكـون اختراعاً ، اللغةُ تراث . القرآن الكريم يقول : ﴿ ولمّا بَرَزُوا لجالوت ﴾[9] فهل تقول : (ولمّا بَرَزُوا على جالوت) ؟ وامروُ القيس يقول : (فقلت له لما تمطّى بصلبه) فهل تقول : (فقلت عليه لما تمطّى بصلبه) ؟ والعرب تقول : (تَنَمَّروا لنا) فلا تقُلْ إذاً : (تنمّروا علينا) . فاللغة تراث ، رواية وتقييد ، وليست مخترعات !!

---

٨ ـ هو كتاب في جداول ولوحات .
٩ ـ البقرة / ٢٥٠ .

الطبيـــــب

يترجم ابن فارس مادة الطاء والباء المشددة فيقول : « الطاء والباء أصلان صحيحان ، أحدُهما يدل على عِلم بالشيء ومهارةٍ فيه » . وسنبحث في هذا الأصل وحدَه ، إذِ الأصلُ الآخرُ لا علاقةَ له بما نحن فيه اليوم .

فالطِبُّ إذاً ـ في الأصل ـ لا يدل على معالجة المَرضى ، وإنما يدل على العلم والمهارة .

فإذا تَقَرَّيْتَ سَببَ استعماله مِن بعدُ في معنى علاج الأجسام والنفوس ، فإنك لا تُبْعِد إذا قلتَ إن ما تحتاج إليه معالجةُ المرضى مِن علمٍ بالجسم وصحتِه واعتلالِه ، ومهارةٍ في وصْف الدواء لكل داء ، قد قاد إلى استعمال مادة الطبِّ في علاج المرضى ، وإنْ كان أصلُ معناها العلمَ والمهارة . وأما الشواهد على ذلك فكثيرة : فقد استعمَلوا كلمة (الطب) بمعنى السِحر : وذلك أن الساحر لا يَتِمُّ له مايريد من سِحْرِ أَعْيُنِ الناس إلا بالحِذق البليغ ، والمهارةِ الفائقة ، والإدراكِ العلميّ لبعض أسرار الطبيعة . قال أبو القيس بنُ الأَسْلَت يهجو حَسانَ بنَ ثابت :

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ حَسّانَ عَنِّي ... أَطِبٌّ كان داءَكَ أَمْ جُنُونُ[1]

واستعمَلوا الطب بمعنى العادةِ ، والعادةُ والمهارةُ لا تفترقان ، قال الشاعر يعتذر من الهزيمة :

فإنْ نَغْلِبْ فَغَلاّبونَ قِدْماً ... وإنْ نُغْلَبْ فَغَيْرُ مُغَلَّبينَا[2]

وما إنْ طِبُّنَا جُبْنٌ ولكنْ ... مَنَايَانَا ودَوْلَةُ آخَرينَا

ومع أن استعمال الطب بمعنى العادة وارد ـ كما رأيتَ ـ ، ومع أن العادة والمهارة لا تفترقان ، إذ كلٌّ مِنهما سبيلٌ إلى الآخر ، فإن ابن فارس عابَ هذا

١ ـ البيت من شواهد النحو وله روايات أخرى .

٢ ـ لانغلب مراراً .

المعنى ؛ فقد رأى اللغويِّين يقولون : « ماذاكَ بِطِبِّي » معناه « ماذاك بعادتي » ، فقال مانَصُّه الحرفيُّ : « ليس بشيء ؛ إنما معناه : ماذاك بالأمر الذي أُمْهُرُه ، ماذاكَ بالأمرِ الذي أَقتُله عِلماً » اهـ . فتراه يُصِرّ على أن الطب هو العلم والمهارة .

واستعمَلوا الطب بمعنى علاج النفس . لما يحتاج إليه ذلك مِن العلم والمهارة . قال عليٌّ كرّم الله وجهَه ، يشكو تقاعُسَ المقاتلة معه : « أصبحتُ والله لا أُصدِّق قولَكم ، ولا أَطمَعُ في نَصْرِكم ، ولا أُوعِدُ العدوَّ بكم ، مابالُكم مادَواؤكُم ماطِبُّكُم »؟

ومِن هنا كان إطلاقُهم كلمةَ الطَبِّ والطَّبيب ـ وهما بمعنىً واحد ـ على الساحر ، وعلى المتأنّي المترفِّق ، وعلى مَن يعالج المرضى ، وعلى الخبير ؛ وذلك لما يَنْطَوي عليه هؤلاء مِن علمٍ وحِذْق ومهارة . قال الجوهريّ في الصحاح : « وكلُّ حاذقٍ طبيبٌ عندَ العرب » . ويمكن أن نُضيف إلى قول الجوهري كلمةً فنقول : « وكلُّ حاذقٍ طَبٌّ أو طبيب عند العرب » .

فقد استعملوا كلمة (الطَبّ) في معنى المترفق بالأشياء والمتبصر فيها ؛ وإنما يترفَّق ويتبصَّر مَن خَبَر الأمورَ ، وعرَف مايجب لها ، ومايُتَناهىٰ عنه منها ؛ ولذلك قالوا : « هذا جَمَلٌ طَبٌّ » إذا كان يتعاهد موضعَ خُفِّه أينَ يطأ ، ولا يَخْبِط خبطَ الأعشى . قال الشاعر :

لا يَرِبْكِ الذي تَرَيْنَ فإنّ الـلّـ ـهَ طَبٌّ بما تَرَيْنَ عَليمُ

اللهُ طَبٌّ ، أي اللهُ طَبيبٌ ، أي اللهُ عليم .

وقال أوسُ بنُ حَجَر :

فهل لَكُمُ فيها إلَيَّ فإنّني طبيبٌ بما أَعْيىٰ النِّطاسِيَّ[3] حِذْيَمَا[4]

وقال عَلْقَمَةُ الفحلُ ـ ولم يكن مِن أطباءِ الأمراض النِّسائية !!

---

٣ ـ العالم الشديد النظر في الأمور .
٤ ـ حِذيم أو أبو حِذيم : كان متطبّباً عالماً .

فإنْ تَسْأَلُوني بالنِّساءِ فإنّني بَصيرٌ بأدْواءِ النِّساءِ طَبيبُ

(طبيبٌ) هنا : عالمٌ حاذق . وعنترةُ يقول ـ ولم يَكُ طبيباً ـ

إنْ تُغْدِفي[5] دُونِيْ القِناعَ فإنّني طَبٌّ بأَخْذِ الفارسِ المُسْتَلْئِمِ[6]

خَطَبَ عليٌّ كرم الله وجهه فقال يَصِفُ رسولَ الله (ﷺ) : « طَبيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّه[7] ، قد أَحْكَمَ مَراهِمَه وأَحْمىٰ مَواسِمَه »[8] .

وبعد فإن الذي ساق إلى هذا الحديث أنني كنتُ قبل حينٍ في مكتبة الأسد الوطنية أستمع إلى مايُلقىٰ من كلمات بمناسبة مرور ٦٠٠ سنةٍ على وفاة الشاعر (حافظ الشيرازي) وإذا أحدُ السادة المدعوّين يَدُسُّ في يدي ورقةً فيها : (أن مَن حاز في بلادنا شهادةً في الطِب يَكتُب على اللافتة (عيادة الدكتور فلان) ، فما أصلُ كلمةِ دكتور وكلمةِ طبيب ، وما الفرقُ بينهما) ؟

فأما كلمةُ (طبيب) فعربيةٌ . وقد بسطتُ القولَ فيها . وأما كلمة (دكتور) فقد اضطرّني فِقْهُها إلى أن أرجع إلى الموسوعة الفرنسية ، والموسوعة الإنكليزية ، وأن أُسائِل ذَوي عِلمٍ باللاتينية ، إذْ منها أَخَذَتِ اللغتان هذه الكلمة .

ومِنَ اللطيف أن كلمة Doctor لم تكن لها في الأصل علاقةٌ بالطبّ ، فهي مشتقةٌ من المصدر اللاتيني Doctum ، ومعناه : التعليم ، ومعنى Doctor ، معلِّم . ولكنّ الكلمة أصابها التطورُ فأُطلقت مِن بعدُ على كل مَن بَلَغ مرتبةً عاليةً في العِلم ، أو المهارةِ والحِذق .

فقد أُطلقت كلمةُ Doctor مثلاً على الأساتذة الذين يُدرِّسون العسكريين فَنَّ الحرب . وأُطلقت على القِسِّيس العالِمِ باللاهوت ، إذا كان ذا سُلطةٍ في الكنيسة .

---

٥ ـ إن ترسلي قناعك .

٦ ـ الذي لبس أداة الحرب .

٧ ـ قال ابن أبي الحديد : لأن الطبيب الدوّار أكثر تجربة .

٨ ـ المواسم والمياسم بمعنى واحد ، والمفرد مِيْسَمْ : وهو المِكواة يكوي بها الأطباءُ مواضعَ الداء .

ثم أطلقت مِن بعدُ على كل مَنْ يحوز أعلى مرتبةٍ علميةٍ جامعيةٍ، ولذلك يقولون مثلاً : Docteur en philosophy دكتور في الفلسفة . و Docteur ès lettre دكتور في الأدب . و Docteur en geography دكتور في الجغرافية . وهكذا. . .
وأما في الطِبِّ فإذا كان الطبيبُ غيرَ متخصص قيل هو Medecin ولا يقولون هو Docteur . فإذا تَخَصَّص فحازَ أعلى مرتبةٍ علميةٍ جامعيةٍ في الطب، فإنهم يقولون هو Docteur en medecine

أما عندنا فهذا الفَرق غيرُ واضح اليوم. ولذلك نقول : فلانٌ طبيب أو فلانٌ دكتور، فلا نُفرّق في كل حال . ومن الطريف أن الفرنسيّ غيرَ المثقف يقول أيضاً : فلان دكتور فلا يفرق في كل حال.

وأما المثقف من الفرنسيين فيقول عن الطبيب : Medecin ، ويقول عن المتخصص الحائز مرتبةً جامعيةً عاليةً في الطبّ : فلان Docteur en medecine

فالطبيبُ إذاً مَنْ لم يَتخصّص، وفي الفرنسية Medecin .

والدكتور في الطب هو المتخصّص، وفي الفرنسية Docteur en Medecine

- ٦٠ -

أسلوب الاختصاص

لكل لغةٍ خصائصُها ، ولكل لغةٍ أساليبُها في التعبير . وهي خصائصُ وأساليبُ تخلُقها ضرورات التعبير عن مكنونات النفوس ، ثم يتناقلها أبناء اللغة جيلاً عن جيل . فالتركيب يأخذ هذا الطريق أو ذاك ، لأن المتكلم أحسّ أن هذا التركيب أو ذاك ، هو الأقدر على أن ينقل ما في نفسه إلى عقول الآخرين ونفوسهم . ثم ينظر اللغويون في ذلك التراث ، فيقعّدون القواعد ، ويبنونها على ما وجدوا في تراثهم من أساليب . فلكل لغةٍ قواعدُها ، لأن لكل لغة أساليبَها في الإفهام والتعبير .

مثال ذلك أننا نقول في العربية : (نحن نحب إكرام الضيف) . ولكنّك حين تقول ذلك تترك المعنى سائباً ، وتترك لسائل أن يسأل : مَن المقصود بقولك : (نحن) ؟ وهذا الحكمُ بِحُبّ الإكرام مختصٌّ بمن ؟

لقد نشأت المسألة هنا من أن الضمير (نحن) يخالطه إبهام ، ويحتاج إلى توضيح . ولذلك يُضْطَرّ المتكلمُ إلى التخصيص والتوضيح ، فيقول مثلا : (نحن ـ العرب ـ نحب إكرام الضيف) ؛ فيأتي بعد الضمير باسمٍ معناه معنى الضمير : (نحن = العرب) ، ليزيل ما في الضمير من إبهام .

ولو أنعمتَ النظر في هذا التركيب ، لوجدت أن المتكلم يريد أن يقول أصلاً : (نحن ـ أخص العرب ـ نحب إكرام الضيف) ، ولكـنَّ حرص العربي على الإيجاز ، هو الذي أغراه بحذف كلمة (أخصّ) فقال : (نحن ـ العرب ـ نحب إكرام الضيف) . هذا أسلوبٌ من أساليب العربية في البيان وإيضاح القصد .

وانظر في هذا التركيب إلى لُطف الأداء ولُطف العِلّة !! فأمّا لطف الأداء فمستكنٌّ في هذا الحذف ، فهم يحذفون كلمة (أخصّ) وجوباً ، إذ يمكن الاستغناء عنها بإظهار مفعولها منصوباً (العربَ) ، والبلاغة الإيجاز .

وأما اللطف في العِلة ، في السبب ، فهو غموض الضمير (نحن) وإبهامُه ،

وحاجتُه الى ما يوضحه . ولذلك لا يستعملون هذا الأسلوب إلّا بعد ضمير .
نعم ، لا يستعمِلون هذا الأسلوبَ إلّا بعد ضمير .

وألطفُ من هذا وذاك ، أنّ كلمة (العربَ) التي ينصبونها على الاختصاص ، لا بد من أن تكون معرفةً ، لتستطيع إزالة الغموض والإبهام في الضمير . إنهم لا يجيزون في هذا الأسلوب استعمال النكرة ، لأنها بكونها نكرة ، عاجزة أن تزيل غموض الضمير وإبهامَه . فإذا قلتَ مثلاً : (نحن ـ عرباً ـ نحب إكرام الضيف) ، قالوا لك : هذا ليس أسلوب اختصاص .

قدّمت بذلك لأقول : إن عدداً من السادة المعلمين في حلب ، كتبوا إليّ يقولون : « في حلب مدرستان اسمهما واحد ، إحداهما جابر بن حيان للبنين ، والأخرى للبنات » . قالوا : « نحن نكتب مدرسة جابر بن حيان ـ بنين » فهل يجوز أن ننصب كلمةَ (بنين) على الاختصاص ؟ .

وأنا أقول : إن هذا الذي تقولون ليس داخلاً في بحث الاختصاص . فأين الضمير وما فيه مَن إبهام وغموض ؟ ثم أين التعريف في كلمة (بنين) ؟ وهو تعريف يُؤتى به ليزيل ما في الضمير من غموض وإبهام . هذا لا علاقةَ له بأسلوب الاختصاص . ولمزيدِ بيان ، ومزيدِ فائدة ، أختم هذه الحلقة بعبارة مُعْرَبة ، تشتمل على تركيب اختصاص .

(نحن ـ العرب ـ نحب إكرام الضيف)

إعراب المفردات :

(نحن) : ضمير ، مبتدأ .
(العرب) : اسم منصوب على الاختصاص بفعل محذوف تقديره (أخصّ) .
(نحب) : فعل مضارع ، والفاعل ضمير .
(إكرامَ) : مفعول به .
(الضيف) : مضاف إليه .

إعراب الجمل :

(نحن نحب) ابتدائية .
(نحب) خبر (نحن) .
(أخصّ العربَ) المحذوف فعلها ، اعتراضية .

- ٦١ -

الفعل : في التذكير والتأنيث

حياةُ العربي في جاهليته حياةٌ خشنة قاسية . وقد شاركت المرأةُ الرجلَ خُشونةَ تلك الحياة ومشقَّتَها . كلٌّ حَمَلَ من أعبائها ما مَكَّنَتْهُ طبيعتُه .

صَحيحٌ أنَّ الحرب كانت تُقَتِّلهم وتُقَطِّعُ أعضاءَهُم ، ولكنْ صحيحٌ كذلك أَنَّ أكبادَهُنَّ كانت تَتَقَطَّعُ حسراتٍ على من يُقتَلُ أو يُصابُ من أبٍ أو أخٍ أو زوجٍ أو ولد .

وَنَعَمْ كان الرجلُ يغدو بإبله ويَروحُ بها ، يَرْتادُ لها المرعى في الحر والقُرّ ، ولكنَّ المرأةَ كانت تقوم على شؤون الحياة في الخيمة ، تُرضِعُ الطفلَ وتَحْلِبُ الماشيةَ وتُوقِدُ النار وتُعِدُّ الطعام ، حتى إذا راح الرجلُ إلى الخيمة أَنْسَتْهُ الحياةُ المُلَيَّنَةُ ما كان لاقى في نهاره من الشَظَف .

حياةٌ مُشتَرَكة : كلٌّ يحمِلُ من أعبائِها ما هَيّأتهُ الطبيعة له . هو يَفْعل ، وهي تفعل ، لافاضلَ ولا مفضول ، بل تساوٍ في حُلو الحياة ومُرّها .

ومع كل ذلك ، فإنّ اللغة لم تَعْدِل بين المذكَّر والمؤنّث ، فهي لم تَترك للمرأة أن تَسْتقِلَّ بالتعبير عن نفسها إلا في حالتين فقط . وأمّا في غير هاتين الحالَتَيْن فإمّا أن يُشاركها الرجلُ حقَّها ، وإمّا أن يستأثر بالتعبير .

وقبل أن أَبسُط القول في ذلك أقول : المؤنثُ ، إمّا حقيقيٌّ مثل (زينب) ، وإمّا غيرُ حقيقيٍّ مثل (الشمس) . فالشمسُ ليست مؤنثاً حقيقياً ، لأنها لا مذكَّرَ لها . وإنّما اصطلح الناسُ على تأنيثها ، فقالوا : (هذه الشمس) و (طلعتِ الشمس) اصطلاحاً .

وَلْنبدأِ البحث : الأصلُ أَنْ تُذَكِّرَ الفعل إذا كان الذي يَفعَلُه مذكَّراً ، فتقول : (جاء اليوم خالد) ، وأن تُؤنِّث الفعل إذا كان الذي يَفْعَلُه مؤنَّثاً فتقول : (جاءتِ اليومَ زينب) .

ولكنّ اللغة أجازت لك أن تقول : (جاء اليومَ زينب) . ولم تجعل التأنيثَ مع المؤنَّث واجباً إلا في حالتين ، أُبَيِّنُهما لك : مثالُ الحالةِ الأولى أن تقول : (زينبُ جاءَت) و (الشمسُ طَلَعَت) . فالتأنيث هنا واجب ، ولا فرق بين أن يكون المؤنث حقيقياً أو غير حقيقي . هنا لا يجوزُ لك أن تقول : (زينبُ جاءَ) (والشمسُ طلع) . لماذا ؟ قالوا : لأَنَّ الاسم المؤنَّث تَقَدَّم على فِعْله غير أنّ قولهم هذا يُعَبِّر عن واقع ، يُعَبِّر عن قاعدة ، ولكنّه لا يَكشِف عن سبب مُقنع أو عِلَّة مُسوِّغة لوجوب التأنيث .

ولقد أَنعَمتُ النظر ، فوقعتُ على سبب منطقي لهذا الوجوب ، أُذكره لك ، لعلك ترضاه كما رضيتُه ، وإلَيْكَه :

إذا خاطبتَ من يستمع إليك ، فقلتَ له ابتداءً : (زينبُ) أو (الشمسُ) ، تَقَرَّرَ في ذهنه أنّك بصدَدِ الحديث عن مؤنَّث ، فإذا تابَعْتَ كلامَك فأَخبَرتَ عن هذا المؤنث بفعلٍ مذكَّر ، فقلتَ : (زينبُ جاء) أو (الشمسُ طلع) ، فإنك تُلَبِّسُ على المستمع ، إذ تُخْبِر عن المؤنَّث بخبر هو للمذكر . لذلك في ـ اعتقادي ـ أَوجَبوا أَنْ تُؤنِّث الفعل إذا جاء بعد المؤنَّث . هذه هي الحالة الأولى ، وقد بيَّنْتُ لك شرطَها .

وأمّا الحالةُ الثانية ، فهي أن يأتـي المؤنَّثُ الحقيقيُّ بعد الفعل رأساً بغيـر فاصل ، وذلك أَنْ تقول : (جاءت زينب) . هنا يجب التأنيث أيضاً ، يجب أن تقول : (جاءت) . لماذا ؟ لأن الفاعل وهو (زينب) ، مؤنثٌ حقيقيّ ، غير منفصل من فِعله بفاصل . فهذه الحالةُ إذاً لها شرطان لا شرطٌ واحد :

أوّلُهما أن يكون المؤنّثُ حقيقيّاً مثلَ (زينب) . فإذا كان مؤنثاً غيـرَ حقيقيّ ـ كالشمس مثلاً ـ جاز لك أنْ تقول : (طَلَع الشمس) ، فتذكّر الفعل .

وثانيهما ألاّ يَفصِل بين الفعل وفاعله فاصل . فإذا فَصل بينهما فاصل جاز لك أن تقول : (جاءَ اليومَ زينب) ، ومنه قول الشاعر :

إنّ امْـرأً غَرَّهُ منكنَّ واحــدةٌ ... بَعْـدي وبَعْدَكِ في الدنيا لَمَغْرورُ

فقد كان الأصل أن يقول الشاعر : (غرّتْه واحدة) ، ولكنّه ذكّر فقال : (غرّه) ، لأنّ (منكنّ) فَصَلت بين الفعل : (غرّ) ، والفاعل : (واحدة) .

هذا هو جوهر البحث ، وأُوجزُه لك :

يجب تأنيثُ الفعلِ في حالتين ، أولاً : أن يتقدم الاسمُ المؤنثُ على فعله : (زينبُ جاءت) و (الشمسُ طلعت) . ثانياً : أن يكون الفاعل مؤنّثاً حقيقيّاً ، غيرَ مفصول من فعله .

وأمّا في غير هاتين الحالتين ، فإنّك لو ذكّرْتَ في كُلِّ الكلام لما أخطأتَ . لأنَّ الفعل إمّا أن يكون واجبَ التذكير ، وإمّا أنْ يكون جائزَ التذكير ، فذكِّرْ في غير الحالتَيْن اللتين ذكَرْتُهُما لك ولا تخشَ الخطأ .

البحث ينتهي هنا ، ولكن تبقى ملاحظةٌ مفيدة تتعلق بالجموع ، لابأسَ بذكرها ، وهي أنهم قالوا : ذكِّرْ مع جمعِ المذكرِ السالم ، فقُلْ : (جاءَ المعلّمون) ، وأنِّثْ مع جمع المؤنث السالم ، فقلْ : (جاءتِ المعلماتُ) . وأمّا مع الجموع الأخرى فَلَكَ الخِيار ، ذكّرْ أو أنّثْ :

الرجال : ليسَ جمعَ مذكَّرٍ سالماً بل هو جمعُ تكسير . ولذلك يجوزُ لك أن تذكِّرَ الفعلَ معه وأن تؤنّثه . ولذلك قُل : (جاء الرجال) و (جاءت الرجال) .

والقوم : ليسَ جمعَ مذكَّرٍ سالماً وإنما هو يَدُلُّ على جمعٍ ، هو اسمُ جمع ، وقد جاء في سورة الأنعام : (وكذَّبَ به قومُكَ وهو الحق)[1] ، فَذَكَّرَ . وجاء في سورة المؤمن : (كَذَّبَتْ قبلَهم قومُ نوحٍ والأحزابُ من بعدِهم)[2] ، فأنَّثَ .

والبنات : ليسَ جمعَ مؤنثٍ سالماً بل هو ملحقٌ بجمع المؤنثِ السالم ، ولذلك يجوز لك أن تُذكّر وأَن تؤنّث ، ولذلك قُلْ : (جاءتِ البناتُ ، وجاءَ البناتُ) ، وهكذا . . .

---

١ ـ الأنعام / ٦٦ .

٢ ـ المؤمن / ٥ .

ذكِّرْ مع جمعِ المذكر السالم ، وأنِّثْ مع جمع المؤنث السالم .

وأمّا الجموع الأخرى فيجُوز لك فيها التذكيرُ والتأنيث[٣] .

ولكيلا يقال إنّ في البحث نقصاً أَقول : إنّهم أجازوا التذكيرَ والتأنيثَ بعدَ (نِعم وبِئس) . ولذلك يجوز أَنْ تقول : (نِعْمَ الفتاةُ زينبُ) ، ويجوزُ أنْ تقول: (نِعْمتِ الفتاةُ زينبُ) .

و أمّا سائرُ الأحوال الأخرى في الكلام العربي ، فالتذكيرُ فيها واجب .

---

٣ ـ ماذكرته لك هو مذهب البصريين . وأما مذهب الكوفيين فعلى تجويز التذكير والتأنيث في كل جمع بغيرِ استثناء . على أن لأبي على الفارسي رأياً ثالثاً ، هو أن التذكير والتأنيث في الجموع جائزان ، إلا جمع المذكر السالم فلا يجوز فيه الا التذكير .

ويتبين من عرض الآراء الثلاثة أن مذهب الكوفيين فيه يُسْرٌ عظيم ، وأن الأخذ به عند تعليم الطلاب ، فيه تيسير عليهم عظيم .

- ٦٢ - ٦٣ -

الآن

قبل حين ، أتتني رسالة من محافظة حماة ،حول كلمة (الآن) ، وقد وردت في بيت من الشعر ، لشاعر واسع الشهرة ، تغنّيه مطربة لايجهلها عربي .

ولقد منعني حرصي على تجنب ذكر أسماء الناس ، مِن أن أورد كلماتِ الشاعرِ نفسَها ، فأكونَ كأنني ذكرت اسمه . فعمدت إلى التركيب المسؤول عنه ، فَمثّلتُ له بمثال يطابقه تركيباً ووزناً وقافيةً ، حتى كأنه هو ، وذلك قولي :

(آنَ الصخرُ يُحْتَفَرُ) .

فالتركيبان متطابقان ، ووزنهما العروضي لم يتغير ، وكذلك القافية . وإنما الاختلاف بينهما في الكلمات وحدها .

في الرسالة سؤالان :

السؤال الأول : أيجوز أن تكون كلمة (آن) ظرفَ زمان منصوباً في قولنا : (آنَ الصخر يحتفر) ؟

وفي الجواب أقول : إن كلمة (آنَ) بغير ألف ولام ، لاتستعمل في العربية ظرفاً أبداً . إذا استُعملت ظرفاً ، فلا بد من أن تَدْخلها (الـ) فتقول (الآن) . هذا لامفر منه . لاتُعَنِّ نفسَك إذاً بالبحث عن صحة استعمالها ظرفاً للزمان في قولك : (آنَ الصخرُ يحتفر) . قبل أن تُعَنِّيَ نفسَك بذلك ، انظر : أفيها ألف ولام أم لا ؟ فإذا كانت الألف واللام داخلة عليها فابحث في ظرفيتها ، وأما إذا لم تدخلها الألف واللام فارْدُد ظرفيتها بغير تردد . في هذا إجماع بين العلماء ، حتى لقد سمَّوا هذه الألف واللام فيها زائدة لازمة .

فأما أنها زائدة فلأنها ليست من أصل مادة الكلمة . وأما أنّ زيادتها زيادة لازمة ، فلأنّ (الـ) لاتنفكُّ من هذه الكلمة مادامت ظرفاً للزمان . أنت تقول مثلا (جاء الولد) . (الـ) هنا للتعريف ، وهي زائدة ، ولكنّ زيادتها ليست لازمة ، بدليل أنك تُسقطها عند التنكير فتقول : (جاء ولد) . ولكنّ هذا الإسقاط

لايجوز في كلمة (الآنَ) . ولذلك تقول : (جئت الآنَ) ، ولاتقول : (جئت آنَ) . فإذا سأل سائل : أهذه الزيادة اللازمة مقصورة على (الآنَ) وحدها ؟ قلنا له لا ، بل لها نظائر . مِن ذلك مثلا (الذي والتي) : الاسمان الموصولان ،فزيادة الألف واللام فيهما زيادة لازمة .

وإليك مثالاً آخر : لفظَ الجلالة (الله) فالألف واللام لاتفارقه . فأنت لاتقول (لاه) بل تقول (الله) ، مع أنّ هذه الألف واللام فيه ، ليست من أصل الكلمة ، بل هي زائدة ، ولكن زيادتها زيادةٌ لازمة . وكذلك الحال في (الآن) . ولذلك تخطىء إذا أعربتَ كلمة (آنَ) ظرفاً للزمان في قولك (آنَ الصخر يحتفر) .

الآن : اسم للوقت الحاضر الذي أنت فيه . و(الـ) فيه زائدة زيادة لازمة ، وليست للتعريف . لأنها لو كانت للتعريف لجاز إسقاطها .

لقد ذكرتُ آنفاً أنّ العلماء يُجمِعون على هذا ، فلا اختلاف بينهم فيه . وإنما الذي يختلفون فيه ، تلك الفتحة التي تصحب آخر كلمة (الآنَ) . فالاختلاف إذاً بينهم في آخره وليس في أوّله .

ففريق منهم يقول إنّ هذه الفتحة في آخر كلمة (الآنَ) تلزمه ولاتفارقه أبداً . ومعنى ذلك بلغة النحويين أنّ (الآنَ) كلمة مبنيّة ، لايتغير آخرها . ولذلك تقول : (جئتُ الآنَ ، وانتظرتُك إلى الآنَ ، وسأصبر من الآنَ فصاعداً ، وأقرأ منذُ الآنَ ، وحتى الآنَ) ، وهكذا . . . وقد مثّل سيبويهِ لبنائها فقال : (مِن الآنَ إلى غدٍ) ، ومثّل الخليل بن أحمد لبنائها فقال : (من الآنَ نحن نصير إليك) . وقال الشاعر :

أَإلـىٰ [1]الآنَ لايَبِينُ آرعِـواءٌ لكَ بعـدَ المشيبِ عن ذا التَّصابي

وقد تساءل النحاة عن سبب مجيء هذا الاسم مبنياً . وكان لهم في ذلك آراءٌ ، أنقل لك منها شيئاً .

قال الزمخشريّ مامعناه : إنّ حَقّ الاسم أصلاً في أوّل أحواله ألاّ يكون فيه ألف ولام . ثم يَحتاج المتكلمُ إلى تعريفه فتلحَقه الألف واللام . ولكن

١ ـ بدأ يشيع في الكتب المدرسية أن همزة الاستفهام في الإملاء تُعَدّ من أصل الكلمة ، وعلى هذا يكتبون هذه الكلمة : (أإلى) .

كلمة (الآن) خالفت الأسماء في ذلك ، فوقعتْ في أوّل أحوالها بالألف واللام فكان ذلك سبباً في بنائها .

أما الفريق الآخر فيقول مامعناه : إنّ العرب تَنصِب هذه الكلمة فتقول : (الآنَ) ، إذا جاءت في الكلام ظرفاً ، ويَجُرّونها بالكسرة إذا سبقها حرف جر فيقولون : (مِن الآنِ) مثلا ، ولذلك لانعُدّها اسماً مبنياً ، بل نعدّها اسماً معرباً ، يُرْفَعُ بالضمة ويُنصب بالفتحة ويُجر بالكسرة . قال السيوطي : (المختار عندي إعرابُه) . وعَلّل فقال : (لأنه لم يثبت لبنائه علةٌ معتبرة ، فهو منصوب على الظرفية ، وإنْ دخلَته « مِن » جُرَّ) .

وبعدُ فالقولان واردان ، ولكنّ الأكثر أنه ظرف مبني على الفتح . فإذا لم يدل على الظرفية ، بل استعمل بمعنى الحين أو الوقت أو الأوان ، فإنك تُعربه . فقد جاء عن العرب قولهم : (آنَ آنُك) ، أي : حانَ حينُك . كما يقال : (جاء وقتُك) . وجاء عنهم قولهم : (الآنُ آنُك إنْ فعلت) أي : الوقتُ وقتك إنْ فعلت . وترى كلمةَ (الآن) في المثالين معربة ، لأنها فيهما ليست بمعنى الظرف ، بل هي بمعنى الوقت والحين والأوان .

البحث في كلمة (الآن) ينتهي هنا . وأما مايلي فنماذج مِن تَلَعُّب العرب بهذه الكلمة .

قال عنترة بن شداد :

وقد كُنتَ تُخفي حبَّ سَمْراءَ حِقبةً ... فَبُحْ لانَ منها بالذي أنتَ بائحُ

قال : (فَبُحْ لانَ) ، أي : (الآن) ، فحذَفَ همزتيها وفتح لامَها .

وقال أبو صخر الهُذلـيّ :

لِلَيْلى بذات البَيْن[2] دارٌ عَرَفْتُها ... وأُخرى بذات الجَيْش[2] آياتُها[3] عُفْرُ[4]

كأنّهما مِلآنَ لم تَتَغيّرا ... وقد مَرَّ بالدارَيْن مِن بعدِنا عَصْرُ

---

٢ ـ موضع .

٣ ـ الآية : العلامة ، يريد مابقي من ديارها .

٤ ـ مغبرة .

قال : (مِلآنِ) ، أي : (مِن الآنِ) ، فحذف النون من كلمة (مِن) ، وحذف الألف من كلمة (الآن) ، وجرها بالكسرة . وقد قلنا : إنّ فريقاً من النحاة قال بإعرابها ، ومن ذلك جَرُّها بالكسرة .

وقال الشَمَرْدَلُ بنُ ضِرار :

أَأَلْآنَ لمّـا عَلاكَ الـمـشـيـبُ وأَبصَـرتَ في العارضَيْن القتيرا[5]
تَطَرَّبْـتَ[6] واحـتَـجْـتَ للغـانـياتِ ، هيهـاتَ ، حاولـتَ أمـراً عَسـيرا

وقد أدخل الشاعر الهمزة على كلمة (الآن) ، وحقّقَ همزتها فقال : (أألآن) . ولكنها في القرآن الكريم جاءت مسهّلة ، قال تعالى : ﴿ آلآنَ وقد كنتم به تستعجلون ﴾[7] أي : (أألآنَ) ، فترى همزتَها قد سُهِّلت ولم تُحقَّق .

مما تقدم نخلص إلى مايلي :

١ ـ (الآن) : ظرف للزمان يدل على الوقت الحاضر .
٢ ـ تدخله (الـ) فتلزمه زائدةً زيادةً لازمة .
٣ ـ هو مبني على الفتح ، ولو دَخَلَتْ عليه حروفُ الجر : (إلى الآنَ ، حتى الآنَ) ، وعلى هذا معظم النحاة .
٤ ـ يكون معرباً ، وذلك إذا دَلَّ على حينٍ أو وقتٍ أو أوانٍ مثل : (الآنُ آنُك ، وآنَ آنُك) .

السؤال الثاني : أيجوز إعراب (آن) في التعبير ـ الذي ذكرناه آنفاً ـ فعلاً ماضياً ؟

وفي الجواب أقول : إن مجيء (آن) فعلاً متصرفاً ، أمر لا شك فيه ، فقد حفظت ذلك لنا كتب اللغة ، فقالت : (آنَ لك أن تفعل كذا ، يَئِينُ أَيْنا ، أي : حان) . وقد لاحظ فريق من العلماء أن بين (آن) و (حان) اتفاقاً لفظياً ومعنوياً فقالوا : (آن) أصلها (حان) ثم قُلبت الحاء همزة .

٥ ـ القتير : الشيب .
٦ ـ تطربت : اهتززت طرباً .
٧ ـ يونس / ٥١ .

نقل الراغب الأصفهاني في مفرداته عن ثعلب : « قال قوم : آنَ يَئِينُ أَيْناً ، الهمزة مقلوبة عن الحاء ، وأصلُه حانَ يَحِين حَيْنا ، قال وأصلُ الكلمة من الحِين » .

فريق آخرُ من العلماء ، لاحظ القرب الشديد بين (آنَ - يَئِينُ) و (أَنَىٰ يَأْني) . فمعناهما واحد وأحرفهما واحدة : همزة ونون وياء في هذا ، وهمزة وياء ونون في ذاك ؛ وإنما الاختلاف في تتابع الأحرف فقط .

ولذلك قالوا : (آنَ) لغةٌ في (أَنَىٰ) . يعني أن الأصل (أَنَىٰ - يَأْنِي) ، وأنّ (آنَ - يَئِين) لهجة من لهجات العرب ، تُقدِّم فيها الياءُ على النون ، والمعنى واحد هو : (حانَ - يَحِين) . قال تعالى ﴿ ألم يَـأْنِ للذين آمنوا أنْ تَخْشَعَ قلوبُهم لِذِكْر الله ﴾[8] أي أَلَمْ يَـحِن . وقال جرير :

إذا أُولىٰ النُجـوم بَـدَتْ فَغَارَتْ ... وقُلْتُ أَنَىٰ مِنَ اللَّيلِ آنتِصــافُ
حَسِـبْتُ النــومَ طَارَ مَعَ الثُــرَيّا ... ومـا غَـلُظَ الفِـراشُ ولا اللِحافُ

قال أبو زيد في (آنَ لك أن تفعل) : أي حانَ ، مثل (أَنَىٰ لك) . قال : « وهو مقلوب منه » . على أن الشاعر استعمل الكلمتين في بيت واحد فقال :

أَلَـمّـا يَـئِنْ[9] لِيْ أن تُجَلّىٰ عَمَـايَتِي ... وأُقْصِــرَ عَنْ لَيْلى ؟ بَلَىَ قد أَنىٰ لِيَا

ففي صدر البيت : (ألـمّا يَئِنْ لي) ، وفي عَجُزِه : (أَنَىٰ لي) . أمّا بعد ما تقدم فإلى الأمثلة والشواهد :

يقال : (آنَ الرحيلُ : أي حانَ) : ويقال : (أَما آنَ لكَ أن تفعل) : أي (أما حانَ) ؟ وفي الحديث أنّ رسول الله (ﷺ) قال : «ثلاثةٌ يا عليُّ لا تُؤخِّـرْهُنّ : الصلاةُ إذا آنتْ[10] ، والجِنازة إذا حَضَرَتْ ، والأَيِّم[11] إذا وَجَدَتْ كُفْئاً» .

---

٨ - الحديد/ ١٦

٩ - (يئن) مضارع مجزوم والأصل (يئين) ثم جُزم بـ (لما) فصار (يئن) .

١٠ - حان وقتها .

١١ - من ليس لها زوج .

وفي حديث أبي ذَرّ : (أَما آنَ للرجل أَنْ يَعْرِفَ مَنزلَه ؟) : أَي أَما حان وقَرُب ؟ وقال أبو ذؤيب الهذليّ ، يفخر بنفسه ويذكر الحرب :

وكنتُ إذا ما الحَرْبُ ضُرِّسَ نابُها[12] لِجَائِحَةٍ والحَيْنُ[13] بالناسِ لاحِقُ

وزافَتْ[14] كَمَوْجِ البَحرِ تَسْمُو أَمامَها وقامتْ على ساقٍ وآنَ التَلاحُقُ

بعدَ كل ما تقدم ، يكون قد آن لنا أن نسأل : أيصح أن يقال : (آنَ الصَّخْرُ يُحْتَفَر) ؟ وفي الجواب أقول :

أبو ذؤيب وصف الحرب فقال : (وقامت على ساق وآنَ التلاحُق) ، وهذا كلام صحيح فصيح . لأن التلاحق له حينٌ ووقتٌ مُعَيَّنان : تبدأ الحرب متئدة ثم تشتد ساعة بعد ساعة ، حتى تأتي ساعةٌ تقوم فيها الحرب على ساق ، ويحين التلاحق . ولذلك قال : (وآنَ التلاحُق) . ولو لم يكن للتلاحق حينٌ محدَّد يَحْدُث فيه لما قال:(آنَ التلاحق) .

ورسول الله (ﷺ) يقول : (الصلاةُ إذا آنَتْ) ؛ فهل للصلاة وقتٌ محدد تحين فيه وتَئِين ؟ نعم للصلاة وقت محدد . والـمُسلِم يَظلّ في فُسحة من الوقت حتى يَحين حِينُها ، فإذا حان وقتُها وآنَ ، أُدِّيَت ؛ ولذلك قال (ﷺ) : (الصلاةُ إذا آنَتْ) .

والعرب تقول : (آنَ الرحيل) . فهل للرحيل وقتٌ يَحِيُن فيه ، فيقالَ : (آن الرحيل) ؟ نعم . ذلك إذا استَكْمَل مَن ينوي الرحلة أداةَ سَفَره فأعدّ راحلتَه ، وودَّع أهله . فعند ذلك يئين الرحيل ، ولذلك صحّ قولهم : (آن الرحيل) .

وإليك مثالاً أخيراً قولَ الشاعر : (ألمّا يَئِنْ لي أنْ تُجَلّىٰ عَمَا يَتي)، فهل لِتَجْلِيَة عَمىٰ الحبِ حِينٌ مُعَيَّن ؟ فيقولَ الشاعر ذلك ؟ نعم ، لتجلية عمى الحبّ

---

١٢ ـ غدت شرسة سيئة الخلق .

١٣ ـ الهلاك .

١٤ ـ عَلَتْ .

وقتٌ محدد . ذلك حين تتقدم السنَّ بالمُحب ، أو حين يرى أنّ ما كان يجري وراءه من وصل الحبيب ، إنما هو سراب كان يحسبه ماءً ؛ مما يعرفه أصحاب الهوى والغرام. ولذلك صَحَّ أن يقول الشاعر : (ألما يئن لي أن تجلى عمايتي) وهكذا وهكذا . . . . .

ولولا خوف الإطالة ، لأتيتُك بالكثير من هذا ، وكله لا يصح فيه أن يقال : (آنَ الشيءُ) ، إلا إذا كان لذلك الشيء وقتٌ يحين فيه ويئين .

وانظر الآن إلى الأشياء التي لا وقتَ لها تحدث فيه ، تجدِ استعمالَ (آن يئين) فيها ، أمراً يدعوك إلى الإنكار .

خذِ الكتابَ مثلاً : فهل يصح أن تقول (آنَ الكتابُ) ؟ لا يصح ؛ لأن الكتاب لا وقتَ له يَحدُث فيه . ليس له وعاءٌ زمنيٌّ يجري فيه .

وهل تُجيزُ لنفسك أن تقول : (آنَ البابُ) أو (حانَ البابُ) ؟ لا تجيز ذلك لنفسك . لأن الباب ليس له وعاءٌ زمني يجري فيه . ولا تقولُ كذلك : (آنَ الورق) ، ولا (آنَ الجدار) ولا (آنَ الرجُل) ، للسبب نفسه .

فِعْلُ (آنَ - يَئِين) لا تستعملُه أنت لكل شيء ، وإنما تستعمله لما له وقتٌ محدد ، لما له وعاءٌ زمني ، لما له حَدَثٌ يحين وقتُه .

ولذلك نقول : إن قولك (آنَ الصخرُ) باطلٌ ، غيرُ صحيح ، ولا يَخْدَعَنَّكَ الشاعرُ عن نفسك إذ يقول : (يُحْتفر)، أي : آن الصخر يحتفر . فهو لم يقل : (آن الاحتفارُ) ، بل قال : (آنَ الصخرُ) . لو قال : (آنَ الاحتفارُ) لقلنا له : قولك صحيح ، لأنّ الاحتفار حَدَثٌ ، له وعاءٌ زمني يجري فيه . وأنت استعملت كلمة (آنَ) ، لتدل على حدوث الاحتفار في وعائه الزمني ، فصح قولُك . وأما (الصخر) فليس حَدَثاً . إنه مادة جامدة ؛ ولن يُجْدِيَ على الشاعر شيئاً أن يضعه في وعاء زمني ، لأن الوعاء الزمني إنما يكون للحدث لا للمادة الجامدة .

على أن العرب قالوا : (آن لفلان أن يفعل) أي : (آنَ فعلُه) ، كما

تقول أنت اليوم : (آن للصخر أن يحتفر) ، أي (آن احتفار الصخر) ، ولكن ليس (آن الصخر) . فالصخر لا يئين ولا يحين ، وإنما يئين ويحين احتفارُه ، لأنه حَدَثٌ . ولقد أقرَأنا أساتذتُنا منذ كنا أطفالاً أنَّ الحجاج صَلَبَ عبد الله بن الزبير فأطال صلبَه ، فقالت أمّه أسماء : (أما آنَ لهذا الفارس أن يترجل) ؟ فترى أنها لم تقل : (آن الفارس يترجل) ، لأن (الفارس) لا يحين ولا يئين ، وإنما الذي يحين ويئين تَرَجُّلُه ، ولذلك قالت : « أما آن لهذا الفارس أن يترجل » .

وبعد : فتركيب الشاعر (آن الصخر يحتفر) شطحة شعرية ، تفتقر الى مركب لغوي يطير بها . ولقد أركبها الشاعرُ مركباً لغوياً غيرَ ذي جَناحَين ، مركباً لا يطير ، فحُقَّ لنا أن نُعقِّبَ على قوله هذا فنقول : تركيبك غير صحيح .

ليـــس إلاّ

إذا نَظَر غيرُ المختصّ ، في بحث الاستثنـاء ، ورأى الاستثنـاءَ التـامَّ ، والاستثنـاءَ الموجَبَ، والاستثناء المُفرَّغ ، والاستثناء المتّصل ، والاستثناء المنقطع ، ثم نظر في المستثنى منه والمستثنى ، وأدوات الاستثنـاء ، أحرفاً وأسماءً وأفعالاً ، إذا رأى كلَّ ذلك ، وغيرَ ذلك من الأحكام ، استيقن زوالَ النِعَم !! ودارَ في دُوّامةٍ يَسأل الله منها السلامة .

ولقد دفعني آفتتاني بتذليل مثْلِ هذه العقبات ، يومَ كنت معلماً ، وجَعْلِها في يد الطلاب أُلهِيّةً أو كالألهية ، دفعني ذلك إلى ماأُوجزه لك مِن بَحْث الاستثناء .

وسترى إذا أنتَ ساعدتَني على نفسك ، فتنبهتَ لِما أقول ثلاثَ دقائقَ أو نحوَها فقط ، سترى أنّ بَحْث الاستثناء في الكفّ ، أُلهِيّةً أو كالألهية ، مهما يكن حظُّك من العربية قليلاً .

فلنبدأ . انظرْ أولاً : هل في الكلام نفي ؟

إذا لم يكن في الكلام نفيٌ ، فالمسألةُ سهلةٌ هيّنة . فالمستثنى في هذه الحال منصوبٌ أبداً ؛ انصِبْه بغير تردّد : وإليك الأمثلة :

(جاء الناس)	تمّت العبارة ولا نفي فيها	فانصب المستثنى إذاً	:	(إلا خالداً)
(ركض المتسابقون)	تمّت العبارة ولا نفي فيها	فانصب المستثنى إذاً	:	(إلا علياً)
(غنت الطيور)	تمّت العبارة ولا نفي فيها	فانصب المستثنى إذاً	:	(إلا العندليبَ)

٢ ـ العبارة قبل (إلاّ) لم تتم والنفي موجود فَغَطِّ (إلاّ) وأعربْ :

(ماجاء)	العبارة لم تتم	والنفي موجود	فغطِّ (إلا)وأعرب	(إلا خالدٌ)	:	فاعل
(مارأيتُ)	العبارة لم تتم	والنفي موجود	فغطِّ (إلا) وأعرب	(إلا خالداً)	:	مفعول به
(ماالشهادة)	العبارة لم تتم	والنفي موجود	فغطِّ (إلا) وأعرب	(إلا خلودٌ)	:	خبر المبتدأ
(ليست الشهادة)	العبارة لم تتم	والنفي موجود	فغطِّ (إلا) وأعرب	(إلا خلوداً)	:	خبر ليس

٣ ـ العبارة تمّت قبل (إلاّ) والنفي موجود، فلك الخيار : النصب على الاستثناء، أو البدلية

(ماجاء الطلابُ) تمت العبارة والنفي موجود ← (إلا خالداً) : منصوب على الاستثناء
← (إلا خالدٌ) : بدل من الطلابُ

(ما مررت بالطلابِ) تمت العبارة والنفي موجود ← (إلا خالداً) : منصوب على الاستثناء
← (إلا خالدٍ) : بدل من الطلابِ

بهذا ينتهي بحث المستثنى بـ (إلاّ) لغير المتخصّصين ، وأما من أراد أن يخوض الغَمَراتِ ، وأصر على أن يحيط من بحث الاستثناء بها لا يُستعمل اليوم ، أو ماينذُر استعمالُه ، من مثل : (حضر الضيوف إلا سياراتهم)!! فإننا نقول له : دونكَ المطوّلات .

بعد هذا أنتقل إلى ماساق إلى هذه الحلقة ، فقد جاءتني رسالة من حلب يقول مرسلُها :

متى يقال : ليس إلاّ ؟ وما معنى هذا التركيب ؟وفي الجواب أقول :

إن قولهم : (ليس إلاّ) هو تركيبُ استثناء ، حُذِف منه مايُفْهم من سياق الكلام . فإذا سألتَ صديقك مثلاً : (كم كتاباً قرأت) ؟ فأجابك : (قرأت خمسةً ليس إلا) فإن في جوابه حذفاً ، يدلّ عليه سياقُ الكلام ؛ والأصلُ قبل الحذف أن يقول : (قرأت خمسةً ، ليس المقروء إلا الخمسة) ، ثم استغنى في إجابته عمّا هو معلوم ، فحذفه للعِلْم به ، فقال لك : (قرأت خمسةً ليس إلاّ) .

- ٦٥ -

السلف

إذا نظرت في مادة (سلف) ، وما أوردته المراجع اللغوية فيها ، رأيت لها معانيَ لا ينظمها سلكٌ واحد .

ولقد ترجم ابن فارس هذه المادة في المقاييس فقال : « السين واللام والفاء أصلٌ يدل على تَقَدُّمٍ وسَبْق »ثم أوردَ بعض المفردات ، فيها معنى المُضِيّ والتقدم ؛ ولكنه حين أوغَلَ في هذه المادة لم يستقِم له رَدُّ معانيها جميعاً إلى أصل واحد . ولذلك تراه يقول :

ومِن غير هذا القياس كذا وكذا .
ومما شذّ عن البابَيْن كذا وكذا .
وممكنٌ أن يكون هذا من قياس كذا .

فتخلص من هذا إلى أن للمادة مناحيَ معنويةً متباينةً ، يصعُب ردُّ مفرداتها إلى أصلٍ واحد . ومع ذلك فإن (سَلَفَ) بمعنى (تَقَدَّم ومضى) هو أكثرُ دلالاتها وأوسعُها . ففي تحريم الصيد ، والناسُ محرمون بالحج أو العمرة ، يقول تعالى ﴿ عَفا اللهُ عمّا سَلَفَ ﴾ [1]أي عفا الله عما تقدم ومضى من ذلك قبل تحريمه .

ويقول تعالى :﴿ قُلْ للذين كفروا إنْ يَنتهُوا يُغفَرْ لهم ما قد سَلَفَ ﴾[2] أي يُتَجافىَ عما تقدم ومضى من ذنبهم .

وتزاد الهمزة في أول هذا الفعل ، فيظل من الباب نفسه ، وهو التقدّم والمضيّ . قال تعالى : ﴿ كُلُوا واشربوا هَنِيئاً بما أَسلَفْتم في الأيّام الخالِيَة ﴾ [3] أي

---

١ ـ المائدة / ٩٥
٢ ـ الأنفال / ٣٨
٣ ـ الحاقة / ٢٤

ما قدمتم في الحياة الدنيا . ومنه قولُ زهير بن أبي سُلمى في مدح هَرِم بن سِنان :

أَثْـنِـي عليكَ بمـا عَلِمْـتُ ومـا أَسْلَفْتَ في النَّجَـدَاتِ والـذِّكْـرِ

أي أُثني عليك بما قَدَّمْتَ في الشدائد .

وأما أنّ (سَلَفَ) لها معانٍ غيرُ (تقدَّم ومضى) فمنه قولُهم : (سَلَفْتُ الأرضَ أَسْلُفُها سَلْفاً) إذا سَوَّيْتَها بالمِسْلَفَة ، وهي الحجَر الأسطوانيّ الذي تُسَوّى به الأرض . وتُسمِّيه العامة « المدحلة » . ففي النهاية لابن الأثير : (أرضُ الجنة مَسْلوفة) . قال الأصمعي : هي المستوية أو المُسَوّاة .

ولقد نظر ابن فارس في استعمال (سَلَفَ الأرضَ) بمعنى سَوّاها ، فرآه شاذاً عن معنى التقدّم والمُضِيّ . والرأي مارأى . ولكنه عاد فقال : (وممكنٌ أن يكون هذا من قياس الباب) لماذا ؟ قال : « لأنه أمرٌ تُقُدِّم في إصلاحه » . ولكنّ الناظر في قوله هذا يمكن أن يرى فيه إعناتاً هو أقربُ إلى إلباسِ المرء ثوباً يضيق عنه .

فهل تقول في إصلاحِك البابَ بمعنى التقدّم في إصلاحه : (أسلفتُ البابَ) ؟ لا تقول ذلك . وهل تقول : (أسلفت الثوب) بمعنى التقدم في إصلاحه ؟ لا تقول ذلك . فقس على هذا جميعَ الأشياء التي تخطِر في ذهنك ، مما تصنعه أو تفعله لغاية تَلِيه . ولذلك قلنا إننا نوافق هذا الإمام فقط ، في أنّ (سَلَفْتُ الأرضَ) و(أَسْلَفْتُ الأرضَ) فيهما معنى تسوية الأرض بالمِسلَفة لزرعٍ أو غيره .

ولا يُنْكِـرَنَّ علينا مُنْكِرٌ أن نأخذ برأيٍ واحد فقط من رأيَيْ هذا الإمام . فلو نظرتَ في جوانبَ أخرى من هذه المادة ، لرأيتَ معنى التقدّيم والمضي في بعضها ، ولم تره في بعضها الآخر . بل الكلمة نفسها ترى لها معنى التقدّيم والسَبْق في استعمال ، ولا تراه في استعمال آخر . خذ مثلاً كلمة (السَّلَف) تَرَ لها معنيين :

الأول : (السَّلَفُ في البيع) ، وهو مايُقَدَّم من الثمن على المَبيع ، وفي هذا تقدُّمٌ .

والثاني : (السَّلَف) ، هو القرض الذي لا منفعةَ فيه للمُقرِض ، وعلى

المقترض رَدُّه كما أَخَذَه . وهذا الاستعمالُ ليس فيه معنى سَبْقِ شيءٍ لشيء ، أو تقدُّمِ شيءٍ على شيء ؛ وإنما هو إقراضٌ بغير منفعة . ومِن هنا ماجاء في الأساس للزمخشريّ : (السَّلَفُ تَلَف) .

وأُورد لك بعد هذا نصّاً قاطعاً من كتاب (المُغْرِب للمُطَرِّزيّ) . قال : وقولُه : « لو كان لليتيم وديعةٌ عند رجل ، فأَمَرَه الوصيُّ أن يُقرِضَها أو يَهَبَها أو يُسْلِفَها » ثم فسّر المطرزيّ كلمة (يسلفها) فقال : (أي يقدّمَها ثمناً في بيع ، وتفسيرُه بالإقراض لا يستقيم) .

وهذا نصٌّ واضح في أن الكلمة تكون مرّةً للإقراض ـ والإقراضُ لاسبقَ فيه ـ وتكون مرةً أخرى لتقديم جزءٍ من الثمن على المبيع .

وقد يخطِر في ذهنك وأنا أحدّثك أن كلمة (السُّلْفة) معناها المالُ المقترَض ، أو المالُ المتقدِّمُ مِن ثمن المَبيع .

وأقول : إن استعمال كلمة (السلفة) بهذا المعنى ، الذي يستعمله الناس اليوم ، ليس عربياً فصيحاً ، وإنما هو استعمال استحدثه المولَّدون بعدَ عصر الرواية . وأما العرب الذين أخذنا عنهم لغتنا ، فكانوا يستعملون (السُّلفة) بمعنىً آخر ، ليس فيه معنى الإقراض ، وإنما فيه معنى (التقدم والسبق) فقط .

فـ (السُّلْفة) في فصيح الكلام ، هي المُعجَّل من الطعام قبل الغداء ، أي مايُطْلِقُ عليه الناسُ اليومَ خطأً (المُقَبِّلات) . وفي هذا تَقَدُّمٌ وسَبْقٌ ، وليس فيه اقتراض أو إقراض .

وكانوا يقولون أيضاً : (جاء القومُ سُلْفَةً سُلْفَةً) ، إذا جاء بعضُهم في أَثَر بعض . وفي هذا تَقَدُّمٌ وسَبْقٌ ، وليس فيه اقتراض أو إقراض .

وبعد فلقد تَشَعَّبَ البحثُ فرأيتُ أنْ لا بد من إيجازه .

أولاً : أَوْسَعُ استعمالات مادة (سلف) فيه معنى التقدم والسبق والمضي ، لكنّ رَدَّ كثيرٍ من استعمالاتها إلى هذا المعنى وحدَه ، فيه قَسْرٌ وإعْنات .

ثانياً : كلمة (السَّلَف) ، تستعمل في الوجهين : التقدّم والإقراض .

ثالثاً : اِستعمَل العربُ كلمة (السُّلْفَة) بمعنى التقدّم فقط ؛ وأما معنى الإقراض فيها فهو استعمالٌ مولَّد .

أخيراً أقول : إن ما أوردتُه في هذه الحلقة ، إنما هو تمهيدٌ لغايةٍ ستكون مِحْوَرَ الحلقة القادمة فإلى تلك الحلقة .

السلف / ٢

كنتُ في الحلقة السابقة بحثت في مادة سَلَفَ ، وذكرت أن معناها الأوسعَ هو التقدُّم والسبْقُ والمُضيّ ، وأنّ مايشِذّ عن ذلك ليس بالقليل ؛ وسأدير حلقة اليوم حول أسماءٍ من هذه المادة ، منها ما فيه معنى التقدم ، ومنها مايشِذ عنه .

أولاً : السُّلاف ، وهو السائل من عصير العنب ، قبل أن يُعْصَر ، فهو إذاً متقدِّم .

ثانياً : سُلافَةُ كلِّ شيء عصرتَه : أوّلُهُ ، وفي هذا تقدُّم .

ثالثاً : المُسْلِفُ من النساء ، هي التي بلغتْ خمساً وأربعين سنةً أو نحوها ؛ وفي هذا تقدّمٌ أيضاً .

والمُسْلِفُ : صفةٌ خُصَّ بها الإناثُ دون الذكور . قال عمرُ بنُ أبي ربيعة :

هاجَ فؤاديْ مَوْقِفُ ... ذَكَّرَنيْ ما أَعْرِفُ
مَمْشايَ ذاتَ لَيلةٍ ... والشَّوقُ ممّا يَشْغَفُ
إذا ثلاثٌ كالدُّمىٰ ... وكاعِبٌ ومُسْلِفُ
وبَيْنَهُنَّ صُورةٌ ... كالشمْسِ حينَ تُسْدِفُ[1]

رابعاً : السَّالف : اسمُ فاعل، وهو الماضي المتقدِّم . . قال النابغة :

يادارَ مَيَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ[2] وطالَ عليها سالِفُ الأَمَدِ[3]

وجَمْعُ السالف ، سَلَفٌ ، فكما تقول : (خادِمٌ وخَدَمٌ)؛ تقول : (سالِفٌ وسَلَفٌ) . قال قيسُ بنُ الخَطِيم :

لو عَرّجُوا ساعةً نُسائِلُهُمْ ... رَيْثَ يُضَحّي جِمالَهُ السَّلَفُ

١ ـ ترسل قناعها.
٢ ـ أقفرت .
٣ ـ الدهر .

أي ريثَ يضحّي المتقدِّمون في السير جِمالَهُم .

خامساً : السَّلَفُ ، كلُّ مَنْ تقدّمك مِن آبائك وذوي قرابَتِك ، الذين هُمْ فوقَكَ في السِنّ والفضل . جاء في المفردات للراغب : (ولفلان سَلَفٌ كريم) أي آباءٌ متقدِّمون ، ولذلك سُمِّي الصدرُ الأول من التابعين بالسَّلَف الصالح . وجاء في الكليات مانصُّه : « وقال بعضهم : السَّلَفُ شَرْعاً ، كلُّ مَنْ يُقَلَّدُ ، ويُقْتفى أَثَرُه في الدين ، كأبي حنيفةَ وأصحابِه فإنهم سَلَفُنا » .

سادساً : السَّالِفَة ، ولها معنيان ، الأول : صفحة العُنق ، قال ذو الرُمَّة :

ومَــيَّةُ أَحْــسَــنُ الـثَّـقَـلَيْن جِيْداً وسَــالِــفَــةً وأَحْــسَــنُــهُ قَذَالا

وقال جَوّاسُ بنُ هُرَيْم في هجاء امرأة ، يَذْكُرُ بالسوء سالِفَتَها وصُدْغَها

قُبِّحْتِ مِنْ سالِفَةٍ ومِنْ صُدُغْ

وأذكر هنا أن ابن فارس صرح بأن السالفة بمعنى صفحة العنق، ليس فيها معنى التقدّم ، وإنما فيها معنى المحاذاة ؛ قال : وهذا قياسُ السالفتين ، وهما صفحتا العنق ، هذه بِحِذاء هذه .

وأما المعنى الثاني للسالفة فهو الأُمَمُ الماضية .

قال صاحب التاج : « يقال كان ذلك في الأمم السالِفة والقرون السَّوالِف » . ثم علّق على وَصْفِ القُرون بالسَّوالف (على وَزْن فَوَاعِل) فقال : « جعلوا كلَّ جزء منها سالفةً ثم جُمِعَ على هذا . هذا هو الأصل ، ثم أُطْلِقَ السالفةُ على خُصَلِ الشعر المرسلةِ على الخدِّ ، كنايةً أو مجازاً ، والجَمْع سَوالِف . قاله شيخنا » .

قال الشاعر يصف الكلاب وهي تصارع الثور :

فَجَــالَ إذْ رُعْنَــهُ يَنْــأَىَ بِجــانِبِــهِ وفــي سَوالِـفِـهــا مِنْ مِثْـلِهِ قِدَدُ[4]

يعني : في سوالف هذه الكلاب من مثل هذا الثور قِدَد .

أما الآن ، فإلى ماساق إلى البحث في هذه المادة .

---

٤ ـ القدد : جمع قِدّة ، سَيْرٌ من جلد غيرِ مدبوغ .

قبل حين كتبتْ إلي إحدى الأخوات المواطنات من دريكيش ، تسألني عن كلمة (السِّلْف والسِّلْفَة) ماحقيقتُهما اللغوية ؟ وفي الجواب أقول :

إن كلمة (السِّلْف) من الكلمات التي شَذَّتْ عن معنى التقدُّم والمضيّ . وهي عند ابن فارس من (قِياس السالفَتَين ، وهما صَفْحَتا العنق ، هذه بحذاء هذه) كما يقول . والكلمةُ ذاتُ لفظين : (السِّلْف والسِّلِف) مثل (الكِبْد والكَبِد ، والكِذْب والكَذِب) .

وبين العلماء اختلاف في استعمالها . ففريق يقول (السِّلف) للرجال ، ولا يقالُ للمرأة (سِلْفَة) . قال ابن فارس : « السِّلْفُ سِلْفُ الرجال ، وهما اللذان يتزوج هذا أُختاً وهذا أختاً » والجمع (أسلاف) . قال عثمان بن عفان (رض) :

مُعــاتَبَــةُ السِّـلْفَيْنِ تَحْسُنُ مَرَّةً ... فإنْ أَدْمَنَـا إكثـارَهَـا أَفْسَـدا الحُبَّـا

وفريقٌ آخرُ من العلماء يقول : بل تُطلق كلمةُ (السِّلْفَة) على المرأة ، وهما سِلْفَتان : إذا تزوّجتا أخوَين ، والجمعُ سَلائِف . ومن أمثالهم : « مركبُ الضرائِرِ سار ، ومركَبُ السّلائِفِ غار » أو (حار) .

النساء يقلن اليوم : (هذه سِلْفَتِي) ، وهذا استعمالٌ وارد . ولكنهن يقلن أيضاً : (فلان سِلْفِي) ، وهذا غَلَط . لأن الرجُل لا يكون سِلفاً للمرأة .

فالرجل سلف الرجل والمرأة سلفة المرأة

والنـاس يقـولون اليوم للرجلين اللذين يتزوجان بأختين : (هذا عَدِيْلُ هذا) و (هما عَدِيلان) و (هم عُدَلاء) ، وقولُهم هذا لم تستعمله العرب ، وإنما هو مولَّدٌ جرى به الاستعمالُ بعد عصر الرواية . فالأصل أن العَدِيلَ هو المِثْل والنظِير ؛ ثم قيل : (هما عَدِيلان) ، إذا تزوّجا أختَين . وعلى ذلك لا يقال : (تعادَلَ الرجُلان) بل يقال : (تسالَفَ الرجُلان) .

- ٦٧ -

نعتـــــذر

ينفـرد ابن فارس من بين اللغـويين بكتابه (المقاييس)، فقد سار فيه على أن يرُدّ مفرداتِ كلّ مادة لغوية إلى أصولها المعنوية المشتركة . فيجعلَ للمادة الواحدة وجميع تقاليبها أصلاً واحداً ، أو أصولاً ، ترجع إليها .

لكن الذي يبدو أن مادة (عذَر - يَعْذِر) قد عنّاه ردُّ مفرداتها إلى أصل مشترك ، فتراه يقول وهو يعالجها : (العين والذال والراء بناءٌ صحيح له فروع كثيرة، ماجعل الله تعالى فيه وجهَ قياس بتّةً ، بل كلُّ كلمة منها على نحوِها وجهتِها ، مفردة) . ثم شرع يذكر تقاليبَها ، حتى عدّ منها عشرة تقاليب .

في حلقة اليوم أقف من تلك المعاني جميعاً عند أشهرها . وهو قولُك :

(عَذَره - يَعذِرُه ، عُذْراً) إذا قَبِل عُذْرَه، ورَفَع عنه اللومَ فيما صَنع .

ولقد رأيتُ للعلماء سبيلَيْن في ردّ هذه الكلمة الى أصلٍ معنويّ مشترك .

الأول : المَحْـوُ والـطَّمْس . قال ابن الأثير : (وحقيقـةُ عذَرْتُ : مَحَـوْتُ الإسـاءةَ وطَمَسْتُها). والثاني : القَطْع ، قال ابنُ الأعرابيّ : (وقولهم : آعتَذَرْتُ إليه هو قَطْعُ ما في قَلْبه ، ويقال : آعتَذَرتِ المياه إذا انقطَعَت . والاعتذارُ : قطْعُ الرجُل عن حاجتِه ، وقَطْعُه عمّا أَمْسَكَ في قلبه). فكأنكَ إذا اعتذرتَ إلى فلانٍ فَعَذَرَكَ، قد محوتَ أثَرَ المَوْجِدَةِ من نفسه، ومَحَوْتَ مافيها مِن غضب . أما العُذْر : فهو الحجّةُ يُعْتَذَرُ بها .

قال الراغب في المفردات : (العُذر : تَحَرِّي الإنسانِ مايَمْحُو به ذُنوبَه . وذلك على ثلاثة أَضْرُب : إما أن يقول : لـم أَفْعَل ، أو يقولَ : فعلتُ لأجل كذا، فيذكر مايُخْرِجُه عن كونهِ مذنباً، أو يقولَ : فعلتُ ولا أعودُ، ونحوَ ذلك من المَقال) .

وفي حديث عُمَرَ بنِ عبد العزيز- : (قالَ لِمَن اعتَذَرَ إليه : عَذَرْتُكَ غيرَ مُعْتَذِر). أي من غير أن تَعتذِر ؛ لأن المعتَذِر يكون مُحِقّاً وغيرَ مُحقّ .

بعد أن أوضحنا حقيقة هذا المعنى مِن معاني مادة (عذر)، ننتقل إلى أثر حروف الجرّ إذا هي صَحِبَتْها .

إذا بدر منك مايستوجب اعتذارَك قلت : (أعتذِر ممّا فعلتُ) فتستعمل حرف الجر (مِن) . قال أعرابي يهجو عبدَ الله بنَ عامرِ بن كُرَيْز :

وَقَفْتُ وصِنَّبْرٌ[1] الشِتاءِ يَلُفُّني ... فقد مَسَّ بَرْدٌ ساعِدِي وبَناني
فما أوْقَدُوا ناراً ولا عَرَضُوا قِرىً ... ولا اعْتَذَرُوا مِنْ عُسْرَةٍ بِلِسانِ

أما إذا أردتَ أن تبيّنَ مَنْ قَدَّمتَ إليه اعتذارَك ، فإنك تستعمل (إلى) . تقول : (اعتذرتُ إلى فلان). ففي سورة التوبة ﴿يَعْتَذِرُونَ إليكمْ إذا رجَعْتمْ إليهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا ﴾[2] . وفي الأغاني للأصفهاني، أنّ عُمرَ بنَ أبي ربيعةَ قال :

مَنْ رَسُولي إلى الثُّرَيّا فإنّي ... ضِقْتُ ذَرْعاً بهَجْرِها والكِتَابِ

فلما أُنشد ابنُ أبي عَتيق ذلك قال : إيّايَ أراد ، وبي نَوّه ، لا جَرَمَ والله ، لا أذوقُ أُكْلاً حتى أُشخَصَ فأُصلحَ بينَهُما ، ثم جاء الثريا فقال : هذا عمرُ قد جشَّمَني السَفَرَ من المدينة إليكِ ، فجئتُكِ معترفاً لكِ بذنبٍ لم يَجْنِه ، معتذِراً إليكِ مِن إساءتِه .

ويورد صاحبُ الأغاني في موضع آخرَ أن رجلاً قال لمَعْبَد معتذِراً : (قد أخطأتُ وأنا أعتذِر إليكَ ممّا جَرى) ؛ ومثلُ ذلك كثير ، وإنما نكتفي بما أوردنا خَشيةَ الإملال . على أنني أوجّه النظر إلى أن من الجائز أيضاً أن تقول : (اعتذرتُ إلى فلان عن التقصير) . ففي المصباح المنير : (وآعتَذَر عَنْ فِعْله : أَظْهَرَ عُذْرَه) .

بعد هذا أقول : إن رسالة جاءتني من حلب يقول مرسلها : قرأت إعلاناً جاء فيه : (نعتذر عن التسجيل لغير المشتركين) .

ويسأل : أهذا صحيح ؟ أم الصحيح : نعتذر عن عدم التسجيل ؟

وفي الجواب أقول : إنّ الاعتذار إنما يكون اعتذاراً مِن تقصيرٍ أو نحوه. فهل (التسجيلُ) تقصيرٌ فتعتذِرَ منه ؟ كلا . إن (التسجيل) ليس ذنباً فتعتذرَ منه . وإنما عدمُ

---

١ ـ يريد هواء الشتاء البارد.

٢ ـ التوبة / ٩٤.

التسجيل هو التقصير . فعدَمُ التسجيل إذاً هو مايُعتَذَر منه . ولذلك يكون الصحيح أن يقال : «نعتذر عن عدم التسجيل» .

وأذكرُ لك هنا أن لجنة الألفاظ والأساليب في مجمع اللغة العربية بالقاهرة كانت قد أقرّتْ قولَ من يقول : (اعتذر فلان عن الحضور) إذا تخلّف عن الحضور . وذلك على أن الأصل : (اعتذر فلان عن عدم الحضور) ، ثم حُذِفَتْ كلمة (عَدَم) وهي مضاف، وحَذْفُ المضافِ في العربية وارِدٌ . غير أن أغلبية مؤتمر المجمع المذكور رأَتْ بعد ذلك أن من الخير أن يقال : (اعتذر فلان عن عدم الحضور) .

فالصواب إذاً أن يقال: (نعتذر عن عدم التسجيل) .

وقبـل أن أختِم هذه الحلقة رأيتُ من المفيد أن أوجه النظر إلى أن كثيراً من الناس يقولون : (اعتذرت من فلان) . وهـم يريدون بذلك : (أظهرتُ له عُذْري ، وطلبتُ قَبولَه) . وهـذا غَلَط . لماذا ؟ لأن معنى (اعتذرتُ مِن فلان) : شكوتُه . والصواب : (اعتذرتُ إلى فلان) ، كما قدّمْنا آنفاً . مما تقدم نخلص إلى مايلي :

أولاً : تقول : اعتذر خالدٌ من ذنبه ، واعتذر خالدٌ عن ذنبه أيضاً ، إذا بيّن حُجَّتَه وَتَنَصَّلَ مِن ذَنْبه .

ثانياً : تقول : اعتذرتُ إلى فلان . إذا أردت أن تذكر مَنْ قدَّمْتَ إليه عُذرَك .

ثالثاً : (اعتذرتُ إلى فلان عن التسجيل) غيرُ صحيح . والصحيح : (اعتذرتُ إلى فلان عن عدم التسجيل) .

أخيراً: (اعتذرتُ مِن فلان) معناه شَكَوْتُه .

- ٦٨ -

عَوْدُ الضمير

منذ حين ، زُرتُ عَلَماً من أعلام العربية ، فقال لي : أما تسمعُهم يقولون : (مِنْ جِهتها قالت الصحيفة) ؟! فعزمتُ أن أبحث فيما أثاره الأستاذ .

ومِن فَوْري أقول : البحثُ عَسِر ، وقد حاولتُ تيْسيرَهُ فكلّفَني ذلك جهداً ليس بالقليل .

الضميرُ فيه إبهامٌ وغموض ، فإذا قلنا : (هو) مثلاً ، لم يَدْرِ المستمعُ مَنْ نَعْني . أَنَعْني خالداً ، أم سعيداً ، أم محمداً ؟ إلخ . . .

لذلك يُوجِبُ النحاةُ تَفْسيرَ الضمير ، وإيضاحَ المراد منه . فيقولون لك : ضَعِ الاسمَ أوّلاً ، وضَعِ الضميرَ بعدَه ، يَتَّضِحِ المراد . قُلْ مثلاً :

(باعَ المالكُ دارَهُ)

أيْ قدِّم الاسمَ وهو (المالك) ، ثم أتْبِعْهُ الضميرَ وهو (الهاء) في كلمة (دارَه) فبذلك يتضّحُ معناه ، وينجلي المُراد منه .

والمسألةُ إذاً لا عُسْرَ فيها ، الاسمُ أوّلاً والضميرُ بعدَه .

المسألة الثانية : هي أَنّ الكلماتِ في الجملة العربية لها رُتَب ، فرتبةُ المبتدأ ، متقدمةٌ على رتبة الخبر ؛ ورتبةُ المضاف ، متقدمةٌ على رتبة المضاف إليه ؛ ورتبةُ الفاعل ، متقدمةٌ على رتبة المفعول ؛ وهكذا . . . وأضربُ مثلاً لذلك : إذا كان فلانٌ يملِكُ داراً وباعَها ، فإننا نقول :

[باعَ المالكُ دارَ هُ] .
١ ٢ ٣

المالك : فاعل ، وقد تَقَدَّمَ في اللفظ : أي لفظناه قبلَ المفعول.
١ وتَقَدَّمَ في الرتبة : لأن رتبَتَـهُ هي الرتبةُ الأولى.

دارَ : مفعول ، وقد تأخر في اللفظ : أي لفظناه بعدَ الفاعل.
٢ وتأخر في الرتبة : لأن رتبته هي الرتبةُ الثانية.

وأمّا الضمير وهو الهاء : فقد جاء وَفْقاً للقاعدة ، بعدَ الاسم ، أي (بعد المالك).
٣

صغارُ الصبيان في الصفِّ الثالث الابتدائي يعرفون ذلك ، يعرفون أن الفاعل يسبق المفعول . هذا لا يجهله أحد . ولأنَّ هذا الترتيب لا اختلاف فيه بين العلماء ، فإنهم يُجيزون لك أنْ تُقدِّمَ المفعول وتؤخّر الفاعل ، فتقول :

باع داره المالكُ :
٢ ١

دار : مفعول ، وَنَعَمْ تَقَدَّم ، ولكنه تقدمَ في اللفظ فقط لا في الرتبة.
٢

المالك : فاعل ، وَنَعَمْ تأخّر ، ولكنه تأخَّرَ في اللفظ فقط ، لا في الرتبة.
١

وأما الضمير وهو الهاء : فنَعَمْ تأخَّرَ عنهُ الاسمُ ، وهو (المالك) ، ولكنّ ذلك ناشىءٌ
٣

عن تأَخُّر الفاعلِ عن المفعول في اللفظِ لا في الرتبة . فرُتبةُ الفاعل محفوظةٌ له ، وإن تأخّر . وصحيحٌ أنك تراه رؤيةَ العين متأخراً عن المفعول وعن الضمير ، ولكنّ هذا التأخُّرَ تأخُّرٌ لفظيٌّ فقط . ولو كان تأخُّرُ الفاعلِ تأخُّراً في اللفظ والرتبة ، لقالوا لك : هذا لا يجوز . فهم لا يَقْبَلون أن تقول مثلاً :

باع مالكـ ـها الدارَ.

لماذا ؟لأنَّ (الدار) مفعول ، وقد تأخَّرَ لفظاً ورتبةً عن الضمير (ها) ، وهذا غيرُ جائز . فالضميرُ لا يجوز أن يعُودَ على متأخرٍ لفظاً ورتبةً . هذه قاعدةٌ مُقرَّرَةٌ عند النحاة . والويلُ لِمَنْ يقول غير ذلك !! ولِمَنْ يَقْبَلُه أيضاً !!

أبو الأسود الدؤلي هجا يوماً عديَّ بنَ حاتمٍ الطائي فقال :

جَزَىَ ربُّهُ عنّي عديَّ بنَ حاتمٍ   جَزاءَ الكلابِ العاوِياتِ [1] وقد فَعَلْ

جزى : فِعْلٌ ماضٍ ، ربُّ : فاعل ، عديَّ : مفعول به متأخر لفظاً ورتبةً ، أما الهاء في (ربُّه) : فتعود على (عديّ) أي : على متأخرٍ لفظاً ورتبةً !!وهذا لا يجوز. ولقد رأى النحاةُ ذلك ، فقامتِ الدنيا وقعدت :

جمهورُ النحاة قالوا : هذا شاذٌّ ، هذا لا تقوله العرب .

وفريقٌ قال ـ ومنهم ابنُ هشام (صاحب المغني) هو ضرورةٌ شعرية .

وفريقٌ ثالث قال ـ ومنهم أبو الفتحِ بنُ جني ـ هو جائزٌ لا شذوذَ فيه ، ولا ضرورةَ . قال ابنُ جنّي : (وأمّا أنا ، فأُجيزُ ذلك ، خلافاً على الجماعة) وطفق يستظهر في كتاب الخصائص بآراء سيبويه ، وأبي علي الفارسيّ ، ويُورد الحجج والأدلة والبراهين .

ولكنّ ذلك لم يُجْدِ عليه . فقد أبى جمهورُ النحاة مذهبه ، وردُّوا رأيه .

يقول ابنُ يعيش ، معلِّقا على ذلك مستفظعاً :(وقد أقْدَمَ أبو الفتح بنُ جـني) ، وأوجِّـهُ النظرَ إلى قول ابن يعيش : (وقد أقدم أبو الفتح) !!، كأنَّ أبا الفتح ارتكب إثماً ، أو كأنّه قد جنى ما ليس يُغْتَفَر ـ قال :(وقد أقدم أبو الفتح بنُ جني على جوازِ مثلِ ذلك وجعلَهُ قياساً)!!

وأنا أقول :فكيف بابن يعيش إذا استمع اليومَ إلى وسائل الإعلام وهي تُردِّدُ بُكرةً وعشيّاً : « ومن جهتها قالت صحيفة الإزفستيا » و « من ناحيتها ذكرت صحيفة اللوموند » ؟

وكيف بصاحب التعليق الإعلاميّ ، إذا سأله ابنُ يعيش : (يا بنيّ إلامَ

١ ـ جزاء الكلاب العاويات : الطرد والرجم بالحجارة .

يَرْجِعُ الضميرُ في قولك: من جهتها قالت الإزفستيا) ؟ و (من ناحيتها ذكرت اللوموند) ؟ أيَجيبه قائلاً : لا علاقةَ لي بذلك ، فاسأل عنه من يترجمون ترجمةً حرفيةً عن الإنكليزية والفرنسية ؟!

إنّ قول بعضهم : (مِن جهتها قالت الصحيفة) و (من ناحيتها ذكرت الصحيفة) لا يجري مع الأسلوب العربي ، وهو مرفوض مردود .

ـ ٦٩ ـ

دمشـــــق

دمشقُ الخالدة، كانت وماتزال، أشهرَ من أن تعرَّف. ومَن عرَّفَها أمَلَّ، وعلى ذلك أدير حلقة اليوم حول اسمِها وشيءٍ مما قيل عن مكنون ماضيها. وقد كان أحد الإخوة المشاهدين من محافظة الحسكة كتب إلي يسألني عن ذلك.

أولاً: نشوء دمشق:

لقد تناول العلماء تاريخَ بنائِها فتضاربت أقوالُهم، وإذا كان المؤرخون المحدَثون لا يقطعون بذلك، لأن الأسفار، والمكتشفاتِ من النقوش والرُّقُم والآثار لم تُجزْ لهم أن يقطعوا به، فإن القدماء من المؤرخين ـ وسواءٌ في ذلك العربُ وغيرُ العرب ـ يُسْبِغون على نشوء دمشقَ، أو إنشائِها، مَسحةً أُسطوريّة.

ففي كتاب (دمشق الحضارة) للدكتور عفيف البهنسي ما معناه: أن المؤرخ ستيفانوس في القرن السادس الميلادي يَرى أن البطلَ دَمَسْكوس بنَ الإله هِرْمِس كان قد رَحل من بلاد اليونان إلى سوريَةَ فبنى دمشق.

وينقل ياقوت، في معجم البلدان أن إبراهيم الخليل وُلد بعد بنائها بخمس سنين، غير أنه بعد خمسة أسطر ينقل أن غلام إبراهيمَ هو الذي بنى دمشق!!

وقد يُوغِلون فتُشْعِرك أقوالُهم تلميحاً لا تصريحاً، أن دمشق كان لها شيءٌ مِن وجودٍ منذ أيام آدمَ وقابيلَ وهابيلَ. فقد ذكر ياقوت، أن قابيلَ وهابيلَ قَدَّما القُربانَ على صخرة عظيمة، كانت في موقع أحدِ أبواب الجامع الأمويّ فتُقُبِّل قُربانُ هابيلَ ولم يُتَقَبَّلْ قربانُ قابيلَ فحسد أخاه وتبعه إلى جبل قاسِيون فقتله على هذا الجبل.

ولولا ضيقُ الوقت، لأوردتُ لك مِن مثل ذلك شيئاً كثيراً كزعمِهم أن نوحاً سكن دمشقَ، وأنها مدينةُ عاد الخ..

ثانياً: اسم دمشق:

لقـد ذكـرتُ آنفـاً أن المؤرخ القديم ستيفانوس يَرُدُّ اسمَها إلى اسمِ البطل دمسكوس بن الإله هرمس . وقد ذكر ابنُ عساكر سبباً آخر منقولاً عن حكماء الروم، فقـال مانصُّـه : إنما سُمِّيت دمشقُ بالروميّة ، وإنّ أصل اسمِها دَوومِسْكِس ، أي مِسْكُ مضاعَف ، لِطيبها ؛ قال : لأن (دَوُو للتضعيف، و مِسْكِس) هو المسك . ثم عُرِّبت فقيل دِمشق .

ولقد ذكرتُ وأنا أقرأ هذا النص في تاريخ ابن عساكر أن TWO في الإنكليزية معنـاهـا اثنان ، و deux في الفرنسية معناها اثنان أيضاً ، وقُرْبُهما لفظاً ومعنىً مِن (دَوو) التي هي للتضعيف، كما يقول ابن عساكر، واضحٌ جداً .

ويقـول الأستاذ عبدُ القادر الريحاوي في كتابه (مدينة دمشق) : إن الوثائق الفرعونية المكتشفةَ في تلِّ العمارنة في مصرَ تذكُر أن تْحوتْمِس الثالثَ قد فتح دمشقَ في القرن الخامسَ عشَرَ قبلَ الميلاد. وأن اسمها في هذه الوثائق دِمَشْقا .

وأما الآراميّون فقد أطلقوا عليها اسم (دارْمِسِيق) ومعناه ـ كما يرى بعض العلماء ـ الأرض المسقيّة ، أو الدار المسقية . يريدون بذلك كثرة مياهها .

هذا ، على أن اليونان والرومان . . قالوا : هي (داماسْكُس) .

كلُّ ذلك عند غير العرب، وأما أئمة اللغة من العرب فقالوا : (دَمْشَقَ) فِعلٌ معناه (أسرع)، يقال : (دَمْشَقْتُ في الشيء)، أي أسرعتُ. ويقال : (دَمْشَقَ عملَه) إذا أسرع فيه. وبالحق، لقد وصفوا الناقة السريعة فقالوا : ناقةٌ دَمْشَق ، وقد وصف الشاعر منهلاً وَرَدَه ، ممتطياً ناقةً سريعة فقال :

وردتــه[1] والـليلُ داجٍ أبْـلَقُ ... وصــاحِبي ذاتُ هِبـابٍ[2] دَمْشَقُ[3]

كأنها بعدَ الكَلالِ زَوْرَقُ

وقد يقولون أيضاً: هذه ناقة دِمَشْق . قال ابن منظور : دِمَشْق مدينة ، من هذا

---

١ ـ أي : المنهل.
٢ ـ نشاط .
٣ ـ سريعة.

أُخِذ ، قيل فَدَمْشِقوها أي ابنُوها بالعَجَلة . وقال ياقوت : قِيل سُمِّيت بذلك لأنّهم دَمْشَقُوا في بنائها ، أي أَسْرَعوا . فهي عندهم (دمشق) لأنها بُنِيت بالعجلة ، ولكنّهم لا يَذكُرون سببَ بنائها بالعَجَلة . على أن أئمة آخرين قالوا دِمَشق اسم أعجمي . ففي حاشية ابن بَرّي على كتاب (المُعرَّب) لِابْنِ الجَواليقيّ ماأُوردُ لك نَصَّه : قال أبو منصور : ودمشقُ أعجميٌّ معرَّب ، وقد جاء في أشعار العرب . قال الشاعر وهو الوليد ابنُ عُقْبَةَ :

قَطَعْتَ الـدَّهـرَ كالسَّدِمِ[٤] المُعَنَّى ... تُهَـدِّرُ[٥] في دِمَـشْـقَ ومـا تَرِيمُ

وفي تاريخ ابن عساكر أن سيف الدولة كتب إلى ابن خالَوَيْهِ يسأله عن دمشقَ هل يقال فيها (دِمَشْقَةُ) أمْ لا ؟ فأجاب ابنُ خالويه : دمشقُ اسمُ هذه المدينةِ ، ليست عربيةً فيما ذكر ابنُ دُرَيد ، إنما هي معرَّبة ، ولا يقال إلا بغير هاء . ولكن سيف الدولة ردَّ إليه الرقعة وكَتَب عليها : « قال عبد الرحمن بنُ حِسْلٍ الجُمَحِيّ ، وهو بِعَسْكر يزيدَ بن أبي سُفيان عند حصارهم دمشق :

أبـلغْ أبـا سُفـيان عنّـا بأنّـنـا ... على خيرِ حالٍ كان جيشٌ يَكـونُها

وأنّـا على بابَـيْ دِمَـشْـقَـةَ نَرتمي ... فقـد حانَ مِنْ بابَيْ دِمَشْقَةَ حِينُها »

قال ابنُ خالويه فكتبتُ تحته : « هذا جائزٌ للشاعر ، ولاسيما إذا قصد بدمشق إلى مدينـةٍ فزادَ هاءً تأكيداً للتـأنيث » . فَبَعثَ يستحضـرني ، فلما مَثَلْتُ بين يديه قلت : أيها الأمير رُبَّ عِلْمٍ كُنتَ سببَهُ ، وقد استفدتُ (دِمَشْقَةَ) ، إلا أنه في النَّحو كما ذكرتُ » .

وبعد فإن مَنْ يُعالجُ الأصلَ في تسمية (دمشق) ، أو يبحثُ في نشوئها ، لا بد من أن يكون متواضِعَ المَطامِحِ ، وأما المَسْحَةُ الأُسطورية التي أسبغَها المؤرخون عليها فإنما سببُها إعجابُهم بموقعها ، وما فيها من ماءٍ ونباتٍ ، وماشُيِّدَ فيها من صروح . وأما الأدباء فقد ألهبتْ خيالَهم وطارت به ، يقول البحتري :

---

٤ ـ الفحل من فحول الإبل .

٥ ـ هدَّر البعير : ردد صوته في حنجرته .

أمّا دمشقُ فقد أبدتْ محاسِنَها وقد وفى لكَ مُطريها بما وَعَدا
إذا أردتَ ملأتَ العينَ مِن بلدٍ مُسْتحسَنٍ وزمانٍ يُشبهُ البَلَدا
يُمْسي السحابُ على أجْبالِها فِرَقاً ويُصبحُ النَّبْتُ في صَحرائها بَدَدا
فلستَ تُبصِرُ إلا واكِفاً خَضِلاً أو يانِعاً خَضِراً أو طائراً غَرِدَا
كأنّما القَيظُ ولّى بعدَ جَيْئتِهِ أو الربيعُ دَنا مِن بَعْدِ ما بَعُدا

- ٧٠ -

اِمْتَــدَّ الأرضُ

الأرض ، هذه الكرة التي عليها الناس ، كلمةٌ مستغنية عن التعريف . ولكنْ من المفيد والطريف أن تَعلَم ، أن هذه الكلمة ليست مقصورةً على الأرض التي نحن عليها ؛ إذ كلُّ شيءٍ يَسْفُلُ ويقابل السماءَ يقال له في العربية (أرض) أيضاً .

قال الشاعر يصف الفرس :

وأَحْمَــرَ كالــدِّيبــاجِ أَمّـا سَمــاؤُهُ ... فَرَيّا ، وأمّــا أَرضُــهُ فَمُــحُــولُ

أراد الشاعر أن أعالِيَ هذا الفرس ممتلئة ، وأن قوائمَه دقيقة . فسماء الفرس هنا أعلاه ، وأرضُه قوائِمُه . قال ابنُ سِيدَه في المخصَّص : (وأرضُ الدابّة قوائمُها) . قال : (وهي استعارة، كما قالوا لِأعْلاها : سَماء) . وأنشد :

إذا ماآسْتَحَمَّتْ أَرْضُــهُ مِن سَمــائِهِ ... جَرىٰ وهــو مَوْدُوعٌ ووَاعِـدُ مَصْـدَقِ

وقال صاحب اللسان : يقال بعيرٌ شديدُ الأرض ، إذا كان شديد القوائِم .

وقد يطلقون كلمةَ (الأرض) أيضاً، على أسفل القوائم . قال الشاعر يصف فرساً : « ولَمْ يُقَلِّبْ أرْضَها البَيْطَارُ »

يعني لم يقلِّب البَيْطارُ أَسْفَلَ قوائِمِها لِعِلَّةٍ فيها . وإذا استُعْمِلت في الإنسان فهي رُكبتاه فما تحتَهما . وأُوجز لكَ ماتقدم :

الأرضُ : كلُّ ماسَفَلَ ، فمن النَّعْل : ماأصابَ الأرضَ ، ومن الإنسان ركبتاه فما تحتَهما، ومن الدابّة قوائِمُها ؛ وأَسْفَلُ قوائِمِها أيضاً . قال الزمخشري في الأساس : ويقال : مَنْ أطاعَني كنتُ له أرضاً : يُراد التَّواضُع .

وكانوا يقولون للغريب : هو ابنُ أرض ، يريدون أنه غريب لا يُعرَفُ له أبٌ ولا أمّ . قال اللَّعِيْنُ المِنْقَرِيّ :

دَعانِي ابنُ أرضٍ يَبْتغي الزادَ بعدَما ... تَرامَــتْ حُلَيْمــاتٌ به وأَجَــارِدُ

وبعدُ ، فقَبْلَ حين جاءتني رسالة من حلب يقول مُرسلها : « من خلال مطالعاتي رأيت أن الأرض تؤنث وتذكر فهل يجوز ذلك »؟ وفي الجواب أقول : أمّا أنها تؤنث، فهذا مُجْمَعٌ عليه . ففي الصحاح والقاموس : الأرض مؤنثة . وفي المُخَصَّص ، أورد ابنُ سِيدَه كلمةَ (الأرض) في باب : « مايؤنَّث من سائر الأشياء ولا يُذَكَّر » وقال : (الأرض مؤنثة) . وفي اللسان : «الأرضُ التي عليها الناس : أُنثى» . وعلى هذا جميعُ الأئمة . قال تعالى :﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلزالَها ، وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقالَها ﴾ [1] .

ويجمعها الناس اليوم كثيراً على « أراضٍ » . ولكنّ لها جموعاً أخرى، إذ تُجمع على « أُرُوض، وآراض وأَرَضَات » ، ويُلحِقونها بجمع المذكر السالم ، فيجمعونها على (أَرَضُون) . قال ابنُ سِيدَه في المخصَّص : « وجمعوها بالواو والنون ، وإن كان ذلك من خواصّ مَنْ يَعقِل ، ذَهاباً إلى تفخيمها » . وقد يسكّنون الراء فيقولون : (أَرْضُون) . قال عَمْرو بنُ شَأْس :

وَلَنَا مِنَ الأَرْضِيْنَ رابِيَةٌ ... تَعْلُو الإكامَ وَقُودُها جَزْلُ

الأرض إذاً مؤنث . وأما أنها تذكر ففيه نظر : وذلك أن الإجماع منعقدٌ على تأنيثها ، فإذا رأيت الفعل معها مذكراً فلسبب ، أبيّنه لك في مسألتين :

المسألة الأولى : أن يكون ذلك ضرورةً شعرية . قال الفَيوميّ في المصباح : « وربما ذُكِّرتِ الأرضُ في الشعر على معنى البِساط » . وفي هذا النص أمورٌ ثلاثة يَحْسُن توجيهُ النظر إليها ، وهي :

أولاً : قولُه : « ربما »، وهذا يعني أن تذكير الفعل معها قليل .

ثانياً : قوله : « في الشعر »، ويعني أن ذلك لا يأتي في النثر ، فتذكيرُها إذاً على غير الأصل .

ثالثاً : قوله : « على معنى البساط »، ويعني ذلك أن الشاعر إذا لم يُرِدْ بكلمة

١ ـ الزلزلة / ١ ـ ٢

(الأرض) معنى البساط، أو معنى الموضع، أو المكان، مثلاً، لم يَجُزْ له أن يُذكِّرَها .

ومع ذلك، فإن تذكير الأرض ـ وإن كان على معنى البساط أو الموضع أو المكان ـ نادرٌ حتى في الشعر. ولا أعرفِ في الشعر العربي الذي يُحْتَجُّ به أن (الأرض) استُعملت مذكّرةً إلا مرةً واحدةً في بيتٍ يُنْسَب إلى عامرِ بن جُوَيْنٍ الطائيّ ، وهو شاعر جاهلي، قال يصف أرضاً مخصبة لكثرة مانزل بها من الغيث :

فلا مُزْنَــةٌ[2] وَدَقَـتْ[3] وَدْقَـهَـا ولا أرضَ أَبْـقَـلَ[4] إبْـقَـالَـهَـا

وقد حَذَف التاءَ فقال : (ولا أرض أبقل) فذكّر . ولم يقل : (ولا أرض أبقلت) . وقد وقف الأئمة عند هذا البيت، وبحثوا في هذه المسألة، فأكثروا البحث . منهم سيبويهِ والفَرّاءُ والمبرِّد وابنُ سِيْدَهِ وابنُ جنّي والزمخشريُّ وابنُ هشام والبغداديُّ الخ . . وأَجْتزِئُ بشيء من ذلك، خشيةَ الإطالة ؛ قال ابنُ سِيدَه : فأما قوله :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

فإنه ذهب بالأرض إلى الموضع والمكان، كقوله تعالى : ﴿ فلمّا رَأى الشمسَ بازغَةً قال هذا ربّي ﴾ [5] أي هذا الشخصُ وهذا المَرئيُّ ونَحْوُه . وقال ابنُ عصفور« ذكّر الأرضَ لأنها بمعنى المكان ، فكأنه قال « ولا مكانَ أَبْقَلَ إبْقالَها » . والبغداديّ في الخزانة يقف عند هذا البيت فينقل آراء العلماء في ذلك، ويُبدي رأيه أيضاً . فمن ذلك :

أولاً : الأرض مؤنثة، لا يجوز فيها التذكير إلا بتأويل بعيد، وهو أن يُراد بها المكان .

---

٢ ـ المزنة : السحابة

٣ ـ ودقت : أمطرت .

٤ ـ أبقلت : أخرجت بقلها

٥ ـ الأنعام / ٧٨

ثانياً : تذكير الأرض في هذا البيت ضرورة ؛ على معنى المكان . وهو قبيح .

ثالثاً : قيل إن رواية البيت هي : (ولا أرضَ أَبْقَلَتِ آبْقالَها) بالتاء، وإسقاطِ الهمزة. وعلى ذلك لا ضرورةَ في البيت ، و (الأرضُ) مؤنثة على الأصل.

رابعاً : قيل إن رواية البيت هي : (ولا روضَ أبقلَ إبقالَها) ، والروض مذكّر، فلا ضرورة في البيت .

المسألة الثانية : أن ماثار من نقاش علمي حول هذه الكلمة، ليس سببه أنّ الأرض تذكر وتؤنث ، فهي مؤنث دوماً، وإنما سببُه أن (الأرض) مؤنث غير حقيقي، يعني هي مؤنثَ، ولكن ليس لها مذكّر . والمؤنث غير الحقيقيّ ـ كالأرض مثلاً ـ إذا تقدّم وجب تأنيث الفعل بعدَهُ . يعني وجب أن تقول مثلاً : (الأرضُ أبقلت). ولكن الشاعر خالف هذه القاعدة فقال : (الأرض أبقل)، ولذلك قال النحاة : هذه ضرورة شعرية . ولكنّ لهذه القاعدة تتمّةً تُجيب عن سؤال الأخ صاحب الرسالة، وهي : أن المؤنث غير الحقيقي ـ كالأرض مثلاً ـ إذا جاء بعد الفعل جاز التأنيث والتذكير. يعني جاز أن تقول :

أبقلتِ الأرض ، وأبقل الأرض.
وامتدّتِ الأرضُ ، وامتَدّ الأرضُ.
واتّسعتِ الأرضُ ، واتّسعَ الأرضُ وهكذا. . . .

فإذا قيل : وما الشاهد على ذلك ؟ قلنا : إليكَهُ من كتاب الله :

كلمة (بَيِّنَة) مؤنث غير حقيقي ، يعني هي مؤنث ، ولكن ليس لها مذكر. فانظر كيف استُعملت في آيتين :

ففي سورة الأنعام : ﴿ فقد جاءَكُم بَيِّنَةٌ من رَبِّكُم ﴾[٦] . (جاءكم) : مذكر ، و(بيّنة) بعده، مؤنث غير حقيقي .

---

٦ ـ الأنعام / ١٥٧

وفي سورة الأعــراف : ﴿ قد جاءَتْكُمْ بَيِّنَـةٌ مِنْ رَبِّكم ﴾ [٧] . (جـاءتكم) : مؤنث، و(بيّنة) بعده، مؤنث غير حقيقي .

فإذا رأيت في نص فصيح : (امتد الأرض) مثلاً، فليس معنى ذلك أن الأرض مذكر . وإنما معناه أن : (الأرض) مؤنث غير حقيقي ، فإذا سَبَقَتْ فِعْلَها وَجَبَ تأنيثُه . قال تعـالى : ﴿ وإلى الأرض كيف سُطِحَت ﴾ [٨] . وإذا تَلَتْ فعلَهـا جاز تأنيثُـه وتذكيرُه : (جاءتكم بينة) و(جاءكم بينة) .

---

٧ ـ الأعـراف / ٨٥

٨ ـ الغاشية / ٢٠

- ٧١ -

جلس وقعد

مدينة (السَلَمِيّة) كما يسميها خطأً كثير من الناس ، مدينة سورية قديمة معروفة ، صحيحُ لفظِها (سَلَمْيَة).

يروي ياقوت أن تاريخها يرتدّ في عمق الزمان إلى الأيام التي أنزل الله فيها العذاب بأهل المُؤْتَفِكَة . وذلك أن الله تعالى رَحِمَ مِن أهل المؤتفكة مئةَ نفس ، نجّاهم فانتزحوا إلى مايسمّيه الناس (السَلَمِيّة) ، فَعَمَرُوها وسكنوها .

فاسمُها إذاً ناشىء مِن (سلامة) هذه الفئة من العذاب ، وأنهم مئة . فالأصل على هذا : (سلم مئة) .

قال ياقوت : (سَلَمْيَةُ بُلَيْدة في ناحية البريّة ، من أعمال حماة . بينهما مسيرة يومين ، ولايعرفها أهل الشام إلا بسَلَمِيّة) . ثم عاد مرة أخرى فقال : وأهل الشام يقولون : سَلَمِيّة .

وقد ورد اسمها في شعر المتنبي إذ قال يصف خيل سيف الدولة ، وما أثارته من الغبار على سَلَمْيَةَ في طريقه إلى حرب بني كعب :

تُثِيرُ على سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرّاً[1] تَناكَرُ تحتَه لولا الشِعارُ[2]

فاسمُها إذاً سَلَمْيَة : مُسكّنة الميم مخففة الياء . فإذا نسبتَ إليها قلتَ : هذا رجل سَلَمانيّ .

قدمت بهذا لأقول : إن أحد الإخوة السَلمانِيّين ، كَتب إليّ قبل حين يعيب لغتي ويتهمني بكثرة الخطأ . ومع أنه لم يذكر مِن أخطائي الكثيرةِ إلا كلمةً واحدة ، سأدير حولها حلقة اليوم ، فإنه قال مانَصُّه الحرفيّ : (في الوقت الذي تبني فيه من جهة ، تهدم من جهة ثانية ماكان مبنيّاً أساساً) .

١ - يريد غبارا ممتدًا .

٢ - يريد أن الخيل لا يعرف بعضُها بعضاً تحت هذا الغبار ، لولا العلامة التي يتعارف الفرسان بها .

وقبل أن أفند دعواه أقول : إن صدري لايضيق بالنقد . فإذا كان بنّاءً فبها ونِـعْمَتْ ، وإذا لم يكن كذلك عددتُه مِن هموم هذا البرنامج . فلكلِّ عملٍ همومُه ، وهذا البرنامجُ عمل ، فهذا البرنامج له هموم . كما يقول أصحاب المنطق . فمِن همومه مثلاً أن يستعملِ أحدُهم اسمين مستعارين ويكلِّفَ نفسَه ـ وقد نَيَّفَ على الستين وأشرف على السبعين ـ أنْ ينظِم قصيدتين في هجائي . ولقد شاء الله فعرفتُ من هو . وأقول : ليت هجاءه كان شِعراً حقاً ، فقد تُغْضي عن الصَّلَع إذا أعجبتكَ الجُمَّة[3] !! قال يمدح أئمة اللغة بعد أن هجاني :

يَـنْهَـلُ واحـدُهُم سحـابـاً ساقِياً   عَطَشَ النفوس بماءِ نَبْعٍ سَمَاوِي !!

فهل هذا شعر ؟ هذا لاشيء ، ولذلك لا يُنْقَد من الوجهة الشعرية . وأما لغة البيت فأقف عند شيء منها ، لأن الناظم أقام من نفسه أستاذاً في اللغة .

قال : (ينهلّ واحدُهم) وهذا دليلُ جهل باللغة . فأنت تقول : (النحاةُ كثير ، ولكنّ سيبويهِ واحدُهم) ، و (الشعراءُ كثير ، ولكنّ امرأ القيس واحدهم) ، و(علماءُ الاجتماع كثير ، ولكنّ ابنَ خلدون واحدهم) .

فيكون معنى قولك هذا : هو المتقدم عليهم ، والذي لامِثْلَ له بينهم . هاجينا يريد أن يقول : (ينهل أحدهم) فقال : (ينهل واحدهم) وهذا جهل بمعنى التركيب واستعماله .

وقال : (بماءِ نبعٍ سماوي)!! والنَّبْعُ مصدر ، معناه نُبُوع الماء . واستعمالُه بمعنى عينِ الماء جهل . وعلى ذلك يكون معنى البيت : (ينهلّ المتقدمُ عليهم جميعاً !! ، سحاباً ساقياً عطشَ النفوسِ ، بماءِ خُروجِ الماءِ سَماوِي) فتأمل !!

ومن هموم هذا البرنامج : أن يكتب أحدهم إليك يقول : أكلمة الصيداوي منسوبة إلى صيدا أم صيدنايا أم صدد أم صيدون ؟

فإذا بحثتَ في المسألة فجددتَ وهو يجدّ ، ضحك المشاهدون ؛ وإذا

---

٣ ـ الجمة : الشعر المستعار .

جددتَ وهو يهزل ، ضحك وضحكوا ؛ ومع ذلك فإنّ الصيداوي منسوب إلى صيداء ، وهي نسبة معروفة منذ العصر الجاهلي .

أخيراً من هموم هذا البرنامج ـ وماذكرتهُ لك غيضٌ من فيض ـ ماأدير حوله حلقة اليوم ، وهو تخطئة الأخِ السلمانيِّ لي . فقد قال : « أنت قلت في أحد الأمثلة : (جلست سعاد على الكرسي) وهذا غلط ، والصحيح أن تقول : (قعدت سعاد على الكرسي) ، لأن الجلوس يكون من النوم والاستلقاء ، والقعود : يكون من القيام ؛ أليس هذا عين الصواب » ؟

وفي الجواب أقول : مسألة قعد وجلس ، مسألة قديمة . وقف عندها أئمة اللغة وبحثوا فيها وإليكَ طَرَفاً من ذلك .

أولاً : الجلوس :

أصل المادة (الجَلْس) ، وهو كلّ مرتفعٍ من الأرض ، وبه سُمِّيَتْ أرض نجدٍ لارتفاعها عن الغَور . وكانوا يقولون : (جلس فلان) إذا أتى نجداً . قال مروان بن الحكم :

قُلْ للفرزدقِ والسفاهةُ كآسمِها　　　إنْ كنتَ تاركَ ماأمَرْتُكَ فاجْلِسِ

أي : ائتِ نجداً .

والجَلْسُ : الجبل ، وقيل هو الجبل العالي الطويل ، والجَلْسُ الجَمَلُ الجسيم ، قالوا سُمِّيَ جَلساً لطوله وارتفاعه . وتلاحظ أن معنى الارتفاع يسري في نُسْغ المادة .

قال صاحب التاج : هذا هو الأصل في المادة ، ومنه سُمِّيَ الجُلوسُ : وهو أنْ يَضَعَ مَقْعَدَه في جَلْسٍ من الأرض ، كما صرح به أربابُ الاشتقاق .

ثانياً : القعود :

قال الجوهريّ وقد توفي عام **٣٩٣** هـ : (قَعَدَ يَقْعُدُ قُعوداً ومَقْعَداً : أي جلس) ، فلم يُفَرِّق بين معنى المادتين ، قال : (قعد أي جلس) .

ثم جاء الراغب الأصفهاني ، وقد توفي بعد الجوهريّ بنحو مئة عام ،

فقال : (القعود : يُقابَلُ به القيام) . فجعل القيامَ ضِدَّ القعود، ففرّق .

ثم جاء المُطَرِّزيّ صاحب المُغْرب ، وقد توفي بعد الراغب بنحو مئة عام ، فقال : (قَعَدَ قُعوداً خِلافُ قام) ، ففرّق .

ثم جاءَ ابنُ منظور ، صاحبُ اللسان ، وقد توفي بعد ذلك بنحو مئة عام فقال : (قعد يقعد قُعوداً ومَقْعَداً أي جلس) ، فرجع إلى قول الجوهري فلم يفرق بينهما . ثم حين ترجم مادة (جلس) قال : (الجُلوس : القُعود) .

بعد ذلك بنحو خمسمئة سنةٍ ، يتوفى الزَبيديّ صاحب التاج . وقد عرض للمسألة ، وفصّلَ القولَ فيها تفصيلاً ، قال : [القُعود (بالضم) والمَقْعَد (بالفتح) : الجلوس . وكَوْنُ الجُلوسِ والقعودِ مترادفَيْن اقتصر عليه الجوهري وغيرُه] ؛ يعني لم يقولوا غيرَ ذلك . ثم تابع فقال : (ورَجَّحَه العلّامة ابنُ ظَفَر) .

فعند الجوهري (اقتصار) ، وعند ابن ظَفَر (ترجيح) . ولكي ينبّه الزبيدي على رصانة قولِ العلامة ابنِ ظفر قال : (ونَقَلَه عن عُرْوة بنِ الزبير ، ولاشك أنه من فرسان الكلام كما قاله شيخنا) .

هذا حكم جليل ، فكأن الزبيدي يريد به أن يقول لك : انتبه ، إن الذي قال : (القعود هو الجلوس) ليس رجلاً مُدّعيَ عِلم ، بل هو من فرسان الكلام ، إنه عروة بنُ الزبير . وزِدْ من انتباهك ، فلستُ الذي حَكَمَ لِعروة بذلك ، بل شيخُنا حَكَمَ به .

فعروةُ يعرف مواقع الكَلِم ، وعُروة لايقول هَذَراً ، وعُروة قال : (القُعود هو الجلوس) .

ولقد أورد صاحب التاج آراء الأئمة في هذه المسألة ، ثم ختم كلامه فقال : (والله أعلم) .

فالزبيدي يتحرّجُ فلا يقطع ، بل يقول (والله أعلم) ، والأخ صاحب الرسالة يقول : (أنت أخطأتَ إذ قلتَ : جلست سعاد على الكرسي) . ويريد ألا نقول : (جلست سعاد) ، إلا إذا كانت ساجدةً أو مضطجعةً ثم استَوَتْ .

جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ سمع أعرابياً يقول : « اللهم ارحمني ومحمداً ، ولاترحم معنا أحداً » . فقال الرسول للأعرابي : (لقد حَجَّرْتَ واسعاً) ، أي (ضَيَّقْتَ واسعاً) . ولنا في رسول الله أُسوةٌ حَسَنَة . ولذلك نقول للأخ السلماني : (لِمَ تحجِّرُ واسعاً) ؟

ومع ذلك ، فإن من يحتكم إلى النصوص ومعانيها ، يأبى أن يكون الجلوس عن اضطجاع أو سُجود حَصْراً .

قال رسول الله (ص) : (إياكم والجلوسَ في الطرقات) ؛ فهل يَتَصَوَّر أحدٌ في الدنيا ، أنه (ص) ينهاهم عن أن يكونوا مضطجعين أو ساجدين فيجلسوا من اضطجاع أو سجود في الطرقات ؟! . هذا لايتصوره أحد ، لأنه مضحك . ورسول الله (ص) لايقول مضحكاً ، ولايخطىء في اللغة .

ثم إن العرب تقول للرجل الكثير الجلوس : (فلان جُلَسَة) ؛ فهل يُتَصَوَّر أنهم يعنون بذلك رجلاً يضطجع ويستوي ، ثم يضطجع ويستوي ، ثم يضطجع ويستوي ، حتى يقال له : (جُلَسَة) ؟! هذا لايُتَصَوَّر ، لأنه أقربُ إلى صورة المُوَسْوِسِ أو المجنون .

ثم ماذا تقول في قولهم : (فلان جَليسُ المَلِك) ؟ أتقول : إنه يضطجع ثم يستوي عند الملك ؟!

ثم ماذا تقول في (المَجْلس والمَجَالس) ؟ أهي أماكنُ اضطجاعٍ واستواء ؟ والله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قِيلَ لكمْ تَفَسَّحُوا في المَجالِس فافْسَحُوا يَفْسَحِ الله لكم ﴾[٤] .

أخيراً لن أختم هذه الحلقة حتى أنقل إليك مانَصَّ عليه الزمخشري في أساس البلاغة . قال : (رآني قائماً فاستَجْلَسَني) . فما تقول في هذا النص القاطع ؟ أتقول : إن الزمخشري يَهْدِم ، كما قلتَ لي : إنني أهدم .

سعاد ـ أيها الأخ ـ كانت قائمةً !! فقدّم إليها أحدُ المُهَذّبِينَ كرسياً فجلست عليه !! وأنا لم أهدم ؛ وأنت حجَّرتَ واسعاً .

٤ ـ المجادلة / ١١ .

- ٧٢ -

المعوقات

في ممر من بناء الإذاعة والتلفزيون سألني بالأمس أحد السادة المذيعين ، أنقول : «مَعُوقات ـ أم مُعِيقات ـ أم معوِّقات » ؟

قلت : ما المعنى الذي تريد أن تستعمل فيه الكلمة ؟ قال : أريد أن أُعبّر عمّا يُعرقل التقدمَ الاجتماعي والاقتصادي .

حول مادة (عاق) التي يَرتَدُّ إليها السؤال أُدير هذه الحلقة .

الفعل في الأصل : (عاقَ ، يَعُوْق) وهو فعلٌ مُتعَدٍّ بنفسه ، أي : ينصِبُ مفعولاً به بغير واسطة . تقول مثلا : (عاقَهُ الأمرُ الفلانـيُّ ، يَعُوقُه) . وقد يتعدّى بـ (عن) فتقول : (عاقَهُ الأمرُ عن الشيء الفلانـيِّ)، و(عاقَهُ الأمرُ عَمّا يُريد) . كلّ ذلك معناه : أخّره وثَبّطه ومَنَعه .

فاسمُ الفاعل إذاً (عائق) ، مثل : (قال يقول فهو قائل) .

يقـال : (عاقني عائق) ، أَيْ منعني مانـع . ويقـال : (أَخَّرَتْني عائقةٌ من عوائق الدهر) . أَيْ : أخرتني شواغلُ الدهر وأحداثُه .

قال أبو ذؤيب الهذلي :

ألا هَلْ إلى أمّ الخُوَيْلِدِ مُرْسَلُ ... بَلىَ خالدٌ ، إنْ لَمْ تَعُقْهُ العوائقُ

على هذا ، أقـول للأخ المـذيع : قُل : (هذا عائقٌ اقتصاديّ) ، و(هذه عوائقُ اقتصاديّة) . لأنّ الذي يَعُوق هو (عائق) كما أَنَّ الذي يَقُولُ هو (قائل) ، والذي يروح (رائح) والذي يسوق (سائق) . . .

أمـا اسمُ المفعول فهو في الأصل (مَعْوُوق) ، ولكنّ العرب لا تُسِيغ لفظَ (مَعْوُوق) ، ولذلك يحذفون واوَ المفعول ، ويقولون (مَعُوْق) .

وعلى هذا ، فالطفلُ الذي تَأَخَّر عن أنْ يكون تامَّ الصحة ، أوْ تامَّ العقل ، يقال فيه : (إنه مَعُوْق) . أي عاقَهُ مَرَضُهُ عن أنْ يكون تامَّ الصحة .

فالـذي يَعُوقُهُ شيء من الأشياء (مَعُوْق) ، كما أنّ الذي تقولُه (مَقُول) ، والذي تَرومُهُ مَرُوْم . . .

على أنَّ في المادة صيغةً أخرى تُناسِب السؤال هي : (عَوَّقَهُ يُعَوِّقُه تَعْويقاً) ، ومعناها معنى (عاقَ) ، أي أخَّره وثبَّـطه . فالتَّعْويقُ إذاً هو التَّثْبيطُ والتَّأْخير ، واسمُ الفـاعـل (مُعَـوِّق) أيْ مُثَبِّط ومُـؤَخِّـر . قال تعـالى : ﴿ قد يَعْلَمُ اللهُ المُعَـوِّقِينَ منكم ﴾[1] . أيْ يعلم المثبطِّين من المنافقين الذين كانوا يُعَوِّقون أنْصارَ النبي (ص) ويُثَبِّطُونهم عن نُصْرَته .

وعلى هذا يجـوز أن يقـول الأخُ المـذيع أيضـاً : (مُعَـوِّقٌ اقتصاديّ) ، و (مُعَوِّقاتٌ اقتصاديّة) . وأمّا الطفلُ الذي عَوَّقَه مرضُه عن أنْ يكونَ تامَّ الصحة فهو : (طفلٌ مُعَوَّق) . لأنَّ شيئاً من الأشياء عَوَّقَه ؛ والصيغةُ المعبِّرة عن ذلك هي صيغةُ اسم المفعول : (مُعَوَّق) .

يَبْقى قبلَ أنْ أختِم البحث أنْ أُوَجِّه النَّظرَ إلى مسألتين :

الأولى : أنَّ صيغـةَ (تَعَـوَّقَ) أيْ (تَـأَخَّرَ) صيغةٌ سليمةٌ فصيحة . ولكنّنا لا نستعملهـا في الكتـابة ، بل نتركها للعامّة ، فتستعملها بعد أنْ تَقلبَ القافَ همزةً فتقول (تعوّأ) أيْ تأخّر .

والثانية : أنَّ ما يُوْثَقُ به من المعاجم لا يُوردُ صيغة : (أعاقَ يُعيق) ، لأنّها صيغـةٌ لم تستعملها العرب . ولذلك لا يَصحُّ أنْ نقول : (هذا مُعيقٌ اقتصاديّ ، وهذه مُعيقاتٌ اقتصادية ، وهذا الطفلُ مُعاق) . وأشدُّ من هذا إيغالاً في الغلط أنْ يُقال للأشياء التي تَعُوقُ الاقتصاد (هذه مَعُوقاتٌ اقتصادية) .

---

١ ـ الأحزاب/ ١٨ .

- ٧٣ -

اللغات السامية

أَقدمُ ما وصل إلينا عن أنساب الأمم والشعوب ، أن نُوحاً كان له ثلاثةُ أبناءٍ : سام وحام ويافث ، وأنهم رُزقوا بعدَ الطوفان أبناءً . وعلى ذلك فإن بني البشْر جميعاً إنما هم أبناءُ هؤلاء الإخوة الثلاثة ، مهما تختلفْ مواطنُهم ولغاتُهم .

ولقد بحث العلماء في اللغات التي كانت شائعة في بلاد آسِيَة الدنيا ، وقسمٍ من إفريقيّة ، فوجدوا رابطةً لغوية لا شكَّ فيها ، تَنْظِم لغاتِ شعوبها . فأما تلك الشعوبُ فأطلقوا عليها مصطلح (الأمم السامية) نِسبةً إلى سام بن نوح . وأما لغاتُها فأطلقوا عليها مصطلح (اللغات السامية) وأذكر لكَ منها : العربية الجنوبية ، والحبشية ، والعربية الشمالية ، والعبرية ، والفينيقية ، والأكّاديّة الخ . . .

وأنعَموا النظرَ في تلك الرابطة اللغوية التي ذكرناها آنفاً ، فساقهم ذلك إلى أن هذه اللغات إنما هي فروعٌ تفرّعت عن دَوْحةٍ واحدة . فهناك إذاً لغة أصلية واحدة كان الساميّون جميعاً ينطِقون بها . ثم إنهم تكاثروا وازداد عددهم ، فغَدَوْا قبائلَ منتشرةً في مِنطقة بعيدةِ الأطراف . فكان لكل قبيلةٍ منهم لهجةٌ .

ثم مازالت لهجاتُهم تتباعد ، ومازالت هِجراتُهم تزيد في هذا التباعد ، حتى أمست تلك اللهجاتُ لغاتٍ لا يَرُدُّها إلى أصلها الأول إلا البحثُ الدقيق ، والتأمّلُ ، وإنعامُ النظر .

ولقد بحث العلماء المحدَثون في ذلك ، ودققوا وأنعموا النظر ، فكان من نتائج عملهم أنْ وجدوا في تلك اللغاتِ سماتٍ مشتركةً منها ماأُورده لك :

١ ـ من السمات المشتركة أن أصل الكلمة في الغالب ثلاثةُ أحرف ، ليس منها حروف العلة ، أي الألف والواو والياء ، مثال ذلك : ضرب وقتل وفتح الخ . . وإن كان لهذا شُذوذ .

٢ ـ من السمات المشتركة أن الكلمة قد تتألف من حرفين : فمن الحروف مثلاً قد ، بل ، عن الخ . . ومن الأسماء مثلاً يَد ، دَم الخ . . ومن الأفعال عند التصريف قُلْت رُمْت قُمْت الخ . . .

٣ ـ من السمات المشتركة أن الكَلمة تَظَل تحافظ على ترتيب حروفها مهما تُدِرْها عند تصريفك لها ، مثالُ ذلك أن (القاف والتاء واللام) فيها معنى عامٌ هو (القتل) ، فإذا احتاج المتكلم إلى تصريف هذا المعنى العامِّ ، فإنه يستعين على ذلك بالألف والواو والياء والفتحة والضمة والكسرة .

فبالألِف بعد القاف : (قاتِل) يَدُلُّ على اسم الفاعل .

وبالواو بعد التاء : (مقتول) يَدلُّ على اسم المفعول .

وفي الدلالة على حدوث الفعل الماضي ، يستعين بالفَتَحات : قَتَلَ .

وفي الدلالة على حدوث الفعل المضارع ، يستعين بالياء مثلاً والحركات فيقول : (يقْتُلُ) وهكذا وهكذا . .

٤ ـ مِن هذه السمات أيضاً أنك تجد عدداً كبيراً من الكلمات المشترَكة في اللغات السامية على اختلافها . وقد صنع الدكتور ولفنسون معجماً صغيراً من تلك الكلمات . إليكَ شيئاً منه :

أَبٌ	عربي	أَبُو	آشوري بابلي	أَبْ	عبري	أَبا	آرامي	أَبْ	جنوب الجزيرة والحبشة
بَيْت	عربي	بِتُو	آشوري بابلي	بَيت	عبري	بَيْتَا	آرامي	بيت[1]	جنوب الجزيرة والحبشة
ثُوم	عربي	شومُو	آشوري بابلي	شُوم	عبري	تُوما	آرامي	سومَات	جنوب الجزيرة والحبشة
شَمْس	عربي	شَمْشُو	آشوري بابلي	شمس[2]	عبري	شمْشا[3]	آرامي	شَمْس	جنوب الجزيرة والحبشة

على أن هذا الذي استَنْبَطَه العلماءُ قد أَنشأ أَسئلةً منها ما أذكره لك :

أولاً : إذا كان الساميون قد كانوا شعباً وحداً ، فما مهدُهُم الأول ، ما موطنُهم

---

١ ـ حركة الباء تدنو من لفظ (é) الفرنسية .

٢ ـ حركة الشين الأولى والميم تدنو من لفظ (é) الفرنسية .

٣ ـ حركة الشين الأولى تدنو من لفظ (é) الفرنسية .

الأصلي ؟ لم يتّفق العلماءُ في هذا ، بل اختلفوا فيه اختلافاً بعيداً . فبعضهم يقول : إن مهدهم الأول هو أرْمِينِيَة . وآخرون يقولون : بل مهدُهم الأولُ أرضُ بابِل ، على نهر الفرات . وفريقٌ ثالث يقول : إن مهدَهم الأولَ هو الجزيرة العربية . وإن هِجرات معظم الساميّين إنما انطلقت من أرض الجزيرة .

وليس عجيباً أن يختلف العلماء في هذا . فأغوار الزمان سحيقة ، وهناك التاريخُ وماقبلَ التاريخ . وهناك مايمكن البتُّ فيه اليوم ، وهناك ما لم يمكن البتّ فيه حتى اليوم .

ثانياً : إذا كان الساميون أمماً وشعوباً ، ولكلٍ لغة ، فأي هذه اللغات أقربُ إلى السامية الأصلية ؟ وفي هذا اختلافٌ أيضاً ، أُلِمُّ به إلماماً رفيقاً :

١ ـ أَحْبارُ اليهود قديماً ادّعَوا أن العِبرية أقدمُ لغة في العالم . ولكنّ آدِعاءَهم هذا كان ومايزال دَعوى بغير دليل .

٢ ـ قال أولسهوزن في مقدمة كتابه عن اللغة العبرية ، وقد نقل عنه الدكتور إسرائيل ولفنسون : (إن اللغة العربية هي أقربُ لغات الساميّين إلى اللغة السامية القديمة) . وأيّد رأيَه هذا بجملةٍ من الأدلة ، ارتاح لها كثيرٌ من علماء الغرب .

٣ ـ إن مستشرقين كثيرين وجدوا أن من العبث البحثَ عن أقرب لغة ساميّة من السامية الأصلية ، ذاك أن ماطرأ على تلك اللغات مِن تقلُّبٍ وتغيّر وتطوّر لا يكاد يحصى ؛ فكيف يمكن اليومَ البتُّ في هذا والقطْعُ به ؟

وبعد فإن البحث طويل عريض عميق ، حتى لقد عنّاني إيجازُه ، واللغات السامية عموماً ليست غايتي ، وإنما الغايةُ العربُ واللغة العربية ، فعَن هذا سُئِلتُ . ولقد أُوردتُ ماأَوْردتُه في هذه الحلقة ، لكي لا يكون الحديثُ ناجماً بغير جذور ؛ ورجعتُ إلى الأقدمِ لأَصِلَ به القديمَ في الحلقة المقبلة .

- ٧٤ -

العـــرب

كنت في الحلقة السابقة بحثتُ في نشوء الأمم السامية واللغات السامية . وذكرتُ وأنا أختم تلك الحلقة أن ذلك إنما كان تمهيداً للبحث في كلمة (العَرَب) .

وكـان الـذي ساق إلى هذا البحث رسـالـةٌ جاءتني من منبج تقول : ما أَصْلُ كلمة (العرب) . ثم لَقِيَني في الطريق شابٌّ يَنْضَحُكَ بفُتُوَّته فقال لي : أنا عربي ، ولكنني لو سافرت إلى أمريكا وسألني أمريكيٌّ ما أصل كلمة (العرب) لما عرفتُ كيف أجيبه !!

فعزمت أن أدير حول ذلك حلقة الأمس وحلقة اليوم .

(العرب) أمة سامية ، وقد بينت ذلك في الحلقة السابقة ، وتُطلق كلمة (العرب) اليوم ، فتـدل على أمّـةٍ يسكن أبناؤها شبه الجزيرة العربية ، ومناطقَ أخرى من إفريقيّة . ويتكلمون لغةً واحدة هي اللغة العربية .

وإذا كان لكل قطر من أقطار هذه الأمة لهجةٌ محلية ، فإن هذه اللهجاتِ ترجع إلى لسـان عربي واحـد ، يربط الحـاضـر بالمـاضي : سمـاتٍ وثقافةً وتراثاً وتاريخاً . فكلمة (العرب) إذاً مصطلح ، متى أُطلق حَمَل إلى ذهن المستمع معنىً قوميّاً واضحاً . يقول أبو تمام من قصيدته في وصف معركة عَمُّورِيَّة ، وقد ذكر حالَ الروم وحالَ العرب ، عند انتهاء المعركة :

أَبْقَتْ بَنِي الأَصْفَــرِ المِمْـراضِ كَآسْمِهِمُ صُفْــرَ الــوُجُــوهِ وَجَلَّتْ[1] أَوْجُـهَ العَـرَبِ

فترى كلمة العرب في البيت تحمل إلى ذهنك معنى الأمة ، معنى القومية . فمتى اكتست كلمـة العـرب هذا المعنى القـومي ؟ في الجواب أقول : إن أول من أَلْبَسَ كلمةَ (العرب) لِباسَها القوميَّ ، هو القرآن الكريم ، هو الذي جعلها مصطلحاً يدل على القومية . ففي سورة النحـل :﴿ ولقـد نَعلَمُ أنهم يَقُولونَ إنّما يُعَلِّمُه بَشَرٌ ، لسانُ الذي يُلْحِدُونَ إليهِ

١ ـ جَلَّىٰ : هنا فعل متعدّ ، وهو من قولهم : جلّى النهارُ الظلمةَ : إذا كَشَفَها .

أَعجميٌّ وهـذا لسـانٌ عربيٌّ مُبين ﴾ [٢] . أي لسـانُ الذي يزعمون أنه يُعَلِّمُكَ أعجميٌّ لا يُفْصِح ، وهذا لسانٌ عربي مبين .

فقد نَسَبَ اللسان إلى (العرب) ، وفي نسبةِ اللسانِ إلى (العرب) نسبةُ الناطقين به إلى (العرب) . لا فرقَ بين عربيّ وأعرابيّ ، ولا بين جنوبيّ وشَماليّ . فكلمة (العرب) إذاً تشمل كل الأمة الناطقة بهذا اللسان .

وأما النصوصُ الجاهلية التي عُثِرَ عليها ، والكتبُ القديمة قبلَ الإسلام ، فتفرِّق بين البدو والحضر . ومنِ هنا ماقُلْناه : إن القرآن الكريم أَوّلُ من أَلْبَسَ هذا المصطلحَ ثوبَه القوميَّ .

وبعدُ . فما مَنْشَأُ كلمة (عرب) ؟

في الجواب عن هذا ترى للعلماء مَنْحَيَيْنِ :

أمـا المَنْحَىٰ الأول : فيأخـذ به فريق من علمـاء العـربية ، فيقولون : إنَّ يَعْرُبَ بنَ قحطانَ ، أوّلُ مَن أَعْرَبَ في لسانه ، وأوّلُ من نطق بالعربية ، والعرب إليه يُنسَبون . وعلى ذلك قولُ حسان بنِ ثابت وهو يَعْرُبِيٌّ قَحَطانيّ :

تَعَـلَّمْتُـمُ مِنْ مَنْـطِقِ الشَّيْخِ يَعْـرُبٍ أَبِينَـا فَصِـرْتُـمْ مُعْـرِبينَ ذَوِي نَفْـرِ

وقولُ البحتري :

نحـنُ أبـنـاءُ[٣] يَعْرُبٍ أَعْرَبُ الـنّـاسِ لِسـانـاً وأَنْـضَـرُ الـنّـاسِ عُـوْدَا

ويقول فريق آخرُ منهم : بل النبي إسماعيل هو أول من تكلـم العربية ، فهو إذاً أول من (أَعْرَبَ) أي أفصح ، والعربُ إذاً عدنانِيّون . ويمثِّل القولانِ تلك العصبيةَ التي كانت نارُها متّقِدَةً بين القحطانيين والعدنانيين .

ولقد وَقَعْتُ على نصّ في كتاب الفهرست عنوانُه : « لم سميت العرب بهذا الاسم » ؟ أَنقُلُه لك : قال ابن النديم مانَصُّهُ الحرفيُّ : « ذكروا أن إبراهيم عليه السلام ، نظر إلى وَلَدِ إسماعيلَ مع أخوالهم من جُرْهُم ، فقال له : يا إسماعيل ما هؤلاء ؟ فقال : بَنِيَّ وأخوالُهم

---

٢ ـ النحل / ١٠٣

٣ ـ أبناءُ : بالضم ، هو ما في الديوان .

من جُرْهُم . فقال له إبراهيم باللسان الذي كان يتكلم به وهو السُّريانية القديمة : أَعْرِبْ لَه . يقول : اِخْلِطْهُم بهم »

ومن المفيد أن تلاحظ أن كلمة (عرب) عند الفريقين من العلماء ترتدّ إلى إنسانٍ هو يَعْرُبُ بنُ قحطان ، أو إسماعيلُ الذي أَعرَبَ أي أَفْصَحَ .

وأما المَنْحىٰ الثاني : فيأخذ به بعض علماء العربية والمستشرقون . فقد وجد المستشرقون أن البابليين والآشوريين والفرسَ يُطْلقون كلمة (العربية) ، أو (بلاد العرب) على المِنطقة الممتدة من غَرْب الفرات إلى تُخوم بلاد الشام . ووجدوا أن كلمة (عَرَابَة) في العِبرية ، تُطلَق على المِنطقة الممتدّة من البحر الميّت إلى خليج العقبة ، ويُعَدُّ وادي العربة وطُورُ سيناءَ في بلاد العرب .

فكلمة العرب عندهم إذاً مقرونةٌ باسم المناطق التي كانوا يعيشون فيها . ولقد لاحظ بعضُ علماء اللغة العربية مِن قَبْلُ ، هذا الاشتراكَ اللفظيَّ بين (عَرَبَة وعَرَبات وعَرَب) ووقفوا عنده . قال ابن منظور : « واختلف الناس في العرب لِمَ سُمُّوا عَرَباً » ونقل عن الأزهري قولَه : « والأقربُ عندي أنهم سُمُّوا عَرَباً ، باسم بلدِهم العَرَبات » وأنشد قول الشاعر :

وَرُجَّتْ باحَةُ العَرَبَاتِ رَجّاً ... تَرَقْرَقُ في مَنَاكِبِها الدِّمَاءُ

وأورد ياقوت ، في معجم البلدان كلمةَ (عربة) فبيّنَ أنها تُطلق على أكثرَ مِن موضع .

قال أولاً : (عَرَبَةُ) قريةٌ في أول وادي نَخْلَةَ مِن جهة مَكّة . وثَنّىٰ فقال : نَشأ أولادُ إسماعيلَ بعَرَبَةَ وهي مِن تهامة ، فنُسِبوا إليها . **فهذا موضع** .

وقال ثانياً : « وعَرَبَةُ أيضاً موضعُ في أرض فلسطين » . **وهذا موضع آخر** .

وقال ثالثاً : « عَرَبَةُ بالتحريك هي في الأصل اسمٌ لبلاد العرب » ثم أوردها بعد قليل ولفظُها (عَرَبَات) . وقد نقل عن ابن الكلبيّ صاحب جمهرة النسب مانَصُّه : « جزيرة العرب تُدعى عَرَبَة ، ومن هنالك قيل للعَرَب عَرَبيٌّ كما قيل للهنديّ هنديٌّ وكما قيل للفارسيّ فارسيٌّ لأن بلاده فارس ، وكما قيل للرومي روميٌّ لأن بلاده السرُّوم » . ثم بيّن ياقوت ، رأيَه فقال : « والذي يتبيّن ويصِحّ من هذا ، أن كلَّ مَن سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فَهُم

العَرَب ، سُمُّوا عَرَباً باسم بلدهم العَرَبَات . وقال أبو تراب إسحاق بن الفرَج : عَرَبَةُ باحةُ العَرَب » . وفيها يقول أبو طالب وهو يعني ابنَ أخيه رسولَ الله (ﷺ)

وَعَــرْبَــةُ[4] دارٌ لا يُحِــلُّ حَرامَــهَــا مِنَ النّــاسِ إلّا اللَّوْذَعِيُّ الحُــلاحِـلُ

وبعدُ ، فمن جميع ماتقدّم نخلُص الى مايلي :

أولاً : العرب أمة سامية .

ثانياً : القرآن الكريم أوّلُ مَن ألبَسَ كلمةَ (العَرَب) ثوبَها القوميّ .

ثالثاً : قال بعض علماء اللغة : كلمة (العَرَب) ترتد إلى جدهم (يَعْرُب) ، وقال آخرون بل ترتد إلى إسماعيل ، فهو أول من (أَعْرَب) أي أول من أفصح .

رابعاً : قال المستشرقون وبعضُ علماء العربية : إن كلمة (عَرَب) ترتد إلى اسم بلدهم عَرَبَة أو عَرَبَات ، وباسم بلدِهِم سُمُّوا .

٤ ـ سكّن الراء للضرورة .

- ٧٥ -

قيـــد الأوابـــد

إذا كان العصرُ من كل يوم، فالإخوةُ المذيعون والمذيعاتُ أساتذةُ أطفالنا . عنهم يأخذون اللغة ، وبهم يقتدون فيها . فإذا مالتِ الشمس إلى المغيب حَدّثوا النَّشْءَ والنساء ، فإذا أقبل الليل فالأسرة كلُّها في قَيْدِهم ، يأخذون عليها بالرفق سُبُلَ الكـلام ، ويمنعـون أفـرادَها بالتلطّف أن ينصرفوا بوجوههم عنهم، فهم في بيوتنا أساتذةُ اللغة عشْرَ ساعاتٍ كلَّ يوم .

ومن هنـا كان عِظَمُ مسؤوليتهم . وهم يدركـون ذلـك ونحن ندركه . ولهذا أَجِدُني حين يسألني أحدُهم عن مسألة لغوية أو نحوية ، أُقْبِلُ عليه بوجهي ونفسي ، كأنه يُعطيني الذي هو سائلُه . وقد أسأله أخيراً : أهذا واضح ؟

بالأمس هَتَف إلي أخٌ مذيع يسألني ، وشاركه في الحديث زملاءُ له ، أنقول : المشروع الفلاني قَيْدُ الإنجاز أم نقول قِيْدُ الإنجاز؟ فحَوْلَ القَيْد والقِيْد أُدير حلقة اليوم ، قياماً بواجبٍ، وإسهاماً في تبصرة .

في مقاييس اللغة أنّ (القاف والياء والدال كلمةٌ واحدة وهي القَيْد) . ويتابع صاحب الكتاب فيقول : (ثم يُستعار في كل شيء يَحْبِس) . ويقول ابن دريد في جمهرة اللغة : « وذكَر بعضُ أهل اللغة أن أصْل التقييد حَبْسُكَ الشيء عن الحركة ، فلذلك قالوا : قَيَّدْتُ العِلمَ بالكتاب إذا حَفِظْتَه » .

وفي الحـديث « قَيّدَ الإيمانُ الفَتْكَ » . وقد شرح ذلك ابن الأثير في النهاية فقال: «أي أن الإيمان يمنع عن الفَتْك كما يمنع القَيْدُ عن التصرف، فكأنه جَعَل الفتكَ مُقيَّداً » . وواضح أن هذا مجاز .

وفي كتـاب المجـازات النَّبويّة للشريف الرضيّ : أنّه (ﷺ) قال : (قَيِّدُوا العِلمَ بالكتاب) وهذا مجازٌ أيضاً ، لأنّه (ﷺ) جَعَلَ ضُروبَ العِلمِ بمنزلةِ الإبلِ

الصِعابِ التي تَشْرُدُ إنْ لم تُعْقَل . وتنِدُّ إنْ لم تُقَيَّد . وقد جَعَلَ الكتابَ لها بمنزلةِ القيود .

وقد جَرَوْا مِنْ بَعدُ على القول (قَيَّدَ فلانٌ الكتابَ بالشَّكْل) إذا شَكَلَه . وقالوا « خَطٌّ مُقَيَّد » يُريدون بتقييده تَنْقيطَهُ وشَكْلَه . قال الشريفُ الرضيّ : « ومِن هناك أيضاً ، سَمَّوْا مِثلَ شَكْلِ الخَطِّ تَقْييداً . . لأنَّ ذلك يَحْفَظُ عليه إيضاحَه ، ولو لا أَنْ يُقَيِّدَهُ الشَّكْلُ لَضَلَّ بَيانُه » . ومِن هذا قولُهمُ : « ما على هذا الحَرْفِ قَيْد » أي ما عليه شَكْلَة .

ولقد رأى الشعراء أن من الأفراس الجِياد مايعدو فيلحق الطرائد من الوحش فيدركها مهما يكن عَدْوُها وإبعادُها ، فقالوا : « فَرَسٌ قَيْدُ الأوابد » ، أي هذا الفرس قَيْدٌ يُقَيِّدُ الأوابدَ ، أي الطرائد ، فيمنعها من الإفلات ، كما يَمْنَعُ القيدُ المقيَّدَ من التصرف . قال امرؤ القيس يصف فرسَه ، وخروجَه للصيد مبكّراً :

وقد أَغْتَدِي والطَّيْرُ في وُكُناتِها[1] بِمُنْجَرِدٍ[2] قَيْدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ[3]

يريد : « فرسي قَيْدُ الأوابد » . وواضح أن فرسه ليس قَيْداً في الحقيقة ، وإنما هو قيدٌ على المجاز . قال الفيومي في المصباح : وقولهم للفرس : « قَيْدُ الأوابد » على الاستعارة ؛ ومعناه أن الفرس لسرعة عدْوِه يُدْرِكُ الوحوشَ ولا تفوته ، فيمنعها الشِّرادَ كما يَمنعُها القَيْدُ .

وقد اقتدى الناس بامرىء القيس في هذا التعبير ، وتبعه الشعراء فقيل : قَيْدُ الكلام ، وقَيْدُ الحديث ، وقَيْدُ الرِّهان ، وقَيْد النواظر ، قال الشاعر :

لا غَرْوَ[4] أنّا مَعْشَرٌ حَامُو الحقيقةِ والذِّمَارْ
نَحْمِي الحَواصِنَ[5] إنها قَيْدُ الكريمِ[6] عَنِ الفِرَارْ

١ ـ وكناتها : أوكارها .
٢ ـ منجرد : شعرُهُ قصير .
٣ ـ هيكل : عظيم الخَلْق .
٤ ـ لا غرو : لا عَجَبَ .
٥ ـ الحواصن : النساء العفيفات .
٦ ـ يعني : كأنّهن يقيّدننا فلا نفرّ .

وقال أبو تمام :

لهـا مَنْـظَرٌ قَيْدُ النَّـواظِـرِ[٧] لم يَزَلْ ... يَرُوحُ ويَغْـدو في خُفـارَتِـهِ الحُبُّ
يَظَلُّ سَراةُ القَـوْمِ مَثْنى ومَـوْحَـداً ... نَشـاوىٰ بعـينـيهـا كأنـهُـمُ شَرْبُ

ومن المادة (القِيْدُ) ومعناه المِقْدار . قال الجوهري في الصحاح : « تقول : بينهما قِيْدُ رُمْحٍ بالكسر » أي بكسر القاف . ولقد كان مالكٌ الأشتر يوم وقعة صِفِّين يقـول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو معسكر معاوية : « اِزحفوا قِيْدَ رُمحي هذا » ، ويُلقي رمحَه فيتبعونه .

ولـو رجعتَ إلى مابين أيدي النـاس اليوم من المعاجم الموثوق بها ، لرأيتَ الأئمة من أصحابها يَنُصّون على ضَبْطه ، فيقولون : القِيْد بالكسر ، أو يضبطون القافَ مشكولةً بالكسر ، تجدُ ذلك في الصحاح وفي القاموس المحيط وفي اللسان وفي المصباح وفي المُجْمَل وفي الجمهرة الخ . .

حتى إذا نظرت في تاج العروس رأيتَ مايستوقفك ؛ وذلك أن الزَّبيديَّ مؤلِّفه ، وهو من المتأخرين « توفي قبل نحو مئتي سنة » قد أورد في معجمه أن (القَيْدَ) أيضاً ، معنـاه المقـدار . وهـذه ناجمةٌ لا يمكن أن يمر بها المتتبِّع فيتجاوزَها ، ولا يقِفَ عندها ، لأن صاحبها متفرِّدٌ بها ، لم يسبقه إليها إمام ، ولا وَرَدَ بها نصّ . فالمعاجم ـ كما بيّنتُ لك ـ والنصوص الشواهد ، على خلافِ ذلك . فهي تُجمع على أن القِيْد هو المقدار ، لا القَيْد .

قال ابن الأثير في النهاية : « وفي حديث الصلاة : حين مالت الشمس قِيْدَ الشِـراك» يريد مِقـدارَ شِراكِ النَّعْل . وفي حديث آخر : « حتى ترتفع الشمس قِيْدَ الرمح » ثم عَقَّبَ فقال : « قد تكرّر ذِكر القِيْدِ في الحديث ، يقال : بيني وبينه قِيدُ رمح . . . أي : قَدْرُ رمح » .

وعليٌّ كرّم الله وجهه يقول مِن خطبة له : « فأنّىٰ تُؤْفَكون ، أم أينَ تُصْرَفون ، أم

---

٧ ـ يعني : منظرُها يقيّد العيون فتظلُّ تنظر إليها .

بمـاذا تَغْتَـرُّون، وإنما حَظُّ أحدِكم من الأرض، ذاتِ الطول والعرض، قِيْدُ قَدِّه[8] متعفِّراً على خَدِّه ». والشاعر الحماسيُّ يقول :

هل الـوَجْـدُ إلاّ أنّ قَلْبِيَ لَوْ دَنَـا مِنَ الجَمْر قِيْدَ الرُّمْحِ لاْحتَرَقَ الجَمْرُ

قال : (قِيْدَ الرمح)، فَنَصَبَ على الظرفية المكانية .

المعجم الوسيط تابعَ تاجَ العروس ، فجاء فيه : « بينهما قَيْدُ رُمْح » بالفتح وقد نبّه الأستاذ العدناني رحمه الله على ذلك وأعلن خَطَأَه .

وبعدُ فمِن جميع ماتقدم نخلُص إلى مايلي :

١ ـ القَيد : بالفتح ، هو الغُلّ ، والقُيود هي الأغلال .

٢ ـ القِيد : بالكسر ، هو المِقدار .

ويبقى أن نورد بعضَ مايتداوله الناس من ذلك ، ونعقّب عليه :

١ ـ يقولون : (لا أُحِيد قَيْدَ شَعرة، أو قَيْدَ أُنْمُلة) وهذا غلط ، صوابه : (لا أُحيد قِيْدَ شعرة أو قِيْدَ أنملة).

٢ ـ يقـولـون : « المشروع قَيْدُ الإنجاز » ومعناه : المشروع يُوقِفُ الإنجازَ ويُقَيِّدُه، وهو خلافُ المقصود ، لأن المشروع إذا قَيَّدَ الإنجازَ فقد حَبَسَه عن التقدم . وكان الصوابُ أن يقال : « المشروعُ في قَيْدِ الإنجاز » أي المشروع في حَوْزَةِ الإنجاز .

٣ ـ يقولون : (فلان قَيد الحياة)، وهذا معناه فلان يُقَيِّد الحياة ويَحْبِسها، وهو خلافُ المقصود، لأن الإنسان أصلاً لا يقيِّد الحياة، وليس له طاقةٌ بحبسها. وكان الصواب أن يقال :« فلانٌ في قَيْدِ الحياة » أي فلان في حَوْزَةِ الحياة . فاستعمال حرف الجر (في) لا بد منه لتصحيح التعبير.

فإذا قال قائل إننا نقول : (المشروع قَيدَ الإنجاز) و(فلان قَيْدَ الحياة) فنحذف حرف الجر (في) وننصب على نزع الخافض . فإننا نجيبه : إن الخافض لا يُنْزَع

---

٨ ـ قيد قده : مقدار قامته .

اعتباطاً . فلا يجوز لك أن تحذفه ، أن تنزعه، متى طابَ لك ذلك . فنزعُ الخافض يقيّده السماعُ عن العرب ، وليس اختياراً مطلقاً بغير قَيْد . إنه في قَيْد السماع عن العرب !

فما نَزَعَتِ العربُ خافِضَه ، فأَنزِعْ خافِضَه ، وإلاّ فَلاَ .

نشـــوء النحـــو

اللغة بالتلقّي : فالطفل الفرنسي إذا ربّي منذ يولد في أسرة عربية ، في دمشق مثلاً ، كانت لغتُه العربيةَ . وابنُ العربي إذا ربي منذ يولد في أسرة ألمانية ، في برلين مثلاً ، كانت لغتُه الألمانيةَ وهكذا . .

والطفل يسمع مايقال حوله فيقلد ويكتسب ، ويظل يقلد ويكتسب ، يوماً بعد يوم ، حتى يبلغ مرحلةً يُجيد فيهـا اللغـةَ ويتقنهـا فتغدو سليقة : يتكلم فيستعمل المفرداتِ في أماكنها اللائقة بها عَفْوَ الخاطر ، ويركّب الجملة فيَنْظِمُها نظماً آلياً لا تكلفَ فيه ولا اعتمال .

ولقـد سُئلتُ يوماً : كيف استطاع الجاهليون أن يستعملوا العربيةَ استعمالاً صحيحاً فصيحاً ، وقد كانوا أُمّيين لا يُحسِنون قراءةً ولا نحواً ولا صرفاً ؟ فأجبت إنه التلقي والسليقة .

وهل يقول الأميّ اليوم : الشمسُ غاب ؟ لا . بل يقول : الشمسُ غابت ؛ فيؤنث بالسليقة . وهل يقول : القمرُ غابتْ ؟ لا . بل يقول : القمر غاب ؛ فيذكّر بالسليقة .

على أن السليقـة محكومٌ عليها بالضعف ، إذا خالط أهلُ اللغة غيرَهم من الأقوام ، فأطالوا المخالطة . وهذا ماحدث في العربية . فلقد جاء الإسلام واللغة بخير ، ثم كانت الفتوح ، فاختلط العرب بالأعاجم ، وكثُر الرقيقُ ، وأسلم مِن غير العرب مَن أسلم ، وبدأ الأخذ والعطاء لغةً وأفكاراً ، فكان من ذلك أن أَخَذَ اللحنُ يتسرب إلى ألسنة الناس .

على أن ابن جنّي يذكر في (الخصائص) أن اللحن سُمِع في حياة الرسول (ﷺ) قال : « رَوَوا أَنَّ النبيَّ (ﷺ) سَمِعَ رَجُلًا يَلْحَنُ في كلامه فقال : « أَرْشِدُوا أخاكُمْ فإنّه قَدْ ضَلّ » ؛ وذَكَرَ أَنَّ أَحَدَ وُلاةِ عُمَرَ (رض) كتب إليه كتاباً لَحَنَ فيه .

حتى إذا انقضت حِقبةٌ من العصر الأموي ، رأينا اللحن قد بدأ يشيع ويتفشّى . ومع أن الناس كانوا يستفظعون اللحن ، ويعيِّر بعضُهم بعضاً به ، فإن اللحن يومَها لم يكد يَسلَمُ منه مِلكٌ ولا سُوقَة ـ كما يقال ـ ، وقد حفِظتْ لنا كتبُ اللغة والأدب قَدْراً صالحاً من ذلك .

ففي عيون الأخبار : « أن أعرابياً دخل السوق فسمِعَهم يَلْحَنون فقال : سُبحانَ اللهِ ، يَلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح » . وقال مَسْلَمَةُ بنُ عبد الملِك : « اللحن في الكلام أقبحُ من الجُدَريّ في الوجه » .

ومِنْ هنا كانت البراءة من اللحن ، ممّا يُتَمَدَّحُ به ، قال الشاعر :

إمّا تَرَيْني وأثوابي مُقارِبَةٌ[1] ليست بخَزٍّ ولا مِنْ نَسْجِ كَتّانِ
فإن في المجد هِمّاتي ، وفي لُغتي عُلْوِيَّةٌ ، ولساني غَيْرُ لحّانِ

ويكاد يكون هذا اللحنُ الذي أَلْمَمْنا بطَرَفٍ من قصته ، هو السببَ الأولَ في جَمْع اللغة ، وتدوينِها ووضْع قواعدِ النحو لها . وقصةُ لَحن بنتِ أبي الأسود الدؤلي ، وخوفِه من ضَياع اللغة ، معروفةٌ مشهورة . فقد سمع ابنتَه تَلْحَن فهاله ذلك ، فدخل على عليّ كرم الله وجهه فقال : « ياأمير المؤمنين ذهبت لغة العرب » . وقصّ عليه خَبَرَ ابنتِه فأملىٰ عليه : أن الكلام كلَّه لا يخرج عن اسمٍ وفعل وحرفٍ جاء لمعنى . ثم قال له : « أُنْحُ هذا النحو » .

على أن فريقاً من المؤرخين للنحو ، يَرَوْنَ أن السبب الأول في نشوئه ، إنما هو القرآن الكريم ، الذي حَرَصَ الناسُ أشدَّ الحِرصِ على أن تُؤدّىٰ نصوصُه أداءً صحيحاً سليماً .

ومن الأسباب أيضاً اعتزازُ العرب بلغتهم ، وخشيتُهم أن تَفسُد ، بعد أن امتزج الأعاجم بهم . ومن تلك الأسباب كذلك ، شعورُ غير العرب بحاجتهم إلى معرفة أوضاع اللغة ، حتى يستطيعوا أن يستعملوها استعمالاً سليماً .

ولكن كيف نشأ علم النحو ؟ وكيف سار سَيْرَتَه الأولى ؟

---

١ ـ غير نفيسة .

ليس بين أيدي العلماء نصٌّ قاطع ، يجيب عن هذا السؤال . بل هناك آراءٌ واستنتاجات . والشيءُ الذي يُجْمِعُ عليه القدماءُ ولا يُنْكِرُه المُحدَثون ، أن أبا الأسود أولُ مَن ابتدع رسمَ الحركاتِ على الحروف ، أَعْنِي الفتحةَ والضمةَ والكسرةَ والتنوين . فقد أجمعت المصادرُ على أنه اختار كاتباً فطِناً حاذقاً ، وأمره أن يأخذ المصحفَ وصِبْغاً يُخالِف لونُه لونَ المداد الذي كُتِبَتْ به الآيات ؛ وقال له : « إذا رأيتَني قد فتحتُ فمي بالحرف فانقُطْ نقطةً فوقَه على أعلاه . فإن ضممتُ فمي فانقط نقطة بينَ يَدَي الحَرْف ؛ وإن كَسَرْتُ فاجعَل النقطةَ تحتَ الحرف ؛ فإن أَتْبَعْتُ شيئاً من ذلك غُنَّةً[٢] فاجعلْ مكان النقطة نقطتَيْن » .

وأما السكونُ في ذلك المصحف ، فعلامَتُه التجرُّدُ من العلامة .

فإذا أردتَ أن تكتب : (شَرِبَ سعيدٌ) مثلاً ، بطريقة أبي الأسود ، فإنك تكتبها هكذا : شـرب سـعـيـد

على أن يكون لون النُّقَطِ مخالِفاً لونَ الحروف .

ولم يكن ماصنعه أبو الأسود شيئاً قليلاً ، بل كان فَتْحاً جَليلاً ؛ وذاك أن مَن يقرأُ ذلك المصحفَ المضبوطَ بالشكل ، لا بد من أن تثور في خاطره أسئلة : لم فُتِحتْ هذه الكلمة ؟ ولم ضُمَّتْ تِيكَ ولِمَ كُسِرتْ تِلك ؟ ثم لِمَ سَكَنَ غيرُ ذلك ؟ ثم ماذا يكون لو أن الضمة أُبْدِلَتْ من الفتحة ، والكسرةَ من الضمة ؟ وهكذا . . .

ثم لابد لمن يقرأُ ذلك المصحف من أن يلاحظ ـ إذا هو تنبّه وتيقّظ ـ أن الاسم في أول الكلام مضمومٌ أبداً ، فإذا سبَقَتْه إنّ أو أنّ أو كأنّ . . . انفتح ؛

وأن الاسمَ إذا تلا الفِعلَ كان في آخره ضمةٌ أو فتحةٌ الخ . .

ولا بد بعد هذا من أن يُطْلِقَ المشتغلون بهذا الفن ، على كلّ حالة ، مايناسبها من مُصْطَلَح ، ويعبِّرُ عنها وينطبق عليها ؛ فهذا مبتدأ وهذا خبر ، وذلك فاعلٌ وذاك مفعول ، وهكذا . . . أي أنهم انتقلوا من الجزئيّات إلى الكليّات ، ومن الظاهرة إلى مصطلحها .

---

٢ ـ أي تنويناً .

ولعل من المفيد توجيهَ النظر إلى أن التأمل في مصطلحاتهم ، يهدي إلى أنهم قد تعمّدوا أن يَدُلّ المصطلحُ على مسمّاه ، فهذا فِعلٌ ماضٍ لأن زمنَه مضى ؛ وهذا فاعلٌ لأنه فَعَل ؛ وهذا مبتدأٌ لأن ابتداء الكلام كان به ؛ وهذا خبرٌ لأن الإخبار عن المبتدأ به يكون ؛ وهكذا . . . .

يقول ابنُ الأنباريّ : « لأنهم يُسَمُّون الشيءَ بالشيء إذا كان منه بِسَبَب » .

وبعـد ، فهل وَقَعَ كلُّ ذلك إليهم دفعةً واحدة ؟ كلا . وإنما كان حالاً بعدَ حال ، وملاحظةً بعد ملاحظة ، واستنتاجاً بعد استنتاج . فهذه سُنَّةُ العِلم .

وقد يقول قائل : هل الذي ذكرتَه قد جاء في كتاب قديم ؟

وأقول : لا ، وإنما الذي نُقِلَ إلينا هو ماابْتَدَعَه أبو الأسود من النَّقْط . وأما غيرُ هذا فإنما هو استنتاج ، ولا يتخيل العقلُ أنَّ تَدَرُّجَ هذا العِلمِ قد كانت له طريقة أخرى ؛ فوضْعُه دفعةً واحدةً مخالِفٌ لمنطق تَطَوُّر العلوم .

ولذلك أنكر المُحدَثون أن يكون أبو الأسود قد وضع أبوابَ النحو ابتداءً ، مِن فعلٍ وفاعلٍ وتعجّبٍ واستفهام الخ . . .

وأحبُّ أن أقـول هنـا : إن في تاريخ النحـو رواياتٍ أخـرى لنشوئه ووضعِ قواعدِه ، ولكنّ هذه الحلقاتِ أضيقُ مِن أن تَتَّسِع لذلك . وإنما نُلِمُّ فيها بما نطرحه من المسائل ، إلماماً لا تَضِيق به صُدورُ غيرِ المتخصّصين .

وأما الذي ساق إلى هذا البحث ، فرسالةٌ جاءتني من الأردنّ الشقيق تسألني البحث في الاحتجاج ؛ وما كان منطقيّاً أن أهجُم على البحث في الاحتجاج ، ولم أُمَهِّدْ له بالحديث عن نُشوء النَّحوِ أصلاً . فإلى الاحتجاج . . . . .

- ٧٧ -

الاحتجـــــاج

كُنتُ في الحلقـة السابقة عرضت لنشوء علم النحو، تمهيداً لحلقةِ اليوم.

وقلت إن علم النحو قد ابتدأ بقول أبي الأسود الدؤليّ لفتاهُ: «إذا رأيتَني قد فتحتُ فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه» الخ..

ثم إن هذا العلم شرع ينمو رويداً رويداً، على أيدي تلاميذ أبي الأسود، وغير تلاميذه. حتى بلغ أشده على يدي سيبويه، فأعجَزَ كتابُه مَن تقدّم، وامتنع على مَنْ تأخر؛ حتى سمّى الناسُ كتابَه «قرآن النحو».

وقد يسأل سائل فيقول: إلامَ استند علماء النحو في وضع قواعدهم ؟

وفي الجـواب أقـول: لقد استندوا في ذلك إلى مصادرَ ثلاثة هي: القرآن الكريم، والحديث، وكلامُ العرب. فماجاء في هذه الأصول الثلاثة فهو مرجِعُهم وحُجتُهم؛ عليه بَنَوْا قواعدَهـم، وبه احتجّوا واستَشْهدوا.

فأما القرآن فالكلام في عربيته وصحّته تحصيلُ حاصل؛ ولذلك ننتقل إلى الأصل الثاني وهو الحديث. والعلماء فيه فريقان: فريق يأخذ به لأنه بعد القرآن أفصح الكلام، وفريق لا يأخذ به؛ إذ يقولون: إن الحديث ليس لَفْظَ الرسول، وإنما هو مَرْوِيٌّ عنه بالمعنى لا باللفظ؛ وقد يكون الراوي أحياناً أعجميّاً.

ولكنّ كثيراً من العلماء رَدُّوا هذا التحفظ،

أولاً: بأنّ راويَ الحديث إذا كان عربياً، فكلامُه يُستشهد به أصلاً. فكيف إذا كان يروي عن رسول الله (ﷺ).

ثانياً: بأنّ راوِيَ الحديث إذا كان أعجميّاً، فإن روايته للحديث كروايته للشعر وكلام العرب، فيجب أن تُقبَلَ روايتُه في ذاك، كما تُقْبَل روايتُه في هذا.

وعلى ذلك فإن جمهور اللغويين، وطائفةً عظيمةً من النحويين، يستشهدون بالحديث.

بقي المصدرُ الثالث ، وهو كلامُ العرب . وإذ قد وصلنا من البحث إلى هذا الأصل ، فقد آن أنْ أذكر أنّ ماساق إليه ، رسالةٌ جاءتني من الأردنّ الشقيق تدور حول الاحتجاج بكلام العرب ، ويسألني مرسلها : أيصِحُّ الاحتجاجُ ببيتٍ من شعرهم إذا كان مجهولَ القائل ؟

وأقول : إن النحاة أخذوا عن العرب واحتجوا بكلامهم ، ولكنهم شَرَطُوا لذلك شروطاً ؛ منها أن تكون القبائل التي يُنْقَل عنها الكلام،مِن ساكِنِي قلبِ جزيرةِ العرب . وعلى ذلك رَدُّوا كلامَ القبائلِ المقيمةِ على السواحل ، أو المجاورةِ بلداً أعجمّياً ؛ لأن مخالطة الأعاجم تؤثّر في لغتهم فتفسِدُها . والعلماءُ حريصون على أن تكون اللغة المُحْتَجُّ بها صحيحةً سليمةً من الفساد .

ومن ذلك أيضاً أنهم جعلوا سنة ١٥٠ للهجرة ، حدّاً فاصلاً ؛ فما جاء منذ العصور الجاهلية حتى سنة ١٥٠ هـ . مقبولٌ مَبْنِـيٌّ عليه مُستَشْهَدٌ به . وأما ماجاء بعد هذه السنة ، فلا يُستشهَدُ به . وعلى ذلك يجعلون الشاعرَ إبراهيمَ بنَ هَرْمَةَ آخِرَ مَن يُستشهد بشعره ويُحتجّ به . وأما المولَّدون كبشار بنِ بُردٍ وأبي نُوَاسٍ وأبي تمّام ، فيُستأنسُ بشعرهم ولكن لا يُحْتَجُّ به .

وأوجّه النظر هنا إلى أن بعض العلماء قد خرجوا على هذه القاعدة ؛ فالزمخشريّ مثلاً يَستشهدُ بشِعر أبي تمّام ويقول : « وهو وإن كان مُحدَثاً لا يُستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية . فأجعلُ مايقولُه بمنزلة مايَرْويه » .

ولكنّ العلماء رَدُّوا ذلك وقالوا : « إن إتقان الرواية لا يستلزم إتقانَ الدراية » ، « والمتنبي وأبو تمّام والبحتريّ قد خُطِّئُوا في أشياءَ كثيرةٍ » وعلى ذلك ، يستشهدون بما جاء عن الجاهليين والمخضرَمين والإسلاميين ، ويأبَوْنَ الاستشهاد بما جاء عن المولَّدين المُحْدَثين .

ويبقى سؤال : هل يُحْتَجُّ بِشِعْرٍ مجهولِ القائل ؟

في الجواب عن هذا نقول : إن القدماء من النحاة كسيبويهِ مثلاً ، كانوا في الكثير يُورِدون الشاهدَ ولا يذكرونَ اسمَ قائِلِه . بل يقولون : (قال الشاعر ، أو قال

الـراجـز) . وقـد قال أبـو عُمَـرَ الجَرْمِيّ : « نظرتُ في كتاب سيبويهِ فإذا فيه ألفٌ وخمســونَ بيتاً . فأما الأَلْفُ فقد عرفتُ أسماءَ قائليها فأثبتُّها ، وأما الخمسون فلم أعرف أسماءَ قائليها » .

ومايزال العلماء والمحقّقون منذُ عَصْر سيبويهِ حتى يوم النّاس هذا ، يُنَقِّبون ويبْحَثون لعلّهم يعرفون أسماءَ الشعراءِ أصحاب هذه الأبياتِ الخمسين .

ومانزال نقرأ في هذا الكتاب أو ذاك ، أن المُحَقِّقَ فلاناً عرَف بيتاً منها ، وأن آخرَ عرَف أبياتاً . وقد رأيتُ الأستاذ عبد السلام هارون في تحقيقه كتابَ سيبويهِ يذكر تسعة أبياتٍ مِن شواهدِ سيبويهِ ، عَثَرَ على قائِليها وذَكَرَ أسماءَهم .

وقد تناول البغداديُّ في (خزانة الأدب) مسألة الاحتجاج بالبيت المجهول قائِلُه ، وأبياتِ سيبويهِ الخمسين ، فرأى أن سيبويه إنما امتنع مِن تسمية الشعراء ، لأنه كَرِهَ أن يذْكُر اسمَ الشاعرِ،وبعضُ الشعر يرُوىَ لشاعِرَيْن ؛ أَوْ لأنّ قائِلَ البيتِ قد قَدُمَ العَهْدُ به فاعتمد سيبويهِ على شيوخه ، فقال : أَنشدَنا الخليلُ وأنشدنا يونُس الخ . . . وما قَبِل العلماء شواهد سيبويه إلا لثقتهم به . قال البغداديّ في الخزانة « وقد خَرَج كتابُه إلى الناس ، والعلماءُ كثير ، والعنايةُ بالعلم وتهذيبه وَكِيدَة ، ونُظِر فيه وفُتِّش ، فما طَعَنَ أحد من المتقدمين عليه ، ولا ادّعى أنه أتى بِشِعر مُنْكَر » .

على أن للبغـدادي في مسـألـة الاحتجاج نصاً أنقله لك ، قال : « لايجوز الاحتجاجُ بشعرٍ أو نثر لا يُعرف قائلُه ، صَرَّح بذلك ابنُ الأنباريّ في كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) ، وعِلّةُ ذلك مخافةُ أن يكون ذلك الكلام مصنوعاً ، أو لمولّد ، أو لِمن لا يوثق بكلامه » .

وإليك هذا النصَّ من كتاب (مجالس العلماء) ، لترى نموذجاً من الشكّ في الشاهد المجهولِ القائل ، ورَدِّه ورفضِه :

قال أبو جعفر (هو أحمدُ بنُ محمدِ بن رُسْتم الطبري) سألت أبا عثمان ـ يعني المازنيّ ـ عن تأنيث السِّكّين ، فقال : السِكِّينُ مذكّر . ولا يؤنثه فصيح . فأنشدتُه قول الفراء ـ يعني ماأنشده الفراء ـ

فَعَسيَّتَ في السَّنامِ غَداةَ قُرٍّ[1] بِسِكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصابِ

فقال لِمَن هذا ؟ ومَنْ صاحبُه ؟ ماأُراهُ إلا مُخْرِج من الكُمّ - يريد أنه مصنوع موضوع - ثم أوردَ مايَصِحُّ الاستشهادُ به لمعرفةِ قائِلِه فقال : أينَ صاحبُ هذا عن أبي ذُؤيبٍ حيث يقول :

يرُىٰ ناصِحاً فيما بَدَا وإذا خَلا فَذَلِكَ سِكِّينٌ على الحَلْقِ حاذِقُ

وعلى ذلك أقول للأخ صاحب الرسالة موجزاً :

أولاً : إن الشاهد المجهولَ قائِلُه لا يُحْتَجُّ به ؛ هذا هو الأصل ؛ ومع ذلك قد يَقْبَله العلماءُ إذا كان مَنْ أنشدَه ثِقَةً ، كما رأيتَ في شواهد سيبويه .

ثانياً : كان العلماء يَحْتَجّون بأقوال الفصحاءِ حتى سنة ١٥٠ للهجرة ، ولكنْ مع المَيْل إلى التيسير والتَّوْسِعَة ، فَرَّقَ العلماءُ بين سُكّان البوادي وسكّان الحواضر ، فقالوا : إن الزمن الذي لا يُستشهد بما بَعْدَه هو : في الحواضر[2] نهايةُ القرن الثاني الهجريّ ، وفي البوادي نهايةُ القرنِ الرابع الهجريّ . وهو ماأَقَرَّه مجمعُ اللغةِ العربيةِ بالقاهرة .

ثالثاً : إنك تجد اليوم لدى بعض المشتغلين باللغة آراءً فردية ، تُجيز الاستشهادَ بكلام الأدباء والعلماء ماامتدّ زمانُ الدولة العباسية . وهذا اعتباط .

فما جاء من كلام سكانِ الحواضر بعدَ القرن الثاني ، وسكانِ البوادي بعدَ القرن الرابع إنما يُستأنسُ به ولكنْ لا يُسْتَشْهَدُ به .

---

١ - يعني أعمل السكين في السنام في يوم بارد .

٢ - الحواضر : جمع الحاضرة وتطلق على المدن والقرى والأرياف .

- ٧٨ -

الشـــــيطان

يقـال في العـربية : (شَطَنَت الـدارُ تَشْـطُنُ شُطونا) إذا بعُدت ؛ ويقال : (شَطَنَ فلان الدابّةَ) أي شَدَّها بالشَطَن ، وهو الحبل . وقد يطلقون كلمة (الشَطَن) على الحَبْل الطويل الشديد الفتل ، يَشْطُنون به الدَّلْوَ عند الاستقاء من البئر .

ويُجمـع (الشَطَنُ على أَشْطان) ؛ ففي حديث عليٍّ عليه السلام ، وذَكَر الحياة : « إن الله جعـل الموتَ خالِجاً[1] لأشْطانها » ، فاستعار الأشطان للحياة . وقال عنترة :

يَدْعــونَ عَنْتَــرَ والـرِّمـاحُ كأنّهـا ... أَشْـطانُ بِئْـرٍ في لَبـانِ[2] الأَدْهَمِ

ويَصِفونَ البئرَ بأنها شَطونٌ إذا كانت بعيدة القَعْر ؛ وكذلك يصِفون الدار بأنها شَطُون إذا كانت بعيدة . قال النابغة :

نَأَتْ بِسُـعـادَ عنـكَ نَوىً شَطُونُ ... فبــانــتْ والــفــؤادُ بهــا رَهـينُ

ويصفون الحرب بأنها شَطُونٌ ، إذا كانت شديدة عَسِرَة . قال الراعي :

لَنَـا جُبُـبٌ[3] وأَرمــاحٌ طِوالٌ ... بهِنَّ نُمــارِسُ الحَـرْبَ الشَّـطُونَـا

ولقد لاحظ ابنُ فارس أن مادة (شَطَنَ) تدلّ على البعد حيثما استعملت ؛ ولذلك قال : (الشين والطاء والنون أصلٌ مطّرد صحيح ، يدل على البُعْد) . ثم انتقل بعد هذه الترجمة إلى البحث في كلمة الشيطان فقال : « وأما الشيطان فقال قومٌ هو من هذا الباب » . . « فسمي بذلك لِبُعْدِه عن الحق وتمرّده ؛ وذلك أن كلَّ عاتٍ متمرِّد من الجنّ والإنس والدوابّ شيطان » قال جرير :

أزمـانَ يَدْعونَني الشيطانَ مِنْ غَزَلي ... وكُـنَّ يَهْـوَيْنَـني إذْ كُنْتُ شَيْطانـا

---

١ - الخالج : المسرع في الأخذ .
٢ - الصدر .
٣ - جمع جُبة وهي الدرع .

وإنما عرّجْتُ على كلمة الشيطان ، لأن رسالةً جاءتني من المعرّة تقول : (مامعنى : أعوذُ بالله من الشيطان) ؟

أعوذُ بالله : معناها أَلْتجِىءُ إلى الله وأعتصم به ؛ وأما الشيطان فإليك البحثَ فيه :

قالوا : (الشيطان) روح خبيث متمرد مسكنُه النار ، وهو لا يُرى ، ولكن يُسْتَشْعَر أنه أقبحُ مايكون من المخلوقات ، ولو رُئِيَ لَرُئِيَ في أقبح صورة . ويُضرَب به المَثَلُ في الخبث والدهاء والعدوان .

وقالوا : إن الجِنيَّ إذا كفر وظلم وتعدىٰ وأفسد ، فهو شيطان . فإنْ قَوِيَ على حَمْل البُنيان والشيء الثقيل ، وعلى استراق السمع فهو مارِد ؛ فإذا زاد على ذلك فهو عفريت ، فإن طَهُرَ ونَظُفَ وصار خيْراً كُلُّه فهو مَلَك .

قال الراغب : « وسُمِّي كلُّ خُلُقٍ ذميمٍ للإنسان شِيطاناً» ؛ فقال عليه السلام : « الحَسَدُ شيطان ، والغضب شيطان » . وأطلقت العرب كلمة (الشيطان) أيضاً على الحيّة الخبيثة ، الدقيقة الخفيفة . ويقال في تقبيح الشيء : « كأنه وَجْهُ شيطان ، أو رأس شيطان » .

وفي سورة الصافّات : ﴿ إنها شجرةٌ تَخرُجُ في أَصْلِ الجحيم . طَلْعُها كأنه رُؤوسُ الشياطين ﴾[4] . قال الزَجّاج : « وَجْهُه أن الشيء إذا استُقْبح شُبِّه بالشياطين ، فيقال : كأنه وجهُ شيطان ، وكأنه رأسُ شيطان » . وقيل : كأنه رؤوس الحيّات ؛ والعربُ ـ كما ذكرنا آنفاً ـ تُسمي بعض الحّيات شيطاناً .

وفي عكْس ذلك يقولون : (نَزَعَ عن فلانٍ شَيْطانُه) إذا استمسكَ بالحِلم .

وكانوا في الجاهلية يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً يوحي إليه بشعره ، ويُلهمُه ، ومن هنا قولُ الراجز : (فإن شيطاني أميرُ الجِنِّ)

قال أبو النَّجْم العِجْليّ :

وَجَدْتُ كلَّ شاعِرٍ مِنَ البَشَرْ شيطانُه أُنْثىٰ وشيطاني ذَكَرْ

---

٤ ـ الصافّات / ٦٤ ـ ٦٥ .

فمـا رآنـي شاعـرٌ إلا اسْـتَـتَـرْ   فِعْـلَ نُجـوم الليلِ عايَنَّ القَمَـرْ

وسمـع جرير قصيدة ذي الـرمـة التي مطلعهـا : « ما بالُ عَيْنِـك منها الماءُ يَنْسَكِبُ » ، فقال : « إن شيطانه كان له فيها ناصحاً » .

ويقال اليوم لمن يَلْتوي مُحتالاً : (شَيْطَنَ وتَشَيْطَنَ) أي فَعَلَ فِعْلَ الشيطانِ . وهما كلمتان صحيحتان فصيحتان .

وبعدُ ، فقد بحث العلماء في حقيقة هذه الكلمة فاختلفوا .

فريقٌ قال : (الشيطانُ) مِن (شَطَنَ يَشْـطُن) ومُؤدّىٰ ذلـك أن النـون فيه أصلّية ، واحتجّوا لرأيهم هذا بقول أُميّة بن أبي الصلت في وصف النبيّ سليمان :

أيُّمَـا شاطِـنٍ عصَـاهُ عَكَـاهُ(٥)   ثم يُلْقىٰ في السِّجْنِ والأَغْـلالِ

فكلمةُ (شاطِن) في البيت اسمُ فاعل ؛ ولو لم تكن النونُ أصليةً لما ظهرت فيه ، ولا ثَبَتَتْ . قال الراغب : (أفلا تَراهُ بَناه على فاعِل وجَعَلَ النونَ أصلية)؟ فيكون الشيطان بوزن (فَيْعَال) .

وأما الفريق الثاني فقال : بل أصله (شاط يشيط) أي : بَطَلَ وهلك واحترق .

ومؤدّى قولهم هذا أن النون فيه ليست أصلية ، وأن وزْنه (فَعْلان) والنون فيه زائدة .

وأَوَجِّه النظر إلى أنهم لم يقِفوا عند أصل الكلمة عبثاً ، وإنما فعلوا ذلك لِمَا ينشأ عن أصل الكلمة من استعمال كلمةِ الشيطان مصروفةً أو ممنوعةً من الصرف .

فإذا كان الشيطان من (شطن) والنونُ أصلية ، فإنك تقول : (هذا شيطانٌ ، ولعنتُ شيطاناً وأعوذ بالله من شيطانٍ) ؛ فَتَصْرِفُه .

وأما إذا كانت النون غير أصلية ، وكان الأصل (شاط) ؛ فإنك تقول : (هذا شيطانُ ، ولعنتُ شيطانَ ، وأعوذ بالله من شيطانَ) ؛ فتمنعه الصَرف .

وأوجـز فأقول : إذا كان مِن (شطَن الرجل) صرفته ؛ وإذا كان مِن (شاط الرجل) لم تصرفه . قال الأكثرون : والصرفُ أصحّ .

٥ ـ قيّده .

- ٧٩ -

اليَنْبــــوع

إذا شئتَ أن ترى إلى الفرق الشاسع بين ما تقدّمه الحضارة اليومَ من وسائلَ ، غايتُها راحةُ الإنسان ، وبين ما كان في قديم الزمان من وسائلَ ، فانظر إلى إشعال النار قديماً وحديثاً . نحن اليوم نوقد بالكبريت - كلمحٍ بالبصر - وأما في القديم فكان لإشعال النار شأنٌ آخر .

كانوا في بواديهم يضربون خشبةً بخشبة أخرى ، حتى تنقدح النار من شدة آصطكاكهما . وقد دلّتهم معاناتُهم على أن الخشب الهشّ أسرعُ اشتعالاً ، فاختاروه لذلك . وعرفوا العُود الصَّلْدَ الذي يصعُب اشتعالُه فانتبذوه عند الإيراء .

وكان شجر النَّبْع عندهم أقسى الشجر - وهو ممّا ينبت في الجبال ، أصفر اللون ، فإذا تقدم آحمرّ - ولقسوته اجتنبوه في إشعال النار ، إذ لا نارَ فيه لمُقتدِح . ولكنهم اتخذوا منه القِسِيّ ، ومن أغصانه السهامَ ، فيكون منه أكرمُها وأجودُها .

قال دريد بنُ الصِمّة يصف سهماً :

« وأصفرَ مِن قِداحِ النَّبْعِ فَرْعٍ »

يعني أنه سهم أصفر ، بُرِيَ مِن غصن شجر النبع . وأما الشجر الهشُّ الخشب ، فهو الغَرَب ، وينبت على شواطىء الأنهار .

وقد استعمل أبو تمام النَّبْعَ والغَرَبَ في بيتٍ واحد ، من قصيدته البائية ، في فتح عَمّورِيّة . فقال مُسَفِّهاً أقوالَ المنجمين ، ومازعموا مِن أن عمورية لن تُفتح ، قال :

أَيْنَ الـروايةُ بل أينَ النُجومُ وما ... صاغُـوهُ من زُخْرُفٍ فيها ومِنْ كَذِبِ
تَخَـرُّصــاً وأَحَـادِيثــاً مُلَفَّـقَـةً ... لَيْستْ بِنَبْـعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ

يريد : ليست أقوالُهم نَبْعاً ولا غَرَباً ، وإنما هي مَحْضُ اختلاق .

ولما رأوا ذلكَ الصُّلودَ في النَّبع ، وذلك الهُشُوشَ في الغَرَب ، ضربوا بهما المَثَل ، فشبهوا الأصلَ الكريمَ بالنَّبْع فقالوا : (هو مِن نَبْعَةٍ كريمة) ، أي ما جدُ الأصل . وشبهوا الأصلَ اللئيمَ بالغَرَب ، قال الشاعر :

هَيْهــاتَ أَبـدْىَ اليَقِينُ صَفْحَتَـهُ وبــانَ نَبْــعُ الفَخَـارِ مِنْ غَرَبِـهْ

وقال زُفَرُ بنُ الحارث :

وكُنّـا حَسِبْنا كلَّ بَيْضاءَ شَحْمةً[1] ليالِـيَ قارَعْـنـا جُذَامَ وحِـمْـيَرَا
فلمّا قَرَعْنا النَّبْعَ بالنَّبْعِ[2] بَعْضَهُ ببَعْضٍ أَبَتْ عِيدانُـهُ أنْ تَكَسَّـرَا

ولمّا رأوا النَّبْع لا يشتعل بالصكّ والحكّ ، ورأوا بعضَ المُعْضِلات لا تُحَلّ ، قامت في مُخَيِّلتِهم موازنةٌ بين النَّبْع الذي لا يشتعل ، والمُعْضِلة التي لا حَلَّ لها ، فقالوا في الرجل الذي يَنْفُذها رَأْيُه ، ويَحُلّها بِحُسْن تَأَتِّيه : (لو اقتَدَح فلانٌ بالنَّبع لأورى ناراً) . فجعلوا ذلك كما قال المَيدانيّ مثلاً مِن أمثالهم ، يضربونه للرجل إذا وصفوه بجَوْدة الرأي والحِذْق بالأمور . وقد تناول الشعراء ذلك . قال الأعشى يمدح قيسَ بنَ معد يكرب :

فإنْ يَقْـدَحُـوا يَجِـدُوا عِنْدَهـا زِنـادَهُـمُ كابِـياتٍ قِصـارَا
ولـو رُمْـتَ في لَيْلَةٍ قادِحـاً حَصَـاةً بِنَـبْـعٍ لأَوْرَيْتَ نَارَا

فقد جَعَلَه يُوري النَّبْعَ بِصَكّه بالحَصى ، وهو مالا يَتأتىّ ، لأَحَد .

وبعد ، فإن معنى النَّبْع ، ليس مقصوراً على الشجر وحدَه . قال ابنُ فارس : « النون والباء والعين كلمتان ، إحداهما نُبوعُ الماء ، والأُخرى النَّبْعُ : شَجَر » . فأمّا أَنَّ النَبعَ شجر ، فقد فصّلنا القولَ فيه . وأما أن النُبوعَ للماء ، فهو ما نبحث فيه فيما يلي :

يقال : (نَبَعَ الماءُ يَنْبُعُ نَبْعا ونُبوعاً ونَبَعَاناً) ، إذا خرج من العين . ولقد

---

١ ـ أي : حسبناهم كسائر من قاتلناهم من قبل .
٢ ـ قال المرزوقي في شرح الحماسة : لما قرعنا أصلهم بأصلنا أبَتِ العيدان من التكسّر .

سَمَّوا مَنْبَعَ الماء عيناً ، تشبيها بالعين ، لما فيها من الماء . قال الراغب : (ومنه ماءٌ مَعِينٌ ، أي ظاهرٌ للعيون) .

(نَبَعَ - يَنْبُعُ) إذا اشتققت له اسماً يدُل على المكان الذي يَنْبُع منه الماء ، فإنك تقول : (المَنْبَع) . فالمَنْبَعُ : مَخْرِجُ الماءِ ، والجَمْع مَنَابِع .

ويقال لمصدر الشيء مَنْبَعه . فيطلقونه على غير الماء أيضاً .

ويطلقون على العين التي يخرج منها الماء (اليَنْبُوع) وجمعه (يَنابيع) . قال تعالى : ﴿ وقالوا لن نُؤْمِنَ لك حتى تُفَجِّر لنا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ﴾[٣] ، فهذا مفرد . وأما الجمع فقد ورد في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنَابيعَ في الأرض »[٤] .

وأُوجِّه النظرَ هنا إلى أن كثيراً من الناس يضمّون ياءَ (اليَنبوع) خطأً ، فيقولون : (يُنبوع) ، وهو غلطٌ لا شكّ . لأن القاعدة : أنّ ما كان على وزن (يَفْعُول) ، فهو مفتوحُ الأول . لا يُستثنى منه شيءٌ أبداً . نقل السيوطي عن ابن مالك قولَه : « وحَتْمٌ فَتْحُ يَفْعولٍ » .

فإذا رجعتَ إلى كتاب (المُجمَل) لابن فارس ، المطبوع في الكويت ، فرأيتَ كلمة (اليُنْبوع) بالضمّ أي (يُنْبوع) فلا تَظُنَّنَّ ذلك خطأً وقع فيه ابنُ فارس ، فهذا الإمام أكبر من أن يقع في مثل هذا ، وإنما هو سهو المحقِق ، أو الخطأُ المطبعي . والصوابُ الفتحُ : (يَنْبوع) ، ليس غير .

وبعد فهل بقي من المادة ما ندير حوله الحديث ؟ نعم تبقى كلمة هي غايةُ هذه الحلْقة . فأنت تسمع وترى الدعاية للمياه المعدِنية تقول لك كل ليلة : (نَبْعُ بقين ، ونَبْع الدريكيش) . ويكتبون ذلك على القَنانيّ أيضاً ، يظنون أنّ نَبْعَ الماء هو عَيْن الماء ، وهذا غير صحيح ، غلط . فنَبْع الماء يعني فَوَرانَ الماء وخروجَه مِنَ العين . (نَبْعُ الماء) - كما يقول النحويون - حَدَثٌ ، مصدر .

---

٣ - الإسراء / ٩٠ .

٤ - الزمر / ٢١ .

ولكي أُقرِّبَ المسألةَ إلى غير المشتغلين باللغة أقول : نَبْعُ الماء ِعَمَلِيّة ـ كما يقول بعضهم(*) ـ نَبْعُ الماءُ فَوَرانُ الماء ، نَبْعُ الماء خُروجُه من الأرض ، وليس اسماً لموضع خروجه من الأرض .

ولأزيد المسألة وضوحاً أقول : إذا سألتُكَ : أينَ الأَكْل ؟ أجبتني : (الأكلُ في الصحفة ، في الصحن) . هذا الأَكْلُ الموضوعُ في الصحفة ، يسمّيه النحاة (اسم عَيْن) ، وُهو عندهم مايلمَس ، أويُشَم ، أويُذاق ، أويُرى ، أويسمع . .

وإذا سألتُك : (كيف تأكل) ؟ أجبتني : (آكل أَكْلاً سريعاً) ، (أَكْلاً) : هنا : لا يدل على الأَكْل الذي يوضع في الصحفة ، وإنما يدل على « عملية » ، على حَدَثٍ ، على مصدر .

اسمُ العَين شيء ، والمصدر شيء آخر .

كلمةُ (نَبْع) مصدر ، حدث ، « عملية » ، وهي لا تدل على المكان الذي يخرج منه الماء .

على هذا ، إذا قلتَ : (شربتُ مِن نَبْع بقين) ، فقولك هذا يعني : أنك شربت مِن « عَمَلِيّة » نُبوع الماء ، وهذا كلامٌ لا معنى له . و قولك : (نبع الدريكيش) : يعني « عَمَلِيّة » نُبوع الدريكيش ، وهذا لا معنى له ، غلط .

الشيخ أحمد رضا رحمه الله ، يَشغَفُه النظرُ في العاميّات ، ومحاولةُ رَدِّها إلى الفصيح . وقد بحث في الكلمة مرتين : في كتابه « المتن » ، قال : (النَّبْع : اليَنْبوع ، عاميّ) . وفي كتابه « رَدُّ العاميّ إلى الفصيح » قال : (تعني العامة « بالنبع » يَنْبوع الماء).

ثم حاول رد ذلك إلى الفصيح فقال : وهو من التسمية بالمصدر .

يريد بذلك أن العرب تسمّي الأعيانَ : أي ما يُلمس أو يُشم أو يُذاق أو

---

* ـ أنا لا أستعمل كلمة «عملية» في العادة ، وإنما أَستعملها هنا لأقرّب المسألة إلى الذهن ، بكلمة يستعملها الناس عموماً .

يُرى أو يُسمع ، تسمّيها بالمصدر ، تقول العرب مثلاً : (وَدَىَ القاتلُ المقتولَ ، يَدِيهِ ، دِيَةً) ، أي أعَطى القاتلُ وَلِيَّ المقتولِ مالاً بَدَلَ النفس .

فالدِّيَةُ في الأصل مصدر ، حدث ، « عملية » كما يقول بعض الناس ، ولكنهم سَمَّوا المالَ نفسه ، مِن ذهب أو فضة أو غيرِ ذلك ، دِيَةً أيضاً . فهذا من التسمية بالمصدر .

فأنت ترى هنا أن العرب أطلقت المصدرَ وهو (الدية) ، على اسم العَيْن وهو (المال) . ولكنها لم تفعل ذلك بكلّ مصدر . أعني لم يطلقوا كلَّ مصدر على كلّ عين . مثلاً : (لعب يلعب لَعِباً) ، (لَعِباً) مصدر ، حدث ، « عملية » ، ولكنك لا تُطلِق كلمةَ (لَعِباً) على مكان اللَّعِب ، فلا تقول : اجتمع الرياضيون في اللَّعِب !!

فقول الشيخ إذاً إنّ كلمة (نَبْع) تُرد إلى الفصيح ، بزعم أن العامة سَمَّتْ عَينَ الماء بالمصدر ، هو قول لا يجعل العاميَّ فصيحاً ، وإنما يدل على آنحرافِ العامةِ بهذه الكلمة ، من الفصيح إلى العاميّ .

تسميةُ عينِ الماءِ نَبْعاً غلط ، والصواب : عَيْن ، أو مَنْبَع ، أو يَنْبُوع .

- ٨٠ -

الأســاطيـــن

كنتُ قبـلَ نحـو أربـع سنوات أَدَرْتُ إحدى حلقات هذا البرنامج حول قول الناس : (فلان من أساطين العلم) . ومنذ ذلك الحين لا تَنِي الرسائلُ تأتيني يسألني مرسلوها أن أبحث في هذا التركيب . وآخرُها رسالةٌ من حلب .

التعبير المذكور يرتدّ في كتب اللغة إلى مادة (سَطَنَ) ومِن أوائل مايَرِد فيها كلمةُ (الأسْطُوانة). وقد جاء في تعريفها أنها العَمود أو السارِية ؛ ويفيض متن اللغة في الشرح فيقول : هي السارية : تكون من بناء غالباً. وهي العَمود : يكون مِن حجر واحد .

وأما المعجم الوسيط فيضيف إلى ماتقدم شَيْأَيْن[1] :

الأول : أن الأسـطوانة أيضاً كلُّ جسم أو شيء ذي شكل أُسطواني . فقلم الرصاص ، استناداً إلى هذا ، أُسطوانة ، وأنبوب المياه أسطوانة أيضاً وهكذا . .

الثـاني : أن الأُسطوانة : هي القُرص الذي تُسَجَّل فيه أُصواتُ الغناء ، أو الموسيقا ، أو غيرهما .

وتُجمع الكَلمةُ جمعَ مؤنث سالماً فتقول : (أُسطُوانات) ، وتُجمَع جمعَ تكسير فتقـول : (أسـاطِين) . يقـولون مثلاً : (أساطِينُ مُسَطَّنَة) ، أي أُسطُوانات مُطَوَّلَةٌ أو مُوَطَّدَة . فإذا ذُكِّرت الكلمةُ فقلنا : (أُسْطُوان) ، اختلف المعنى ، وإنْ ظل ينظر إلى معنى الأُسطوانة باعتبارها الساريةَ المطولةَ أو الموطدةَ . تقول : (هذا رجلٌ أُسْطُوانٌ)

---

(١) يسير الناس على أن يكتبوا هذه الكلمة وما كان مثلها على نَبْرة هكذا : (شيئين) . ولقد عمـدت عمداً إلى كتابتها على الألف في ظل قاعدة الهمزة المتوسطة . ليرى عشّاق (يستثنى من ذلـك) أن السماء لم تُطْبِقْ على الأرض . وأن هذا أيسر على أبنائنا . وأن لزوم الجادّة واجتناب المسالك خير لهم ولنا حينَ نعلّمهم،وأبقى على حبّهم لغتهم . فليكتبوا على الألف خَطَيْأَة وهَيْأَة وبِيأَة إلخ . . . وما كان مثلها . وليترجّلْ فارس الإملاء المُعَنّى ، فقد صلبناه ألفاً وخمسمئة عام ! !

أي طويلُ الـظهر والرجلَين. وتقول: (هذا جَمَل أُسطوانٌ) أي جملٌ مرتفع طويلُ العنق. فالجامعُ إذاً بين الأُسطوانة والأُسطوان هو معنى الطول والتوطُّد. قال الشاعر:

جَرَّبْنَ مِنّي أُسْطُواناً أَعْنَقَا

الأُسـطوان ـ كمـا قدمنا آنفاً ـ الجملُ المرتفع، والأَعْنَقُ: هو الغليظُ العنقِ الطويلُه. ويعني الشاعر بذلك أنّهن جَرَّبْنَ منه رجُلاً ضخماً كالجمل الأعنق.

أما الأصل في ذلك كلِّه فهو كلمة (أُسْتون). وأُسْتون كلمةٌ فارسية، عرّبها العـرب فأدخلوهـا لغتَهـم. وكذلك يفعلون إذا عرّبوا الأعجميَّ من الألفاظ. وذلك بالنَّقْص أو الزيادةِ أو القلْب، ليوافقَ اللفظُ الأعجميُّ صيغةً عربية. وربّما تكلّموا به كما تَلَقَّوْهُ، وربما تَلَعَّبُوا به ـ كما يقول الفيّوميُّ ـ فاشتَقُّوا منه. فالأُسطوانة إذاً لفظٌ معرَّب عن كلمة (أُستون) الفارسية. وقد اشتقُّوا منه كلمةَ (مُسَطَّن) ليصِفوا بها الرجل الطويلَ الرِجْلَين، أو ليصفوا بها الدابّة إذا كانت طويلةَ القوائم.

أما عن قولهم (أساطين العِلم) فنذكر مايلي:

لقد قلنا آنفاً إنهم جمعوا الأسطوانة على أساطين، وقد رأى الناس الأساطين تثبُت إذا كانت موطَّدَةً في الأرض، ورأوا أئمّة العِلم مُوَطَّدِي الأقدام في علمِهم، فاستعـاروا الكلمـةَ للعُلماء، على المجاز. فقالوا مثلاً: (هؤلاء أساطينُ العلم أو الأدب) أي هؤلاء هم الثِّقاتُ المُبَرِّزون في ذلك. وقالوا: (هؤلاء أساطين الزمان)، أي حكماؤه وأفراده.

التَوَطُّد إذاً هو الجامع بين: (الأساطين) بمعنى الأعمدة، و(الأساطين) بمعنى أئمّة العِلم.

قبل أن أختِم حلقة اليوم رأيتُ أن أعرِض لأمرين:

الأول: أن المعجم الوسيط قد أورد عند الحديث عن (الأَساطين) أن المفرد (أُسْطون) وقال: «مُعَرَّبُ أُسْتون، الفارسية». هذا، مع أن المراجع الأخرى لم تورد كلمة (أُسطون). فهو إذاً قد ارتجلها.

الأمر الثاني : أنه أَورَدَ كلمة (سَطَّنَ) بمعنى أثبتَ وثَقَّلَ في باب السين، على حين أَورد كلمةَ الأُسطوانة والأُساطين والأُسطوان في باب الهمزة، فَفَصَمَ بذلك عُرْوَةَ الكلمة . إذْ عَدَّها عربيَّةً مرةً ، فأوردها في باب السين : (سطن)، ثم عدّها أعجميةً مرةً أخرى فأوردها في باب الهمزة : (أُسطوانة) . فقطَّع بذلك أعضاءَ المادة، وجعلَها أَوْصالاً ، كلَّ عضوٍ على حِدَة !!

- ٨١ -

صـوغ المبني للمجهـول

الفعـل في العـربية صنفـان : مبني للمعلوم ومبني للمجهـول . تقـول في المعلوم : (شرب الـرجلُ الماءَ) فإذا جهلتَ مَنْ شربه ، قلت : (شُرِبَ الماءُ) فجعلتَ المفعولَ به نائبَ فاعل .

وإليك مثالاً آخرَ فيه شيء من التعقيد : تزور ملعباً ـ مثلاً ـ فترى رجلاً يسير فيه ، فتقول : (سار الرجل في الملعب) ، سارَ : فِعل ، والرجلُ : فاعلُه .

لكنـك تزوره مرة أخرى ، فتراه خالياً ، ليس فيه أحد . ومع ذلك ترى آثار أقدام هناك ، فتحكم يقيناً أن السير قد تحقق في هذا المكان ، غير أنك لاتدري مَن الذي سار . فإذا أردت التعبير عما رأيت ، لم تجد بين يديك ، إلا آثار فِعل السير التي رأيتها على أرض الملعب . وأمّا الفاعل الذي سار ، فمجهول . ولذلك تبني فِعل السير للمجهول فتقول : (سِيْرَ) .

لكنّ هاهنا مسألةً ، وهي أن هذا الفعل وحده لايُنشِئ كلاماً تاماً ، لاينشئ كلامـاً مفيداً . طيب ! ماالعمل ؟ الفاعلُ مجهول ، و (سار) فعل لازم لاينصب مفعولاً به . فما العمل ؟

لو أن الفِعل فعلٌ متعدٍّ ، ينصب مفعولاً به ، لجعلنا هذا المفعولَ نائبَ فاعل . ولكنّ (سار) فعلٌ لازم لاينصب مفعولاً به . فما العمل ؟

في هذه الحال تأتي بعد الفعل المبني للمجهول بالجار والمجرور الذي يَلْزَمُه في العـادة . يعني ، أنت تقـول : (سار الـرجـل في الملعب) . فإذا بنيتَ للمجهول ، حذفتَ الفاعلَ ، وهو (الرجل) وقلت : (سِيْرَ في الملعب) .

والجارّ والمجرور في هذه الحال ، هما اللذان ينوبان عن الفاعل ، وبهما يتمّ الكلام .

بالأمس كتب إلي أحد السادة المشاهدين من طرطوس يقول : كيف نبني فعل (اِنْبَثَقَ) للمجهول ؟ وفي الجواب أقول :

أولاً : الفعل الماضي ، إذا كان مبدوءاً بهمزة وصل ، ـ و(آنْبَثَقَ) ماضٍ مبدوء بهمزة وصل ـ فإنك عند البناء للمجهول تضُمّ أوّله وثالثه ، وعلى ذلك تقول في

البناء للمجهول : اُنْتُصِر اُنْفُتِح اُنْدُحِر اُنْبُعِثَ اُنْبُثِق

ثانياً : إذا كان الأخ صاحبُ السؤال يريد أن يقول : كيف نؤلف جملة تامة مِن فِعل (اُنْبُثِقَ) وهو مبني للمجهول ، وليس بعده نائبُ فاعل ؟ فإنني أعيد ماذكرته آنفاً ، وهو : ائتِ بعد هذا الفعل بالجار والمجرور اللذين يلزمانه في العادة ، ولْنقلْ : ائتِ بعدَه بالجار والمجرور اللذين يتعدّى بهما .

أنت تقول في المعلوم : (اِنْبَثَقَ الماءُ من الصخر) فإذا بنيتَ للمجهول حذفتَ الفاعلَ وهو (الماء) ، وضممتَ الأولَ والثالثَ مِن هذا الفعل فقلتَ : (اُنْبُثِقَ) ؛ ثم تأتي بعده بالجار والمجرور ـ بالضرورة ـ فتقول : (اُنْبُثِقَ مِنَ الصخر) . فالجار والمجرور هنا هما نائبُ الفاعل . ولايتم الكلام إذا قلتَ : (اُنْبُثِقَ) وسكتَّ ، بل لابد من أن تقول : (اُنْبُثِقَ مِنَ الصخر) .

قد يقول أحد السادة المشاهدين : إن هذا نادر في الاستعمال ، بل هو نَزْرٌ ، فلِمَ خَصَصْتَهُ بحلقة ؟ وأقول : الصحيح أن هذا قليل في الأفعال ، وأما في الأسماء فهو كثير ، وذلك حين تشتق اسم مفعول من فعل لاينصب مفعولاً به ، فتقول : (مُنْتَظَم ، ومَجْلوس ، ومَقْعود ، ومَشْبوع) . فإن القاعدة في هذه الحال توجب أن تأتي بعد هذه الأسماءِ بالجار والمجرورِ اللذين يُستعملان في العادة مع أفعال هذه الأسماء فتقول : (هذا الصَفُّ مُنْتَظَمٌ فيه) ، وليس كما يقول بعضهم خطأً : (هذا الصفُّ مُنْتَظَم) . وتقول : (هذا الكرسيُّ مَجْلوسٌ عليه ، وهذا البيتُ مَقْعودٌ فيه ، وهذا الطعامُ مَشْبوعٌ منه) الخ . . .

قال الجاحظ في كتاب الحيوان : « مِن أحاديث العرب أن الديك كان نديماً

للغـراب ، وأنهمـا شربا الخمرَ عند خمّار ولم يعطياه شيئاً . وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شَرِب ، ورَهَن الديكَ فخاس[1] به ، فبقي محبوساً » .

وعلّق الجـاحظ على ذلـك فقـال مانصُّـه الحـرفيّ : « فالديك هو المغبون والمخدوع والمسخور به » . وترى في هذا النص أن الجاحظ لم يقل : (المغبون والمخدوع والمسخور) ، بل قال : «المغبون والمخدوع والمسخور به » . فلماذا ؟

لأن (غَبَنَ وخَدَعَ) ينصبان مفعولاً به ؛ تقول : (غَبنَ الغرابُ الديكَ ، وخَدعَ الغـرابُ الـديكَ)، ثم تبني للمجهول فتقول : (غُبِنَ الديكُ ، فالديكُ مغبون . وخُدِعَ الديكُ ، فالديكُ مخدوع) .

ولكنّ (سَخِر) لاينصب مفعولاً به ، وأنت لا تقول : (سَخِر الغرابُ الديكَ) بل تقــول : (سخِـر الغـرابُ بالـديك) ، ثم تبني للمجهـول فتقـول : (سُخِـر بالديك) . ولذلك قال الجاحظ : « هو المغبون والمخدوع والمسخور به » . ولو استعملَ الفعلَ لقال : (فالديكُ قد غُبن وخُـدع وسُخِر به) .

قال تعـالى : ﴿ ولمـا سُقِطَ في أَيْدِيهم ﴾[2] أي : ندمـوا ؛ ففِعْلُ (سَقَطَ) لاينصب مفعولاً به أصلاً ، فلما بُنِيَ للمجهول حُذِف الفاعلُ وجِيء بالجار والمجرور نيابةً عن الفاعل . ومجنون ليلى يقول :

أَيَاوَيْحَ مَنْ أَمْـسـى تُخُـلِّسَ عَقْـلُهُ   فأَصبـحَ مَذْهــوبـاً به كُلَّ مَذْهَبِ

فِعـلُ (ذَهَبَ) لاينصب مفعولاً به ، فلما بُني للمجهول ، واشتُقّ منه اسم مفعـول « مذهـوب »،جِيء بعـده بالجـار والمجرور ليستقيم الكلام ، لأن العربي لايقول : (العقل مذهوب) بل يقول : « العقل مذهوبٌ به » .

من جميع ذلك نخلُص إلى مايلي :

١ ـ إذا بنيتَ فعلاً ماضياً للمجهول ، وكان مبدوءاً بهمزة وَصْل ، ضَمَمْتَ أوّلَه وثالثَه : (اِنْبَثَقَ ، ثمّ اُنْبُثِقَ) .

---

١ ـ غدر به

٢ ـ الأعراف / ١٤٩

٢ ـ إذا بنيتَ للمجهول فعلاً لاينصب مفعولاً به ، فإنك تأتي بعده بحرف الجر الذي يتعدى الفعلُ به . تقول : سَخِرَ الغرابُ بالديك ، ثم سُخِرَ بالديك .

٣ ـ يجري مع اسم المفعول مايجري مع فِعله المبنيّ للمجهول فتقول :

ذَهَبَ الحُبُّ بالعقل،ثمّ : ذُهِبَ بالعقل،ثم : العقلُ مذهوبٌ به

أخيراً أقول إن هذه الحلقات ليست دروساً في النحو تَجمع وتَمنع ، ولذلك اكتفيت من البحث ، بالحديث عن الجار والمجرور ، مع أن في العربية استعمالاتٍ أخرى .

زيد بن حارثة

يُلحُّ عليَّ كثيرٌ من الناس ، في أن أَمزُجَ هذه الحلقاتِ بشيءٍ من القصَص ، وألتوي عن إجابتهم إلى ما يطلبون . ذاك أنّي لا أُحبُّ لنفسي أنْ أتكلَّف القَصَّ تكلُّفاً ، ولا أُحب لهذا البرنامج أن يَدْعُوَ إلى نفسه بالتَّزْويق . وإذا كان هذا الحديثُ قِصةً كلُّه فلأنَّ ما أُريده منه ، يمتزجُ بالقصّة امتزاجاً . وأمّا مصادرُ القصة فتاريخُ الطبريّ ، وسيرةُ ابن هشام ، فمنهما أَفَدْتُها .

ذكروا أن سُعدى بنتَ ثَعْلَبة زوجةَ حارثةَ بن شَراحيل ، زارت قومَها يوماً في الجاهلية ، وابنُها زيدٌ معها . فأغارت خَيْلٌ على أبيات قومها فاحتمَلوا زيداً وهو يومئذٍ غلامٌ يافع - قيل كان زيدٌ يومئذٍ ابنَ ثمانية أعوام - فوافَوْا به سوقَ عُكاظ، فعَرَضُوه للبيع، فاشتراه حكيمُ بنُ حزام بأربعمِئةِ درهمٍ ، لعمّتِه خديجةَ بنتِ خُوَيْلد (رض)، فلما تزوجها رسولُ الله ﷺ وَهَبَتْهُ له .

وكان أبوه حارثةُ ، قد جزِع عليه جزَعاً شديداً ، وبكى عليه حين فقده فقال :

بكيتُ على زيد ولم أدرِ ما فعلْ ... أَحَيٌّ فيُرجى أمْ أتىٰ دونَه الأَجَلْ
فو الله ما أدري وإني لَسائلٌ ... أغالَكَ بعدي السهلُ أم غالَكَ الجَبَلْ
فياليت شعري هل لك الدهرَ رجعةٌ ... فَحَسبي من الدنيا رجوعُك لي بَجَلْ [1]
تُذكِّرُنيهِ الشمسُ عندَ طلوعِها ... وتعرض ذِكراهُ إذا غَرْبُها أَفَلْ
وإنْ هَبَّتِ الأرواحُ هَيَّجْنَ ذِكرَهُ ... فيا طُولَ ما حُزْني عليه وما وَجَلْ
سأُعْمِلُ نصَّ العِيس [2] في الأرضِ جاهداً ... ولا أسأمُ التَطوافَ أو تسأمَ الإبِلْ
حياتيَ أو تأتيْ عَليَّ مَنيَّتي ... فكلُّ امرىءٍ فانٍ وإنْ غرَّهُ الأَمَلْ

---

١ - بجل : حَسْب .
٢ - سأعمل نص العيس : سأحثّ ناقتي .

وحَجَّ ناسٌ كلبيّون فرأَوْا زيداً ، فعرَفَهُم وعَرَفوه ، فقال أَبْلِغوا أهلي هذه الأبياتَ ، فإنّي أَعلمُ أنّهم قد جزِعوا عليّ ، وقال :

أَحِنُّ إلى قومي وإنْ كنتُ نائياً بأنّي قَعِيدُ البيتِ عنـدَ المَشـاعـرِ

فكُفُّـوا مِنَ الـوَجْد الذي قد شجاكُمُ ولا تُعْمِلوا في الأرض نَصَّ الأبـاعـرِ[3]

فإنّي بحمد الله في خَيْـرِ أُسرةٍ كرامِ مَعَـدٍّ كابِـراً بعـدَ كابِـرِ[4]

فانطلق الكلبيّون فأعْلَموا أباه فقال : آبني وربِّ الكعبة ؛ وَوَصَفوا له موضعَه وعندَ من هو. فخرج حارثةُ وأخوهُ كعْبٌ بفدائه . وقَدِما مكّة ، فسألا عن النبي ﷺ فقيل : هو في المسجد ، فدخلا عليه فقالا : يابنَ عبدِ الله ، يابنَ عبدِ المطّلب ، يابنَ هاشم ، يابنَ سيّدِ قومِه ، أنتم أهلُ حَرَمِ الله ، وجيرانُه ، وعندَ بيتِه . تَفُكُّون العاني وتُطْعِمون الأسير . جِئناك في ابننا عندك فامنُنْ علينا ، وأَحْسِنْ إلينا في فدائه ، فإنا سنرفع لك في الفداء . قال : مَنْ هو؟ قالا : زيدُ ابنُ حارثة، قال : أُدْعوه فأخيِّرُه ، فإن اختاركم فهو لكما بغير فِداء . وإن اختارني فو الله ما أنا بالذي أَختار على من اختارني أحداً . فقالا : قد زِدْتَنا على النَصَفِ وأحسنت .

فدعاه فقال : تعرفُ هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : مَنْ هما ؟ قال : هذا أبي وهذا عمّي . قال: قد خيرتُك . إن شئتَ ذهبتَ معهما ، وإن شئتَ أقمت معي . فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً . فقال له أبوه : وَيْحَكَ يا زيد ، أتختار العبوديّة على الحريّة ، وعلى أبيك وعمِّك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً .

فلما رأى ذلك الرسولُ ﷺ أَخذ بيدِه وقامَ به الى المَلأَ من قريشٍ فقال : يا مَنْ حضر . اشْهَدُوا أنّ زيداً ابْني ، أرِثُه ويَرِثُني .

فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه ، طابت أنفسُهُما وانصرفا . فَدُعِيَ (زيدَ بنَ

---

٣ ـ الأباعر : الإبل ، يريد : لاتحثوا إبلكم .

٤ ـ كابراً بعد كابر : كبيراً بعد كبير .

محمد) حتى جاء الإسلام ونزلت الآية : ﴿ أُدعوهُمْ لآبائِهِم هو أقْسَطُ عندَ الله ﴾ (٥) فَدُعي يومئذٍ (زيدَ بنَ حارثة) .

هذه القصة جُعِلتْ في كتابِ مدرسيّ طُبع عام ١٩٨١ وقرأتُها فيه فرأيتُ فيها ، وفي تعليق المؤلِّف عليها !! أخطاءً أُوردُ منها ما يلي :

لقد أوردْتُ آنفاً أبياتَ حارثةَ بن شَراحيل ، ومنها البيت الذي يقول فيه :

سأُعمِـل نصَّ العِيس في الأرض جاهداً ولا أسـأمُ التَطوافَ أو تسـأمَ الإبـلْ

ومعناه أنّه سيحُثُّ ناقتَه ويضربُ في الأرض بَحْثاً عن ابنه زيدٍ إلى أن تَمَلَّ الإبل .

(سأُعمِلُ نَصَّ العِيس) : تعبيرٌ موروث ، يَعْنُون به حَثَّ الإبل على الإسراع . و(العِيس) : الإبل يَضرب لونُها إلى الصُّفرة ، ويقال : هي كرائمُ الإبل . وهي كلمةٌ كانت تستعملها العامّة قبل نحوِ خمسينَ سنةً في دمشق . فقد كانت الأمّهاتُ يُهَدْهِدْنَ الطفلَ في مهده لينام وهنّ يُرَدِّدْنَ حادياتٍ :

يا حاديَ العيس سلِّمْ لي على حْبابي

وأما النَصُّ في السَّير : فهو أقصى ما تقدِر عليه الدابّة من سرعة، يقال : (نَصَّ الناقةَ) إذا حَثَّها حتى استخرَج ما عندها من السَّير . وأمّا أَعْمَلْتُ الناقةَ فمعناه حَثَثْتُها . وعلى هذا فإنّ معنى قول حارثةَ بنِ شَراحيل : « سأُعْمِلُ نصَّ العيسِ في الأرض جاهداً » أصبح واضحاً جليّاً .

البيت من الناحية الفنيّة لا يَبلغُ أنْ يُقال فيه : (إنَّهُ رائع)، ولكنْ يَصِحُّ أن يُقال فيه : (إنّه جميل) . وأمّا من الناحية اللغوية : فهو غنيٌّ لا شكّ . ولو كان لي ولدٌ صغيرٌ لَسَرَّني أن يَسْتَظْهِرَه فيكسِبَ باستظهاره ثروةً لغويةً ونحويةً . ففيه : إعمالُ الناقة ، والعيسُ ، والنَّصُّ ، ونصبُ المضارع بأنْ مضمَرة بعدَ (أو) ، والتعبيرُ الموروث . كل هذا في بيت واحد .

---

٥ ـ الأحزاب/ ٥ .

ولكن انظُرْ ، إلامَ يـؤولُ كلُّ هذا إذا رأيتَ البيتَ مكتوباً كما رأيتُه :

« سأعمل نَصَّ العَيْش !! في الأرض جاهدا » .

صحيحٌ أنها ليست غيـرَ ثلاثِ نِقاط زِيدَتْ فوق السين ، ولكنها على صِغَر قَدرها قد صَرَفَت البيتَ عن وِجهته أيَّ صرف ، وأفسدَتْهُ أيَّ إفساد .

لقد مَحَقَت البيتَ مَحْقاً . ولقد طُبِع ذلك الكتابُ طبعةً ثانيةً ، بعد نحوِ خَمسِ سنواتٍ ، ونظرتُ في هذه الطبعة الجديدة ، فرأيت النِقاطَ الثلاثَ ، ماتزال حيثُ كانت فوق السين ، (فنصّ العيش) !! مازال (نصّ العيش)!! .

المسألةُ الثانية : أَنَّ الكتاب بعد انتهاء القصة ، يناقش مضمونها فيسأل الطلابَ : ماذا تُصَوِّرُ الأبيات التي أَنْشدها الحارثة ؟! .

ما معنى هذا ؟ معناهُ أنَّ الأَلِفَ واللامَ تَدْخل على العَلَم مُجازَفةً واعتباطاً . نَشاءُ فنُدخِلُهما عليه ، ونشاء فلا نُدخِلُهما . هذا في الطبعتين أيضا . في الطبعة الأولى (الحارثة) وفي الطبعة الثانية (الحارثة) .

هذا لا يجوز . أنت لا يجوز لك أن تُدخِلَ الألفَ واللامَ ، على كلِّ عَلَم . نعم ، سَمَّتِ العـربُ الـرجلَ بِعبّاس ، والعبّاس[6] أيضاً ، وقالت : حارث ، والحارث[7] ، وقالوا الضحّاك ، والفَضْل والنُّعْمان الخ . . . ولكنَّهم لم يُدخِلُوا الألفَ واللامَ على كلِّ عَلَم ؛ فالعربُ قالت : (محمّد) ولم تقل : (المحمد) ، وقالت : (سعيد) ولم تقل : (السعيد) .

ولقد تناول ابنُ هشام صاحبُ المغني مسألةَ دخول الألفِ واللامِ على الأعلام ، فقال ما نَصُّه : (ويتوقَّفُ هذا النوعُ على السماعِ ، ألا تَرَى أنه لا يُقالُ مثلُ ذلك في نحو محمدٍ ومعروفٍ وأحمدَ) ؟!

فالعربُ لم تَقُل : (المحمد) ، ولم تَقُل : (المعروف) ، ولم تَقُل (الأحمد) ولم تَقُل : (الحارثة) !!هذه الأسماءُ لا وجودَ لها في (السِّجِلّ

---

٦ ـ العبّاس : من يعبس في الحرب .

٧ ـ الحارث : من يكسب المال .

المَدَنيّ)!! أيامَ الجاهلية ؛ ولا يمكنُ استخراجُ (قيدِ نفوس) للحارثة!! من (دائرة الأحوال الشخصية)!! في الجاهلية .

ومسكينٌ (حارثةُ) صاحبُنا، فهو مُضَيَّعٌ : لم يَسْلَم له ابنُه ، ولم يسلَمْ له شِعرُه ، ولم يسلم له اسمُه !!

ـ ٨٣ ـ

سَرَفُ الماء

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته ، وهو يعرض لترجمة مادة (سَرَفَ) : (السَرَفُ) تجاوُزُ الحدِّ في كل فِعل يفعله الإنسان ، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر . ومؤدّىٰ هذا التعريف ، أنك إذا قلت لفلان : (إنك مسرف) ، فإنما تريد ، أنه يتجاوز الحد في كل فِعل يفعله عموماً . فإذا أردت نوعاً من أنواع التجاوز دون سواه ، فإنك تذكـره فتقول : (إنك مسرف في كذا وكذا) .

وإليك فيما يلي مثالاً للعموم .

في سنة ثلاث وستين للهجرة ، خلع أهل المدينة المنورة ، يزيدَ بنَ معاوية ، فوجّه يزيد لقتالهم جيشاً ، يقوده مسلم بن عقبة المُرّيّ ، وأوصاه يزيد فقال له : (ادعُ القوم ثلاثاً ، فإن هُمْ أجابوك ، وإلاّ فقاتلهم . فإذا أُظْهِرتَ عليهم ، فأبحْها ثلاثاً) . فلما انتصر عليهم مسلم ، أباحها ثلاثاً ، فقَتل جندُه الناس ، وأخذوا الأموال ، وروّعوا أصحاب رسول الله ﷺ .

ثم دعا الناسَ إلى البيعة ، على أنهم خَـوَلٌ ليزيدَ بنِ معاوية ، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ماشاء . فسمىٰ الناسُ مسلمَ بنَ عقبةَ بعدها ، مسرفَ بنَ عقبة .

فهذا مثال للإسراف عموماً ؛ فالتاريخ لم يقل : مسرف في القتل ، أو مسرف في السلب ، أو مسرف في الظلم ، بل قال : مسرف . أي متجاوز للحد في كل فعلٍ فَعَله عموماً .

وفي سورة آل عمران : ﴿ ربَّنا اغفرْ لنا ذُنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا ﴾[1] . أي تجاوزَنا الحدّ في أمورنا عموماً .

---

١ ـ آل عمران / ١٤٧ .

وفي سورة الأنعام : ﴿ ولاتُسْرِفوا إنه لايُحِبُّ المُسْرِفين ﴾[2] ، أي لايحب من يتجاوزون الحد في أمورهم عموماً .

أما إذا أردتَ الخصوص ، فإنك تذكر ما تخصه ، فتقول : فلان يسرف في النفقة مثلاً . أي يُبذِّر ، وفلان يسرف في الكلام ، أو يسرف في الغضب إلخ . . قال تعالى : ﴿ ومَنْ قُتِل مظلوماً فقد جَعَلنا لِوَلِيِّه سُلطاناً فلا يُسْرِفْ في القتل إنه كان منصورا ﴾[3] .

قبل أن أختم البحث في مادة السَرَف والإسراف ، أقول : إن اللغة ترجمان الحياة ، تسير الحياة ، وترافقها اللغة ما سارت ، فتعبر عنها وتترجم . ولولا ذلك لكانت الحياة خرساء بكماء ، حركةً بغير صوت .

ومن التعبير عن الحياة والترجمة عنها ما أذكره لك من مادة (سَرَف) ؛ وذلك أنني رأيت العربي يخص الماء من دون جميع شؤون حياته بالإسراف . فيقول : (سَرَفُ الماء) ، إذا رآه يذهب في غير منفعة . لم يقل : (سَرَف اللحم) مثلاً ، لأنه يمكن أن يستغني عنه بالتمر . ولم يقل (سرف الخبز) ، لأنه يمكن أن يجتزىء باللبن . وهكذا وهكذا . . وأما الماء ، فلا صبر له على فقده . فهو قليل في بيدائه ، ولذلك يحرص عليه حرصه على حياته . ومن هنا قال : (سَرَفُ الماء) . وقد ترجم اللغويون تعبيره هذا فقالوا : (سَرَفُ الماء) : ما ذهب منه في غير سقي ولانفع . ثم وضعوا هذا التعبير في كلام تام ، ليعرضوه في مكانه من الاستعمال . فقالوا : « أَرْوَتِ البئرُ النخيلَ وذهبَ بقيةُ الماء سَرَفاً » .

وحين رأيتُ على شاشة التلفزيون دعوةَ مؤسسة مياه عين الفيجة ، إلى الاقتصاد في الماء ، ورأيت استعمالَها مادةَ (الإسراف) ، حمدت لها حسن اختيار الكلمة ، سواء أكان ذلك عن اطلاع على قول العرب : (سَرَفُ الماء)

---

٢ ـ الأنعام / ١٤١ .

٣ ـ الإسراء / ٣٣ .

أم لا . ومهما يدُر الأمر فإن استعمالها ذلك لاعيب فيه من جهة المعنى ، وأما جهةُ اللفظ فلنا عليها تعقيبٌ إليك قصتَه :

الإعلانُ يقول : (ما تُسْرِفُه أنت يحتاجه الآخرون) . وكان الصواب أن يقال : (يحتاج إليه الآخرون) لأن (احتاج يحتاج) يتعدى بإلى ولايتعدى بنفسه ؛ ولكنّ هذا لانقف عنده ، لأنه ليس غايةَ هذه الحلقة ، وإنما غايتُها قول الإعلان : (ما تُسْرفه) .

حين قرأت ذلك في الإعلان ، قلت في نفسي : إنّ فِعل (أَسْرف) لايتعدى بنفسه ، ولايصل إلى الاسم بعده إلا بواسطة حرف الجر (في) . وذكرتُ عندها قوله تعالى : ﴿ ومَنْ قُتِلَ مَظلوماً فقد جَعَلْنا لِوَلِيِّه سُلطاناً فلا يُسْرِفْ في القَتل إنه كان منصورا ﴾[٣] . ورأيتني أترك التلفزيون ، وأتناول أقرب معجم إلى يدي ، وهو معجم غير موثوق به ، ولا أرجع إليه في العادة إلا متفكّهاً . وأمّا إذا جَدّ الجِد فإنني لا أنظر فيه . فتحتُه فإذا به يقول : (أَسْرَفَ مالَه : بذّره) . ومعنى هذا أن الفعل (أسرف) ينصب المفعول بغير واسطة ، وما جاء في الإعلان إذاً صحيح .

عندها أحسست بما يُحس به الجندي إذ يُندَب لقتال عدوه . نسيت إعلان مياه عين الفيجة ، وأصبح همّي : (تُسْرِفه وتُسرِف فيه) . فإلى الطاولة وإلى مرجع بعد مرجع . حتى أتممتُ قراءة مادة (سرف) في تسعةَ عَشَرَ مرجعاً ، فما وجدت في معنى التبذير غيرَ (أسرف فيه) ، وأما صيغة (أسرف الشيءَ) أو (أسرف مالَه) فما وقعت عليها .

ولقد خشيتُ أن تكون هذه الصيغة واردة في مرجعين تفتقر إليهما مكتبتي ، هما التكملة والتهذيب ، فاستعنت على الرجوع إليهما أستاذاً صديقاً يملكهما ، فما وجد فيهما غير (أسرف في الشيء) . وأما (أسرفه) فغير موجود ؛ إنه شيء مقحم على اللغة .

فإذا كانت مؤسسة مياه عين الفيجة ، قد قالت من عند نفسها : (ما تسرفه

يحتاج إليه الآخرون) فهذا غلط ، نرجو أن يصحَّح ، لنضمن لأبنائنا أن يقرؤوا صواباً كل مساء . وأما إذا كانت تستعين في العادة بذلك المعجم فلْتستعِنْ سواه مما يوثَق به . فإذا أصرّتْ على التمسك بالخطأ ، وظلت تقول : (ما تسرفه) فقد يُصِرُّ المشتغلون باللغة على الإسراف في الماء فيسقون به حدائقهم !! ويغسلون به سياراتِهم !! وواحدة بواحدة !!

ـ ٨٤ ـ

الضـــد

جاءتني قبل حين رسالة من طالبات إحدى المدارس في لبنان الشقيق . وموضوع حلقة اليوم ، إنما هو استجابة لطلبهن . وقد جاء في الرسالة : (يقولون : ناضل اللبنانيون نضالاً شديداً ضد الاستعمار . هل هذا التعبير صحيح ؟ وماهي قاعدة ضِدّ) ؟

في الجواب أقول : مادة (ضَدَّ يَضُدُّ ضَدّاً) ، لايكاد الناس يستعملون منها اليوم غيرَ (ضِدّ ، وضِدّان ، وأَضْداد ، ومُتَضادّان) . ولعل السبب في اطّراح مابقي من هذه المادة ، هو صعوبة لفظ الدال بعد الضاد . أما نحن فسنورد الأفعال والأسماء لنبيّن حقيقة .

يقال : (ضَدّ فلانٌ فلاناً في الخصومة ، يَضُدّه ضَدّاً) إذا غلبه . ويقال أيضاً : (ضادّه يُضادُّه) إذا خالفه ، و (تَضادّا) إذا تخالفا .

أما بعد أن استبان معنى المادة ، فإلى كلمة (الضِدّ) .

كلمة الضِدّ : لها معانٍ ، أوردها معنىً معنى ، وأُمثِّل لكلّ معنىً بنصٍّ من كلام الفصحاء والبلغاء ، لتكون المعاني أقرب إلى التمثل .

أولا : (الضِد) : خِلافُ الشيء . وأمثّل لهذا المعنى ، بقول الجاحظ ، وقد عرض لتنزيه الأنبياء عن أن يكونوا كسائر الناس في التنافس والتحاسد ، فقال مانَصُّه : (وليس بين حال المتنافسَيْن ، وبين حال المتحاسِدَيْن إلا حجابٌ رقيق ، وحجازٌ ضعيف . والأنبياءُ بمندوحة مِن هذه الصفة ، وفي ضِدّ هذه الشيمة). أي : في خلاف هذه الشيمة .

ثانياً : (الضدّ) هو المُخالِف ، و (الضِدّ) هو النظيرُ أيضاً . فالكلمة إذاً من الأضداد . وأورد لك نصاً شعرياً يصح فيه المعنيان .

كان المتنبي رأى سيفَ الدولة يجلس تحت مظلة مزينة بصور الرياض ، ترتع فيها الوحوش ، فقال يصف تلك المظلة :

عليهـا رِياضٌ لـم تَحُكْها سحابةٌ ... وأغصـانُ دَوْحٍ لـم تُغَنِّ حَمَائِمُه[1]
وفـوقَ حوَاشِي كلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ[2] ... مِنَ الـدُّرِّ سِمْطٌ لم يُثَقِّبْهُ ناظِمُهْ[3]
تَرَى حيوانَ البَـرِّ مُصْـطَلِحـاً بِهِ ... يُحـارِبُ ضِدٌّ ضِدَّهُ ويُسـالِمُـهْ

قال : (ترى حيوانَ البرِّ مصطلِحاً به)، وذلك يُخالفُ ماتكون عليه الوحوشُ من التَّهارُش والتقاتُل . فالوحوشُ في هذه المِظَلّة مُصْطَلِحَةٌ ، إما لأنها متخالفة ومع ذلك تبدو مصطلحة ، إذ هي صُوَرٌ لاتتحرك ، وإما لأنها متناظرة متماثلة ، فلا يعدو بعضُها على بعض ، إذ هي من نوع واحد ، وإما لأن فريقاً منها متناظِر ، وفريقاً منها متخالف ، فترى مِن صورها الاصطلاحَ والتهارُش ، ولذلك قال : (يحارب ضِدٌّ ضِدَّه ويُسالمه).

ثالثاً : (الضِد) هو العدوّ ، ويطلق على المفرد ، فتقول : (هذا ضِدّي) ، أي عدوّي . ويطلق على الجمع ، فتقول : (هؤلاء ضِدّي) ، أي هؤلاء أعدائي .

فأما وُرودُ (الضِدّ) بمعنى العدوّ مفرداً ، فمنه قولُ صفيِّ الدين الحِلّي ، يمدح السلطان الملك المنصور الصالح فيقول :

فيا مَلِكاً قد أَطمَعَ الناسَ حِلْمُهُ ... لِكَثْـرةِ ماتَهْفُـو فيعفُو ويَصْفَحُ
أَعِـد غيرَ مَأْمورٍ على الضِدِّ ضِدَّهُ ... وأَذْكِ لهُ النـارَ التي باتَ يَقْدَحُ

وقولُ أبي إسحاقَ الصابي يمدح عَضُدَ الدولة ، ويهنئه بالأضحى فيقول :

صَلِّ ياذا العُـلا لِرَبِّـك وانْحَـرْ ... كلُّ ضِدٍّ وشـانِىءٍ لَكَ أَبْتَـرْ

وأما وُرودُه للجمع ، فنستشهد له بقوله تعالى ﴿ واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلهةً لِيكُونوا لهم عِزّاً . كَلّا سيكفُرون بعبادتِهم ويكونون عليهِمْ ضِدّاً ﴾[4] . أي يكونون عليهم أعداءً ، فهذا بمعنى الجمع . قال صاحب القاموس المحيط : (ويكون جمعاً ، ومنه : ويكونون عليهم ضِداً) .

هذه معاني (الضِدّ) أوردتُها لك ، مصحوبةً بأمثلةٍ فصيحةٍ ، منها مايُستَشْهد

---

١ ـ يريد أن هذه الرياحين والحمائم والأغصان إنما هي صُوَر .
٢ ـ الثوب الموجّه : ذو الوجهين .
٣ ـ يريد أن حواشي تلك المظلة مزينة بدرّ غير مثقوب لأنه صورةُ دُرٍّ وليس دُرّاً .
٤ ـ مريم / ٨١ ـ ٨٢ .

به ، ومنها مايُسْتَأنس به . ومامِنها استعمالٌ يَنطبِقُ على قول بعضهم : (اللبنانيون يناضلون ضِدَّ الاستعمار).

ولذلك نقول : إن استعمالهم هذا ، استعمالٌ غيرُ صحيح . لا وجهَ له و لامؤيدَ . وإنما هو ترجمة حرفية لكلمة against الإنكليزية ، أو ترجمة حرفية لكلمة contre الفرنسية ، وأما الصحيح والسليم ، فأنْ يقال : (اللبنانيون يناضلون الاستعمار ، أو يقاتلون الاستعمار أو يحاربون الاستعمار ، أو يكافحون الاستعمار) ، ولكن ليس (يناضلون ضِدَّ الاستعمار).

على أنني قبل أن أختم حلقة اليوم ، رأيت من الضروري أن أذكر مايلي : كان المرحوم الأستاذ محمد العدناني ، قد أورد في معجمه : أن كلمة (الضِدّ) تعني أيضاً (المُقابِل) . ثم قال مامعناه : وهذا يسوّغ لك أن تقول : فلان يحارب ضِدَّ الاستعمار .

لماذا ؟ قال : لأن كلمة (الضِدّ) لها معنى المُقابِل .

والذي أراه : أن هذه حجة لاتقوم على قدمين .

أولاً : لأنه لم يذكر من أين نقل أن الضِدّ يعني المُقابل . والمراجعُ التي بين أيدي الناس اليوم ، لاتقول : إن الضِدَّ تعني المُقابل . بل تقول : (الضِدّ خِلافُ الشيء ، والضِدُّ المُخالف ، والضِدُّ النظير ، والضِدُّ العدوُّ) ولانعلم أحداً قال (الضِدُّ) هو (المُقابل).

ثانياً : إذا قبلنا جدلاً أن الضد معناه المقابل ، فهل يستقيم التعبير إذا قلنا : (اللبنانيون يناضلون مقابلَ الاستعمار)؟ لايستقيم

(يناضلون ضد كذا) تعبير غير صحيح ، جلبته الترجمة الحرفية لكلمة against الإنكليزية ، أو كلمةِ contre الفرنسية ، والصحيح أن يقال : (يناضلون الاستعمار ، أو يكافحون الاستعمار ، أو يقاتلون الاستعمار) إلخ . . .

- ٨٥ -

كـلّ

مَنْ يقرأُ مُطَوَّلاتِ النَّحْـو يجـدِ البحثَ في (كلّ) مُفصَّلاً ، ومُعَقَّداً أحياناً . ذاك أنَّ النحاةَ يعالجونها من وجوه شتى ؛ يعالجونها من جهة لفظها ، ومن جهة معناها ، ومن جهة ما يسبقها ، وما يتلوها ، ومن جهة تعريفها ، وتنكيـرها ، ولفظها ، وحذفها . ولكـلٍّ من هذه قواعدُ وأحكامٌ وشواهد .

ولقد رأيتُ ما يلقاه الناس من البحث فيها ، فحاولت تليينَه وتيسيره ما استطعت .

(كُـلّ) : تَنازع فيها النحاةُ واللغويون ؛ فريـقٌ قال : تدخلها (الـ) ، وفريـقٌ قال : إدخالُ (الـ) عليها ليس من كلام العرب .

واستناداً إلى هذا الاختلاف ، أدْخَـلَها الناسُ عليها ، فقالوا : (حضر كـلُّ القوم) و (حضر الكـلّ)[1].

أمّـا ما اتّفقوا عليه بغيـر خلاف ، فهو أنّها إذا لم تدخـل عليها الألفُ واللام ، فلا بُـدَّ بعدها من مضافٍ إليه . لا مفـرّ من ذلك أبداً .

فإذا رأوا المضافَ إليه بعدَها فبِها ونِعْمَـتْ ، وإلاّ فإنّهـم يُقدِّرونه . قال تعالى : ﴿ وكـلاًّ هَدَيْنا ﴾ [2] ، فقالوا التقدير : « كلَّهم هَدَيْنا » . وقال تعالى : ﴿ وكـلاًّ ضَرَبْنا له الأمثالَ ﴾ [3]فقالوا التقدير : « وكـلَّ إنسانٍ ضَرَبْنا له الأمثالَ » .

---

١ - كل وبعض في هذه المسألة سواء .
٢ - الفرقان / ٣٩ .
٣ - الأنعام / ٨٤ .

المضافُ إليه بعدَ (كلّ) لا بُدَّ منه أبداً

إعرابها : (كلّ) : ليس لها إعرابٌ واحد لا تَعْدُوه ؛ وإنّما تكون بحسب موقعها من الكلام .

تَرِدُ نعتاً لما قبلها . قال الشاعر :

ليس الفتىٰ كلُّ الفتى إلا الفتىٰ في أَدَبِهْ

(كلّ) هنا صفة لـ (الفتىٰ) قبلها ، والمعنىٰ : (الفتىٰ التامُّ الفُتُوّة) .

وتَرِدُ توكيداً لما قبلها : قال تعالى : ﴿ فسَجَدَ الملائكةُ كلُّهم أَجْمعون ﴾[4] (كلّ) في الآيةِ توكيد لـ « الملائكة » .

وتردُ مبتدأً كما في قول السموأل :

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤمِ عِرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جَميلُ

(كلُّ) هنا مبتدأ ، و(جميل) خبره .

وتَرِدُ فاعلاً : (جاء كلُّ الأصدقاء) ، ومفعولاً به : (رأيتُ كلَّ الأصدقاء) .

وتَرِدُ مفعولاً مطلقاً : ﴿ فلا تَمِيْلوا كلَّ المَيْلَ فتَذَرُوها كالمُعَلَّقَة ﴾[5] وضابطُه أن تُضاف (كلّ) إلى المصدر ، والأصل : (لا تميلوا ميلاً كلَّ الميل) .

وتَرِدُ ظَرفاً : (سَهِرْتُ كلَّ الليل) ، وضابطُه أن تُضاف (كلّ) إلى ظرف الخ . . .

معناها : أعني أتكونُ مفرداً أم مثنىً أم جمعاً أم مذكراً أم مؤنثاً الخ . . . .

النحاة يقولون ـ وقولُهُمُ صحيحٌ دقيق ـ : يجب مراعاةُ لفظِها ، ويجب مراعاة معناها ، ويجوزُ مراعاةُ لفظها ، ويجوز مراعاة معناها ، ولكنني وجدتُ من الممكن تجاوز هذه التعابير ـ على أنّها دقيقة ـ واستبدالَ قاعدةٍ شاملة بها ، تُغْني مَنْ غايتُه أن يقول فلا يخطىء . وذلك أن تقول :

---

٤ ـ الحجر/ ٣٠ .

٥ ـ النساء/ ١٢٩ .

(كلّ : معناها معنى ما بعدَها)

هو مفرد ، فهي مفرد . هو مثنى ، فهي مثنى . هو جمع ، فهي جمع ، هو مؤنث ، فهي مؤنث . وهكذا . . وإليك الشواهدَ والأمثلة :

قال تعالى : ﴿ كلُّ امرئٍ بما كَسَبَ رهين ﴾[٦] (امرئٍ) مضاف إليه ، وهو مفرد مذكر ؛ (كلّ) : إذاً مفرد مذكر : (كلُّ امرئٍ بما كَسَب هو) .

وقال تعالى : ﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ﴾[٧] : (نفسٍ) مضاف إليه ، وهو مفرد مؤنث ؛ (كلّ) : إذاً مفرد مؤنث : (كل نفس ذائقة هي) .

وقال الفرزدق :

وكلُّ رَفِيقَيْ كلِّ رَحْلٍ وإنْ هُما تعــاطىٰ القَنا قوماهمـا أَخَـوانِ

(رفيقَيْ) مضاف إليه ، وهو مثنى ؛ (كلّ) إذاً مثنى : (كلّ رفيقي رحلٍ أَخَوان) .

وقال لبيد :

وكــلُّ أناسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بينهم دُوَيْهِـيَةٌ تَصْفَــرُّ منهــا الأَنــامــلُ

(أناس) مضاف إليه ، وهو يدل على جمعٍ للمذكر ؛ (كلّ) : إذاً جمعٌ للمذكر . (كلّ أناس . . . بينهم) .

وقال قيسُ بنُ ذريح :

وكــلُّ مُصِيبــاتٍ تُصِيبُ فإنّهــا سِوى فُرقَةِ الأحباب هَيِّنَةُ الخَطْبِ

(مصيباتٍ) مضاف إليه ، وهو جمعٌ للمؤنث ؛ (كلّ) : إذاً جمعٌ للمؤنث : (وكلٌّ . . . تصيب هي) .

وأقول لك : لافرقَ بين أن يكون المضاف إليه نكرةً أو معرفة أو محذوفاً .

ففي الشواهد التي ذكرتُها لك ، كان المضافُ إليه نكرةً ؛ وفيما سأورده لك ، سيكون المضافُ إليه معرفةً .

---

٦ ـ الطور/ ٢١ .

٧ ـ آل عمران/ ١٨٥

ويُمثِّل النحاةُ للمضاف إليه المعرفة فيقولون : (كلُّهم قائمون) ، و (كلُّهم حضروا) . «هُمْ» في المثالين مضاف إليه ، وهو ضمير، والضمير معرفة؛ ومعناه كما نعلم الجمع ؛ (كلّ) : إذاً جمع . ولذلك قالوا : (قائمون) و(حضروا) .

وقال رسولُ الله ﷺ : (كلُّ أمّتي يَدْخُلون الجنّةَ إلاّ مَنْ أبىٰ)[8]

(أُمّة) : مضافٌ إليه ، اسمٌ للجماعة ؛ (كل) : إذاً جمع ، ولذلك قال ﷺ : (يدخلون) .

و (كلُّكُم هُداةٌ للخير ، وكلُّكم دَاعُون إليه) (كم) ضمير ، مضاف إليه ، وهـو ضمير للجمـع ؛ (كلّ) إذاً جمع . ولذلك قيل : (هداة) : جمع ، و (داعون) : جمع .

(كُلّ : معناها معنى ما بعدَها ولو كان محذوفاً)

لأنه إذا كان محذوفاً قدّرناه ، إذ لا مفـرَّ من مضـافٍ إليه بعدها .

قال تعالى : ﴿ قُـلْ كـلٌّ يَعمَل على شاكِلَتِه ﴾[9] ، المضاف إليه هنا محذوف ولذلك نقدّره ، أي : (كـلُّ أحدٍ يعمل) ، (أحد) مضاف إليه ، مفرد مذكر ؛ (كـل) : إذاً مفرد مذكر . ولذلك قال : (كـلٌّ يَعمَل) أي : (هو) .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي خلق الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كـلٌّ في فَلَكٍ يَسْبحون ﴾[10] المضاف إليه هنا محذوف ، ولذلك نقدّره . أي : (كلُّ هؤلاء في فَلَكٍ يَسْبحون) . (هؤلاء) مضاف إليه ، وهي لجمع المذكر . (كلّ) : إذاً جمع مذكر . ولذلك قال : (كـلٌّ في فلك يسبحونَ) والواو ضمير للجمع .

---

٨ ـ صحيح البخاري (دار المعرفة) ١٣/ ٢٤٩

٩ ـ الإسراء/ ٨٤

١٠ ـ الأنبياء/ ٣٣

(كلّ معناها معنى ما بعدَها)

البحث ينتهي هنا ، ولكنْ لا بدّ من أن أقول : إنّ الذي ذكرتُه لك آنفا ، صحيحٌ لاعيبَ فيه ، وقد ليّنتُ فيه قواعدَ (كـلّ) أيَّ تليين ، ويَسَّرْتُها أيَّ تيسير . ولكنْ ليس معنى هذا أنَّ ما قلتُه جامعٌ مانع . هو جامعٌ ولكنه ليس مانعاً .

ففريقٌ من النحاة يقول : الأصحُّ أن يُقال (كُلُّهم حضر) . وهذا لا نخوض فيه ، ومَن شاء أن يخوض قلنا له : دونَكَ المُطَولاَّتِ . وأمّا نحن فغايتنا التيسيرُ على الناس ، وقد فَعَلْنا ، ولم نُجانِب الصواب . ومن ذا الذي يَصبر لقراءة (كُـلّ) في مغني اللبيب وحدَه مثلاً ، وهي فيه في إحدى عَشْرةَ صفحة ؟ دعْ عنك المطوَّلاتِ الأُخرى !! يصبر لذلك أيوب عليه السلام ، أو متخصِّص تفتنه مسائلُ النحو .

كُـلّ : **معناها معنى ما بعدَها** . فاستمْســكْ بذلك فإنك لا تخطىء .

- ٨٦ -

بَعْض

أولاً - معناها وحقيقتها :

قال صاحب التاج : (بعضُ كـلِّ شيءٍ : طائفةٌ منه ، سواءٌ قلّتْ أو كثُرت) . ونَقَلَ صاحب (المصباح) عن ثعلبٍ قولَه : (أجْمَعَ أهلُ النحو على أنّ البعض شيءٌ من شيء ، أو شيءٌ من أشياء) . وقال : (وهذا - أَيْ الشيءُ من الأشياء - يتناولُ ما فوقَ النصفِ ، كالثمانية ، فإنّه يصدُق عليه أنّه شيءٌ من العَشَرة) . ومعنى هذا أنّ (البعض) قد يكون جزءاً أعظمَ من الباقي .

كلمةُ (بعض) مفرد ، وتُجْمَعُ على (أبعاض) . ويُستعمَلُ منها الفعلُ فتقول : (بعّضْتُ الشيءَ) ، إذا جعلتَه أبعاضاً .

ثانياً : دخولُ الألفِ واللام عليها :

اختلف النحاة في دخول الألفِ واللامِ على (بعض) . وأنقُلُ إليك شيئاً من هذا الخلاف . قال أبو حاتم : (ولا تقولُ العربُ : « الكل » ولا « البعض » . وقد استعمله الناس حتى سيبويهِ والأخفش في كتُبهما ، لقلّةِ علمِهما بهذا النحو ، فاجتنبْ ذلك فإنه ليس من كلام العرب) .

ولْنستمعْ إلى المخالفين ، فماذا يقولون ؟ قال الأزهري : (وأجازَ النحويون إدخالَ الألفِ واللامِ على « بعض » و « كلّ » ، إلاّ الأصمعيَّ فإنّه امتَنَعَ من ذلك . وقال أبو حاتم : قلتُ للأصمعيّ : رأيتُ في كلام ابنِ المقفّع : العلمُ كثيرٌ ، ولكنْ أخذُ البعضِ خيرٌ من تركِ الكلّ ، فأَنكرهُ أشدَّ الإنكار وقال : « كل » و« بعض » معرفتان ، فلا تَدْخُلُهُما الألفُ واللام) .

يريد الأَصمعيُّ بقوله (كلّ) و(بعض) معرفتان : أنّ بَعْدَهُما مضافاً إليه دوماً . فإذا كان ملفوظاً بعدهما فَبِها ونِعْمَـتْ ، وإذا لم يكن ملفوظاً فإنك تقدّره . وقد وردت الحالتان في قوله تعالى : ﴿ عرّفَ بعضَهُ وأعْرَضَ عن بعض ﴾[1]، أيْ (وأعْرَض عن بَعْضِه) .

استنـاداً إلى الفـريق الأوّل ، الـذي يقولُ بدخول الألفِ واللامِ على (بعض) ، يجوزُ لك أن تقول : (بعضُ الناس يَسْبِقُ ، والبَعْضُ يقصّر) . قال الجاحظ : (هذا فرقُ ما بينَ مَنْ بُعِثَ إلى البعض ومَنْ بُعِثَ إلى الجميع) .

ثالثا ـ إعرابها :

(بعض) : ليس لها إعرابٌ واحدٌ لا تَعْدُوه ، بل تكونُ حَسَبَ موقِعِها من الكلام :

تَرِدُ مبتدأً في قولك : (بعضُ الناسِ يسبق) ، وتَرِدُ فاعلاً في قولك : (قَصَّرَ بعضُ الناس) ، وترد مفعولاً في قولك : (رأيتُ بعضَ السابقين) ، وتَرِدُ مفعولاً مطلقاً في قولك : (قرأتُ بعضَ القراءة) وهكذا . . . .

رابعاً : استعمالها في الكلام :

يقـول النحاةُ : (بعض) لفظُها مفرد . ولذلك قُلْ : (بعضُ الرجالِ حضر) ، و (بعضُ النساءِ حضر) أيضا . لأنَّ (بعض) مفرد . فالضمير الراجع إليها إذاً مفرد .

ولكنْ يُمكنُ أن يُنظَرَ إلى المسألة من زاوية أخرى ، وذلك أنّ معنى (بعض) يُحَدِّدُه المضافُ إليه بَعدها . فإذا كان المضاف إليه بعدها جمعاً للذكور مثلاً فمعناها جمعٌ للذكور . ولذلك يقال أيضاً (بعضُ الرجالِ حضروا) . وإذا كان المضاف إليه بعدها جمعاً للإناث مثلاً فمعناها جمعُ للإناث ولذلك يُقال : بعضُ النساءِ حَضَرْنَ . واستنادا إلى النَظْرَتَيْن يُقال : (بعضُ الرجال حَضَر) و (بعضُ الرجالِ حضروا) . و (بعضُ النساءِ حَضَر) و (بعضُ النساءِ حَضَرْن) ، و (حَضَرَتْ) أيضا .

---

١ ـ التحريم/٣

البحثُ في (بعض) ينتهي هنا . ولكنْ لا بُدَّ من القول : إنّ كثيرا من الناس يُخْطِىءُ في استعمالها ، فتراهم يقولون : (سألَ الناسُ بعضَهم البعضِ) هذا غلط .

(سأل) : فعل ، (الناسُ) : فاعل ، (بعضَهم) : مفعول به .

وعلى ذلك تبقى (البعض) الأخيرةُ لا إعرابَ لها ، وهذا غلط .

ويقولون أيضاً : (غضبوا من بعضِهم البَعْض) وهذا غلط أيضا . لأَنّ كلمة (البعض) الأخيرةَ لا إعرابَ لها . وسأوردُ لكَ فيما يلي ، نماذجَ من استعمالها الصحيح ، قال المؤمَّل بنُ أُمَيْل :

والقـومُ كالعِيدانِ يفضُـل بعضُهـم بعضاً ، كذاك يفوق عُودٌ عُودا

(يفضُلُ) : فعل ، (بعضُهم) : فاعل ، (بعضاً) : مفعول به .

وفي سورة المؤمنون : ﴿ فَأَتْبَعنا بعضَهم بعضاً ﴾[٢] (أتبع) : فعل ينصب مفعولين ، (بعضَهم) مفعول أول ، (بعضاً) مفعول ثان . وفي سورة البقرة : ﴿ تلك الرسلُ فضّلنا بعضَهم على بعض ﴾[٣] .

وتلاحظ في الشواهد التي أوردتُها لك منطقاً نحوياً ومعنوياً . ولذلك لا ترى في الكلام العربي مثلَ قولهم : (غضبوا من بعضِهم البعض) لأنّهُ قولٌ يخلو من المنطق النحويِّ ، والمنطق المعنويّ . يبقىٰ أخيراً نموذجٌ صحيحٌ ، وإنْ كان قليلاً في الاستعمال ، أُورِدُه لك في مثال وشاهد : أَوْرَدَ الجاحظُ في البيان والتبيين ما نَصُّه :

قاتلت بنو عمي بعضُهم بعضاً .

(قاتلت بنو) : فعل وفاعل . (بعضاً) : مفعولٌ به . وأمّا (بعضُهم) فإعرابُها : بَدَل مِن (بَنُو) . ولو حَذَفْتَ (بنو عمي) وقلتَ : (قاتلَ بعضُهُم

---

٢ ـ المؤمنون/ ٤٤
٣ ـ البقرة/ ٢٥٣

بعضاً) لكان كلاماً صحيحاً فصيحاً . ومن سورة فاطر : ﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظالمون بعضُهم بعضاً إلا غُروراً ﴾ .[4]

(يَعِدُ الظالمون) : فعل وفاعل ، (بعضاً) : مفعول به . وأما (بعضُهم) فإعرابها بدل من (الظالمون) ولو حذفْتَ كلمةَ (الظالمون) ، وقلتَ : (إنْ يَعِدُ بعضُهم بعضاً إلا غروراً) ، لكان كلاماً صحيحاً سليماً .

---

٤ ـ فاطر/ ٤٠

- ٨٧ -

الضريبـــة

يقول ابن فارس في ترجمة مادة الضَّرْب : (الضاد والراء والباء أصلٌ واحد ، ثم يُستعار ويُحمَلُ عليه) . يعني : هذا الأصلُ الواحد يُستعار لمعانٍ أخرى ليس فيها معنى الضَّرْب على الحقيقة .

ثم يبسُط هذا الإمامُ القولَ في ذلك ؛ يقول : « مِن ذلك ضَرَبْتُ ضَرْباً : إذا أوقعتَ بغيرك ضَرْباً » . ثم ينتقل إلى مايُستعار مِن هذا الأصل فيقول : « ويستعار منه ويُشَبَّهُ به الضربُ في الأرض تجارةً وغيرَها مِن السَّفَر » ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا ضَرَبْتُم في الأرض فليس عليكُمْ جُناحٌ أن تَقْصُرُوا مِنَ الصلاة ﴾[1] . على أن صاحب المفردات يرى أن الضربَ في الأرض هو ضربُها بالأرجل .

ومما لا يكاد يجهله أحد مِن استعمالات هذه المادة : قولُهم : (ضَرْبُ الدراهم) أي صوغُها ، وذلك لإيقاع المَطارِق . قال الراغب : « وضرب الدراهم اعتباراً بضرب المطرقة » . ومن المجاز أيضاً قولُهم : (ضُرِبَتْ عليهم الضريبةُ) ، كالجزية وغيرها .

ولقد قدّمتُ ماقدمتُ لأصل مِن بعدُ إلى كلمة (الضريبة) ، فقد كتب إلي أحد السادة المشاهدين من قصر العدل في حلب يسأل عن الضريبة ، ماحقيقتُها اللغوية ؟

وأقول : إن للضريبة في اللغة معانيَ مختلفةً ، منها الحقيقيُّ ومنها المجازيُّ وأشهَرُها في الاستعمال ماأُورده لك :

١ ـ الضريبة : هي الطبيعة والسَجيّة ، وذلك لأن الإنسان كأنه ضُرِبَ عليها ضَرْباً ، وصِيْغَ صِياغةً ؛ قال عليّ كرم الله وجهه وهو يصف اختلافَ الناس

---

١ ـ النساء / ١٠١

وتفاوتَهم : « فَتَامُّ الرُّواءِ[٢] ناقِصُ العقل ، ومادُّ القامة قصيرُ الهمّة ، وزاكي العمل قبيحُ المنظر ، وقريبُ القَعرِ بعيدُ السَّبْر ، ومعروفُ الضّريبة[٣] مُنْكَرُ الجَلِيبة »[٤] ..

٢ ـ الضريبة : هي مايُفْرَض على المِلْك والعَمَل والدَّخْل ، وتوجِبُها الدُّول على فئاتٍ مختلفةٍ من المجتمع ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأعمال والقوانين ، وجمعها (ضرائب) يقال : (ضَرَبَ عليه ضريبةً) أي إتاوة . وذلك إذا أَوْجَبَها عليه . وإنما سُمِّيت ضريبةً لأن مَنْ يوجِبُها على الناس ويُلْزِمهم إيّاها كأنه ضَرَبَهُم بها ضَرْباً .

٣ ـ الضريبة : هي كلُّ ماضَرَبْتَه بسيفك . وقال ابنُ سيده : (وربما سُمِّي السيفُ نفسُه ضريبة) . ويستشهدون للمعنيين جميعاً ببيتٍ لجرير ، مع اختلاف الرواية فيه . فقد استشهد به ابنُ منظور في اللسان على أن الضريبة هي مايُضْرَب بالسيف . فقال مانصُّه وضَبْطُه :

وإذا هَزَزْتَ ضريبــةً قَطَّعْتَــهــا فَمَضَيْتَ لا كَزِمــاً[٥] ولا مَبْهُــورا

فالضريبة في البيت ـ كما يرى ابن منظور ـ هي مايضرب بالسيف .

وقد يَسأل سائلٌ فيقول : وهل تُهَزُّ الضريبة حتى يقول جرير وإذا هززتَ ضريبةً قطعتَهــا ؟ وأقـول : نعم ، فالمتمرِّس بضَرْب السيوف ، يعرف أنه إذا ضَرَبَ الضريبة : فتجاوزَ السيفُ اللحمَ إلى العظْم ، ولم يَهُزَّ سيفَه في الضريبة ، عَضَّ العظْمُ على السيف فأَسَرَه ، فبقي السيفُ مُثْبَتاً في الضريبة ، وغدا المقاتِلُ بغير سلاح ، فيتمكّنُ أعداؤه منه . فإذا هَزَّ سيفَه وهو يُهْوِي به ، اهتزّ العظمُ أيضاً ، فانفرَجَ عن السيف ، فامتنعَ أن يَعَضَّ العظمُ على السيف . قال الشاعر يصف ذلك من ممدوحه :

إذا هَزَّهُ في عَظْمِ قِرنٍ تَهَلَّلَتْ نَواجِذُ أَفْواهِ المَنايا الضَّواحِكِ

---

٢ ـ يعني فمنهم تام الرواء.
٣ ـ أي معروف السجية.
٤ ـ الجليبة هي الخلق الذي يتكلفه الإنسان على خلاف طبعه.
٥ ـ لاخائفاً.

وأمـا صاحب التـاج فيستشهـد بروايةٍ أخرى للبيت ، على أن الضريبة هي السيفُ نفسُه ، وإليكَ ما نصَّ عليه : « قال ابنُ سِيده : وربما سُمِّيَ السيفُ نفسُه ضريبةً ، قال جرير : فإذا هَزَزْتَ قَطَعْتَ كلَّ ضريبةٍ » .

فيكون المعنى على هذا : إذا هززتَ سيفَك قطعتَ كلَّ سيف .

ولسائلٍ أن يسأل : وهل يقطَع السيفُ السيفَ ؟ وأقول : قد يكون ذلك إذا كان الحديدُ حديداً والساعِدُ ساعداً ؛ وقد يكون ذلك مبالغةَ شاعر ، ولكنها تظل في حَيِّز المقبول .

على أن الاختلاف في رواية البيت أَرَّقَني ، فرجعتُ إلى ديوان جرير ، فرأيت ماأَقُصُّ عليك .

١ ـ رأيتُ أن البيت هو من قصيدة يهجـو بهـا الأخـطلَ ، فلا محلَّ إذاً لأن يخاطِب مَهْجُوَّه فيقول له : (وإذا هززتَ قطعتَ كلَّ ضريبة) ، لأن هذا مديحٌ وليس هجاءً . ففي البيت إذاً خطأً في الرواية .

٢ ـ رأيتُ الروايةَ في الديوان بضَمِّ التاءِ ، أي : (فإذا هَزَزْتُ) ، فجريرٌ إذاً يمدح نفسَه في هذا البيت ، ولا يتوجَّه به إلى الأخطل .

٣ ـ رجعتُ إلى نقائض جرير والأخطل في الكتاب المَعْزُوِّ إلى أبي تمّام ، وهنـاك وقعْتُ على الصواب ، ورأيت الروايةَ العُليا والصورةَ الجُمْلى . وذلك أنها وَرَدَت هناك بالبناء للمجهول أي :

وإذا هُزِزْتُ قَطَعْـتُ كلَّ ضريبـةٍ   ومَـضَـيْتُ لا طَبِـعـاً[٦] ولا مَبْـهُـورا

فالذي في لسان العرب إذاً وفي التاج خطأٌ . وأنا لا أقول ذلك تعالياً أو تَعالُماً حاشى لله ، فهذان السِّفْران العظِيمان أَجَلُّ مِن ذلك ، والعالِمُ العالِمُ اليومَ مَنْ قَرَأَ فيهما فَوَعى فوائِدَهما فَحَسْب . ولكنني نبّهتُ على ذلك لأنه حقّ ، والحقُّ يُقال . ومَن شاء فلْيرجِعْ إلى الكتب الأربعة ، فإنه واجِدٌ فيها ماذكرتُ بغير تَزَيُّدٍ . وإليكَ أرقامَ الصَفَحات فيها :

---

٦ ـ لايعلوني الصدأ .

اللسان : الجزء الأول الصفحة ٥٤٤ .

التاج : الجزء الثالث الصفحة ٢٤٩ .

شرح ديوان جرير للصاوي الصفحة ٢٩١ .

نقائض جرير والأخطل الصفحة ١٢٣ .

وبعد ، فإذا طالبتني بنصٍّ يكون شاهداً على استعمال الضريبة بمعنى السيف نفسِه ، أتيتُك به من كتاب عليٍّ كرّم الله وجهه ، إلى أهل مصرَ يُثني فيه على مالكٍ الأشتر ، إذ قال وهو يصفه لهم : « لا كَلِيْلُ الظُّبَةِ[٧] ولا نابي الضَّريبة » ، أي ولا نابي السيف . فعلى هذا يَصِحُّ قولُ ابنِ سِيده:« وربما سُمِّيَ السيفُ نفسُه ضريبةً » .

وبعد فمن جميع ماتقدم نخلص إلى مايلي :

١ ـ الأصلُ في مادة الضَّرْبِ إيقاعُ شيءٍ على شيء .

٢ ـ الضريبة : السجيّةُ ، كأنّ الإنسان ضُرِبَ عليها .

٣ ـ الضريبة : ماتفرضُه الدول على المِلك والعَمَل والدَخْل ، كأنها إذ تُلْزِمُ الناسَ إيّاها تضرِبُهُم بها ضَرْباً .

٤ ـ الضريبة : ماتضربُه بالسيف .

٥ ـ الضريبة : قد تُطْلَقُ على السيف نفسِه .

---

٧ ـ الحد .

ـ ٨٨ ـ

مفتّـــش ضـــريبيّ

متى وُجد الشيءُ وُجد تاريخُه ، فإذا سار، سار التاريخ معه يسجل أحواله ، ويقيّد مايَعْرُوه من تطوّر . ينطبق هذا على الإنسان والحيوان والنبات والأشياء ، وعلى المحسوسات والمجرَّدات .

النحْوُ مثلاً علمٌ ، فالنحو إذاً له تاريخ . وقد حفظ لنا تاريخ النحو أن هذا العلم بدأ متواضعاً ، ككل ناشىء طارىء ، ثم شرع ينمو ويترعرع ، مُصْعِداً خطوةً خطوةً نحو قمّة سامقة ، حتى إذا بلغ ذروتَها عجَز مَن جاء بعدُ أن يتخطاها .

وإذا كان مِن تاريخ النحو العربي مايجوز إغفالُه ؛ فإنّ مِن غير الجائز إغفالَ أنْ قد كان له خلال تطوره مدرستان : مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، تَعاوَرَتا مسائِلَه فاختلفتا فيها اختلافاً بيّناً . حتى لقد أُلِّفَت الكتبُ في ذلك . وقَلَّ كتابٌ عَرَضَ لهذا النحو إلا وَلَهُ وُقوفٌ عند هاتين المدرستين والخلافِ بينهما .

في حلقة اليوم أُورِدُ مسألةً من مسائل الخلاف هذه ، وإليكَها موجزةً :

يقال في العربية : (خالدٌ بستانيٌّ) مثلاً ، فيعني هذا أنّ خالداً منسوب إلى البستان ، مرتبطٌ به ارتباطَ عمَلٍ أو مِلكٍ الخ . . أي بينهما رابطةٌ من هذا النوع أو ذاك . فكيف حصَلَ العربيّ على هذا المعنى ؟ حصل عليه بهذه الياء المشددة ، التي ألحقها بكلمة (بستان) إذ نشأت بها نسبة بين خالد والبستان ؛ نشأت بها رابطة بينهما . هذا البحث يسمّيه النحاة بحثَ النِّسَب . وقد اختلف نُحاة البصرة ونحاة الكوفة فيه . فأما البصريون فقالوا : إن النسبة إنما تكون إلى المفرد ـ إلا في حالات خاصة ـ فإذا أرادوا أن يعبّروا عن أن خالداً يعمل في البساتين ، قالوا (خالد بستانيّ) ، ومنعوا أن يقال : (خالد بساتينيّ) ، أي منعوا النسبةَ إلى الجمع .

وإليك قصةً حول مذهبهم هذا ، أبدؤها بمقدمة توضحها :

كلمة (جْوال) أعجمية ، والعامة تقول : (شْوال) وأما العرب الفصحاء فعرّبوها فقالوا : (جُوالِق) والجمعُ (جَوالِيق) .

يقول ياقوت ، في معجم الأدباء : «قدِم الهَرَوِيّ يوماً بغدادَ ـ والهرويّ إمامٌ من أئمة اللغة ـ فاجتمع إليه أهلُ العلم ، وقرؤوا عليه الحديث والأدب ، وقد جرى بينه وبين الجواليقيّ ببغداد ـ الجواليقيُّ إمامٌ أيضاً من أئمة اللغة ـ مناظرة في شيء اختلفا فيه ، فقال الهروي للجواليقي : أنت لا تُحْسِن أن تنسُب نفسَك ، فإن (الجواليقيّ) نسبةٌ إلى الجمع ، والنسبةُ إلى الجمع بلفظِه لا تصحّ » . وماندري أكان الهرويّ يُقِرّ للجَواليقيّ بالعلم لو كانت نسبُته (الجُوالِقِيَّ) ، نِسبةً إلى المفرد ؟!

وأما نحاة الكوفة فيأبَوْن مقالةَ البصريين ، ويرون أن النسبة إلى الجمع عربيةٌ فصيحة ، لها شواهدُ من كلام العرب ليست بالقليلة ؛ ثم هم يحتجون لرأيهم هذا بحجة أخرى ، هي أنك إذا قلت : (خالد بُسْتانيّ) ، فنسبت إلى المفرد ، وكان يعمل في بساتينَ كثيرةٍ لا في بستانٍ واحد ، فإن اللَّبْس في تعبيرك هذا واقعٌ لا محالة ، لأن المستمع لا يدري : أأنت تنسُب خالداً إلى البستان أم تنسُبه إلى البساتين ؟ يعني : أيعمَل في بستانٍ أم يعمل في بساتينَ ؟

وخذ ماشئتَ من كتب النحو المطوَّلة تجدْ هذه المسألةَ فيه معادةً مكرّرة .

بالأمس جاءتنِي رسالة من حلب يسألني مرسلها : أنقول : فلان مفتِّش ضريبي أم فلان مفتش ضرائبي ؟

وأقول للأخ صاحب الرسالة لقد بيّنتُ لك ماعلَيْه النحاةُ ، ولكنني أضيف إلى ذلك أن حاجة الناس اليوم إلى البتّ والقطْع قد حَدَتْ مجمعَ اللغة العربية بالقاهرة على معالجة هذه المسألة .

وقد رأى أعضاؤه إذْ تداولوها أن النسبةَ إلى المفرد والنسبةَ إلى الجمع لا تستويان ، وقد تكون النسبة إلى الجمع أحياناً أَبْيَنَ في التعبير عن المُراد ، وأكثرَ جِلاءً لإرادة المتكلم ؛ وفي هذا الرأي كما تلاحظ ميلٌ إلى مذهب الكوفة . وعلى

ذلك قَرَّرَ المجمع صحةَ النسبة إلى الجمع ، إذا احتاج المتكلم إلى التمييز بين المنسوب إلى الواحد والمنسوب إلى الجمع .

فالمسألةُ إذاً مسألةُ إيضاحٍ للقصد ، وجلاءٍ للإرادة ؛ فقلْ لي ماذا تريد ، أقلْ لك ماذا تقول . إذا كان ماتريد أن تقوله جلياً لا لَبسَ فيه فانسُبْ إلى المفرد . فإذا خشيتَ اللَبسَ فانسُبْ إلى الجمع .

ولقد سُئلت مراتٍ ، أنقول : هذا معرِضُ دمشقَ الدَّوْلي أم الدُّوَلي ؟

وفي الجواب أقول تفصيلاً :

إذا كانت الدولة تقيم لنفسها معرضاً ، وكانت المؤسسات الخاصّةُ تقيم لنفسها أيضاً معرضاً آخرَ ، فمعرِضُ الدولةِ هو معرِضٌ دَوْليّ ، لأنه معرِضٌ منسوبٌ إلى الدولة . ولا اختلافَ في هذا بين النحاة .

ولكنّ الدولة إذا أقامت معرِضَيْن : معرِضَها هذا الذي قلنا : (إنه معرض دَوْليّ) لأن الدولة أقامته لنفسها ، ومعرضاً آخر ، اشترك فيه عددٌ من الدول ؛ فهذا المعرض الذي اشتركت فيه دولٌ ، يقول البصريون فيه أيضاً : (إنه معرِضٌ دَوْليّ) ، فلا يفرّقون . وأما الكوفيون فيقولون : (إنه معرض دُوَلِيٌّ) ، لأنه منسوب إلى الدُّوَل لا إلى الدَوْلة . والذي لا شك فيه أن الأَخْذَ بمذهب الكوفة يدفع الالتباس .

مجمعُ اللغة العربية بالقاهرة قال ما معناه : انسُبْ إلى المفرد ؛ وأما عند الحاجة إلى التمييز بين المنسوب إلى الواحد والمنسوب إلى الجمع ، فصحيحٌ أن ننسُبَ إلى الجمع .

هذا الذي قلتُه لك قس عليه كلمة الضريبة . فإذا كان بين مفتّشي الضرائب اختلافٌ في العمل : فمنهم من يفتش ضريبةً واحدةً ، ومنهم من يفتش ضرائبَ متنوعة ، فلكلٍّ مهمةٌ ولكلٍّ اختصاصٌ وظيفيٌّ ، فقلْ : هذا مفتش ضَريبيٌّ وذاك مفتشٌ ضرائِبيٌّ .

وأما إذا لم يكن بين عمليهما فرق ، فالأفصحُ أن تقول هذا مفتش ضريبيٌّ . وإن كان قولك : (هذا مفتش ضرائبيٌّ) ليس خطأً ، لأنه يفتش الضرائبَ .

كــــرة المضـــرب

الاشتقاق في العربية مزيّةٌ من مزاياها ، وهو وسيلة من وسائل التعبير فيها ، جدُّ موجَـزَةٍ وجـدُّ مفيدةٍ . ويكفيك أن تعلم أن الكلمة الواحدة تعطيك عدداً وافراً من المشتقات . وأنّ كل مشتقٍ منها قد يُغْنِيك عن كلمات .

فـ (الضَّرْبُ) مثلاً مصدرٌ ، تشتقّ منه وافراً من المشتقات ؛ تشتق مثلاً اسمَ فاعِـل فتقـول : (ضارب) ، واسمَ مفعـولٍ فتقول : (مضروب) واسمَ تفضيلٍ فتقول : (فلان أَضْرَبُ مِن فلان) ، واسمَ زمانٍ واسمَ مكانٍ فتقول فيهما معاً : (مَضْرِب) .

وتشتق وافـراً من الأفعـال فتقـول : (ضرَبَ ، يضرِبُ ، اضرِبْ ، وضارَبَ وتضارَبا واستَضْرَبَ واضْطَرَبَ) الخ . .

فالأصل في كل ذلك كما رأيت هو (الضَّرْبُ) . وقد اشتَقَقْتَ منه كلماتٍ كثيرةً ، لكلٍّ منها معنى يزيد على المعنى الأصلي .

فـ (الضـارِبُ) مثـلاً ـ وهـو اسم فاعـل ـ فيه معنى الضَرْب ، وهو المعنى الأصلي ؛ ولكنْ يزيد على ذلك أن فيه معنى مَنْ أَوْقَعَ الضَربَ ؛ و (تضاربا) فيه معنى الضرب ، ولكنْ يزيد على ذلك أن فيه معنى تبادُلِ اثنينِ إيقاعَ الضربِ ، أعني أن كلاً منهما أَوْقَعَ الضَرْبَ بصاحبِه . وهكذا وهكذا . . .

فالاشتقاق ـ كما رأيت ـ كأنه استيلاد : فالأمُّ واحدة والأولاد كثيرون ؛ فيهم جميعاً خصائصُ مِن أمِّهـم ، ولكنْ لكلٍّ شخصية ـ كما يقولون ـ ولكلٍّ عمل .

فأيةُ وسيلةٍ هذه الوسيلةُ الرائعةُ في اللغة العربية ؟! وكم تُغْنِي وكم تُثْرِي ؟ وكم تُسهِّلُ أداءَ المعاني ؟ وكم تَضَعُ بين يَدَي المتكلمِ مِنَ المفردات ؟!

غير أنّ لكلِّ مشتقٍ قاعدةً لا بدّ مِن تحكيمها عند اشتقاقِه ؛ فإذا أردتَ اشتقاقَ

اسم مَكانٍ أو اسم زمانٍ مِن مادة مضارعُها مفتوحُ العين أو مضمومُها مثل (فتح ـ يفتَح) أو (دخل ـ يدخُل) فإنك تقول : (مَفْعَل) أي (مَفْتَح ومَدْخَل) .

تحـدِّدُ مثلاً مكـانَ فتْـح البـاب ، أو زمانَ فتْحِ البابِ فتقول : (هنا مَفْتَحُ الباب) ، أي مكانُ فتْحِه . وتقول : (مَفْتَحُ الباب بعدَ ساعة) أي زمانُ فتحِهِ بعدَ ساعة . وقد قلتَ في المكان والزمان : (مَفْتَح ـ مَفْتَح) فلماذا ؟ لأن عين المضارع مفتوحة : (يفتَح) .

وتُحدِّدُ مكانَ دخول المدعُوِّين مثلاً ، أو زمانَ دخولهم فتقول : (هذا مَدْخَلُ المدعوّين) أي مكانُ دخولهم . وتقول : (مَدْخَلُ المدعوّين بعدَ ساعة) ، أي زمانُ دخولهم بعدَ ساعة ، فلماذا ؟ لأن عين المضارع مضمومة : (يدخُل) .

وأمّـا إذا كانت عين المضارع مكسورةً مثل (ضرب ـ يَضرِب) فإنك تكسِر العين في اسمِ الزمان والمكان .

تُحَدِّدُ مثلاً مكانَ الضَرْب فتقول : (مَضْرِبُ الكرة في الملعب لا في الطريق) أي مكـان ضَرْبِها في الملعب لا في الطريق ؛ وتحدد زمان ضَرْبِ الكرة فتقول : (مَضْـرِبُ الكـرة غداً) ، أي زمـانُ ضَرْبِها غداً ؛ وقد قلتَ في الزمان والمكان : (مَضْـرِب ـ مَضْـرِب) فلمـاذا ؟ لأن عين المضـارع مكسـورة : (يضرِب). هذا قياس ، هذه مِسطرة .

بالأمس دخلت مكتبة الأسد الوطنية للنظر في مرجع أفتقر إليه . فاستوقفني أحـد السـادة الأسـاتـذة ؛ قال : في برامج الرياضة يقولون . (كُرَةُ المَضْرِب) ، والمَضْرِبُ اسمٌ لزمان الضَرْب أو مكانِه ، فهل هي كرةُ زمانِ الضَرْب ، أو كرةُ مكانِ الضَرْب ، حتى يقولوا : كرةُ المَضْرِب ؟

وأقول : كلّا ليس الأمر كذلك . فزمان الضرب ومكان الضرب ليسا مقصودَيْن في هذه التسمية ، وهذا الاستعمال مجانبٌ للصواب . ولا بد في تصحيح ذلك ، من النظر إلى المعنى المقصود ، واختيارِ الاسم المشتق الذي يناسبه . صحيح أننا قلنا الاشتقاق مزيّةٌ في اللغة العربية ، ولكنْ صحيحٌ أيضاً أن هذه المزية لا يجوز استعمالُها بغير تَبَصُّر .

والذي أراه : أن الرياضِيّين يُضيفون الكرةَ ـ في العادة ـ إلى أداة اللَّعِب بها ، فيقولون : (كرةُ اليد) إذا كانت اليدُ هي أداةَ إلقائها ، ويقولون : (كرةُ السلّة) إذا كانت السلةُ هي التي تتلقى الكرةَ ، ويقولون : (كرةُ الصَّوْلَجان) إذا كان الصولجان هو أداةَ قَذْفِها ، و(كرةُ القَدَم) إذا كانتِ القدمُ أداةَ رَكْلِها .

وعلى ذلك ، إذا اختاروا إضافة الكرةِ إلى اسمٍ مشتقٍ يدل على أداة ضَرْبِها ، فالصوابُ أن يقال : (كرةُ المِضْرَب) ، باعتبار اسمِ الآلةِ التي يكون الضَرْبُ بها . ومثلُ ذلك في الاشتقاق : (المِبْرَد) لآلةِ بَرْدِ الحديدِ أو الخشب ، و(المِكْسَر) لآلة الكَسْر ، و(المِقْطَع) لآلة القَطْع ؛ فهذا قياس .

فإذا اعترض أحدهم على هذه التسمية فقال : إننا لا نقصِد إلى هذا المعنى ، بل نقصد إلى معنىً آخرَ هو : الضربُ نفسُه ، أي (هذه كرةُ الضَّرْب) ، لأن اللاعبين يتعاوَرُون ضَرْبَها ، فإننا نقول له : إذا كان الأمرُ كما تذكُر ، فَلَكَ أن تقول : (هذه كرة المَضْرَب) ، لأن المَضْرَبَ في اللغة مصدرٌ ميمي قياسي ، يساوي كلمة الضربِ في المعنى ويماثِلها ، فالضربُ والمَضرَب في اللغة بمعنى واحد .

فجائزٌ لك إذاً في تسمية كرة التِنِس ـ كما يسمّيها الغربيون ـ تسميتان . جائزٌ أن تقول : (كرة المَضْرَب) بمعنى كرَةِ الضَرْب ؛ وجائز أن تقول : (كرةُ المِضْرَب) بمعنى كرةِ الأداةِ التي يكون الضَرْبُ بها .

فهي (كرة المِضرَب) اعتباراً بالأداة ، وهي (كرة المَضْرَب) اعتباراً بضَرْبِ اللاعبين .

وأما (كرة المَضْرِب) كما يقولون اليوم ، فغلطٌ أوقَعَنا فيه استعمالُ مشتقٍّ مكانَ مشتقٍّ آخرَ بغير تَبَصُّر .

منذ أيام سُئلت : أليست كلمة (المَشْفَى) غلطاً ، وصوابُها (المُستشفَى) ؟ فقلت : (المستشفى) اسمٌ للمكان الذي يَطْلب فيه المريضُ الشفاءَ ، و(المَشْفَى) اسمٌ للمكان الذي يُشْفَى فيه المريض .

فقلْ لي ما المعنى الذي تريد ، أقلْ لك ما المشتقُّ الذي يناسبه ويُعَبِّر عنه .

- ٩٠ -

الصحيفــــة

يقـول ابن فارس في ترجمـة مادة (صحف) : « الصاد والحاء والفاء أصلٌ صحيح ، يدل على انبساط في شيءٍ وسَعَة » . ومنه (الصَّحيفُ) لِوَجْه الأرض ، لما فيه من انبساط وسَعة . فإذا تجاوزْتَ كلمة (الصحيف) هذه ، لم تجد في المادة كلِّها غيرَ بضع كلماتٍ ، يدور معظمها حول كلمة (الصحيفة) .

فالمادة إذاً فقيرة ، ولكنّ كلمة الصحيفة وما يدور في فَلَكِها غنيٌّ ومفيد . فمن أيِّ جهةٍ جِئْتَها وَجَدتَ نُكْتةً لغوية أو مادّة علمية .

وأول ذلك أن الصحيفة - وهي في الأصل : قطعة من جلد ، أو قِرطاسٌ يُكتَب فيه - إنما تُطلَق على وجهَيِ الورقة معاً ؛ وإطلاقُها على الوجه الواحد من الورقة غلط . الصحيفةُ : وجهان ، وكلُّ وجهٍ صفحة ، لا صحيفة . فإذا كان عندك كتابٌ فيه مئةُ صحيفةٍ ، ففي كتابك هذا مِئَتا صَفْحة .

الوجهُ الواحد صَفْحة ، والوجهان معاً صَحِيفة .

وقـد نبّه المشتغلون باللغة على ذلك ، منذ مطلع هذا القرن . قال الشيخ إبراهيم اليازجيّ : « ويقولون : قرأت هذا في صحيفة كذا من الكتاب ؛ وفي هذا الكتاب كذا وكذا صحيفةً ؛ يَعْنون الصفحة ، وهي أَحَدُ وَجْهَيِ الصحيفة . وإنما الصحيفةُ الورقةُ بوجهَيْها » .

و(الصحيفـةُ) الكتـابُ أيضاً ؛ واستعمالُها بهذا المعنى ، واضحٌ في قصة مَقْتَل طَرَفَةَ بنِ العَبْد . فقد وَفَد طرفةُ وخالُه المُتَلَمِّس على عَمْرو بنِ هند ، فَبَقِيا عنده مدة ، ثم علم عمرو أن طرفةَ هجاه ، فأَسَرَّها في نفسه ؛ وكتب لهما إلى عامِلِه على (هَجَر) أن يقتلهما . وأَوْهَمَهما أنه كتب لهما بجائزة .

فانطلقا فمرّا بنهر الحِيرة على غلمان يلعبون . فقال المتلمس لطرفة : هل لك أن ننظر في كتابَيْنا ؟ فإن كان فيهما خيرٌ مضَينا له ، وإن كان شرّاً ألقيناهما . فأبى عليه طرفة .

فأعطى المتلمِّسُ كتابَه بعضَ الغلمان فقرأه ، فإذا فيه الأمرُ بقَتْله . فانتزع المتلمس الصحيفة من يد الغلام ، وألقاها في نهر الحِيرة ، وقال لطرْفة : أطِعْني وألْق كتابَك ؛ فأبى طرفة ومضى بكتابه إلى العامل فقتله . فقال الشاعر في ذلك :

أَلْقىٰ الصحيفةَ كي يخففَ رَحْلَهُ والزّادَ حتّى نَعْلَهُ أَلْقاها

فصارت صحيفة المتلمس مَثَلاً . ففي النهاية لابن الأثير : « أنه (ﷺ) كَتَب لِعُيَيْنَة بن حِصْنٍ كتاباً ، فلما أخذه قال : يا محمد ، أتُراني حاملاً إلى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس ؟ » قال ابن الأثير : (الصحيفة الكتاب) .

وتُطْلَقُ الصحيفةُ على ماأَقْبَلَ عليكَ من الوجه . ففي الأساس للزمخشريّ : « ومن المجاز : صُنْ صحيفةَ وجهك » . وقال البعيث الشاعر يهجو :

وكُلُّ كُلَيْبِيٍّ صَحيفةُ وَجْهِهِ أَذَلُّ لأقْدامِ الرِّجال مِنَ النَّعْلِ

هذه معاني (الصحيفة) قديماً ؛ ولكنّ معناها تَطوَّر في العصر الحديث ، فهو اليوم إضْمامَةٌ من الصَّفَحاتِ تصدر يومياً ، أو في مواعيدَ منتظِمةٍ ، بأخبار السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة ، ومايتصل بذلك . ولا يجهل اليومَ أحد هذا المعنى .

ومع أن الصحيفة والجريدة كلمتان مترادفتان ، فإن كلمة (الصحيفة) تكاد تكون اليوم عامّةً في استعمال الناس . ولْنَقُلْ إن (الصحيفة) أكثر شيوعاً في كلام المثقفين حتى لكأن كلمة (الجريدة) مقصورةٌ على استعمال غير المثقفين .

وفي جَمْع كلمة (الصحيفة) شيءٌ يُستفاد أيضاً ؛ فمِن المقرَّر أن ما كان وزْنُه على (فَعِيْلَة) فإنه يُجمَع قياساً على (فَعَائِل) . فكَرِيْمَة تُجمَع على كَرائِم ، وبَدِيعة تُجمَع على بَدَائع . وخليفة على خلائف ، وذبيحة على ذبائح . وصحيفة على صحائف .

وكانوا يقولون : « صحائِفُ الكتُب خيرٌ من صحائِف الذَّهَب » .

ولكنّ (الصحيفة) تُجمَعُ أيضاً على (صُحُف) . ففي سورة الأعْلىٰ : ﴿ إنّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الأولىٰ . صُحُفِ إبراهيمَ وموسى ﴾ [1] وفي سورة البَيِّنَة : ﴿ رَسولٌ مِنَ الله يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَة ﴾ [2] . وقد نظر العلماء فرأوا أن ما كان وزنُه على (فَعِيلَة) لا يُجْمَعُ على (فُعُل) ، ولذلك نَصُّوا على أنّ جَمْعَ (الصحيفة) على (صُحُف) جمعٌ نادر ، جمعٌ غيرُ قياسيّ ، نقبله ونستعمله ولكنْ لا نقيس عليه . قال الأزهريّ : الصُّحُفُ جَمْـعُ الصَّحِيفَـة ، من النـوادر ؛ وهو أنْ تجمع (فَعِيْلَة) على (فُعُل) قال : « ومثله سَفينة وسُفُن » ثم قال : « وكان قياسُهما صحائِفَ وسفائِنَ » .

ومما يستفاد من المادة أيضاً أن كلمة (المُصْحَف) وإن كانت تستعمل عَلَماً على القرآن الكريم فإنها في أصل معناها تطلق على مجموع من الصُحُف . ثم غَلَبَ استعمالُها في القرآن الكريم . وذلك أنّ (أُصْحَفَ فلانٌ الكتابَ جَمَعَهُ صُحُفاً) . فإذا قلتَ (مُصْحَف) فهذا اسمُ مفعولٍ مِن (أُصْحَفَ) . قال الأزهريّ : « وإنما سُمِّيَ المُصْحَفُ مصحفاً لأنه أُصْحِف ، أي جُعِلَ جامعاً للصُّحُف المكتوبة بين الدَّفَّتَيْن »

ولو رجعتَ إلى بعض كتب الجاحظ لرأيتَه يستعمل فيها كلمةَ (المصحف) لغير القرآن ؛ ففي (البيان والتبيين) يقول مانَصُّه : « كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشْرَ ورَقات من مُقَطَّعات الأعراب ونوادر الأشعـار » ويقـول في كتـاب الحيوان : « تَمَّ المصحف الأول ويتلوه المصحف الثاني » ويقول : « كَمُل المصحف الثاني من كتاب الحيوان » .

فتـرى الجاحظ يستعمل كلمة (المصحف) بمعناها اللغويّ وإن كانت قد خُصِّصَت منـذ جُمِـعَ القرآنُ بكتاب الله . والراعي النُمَيْريّ الشاعر يستعمل كلمة (المصحف) بمعناها اللغوي أيضاً . قال يصف ناقته :

فَمـالَـتْ على شِقٍّ وَحْـشِـيِّهـا ... وقـد رِيْعَ جانِـبُـهـا الأَيْسَـرُ

---

١ ـ الأعلى/ ١٨ ـ ١٩

٢ ـ البينة / ٢

نَمَـتْ كتِـفـاهـا إلـى حارِكٍ[3] أَشَـمَّ كمـا أَوْفَـدَ[4] الـمِـنْـبَـرُ
تُقَـلِّبُ خَدَّيْنِ كالـمُـصْـحَـفَـيْـنِ خَطُّهُـمـا واضِـحٌ أَزْهَـرُ

وبعدُ ، فلقد آذَنَت الحلقةُ بالانتهاء ، ولذلك أعود فأقول : إنَّ مادة (صحف) فقيرةٌ بالمفردات ، ولكنها غنية بالنُّكَت والفوائد . ولقد عرضتُ عليك من نماذج ذلك مااتّسعتْ هذه الحلقة له ، وسأتابع في حلقة مقبلة .

---

٣ ـ أعلى الكاهل .

٤ ـ ارتفع .

- ٩١ -

التصحيــــف

كنتُ في الحلقة السابقة ذكرت أن مادة (صحف) مادة فقيرة ، ولكنّ كلمة (الصحيفة) منها كلمة غنية . وقلت : إنك مِن أيّ جهة أتيتَها وجدتَ فائدة أو نكتة لغوية . وذكرتُ يومَها جملة من تلك النكت والفوائد ؛ وها أنذا اليوم أتابع .

فمن المادة (الصَّحْفَة) وهي القَصْعة المتّسعة العريضة ، تُشبع خمسةَ رجال . والجمع (صِحاف) . قال تعالى من سورة الزخرف : ﴿ يُطافُ عليهم بِصِحافٍ مِن ذَهَبٍ ﴾ [1]

وقد استُفيد من كلمة (الصحفة) هذه ، في العصر الحديث . فأطلقها مجمع مصرَ على وعاء الأكل الكبير ، الذي يحمله النادِلُ فيطوف به على الآكلين ، فيُعطي كلًّا منهم نصيباً منه . واستُفيد أيضاً من تصغير (الصحفة) فأَطْلَق المجمع نفسُه كلمةَ (الصُّحَيْفَة) على الطَبَق الصغير الذي يوضع تحت فِنجانِ القهوة والشاي .

ثم إننا نقول اليوم : (فلان بائع صُحف) ، ولا نقول غير ذلك ؛ مع أن كتب اللغة والأدب قد حفِظتْ لنا اسماً مِن كلمة واحدة ، لمن يبيع الصُحُف ، هي (الصَحّاف) . ولقد وردت هذه الكلمة في سَنَدِ قصة في كتاب الأغاني ؛ وأنا أُورد لك السند بسبب ذلك ، ثم أورد لك القصة لطرافتها استطراداً :

قال أبو الفرج : أخبرني محمد بن زكريا الصَحّافُ ، قال : حدّثنا قَعْنَبُ بنُ مُحْرِز الباهليّ عن الأصمعي قال : كان لأبي حنيفة جارٌ بالكوفة يُغنّي ، فكان إذا انصرف وقد سَكِر ، يغنّي في غرفته ، ويسمع أبو حنيفةَ غناءه فيعجبه ؛ وكان كثيراً مايغنّي :

---

١ ـ الزخرف / ٧١ .

أضاعُوني وأيَّ فتىً أَضاعُوا ... لِيَوْمِ كَرِيهةٍ وسِدادِ ثَغْرِ

فلَقِيَه العَسَسُ ليلةً فأخذوه وحُبس ؛ ففقَدَ أبو حنيفة صوتَه تلك الليلةَ فسأل عنه مِن غَدٍ فأُخْبِر ، فدعا بسَوادِهِ وطَوِيلَتِهِ فلبسهما[٢] ، وركب إلى عيسى بن موسى فقال له : إن لي جاراً أخذه عسسُك البارحة فحُبس ، وماعلِمتُ منه إلا خيراً ؛ فقال عيسى : سلِّموا إلى أبي حنيفة كلَّ مَن أخذه العسس البارحة ؛ فأُطلقوا جميعاً .

فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سِرّاً : ألست كنت تغني كل ليلة : (أضاعوني وأي فتى أضاعوا) فهل أضعناك ؟ قال لا والله أيها القاضي . ولكن أحسَنْتَ وتكرّمت ، أحسَنَ الله جزاءك ؛ قال : فَعُدْ إلى ماكنتَ تغنيه فإني كنت آنَسُ به ، ولم أَرَ به بأساً . قال : أفعَل .

ولقد آنَ أن أذكر بعد ماتقدم ، أن الذي ساق إلى حلقة اليوم والأمس رسالةٌ من طالب جامعي يدرس الصِحافة في كلية الآداب بجامعة دمشق . وقد سألني فيها جملةً من الأسئلة تدور حول (الصحيفة والصِحافة) والاشتقاقِ من ذلك والنسبة الخ . .

وقد كنت ذكرت أن (الصحيفة) هي الورقة بوجهيها . هذا أصل معناها . وأن معناها تَطوّرَ في عصرنا ، فأُطلقت على إضْمامَةٍ من الصفحات تصدر يومياً ، أو في مواعيدَ منتظمةٍ بأخبار السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة ومايتصل بذلك .

ولقد كان القدماء من علمائنا رأَوا أن الصحيفة قد يقع فيها الخطأ ، فاشتقّوا لذلك (صَحَّفَ يُصَحِّفُ) . قال الجوهريّ : التصحيف الخطأُ في الصحيفة . فإذا رأَوا الرجل يكتب الكلمة أو يقرؤها على غير صِحّتها قالوا : صَحّفَ الرجلُ الكلمة ، وإذا رأوها قد تغيرت كتابتُها في الصحيفة إلى خطإٍ قالوا : تَصَحَّفَت الكلمة .

ولقد كانت أسباب الخطأ في الصحيفة كثيرةً : منها سهوُ مَن يكتبُ أو جهلُه ، ومنها أن الكتابة العربية لم يكن لها قديماً نُقَطٌ ، ولا كان لها حركات ، وأن بعض

---

٢ ـ يعني الثياب التي كان يلبسها أنصار العباسيين .

الحروف لها صورةٌ واحدة ، فالباء والتاء والثاء والنون والياء لو أُزِلْتَ نُقَطَها لكان لها جيمعاً صورةٌ واحدة ؛ وقلْ مثلَ ذلك في الراء والزاي ، والحاء والخاء والجيم الخ . .

ولقد حفِظت لنا كتب اللغة والأدب نماذجَ مختلفةً من ذلك . ورَوَتْ من القِصص مايبعث على الضحك أحياناً ، ومايبعث على الأسى أحياناً أخرى .

فمن أمثلة التصحيف مااخترتُه لك من كتاب (مجالس العلماء) وأُوجزه لك :

مِن أمثال العرب قولُهم « مُثْقَلٌ استعانَ بِذَقَنِه »

وأصلُ هذا المثل أن البعير يُحمَل عليه الحِمْل الثقيل ، فلا يقدر على النهوض . فيعتمد بِذَقَنِهِ على الأرض حتى ينهض . وهو مَثَلٌ يُضرب للذليل يستعين بمِثْلِه أو أذلَّ منه . فقد رواه عالمٌ في مجلسه : « مثقل استعان بِدَفَّيْهِ » أي بِجَنْبَيْه . فاعترض عليه عالمٌ يحاورُه فقال له : هذا تصحيف إنما هو بِذَقَنِه ؛ يعني أن المثل : (مثقل استعان بِذَقَنِهِ) لا بِدَفَّيْه .

ويُروى أن حمزةَ بنَ حبيب وهو أحد القُرّاء السبعة ـ ولعلّ الراويَ كان عدوّاً له يريد أن يُشَنِّع عليه ـ كان يَتعلَّم القرآنَ من المُصحف ، فقرأ يوماً وأبوه يسمعه : « الٓم ذلك الكتابُ لا زَيْتَ فيه » . والصواب : « ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه » فقال له أبوه : « دَعِ المصحف وتَلَقَّنْ من أفواه الرجال ».وفي توضيح المشتبه : « كان يقال : لا تأخذوا القرآنَ مِن مصحفيّ » .

ومن التصحيف في الحديث : أن رجلاً صَحَّفَ قولَ رسول الله (ﷺ) : « فإنّ عَمَّ الرجل صِنْوُ أبيه[٣] » فقال : « غَمُّ الرجل ضِيْقُ أبيه » . ومن التصحيف في الشعر ، أن مؤدباً قرأ على أحمد بن يحيى ثعلب قول الأعشى :

فلو كنتَ في حُبٍّ[٤] ثمانينَ قامةً وَرُقِّيْتَ أَسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

فقال له ثعلب «خَربَ بيتُك ، هل رأيت حُبّاً قطُّ ثمانين قامة ؟! إنما هو جُبّ ». والجُبُّ البئر ، والبيت إذاً :

---

٣ ـ أي مثلُ أبيه .

٤ ـ الجرَّة الضخمة .

فلو كنتَ في جُبٍّ ثمانين قامةً   ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّم

ومن هنا مانَقَلَه السيوطي في (المُزهر) عن المعريّ في تعريف التصحيف . قال : أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ، ولم يكن سَمِعَه من الرجال فيُغَيِّرَه عن الصواب . قال : وقد وَقَعَ فيه جماعة من الأجِلّاء من أئمة اللغة والحديث ، حتى قال الإمام أحمدُ بن حنبل : (ومَنْ يَعْرىٰ من الخطأ والتصحيف) ؟!

ولقد أنشأ التصحيفُ في تاريخ اللغة والأدب مسألةً لا يُمكن المرورُ بها دون الوقوفِ عندها ؛ وسأجعلها وما بقي من هذه المادة مِحوَراً للحلقة المقبلة .

- ٩٢ -

الصحفـــيّ

كنتُ تناولت من قبلُ مسْألة التصحيف ، وذكرتُ أن من أسبابها سهوَ مَنْ يكتبُ أو جَهلَه أحياناً . وأن الكتابة العربية لم يكن لها قديماً نُقَط ، ولا كان لها حركاتٌ . وأن بعض الحروف لها صورةٌ واحدة : كالباء والتاء والثاء والنون والياء ، والراء والزاي ، والحاء والخاء والجيم الخ . . . فإذا كُتِبَتْ بغير نَقْطٍ كانت عُرْضَةً للتصحيف :

فقد تُقرأ كلمةُ (نقل ، بقل) وكلمةُ (عُزَيْر ، عَزِيز) وكلمة (جُبّ ، حُبّ) وهكذا . . .

ولكي يأمنوا التصحيف كانوا يأخذون العلم عن الشيوخ مشافهةً ؛ وأما أخذُ العِلم من الكتب فكان سُبّةً ، وعيباً يُعاب به العالِم يومَذاك .

قال صاحب توضيح المشتبه : « ضَبطُ القلم لا يؤمن التحريفُ عليه ، بل تتطرق أوهامُ الظانّين إليه ، لاسيّما عند مَنْ عِلمُه من الصُّحف بالمطالعة ، من غير تَلقٍّ من المشايخ ، ولا سؤالٍ ولا مراجعة » .

في صحيح مسلم أن عِمران بنَ حُصَين حدَّثَ عن النبي (ﷺ) أنه قال : « الحياءُ لا يأتي إلا بخير » فقال بُشَيْرُ بنُ كَعْب : «إنه مكتوبٌ في الحِكمة أن منه وَقاراً ومنه سَكِينة » .

فقال عِمران : أُحدِّثُكَ عن رسول الله (ﷺ) وتحدثني عن صُحُفِك ؟ !

وأقول هنا : صحيحٌ أن حديث رسول الله (ﷺ) لا يُعارَضُ بغيره ، ولا يقابَل بسواه ؛ هذا لا جدالَ فيه . ولكنّ الذي أردت توجيه النظر إليه هو ازدراءُ النقل عن الصُّحُف . وهو جَلِيٌّ واضح في النصّ . قال : « أحدثك عن رسول الله وتحدثني عن صحفك » ؟!

وتنظر في كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، فترى مؤلفه ابنَ سلاّم ماإنْ يَبدأ تقديمَ كتابه بنَقْدِ الشعر الموضوع حتى يقول : « وقد تداوله قوم مِن كِتابٍ إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يَعرضوه على العلماء » . ثم يقول : « وليس لأحدٍ إذا أُجمعَ أهلُ العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيءٍ منه ، أن يَقْبَلَ من صحيفةٍ ولا يَروِيَ عن صَحَفِيّ » .

وحين أَلَّفَ أحمدُ بنُ محمد البُشْتِيّ الخارْزَنْجِيّ كتابَ التكملة[1] ذكر في مقدِّمته أسماءَ الكتب التي استخرج كتابَه منها فقال : هي كذا وكذا . .

ولقد كان يعلم أن اعتماده على الكتب سيُعاب ، فاحتجّ لما فَعَلَه بأن قال : « ولعل بعض الناس يبتغي العيبَ بتهجينه ، والقدحَ فيه ، لأني أُسْنَدتُ ما فيه إلى هؤلاء العلماء مِن غير سماع ، وإنما إخباري عن صُحُفِهم كإخباري عنهم ، ولا يُزْري ذلك على مَنْ عَرَفَ الغَثَّ مِن السّمين ، وميَّز بين الصحيح والسقيم » .

ولكن احتجاجه هذا لم يدفع عنه نقد النقاد ، وعيبَ العائبين . فقد تصدّىٰ له الأزهريّ فقال : « إن أكثر ماقرأْنا من الصحف لم يُضْبَط بالنَّقْط الصحيح ، ولم يَتَوَلَّ تصحيحَها أهلُ المعرفة ، ولسُقْمها : لا يَعتمِد عليها إلا جاهل » .

فَتَرى مِنْ هذا النصِّ أَنَّ الأزهريَّ يَعُدُّ البُشْتِيَّ جاهِلاً لأنه يَنْقُل عن الصُّحُف .

ولقد عبّر الإمامُ الشافعي عن ذلك ألطفَ تعبير إذ قال :

عِلْمي معي حيثُما يَمَّمْتُ يَنفعُني صَدري وعاءٌ لهُ لا بَطْنُ صُنْدوقِ[2]
إن كنتُ في البيت كان العِلمُ فيه معي أو كنتُ في السوق كان العلمُ في السوقِ

فانظر إلى عُلُوِّ الحِفظ والاستظهار في قوله : « صدري وِعاءٌ له » ثمّ انظر إلى تَدَنّي الأخذِ من الكتب في قوله : « بطن صندوق »

بقي بعد هذا أن أذكر لك ، أن العلماء كانوا إذا أرادوا أن يَعيبوا مَنْ ينقل عن الصحف

---

(١) سمّاه (التكملة) لأنه أراد : أنه تكملة لكتاب العين للخليل بن أحمد .
(٢) في رواية أخرى : قلبي وعاءٌ له .

والكتب قالوا : (فلان صَحَفِيّ) . وقد ذكرَ ذلك الأزهريّ وهو يَعِيب البُشْتِيَّ فقال : « فإنه اعترف بأنه صَحَفيّ ، إذ كان رأسُ مالِه صُحُفاً قرأها » .

وأن أذكر لك أن كلمة (صَحَفيّ) كلمة مولّدة لم تُنقل إلينا عن العرب ، وإنما استُحْدِثت بعد عصور الرِّواية ، حين شرع العلماء يكتبون في الصُّحف ، ويؤلفون الكتب .

وإن العَجَبَ لا ينقضي من تطور كلمة (الصَّحَفِيّ) ؛ فلقد كانت قديماً كلمةً يُعابُ بها العالِم ، فغدت اليومَ كلمةً تدل على رجلٍ أَقَلُّ مايقال فيه أنه مثقف مطّلع ، يُجيد فنَّ الكتابة والتحليل ، ذو بَصَرٍ بالأمور ؛ وقد يبلغ الصَّحَفِيُّ اليومَ أن يكون ذا شهرة عالمية ، فأرنست همنغواي مثلاً صَحَفِيّ .

يبقى أخيراً من البحث أن أجيب عن أسئلة طرحَها الأخ طالبُ الصِحافة في جامعة دمشق .

أولاً : هل يقال : صَحَفِيّ ، وصُحُفِيّ أيضاً ؟

هذه المسألة ترتَدّ إلى بحث النسب . فإذا نَسبتَ إلى كلمة مثل (حَنِيْفَة وربيعة وبَجِيْلَة وصحيفة) فإنك تحذف الياء والتاء ثم تقول : حَنَفِيٌّ ورَبَعِيٌّ وبَجَلِيٌّ وصَحَفِيٌّ .

وتلاحظ في هذا أنك نسبت إلى المفرد ، لا إلى الجمع ؛ فالصحيفةُ مثلاً مفرد ، والبصريون إنما ينسبون إلى المفرد ، ولذلك لا يُجيزون لك أن تقول : (صُحُفِيٌّ) . لأن هذا نسبةٌ إلى الجمع وهو (الصُّحُف) .

قال الخليل بن أحمد : « إن الصَّحَفِيَّ : الذي يَروي الخطأَ على قراءةِ الصُّحُف » .

ولكنّ الكوفيين يجيزون النسبة إلى المفرد والجمع ، فإذا نسبوا إلى الصحيفة قالوا : (فلان صَحَفِيٌّ) . وإذا نسبوا إلى الجمع ، أي إلى (الصُّحُف) قالوا : (فلان صُحُفِيٌّ) .

فالمسألة إذاً مسألة معنى . وكلٌّ جائزٌ في موضعه ؛ فالصَحَفِيُّ منسوب إلى الصَّحِيفة ، والصُحُفِيُّ منسوب إلى الصُحُف .

ولقد رأيت الأستاذ محمود محمد شاكر يضبطها بالضم في قول ابن سلّام في (طبقات فحول الشعراء) : « ولا يَروي عن صُحُفِيّ » . لأن المعنى : « ولا يروي عن عالِم ينقُل عن الصُّحُف » .

ثانياً : أيقال الصَّحافة أم الصِّحافة ؟

وفي الجواب أقول : إن الصحفي إنما يمارس حِرفة . وللدِّلالة على الحرفة تصوغ مصدراً على وزن (فِعَالَة) بالكسر قياساً . فحرفتك إذاً أيها الأخ التي ستمارسها غداً هي (الصِّحافة) بالكسر ليس غير .

وقياساً على ذلك تقول : حرفة النِجارة والحِدادة والدِباغة الخ . . فهذا قياس .

ثالثاً : يجوز لك ـ إذا أنت شئت ـ أن تقول أيضاً : (إنني صِحافيّ) بالكسر ، فيكون ذلك نسبةً إلى (الصِحافة) ، نسبةً إلى الحرفة التي تمارسها . وعلى ذلك يكون بين يديك ثلاثةُ أسماءٍ لمن يمارس الصحافة :

الصَحَـفِيُّ : نسبة إلى الصحيفة .

والصُحُـفِيُّ : نسبة إلى الصُحُـف

والصِحافيُّ : نسبة إلى الصِحافة .

- ٩٣ -

باتـــت دمشـــق

يقـال في العربية: (جاء خالد) فيتم الكلام بالفعل والفاعل. ويقال أيضاً: (شرب خالد ماءً) إذا كان الفعل متعدياً ينصب مفعولاً به. ولو شئت أن تكتفي بالفعل والفاعل فقط فتقول: (شرب خالد) لتَحققَ لك المعنى الأساسي من الكلام. أي: لتحقق لك كلامٌ تامّ.

من أجل ذلك، أعني لأن الفائدة تتم بالفعل ومرفوعه فإنه يُسمّىٰ فعلاً تامّاً.

ولكنّ في العـربية أفعالاً أخرى، لا تتم الفائدة بها وبالمرفوع بعدها، بل تحتاج أيضاً إلى منصوب لكي تتم الفائدة. ولذلك يسميها النحاة أفعالاً ناقصة. فهي ناقصةٌ إذاً لأن الفائدة الأساسية المطلوبة من الجملة لا تتحقق إلا بعد مجيء الاسم المنصوب.

مثال ذلك أن تقول: (صار الفقيرُ)، فالفائدة في هذا المثال لاتتمّ. والمستمعُ يظل ينتظر أن تذكر له (ماذا صار الفقير). فإذا قلت: (صار الفقيرُ غنياً). فأتيتَ بالمرفوع والمنصوب، تمّت الفائدة المطلوبة. فالاسمُ المنصوب إذاً هو الذي يُتِمُّ المعنى المرادَ من الجملة إذا كان الفعل ناقصاً.

ومن الضـروري أن نذكـر هنـا: أن الفعل (صار) مثلاً، إذا اكتفى بالاسم المرفوع بعده فإنه يكون فعلاً تاماً. فإذا قلت: (صار الفقير إلى حَلَبَ)، فإن الفعل (صار) في هذا المثال فعلٌ تام، و(الفقير) فاعلٌ له. لأن المعنى: انتقل الفقير إلى حلب. وقد رأيتَ أن الفعل (صار) هنا، قد اكتفى بالمرفوع، وهو كلمة (الفقير) ولم يحتج إلى منصوب. هذا هو الفرق بين الفعل التام والفعل الناقص.

والأفعـال التـامة كثيرة جداً، وأما الناقصة فمحددة، يستظهرها الطلاب في العادة عن ظَهْرِ قَلْب. منها: كان ـ صار ـ أصبح ـ أمسى ـ ظل ـ بات ـ الخ..

وهي كما ذكرنا آنفاً ناقصة ، لأنها تحتاج مع مرفوعها إلى منصوب، فإذا استغنت بالمرفوع وحدَه أصبحت تامة . وإليك بعضاً منها في حالتَي النقصان والتمام .

صار : (صار الفقير غنياً) ناقص ، لاحتياجه إلى المنصوب.

و (صار الفقير إلى حلب) تام، لاكتفائه بالمرفوع .

أصبح وأمسى : (أصبح خالدٌ أستاذاً) و(أمسى خالدٌ أستاذاً) ناقصان .

ولكنهما في قوله تعالى : ﴿ فَسُبحانَ اللهِ حينَ تُمْسُونَ وحينَ تُصْبِحون ﴾[1] تامّان .

أضحى : فعلٌ ناقص في قول ابن زيدون : «أَضْحى التّنائي بَدِيلاً مِنْ تَدانِينا»

ولكنه فعل تامّ في قول عبدِ الواسعِ بنِ أسامة :

وَمِنْ فَعَــلاتِي أَنّني حَسَنُ القِـرىٰ إذا اللّيلةُ الشَهْبـاءُ أَضْحىٰ جَلِيدُها

فـ (أضحى جليدُها) تام ، لأن المعنى : (دخَلَ جَليدُها في الضحا) ، ولم يَذُبْ لِشدّة البرْد .

بعد هذا ننتقل إلى الفِعل (باتَ)، فقد جاءتني رسالة من حلب فيها ماأذكره لك : قال الشاعر المرحوم خليل مردم :

باتَتْ دِمَشْقُ على الطُّوفانِ مِنْ لَهَبِ يا ويحَ قَلْبِيَ مِنْ خَطْبٍ يُكـابِـدُهُ

وصاحبُ الرسالة يسأل : أَيُعرَبُ فِعلُ (بات) في هذا البيت تاماً أم ناقصاً ؟ فالأساتذة اختلفوا في ذلك .

وأقول : لقد قدّمتُ ماقدّمتُ من الحديث عن الأفعال التامة والناقصة، لكيلا يكون الجواب اعتباطاً، فالمختلفون في المسألة أساتذة ، ولذلك سنسير خطوةً خطوةً نحو الجواب، يهدينا في ذلك النظر العقليّ وأقوال الأئمة .

أولاً : الفعل التام يرفع فاعلاً. والفعل الناقص يرفع الاسم وينصب الخبر. والفعل الناقص إذا استُعمل بمعنى الفعل التام كان تاماً .

ثانياً : (بـاتَ يَبِيتُ) التامّة، معناها (نزَل بالقوم أو نزَل عندهم ليلاً) . قال

---

١ ـ الروم / ١٧ .

الليث : (البَيْتوتَةُ دخولُك في الليل). وقال الزجاج : (كلُّ مَنْ أدركَهُ الليلُ فقد باتَ ، نام أو لم يَنَم). وأنت تقول مثلاً : (أقبل الليلُ فباتَ خالدٌ عندي). هذا معنى (بات) التامة . فهل أراد الشاعر إلى أن يقول على المجاز : إن دمشق باتت ؟ أي دخلت في الليل ؟ كلّا . (باتتْ دمشقُ) إذاً في القصيدة ، ليست فعلاً تاماً .

ثالثاً : إن الفعل التام يكتفي بمرفوعه ، أعني أن المعنى الأساسي المراد من الفعل التام يتحقق بالفعل ومرفوعه، كما تقول مثلاً: (شربَ خالدٌ وباتَ خالدٌ). فهل يتحقق المعنى الأساسي الذي أراد إليه الشاعر إذا وَقَفْنا عند (باتت دمشق) ؟ كلّا.

باتت دمشق في القصيدة إذاً ليست فعلاً تاماً .

رابعاً : الاستعمار الفرنسي قصف دمشقَ فدمّر منها ما دَمّر وأحرق ما أحرق ، وقد نظم الشاعر قصيدته في ذلك ، فهل أراد إلى أن دمشق تقلّبت ليلاً، لا نهاراً، على طوفان من لهب ؟ كلّا . فقَصْفُ دمشق بالطائرات أصلاً لم يكن يكون تلك الأيام في الليل ، وإنما يكون في النهار. و(بات) التامة التي معناها : (نزل عند القوم أو نزل بهم) لا بد من أن تدل على المبيت في المساء ، ليلاً . ففي شرح المفصّل يقول ابن يعيش : « وقد تُستعمل (بات) تامةً، تجتزىء بالمرفوع. فيقال: بات زيد ، بمعنى أنه دخل في المبيت » .

طيب ! و (بات) الناقصة ؟ بات الناقصة، قد تستعمل مع قطع النظر عن الأوقات الخاصة . قال ابن يعيش وهو يعالج : (ظل وبات) : « وقد يُستعمَلان استعمالَ كان وصار ـ أي ناقصتين ـ مع قطع النظر عن الأوقات الخاصّة فيقال : ظل كئيباً وبات حزيناً ، وإن كان ذلك في النهار، لأنه لا يُراد به زمان دون زمان » .

و(باتت دمشق على طوفان من لهب) هو من هذا . أي من استعمالها مع قطع النظر عن الوقت الخاص، وهو الليل ، ولا يكون ذلك إلا في (بات) الناقصة .

فـ (باتت دمشق) إذاً، في قول المرحوم خليل مردم، فعلٌ ناقصٌ ليس غير .

- ٩٤ -

النعت المقطوع

في مَمَـرٍّ من هذا البناء ، بناءِ الإذاعة والتلفزيون ، لقيتُ مصادفةً عدداً من الإخـوة العاملين هنا في شؤون اللغة والترجمة . وجرى الحديث جِداً وهْزلاً حول اللغة . قال مترجم يمازح زميله : أليس عيباً أن تقول :

« أنتم - الأمريكيين - معْتَدون » فتنصبَ (الأمريكيين) على الاختصاص ، بعد الضمير (أنتم) ؟ وإنما يكون الاختصاص بعد ضمير المتكلم فقط .

فقـال ثالث : ومـا العيب في ذلـك والله تعـالى يقـول : ﴿ وامـرأتُهُ حَمّالةَ الحَطَب ﴾[1] و (حمالةَ) منصوب على الاختصاص بعد الهاء ، وهو ضمير للغائب . .

فقلت في نفسي أتتك حلقةٌ تسعى . وتمر أيام فأزور مؤسسة رسمية ، ويدور حديث حول اللغـة يقول فيه أحد الإخوة : (حمالةَ الحطب) اسم منصوب على الاختصاص . وأقول في نفسي عند ذلك : آن أوان البحث في (حمالةَ الحطب) .

حمالة الحطب : هي أمُّ جميل ، أختُ أبي سفيان ، وهي إذاً عمّة معاوية ، وكانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق رسول الله (ﷺ) إذا خرج إلى الصلاة .

وأما أبو لهب زوجها فله قصة أخرى . قال ابن عباس : لما أنزل الله تعالى : ﴿ وأَنذِرْ عشيرَتَكَ الأَقْرَبين ﴾[2] . خرج رسول الله (ﷺ) حتى أتى الصَّفا فصعِد عليه فهتف : ياصباحاه[3] . فلما اجتمعوا إليه قال : أرأيتُم لو أخبرتُكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟ قالوا : ماجَرَّبْنا عليك كذِباً . قال فإني نذيرٌ لكم بين يدَيْ عذاب شديد . فقال أبو لهب : (تباً لك ، ألهذا جمعتنا) . فأنزل

---

١ - المسد / ٤ .

٢ - الشعراء / ٢١٤ .

٣ - كانوا يقولون ذلك إذا صاحوا للغارة .

الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَب وتَبّ ، ماأغنىٰ عنه مالُه وما كَسَب ، سَيَصْلىٰ ناراً ذاتَ لهب ، وامرأتُه حمّالَةَ الحطب ، في جِيدِها حَبلٌ مِنْ مَسَد ﴾[٤] .

وأسـارع من فوري إلىٰ القـول : (حمـالـةَ الحطب) ليست منصوبةً على الاختصاص قطعاً ، ولا يمكن أن تكون كذلك . وإليك البيان :

أنت تقول في أسلوب الاختصاص مثلاً : « نحن العربَ نُكْرِمُ الضيف » .

وكلمـةُ (العـربَ) في هذا الأسلوب هي المختصّ . ويكـون نصبُها بفعل محـذوف وجـوبـاً تقديره (أَخُصُّ) . ولولا أن حذف الفعل هنا واجب ، لقلتَ : (نحن ـ أخص العرب ـ نكرم الضيف) .

ومن شروط هذا الأسلوب أن يكون المختصّ بعد ضمير المتكلم ، كما رأيت في : (نحن العـربَ نكـرم) . فـ (نحن) ضمير المتكلمين ، و (العـربَ) هو المختصّ . قال الراجز : (بِنَا ـ تَمِيماً ـ يُكْشَفُ الضَّبَابُ)

أو أن يكـون بعدَ ضمير المخاطب . فهذا جائز أيضاً . ومن ذلك أن تقول مثلاً : « أنتم ـ الأمريكيين ـ مُعْتَدُون » .

فـ (أنتم) : ضمير المخاطَبين ، و (الأمريكيين) : هو المختص .

ولكن انتبه ! فالمختص لا يأتي بعد ضمير الغائب ؛ فلا يجوز أن تقول مثلاً : (هو ـ العـربيَّ ـ يكـرم الضيف) هذا غير وارد ، هذا لا يقال في العربية . ولهذا السبب وغيره أيضـاً قلت لك آنفـاً : (حمالةَ الحطب) ليست اسماً منصوباً على الاختصـاص قطعاً .

ثم انظرْ إلى قوله تعالى : ﴿ وامرأته ﴾ ، تَجِدِ الهاءَ ضميراً مذكَّراً ، يعود على (أبي لهب) . فكيف تكون كلمة (حمالةَ الحطب) وهي مؤنث ، توضيحاً للهاء التي تعـود على (أبي لهب) ؟ وهـل (أبو لهب) مؤنث ؟ وهل هو غامض ، فيه إبهام ، فتوضِّحَه بالحَمّالة ؟

بعد ماتقدم يصبح واجباً بيانُ المسألة فإليكه :

---

٤ ـ المسد / ١ ـ ٥ .

قراءةُ : (وامـرأتـه حمـالـةَ الحـطب) هي قراءةُ عاصم ، وهو شيخ الإقراء بالكوفة ، جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد ، توفي سنة ١٢٧ للهجرة . وأمـا البـاقون فقرؤوا : (وامرأتُه حَمّالةُ الحطب) . فهذا إذاً صحيح جائز ، وذاك صحيح جائز .

فإذا قرأتَ : (وامرأتُه حمالةُ الحطب) بالضم ، فـ (حمّالةُ) نعتٌ لامرأة. هذا وجهٌ من وجوه إعرابها بالرفع ، فلْنَكْتَفِ به .

وأمـا إذا قرأتَ : (وامرأتُه حَمّالةَ الحطب) ، فإنك تقطَعُ بذلك النعتَ عن منعوتِه ، ومعنى هذا في العربية ، أنك لا تريد أن تصِفَ ، لا تريد أن تنعَت . فمتى سمِعَكَ العربي تقول ذلك ، أدرك بسليقته أنك إنما فعلتَ ذلك لتقطع صلةَ النعتِ بالمنعوت . وأنك نريد أن تذم ، أو تمدح ، أو تَتَرَحَّم الخ . . يدلّه على ذلك أنك سلكت سبيلاً إعرابيّاً آخرَ غيرَ سبيل النعت . فهو إذا قلتَ : (جاء خالدٌ المجرمَ) ، أدرَكَ أنك تريد ذَمَّ خالد . وإذا قلتَ : (جاء خالدٌ العالمَ) ، أدرك أنك تريد مدحَ خالد . وأنك لا تريد النعتَ في الحالتين، لأنك لو أردت النعت لقلت : (جاء خالدٌ العالمُ) أو (خالدٌ المجرمُ) . .

وكذلك فَعَلَ القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ سَيَصْلىٰ ناراً ذاتَ لهب ، وامرأتُه حمالةَ الحطب ﴾ فانقطع النعتُ عن المنعوت . وأدرك العربي بسليقته أن القصد هو ذَمُّها . أي : (وامرأتُه أذُمُّ حمالةَ الحطب) .

وأوجِّه نظرَكَ إلى أن فعل الذم أو المدح محذوفٌ وجوباً في هذا الأسلوب من التعبير ، ولذلك نقول في الإعراب :

حمالةَ : مفعولٌ به منصوب بفعلٍ محذوف وجوباً ، تقديره : أذُمُّ .

هذا هو سِرُّ نصب (حمالةَ الحطب) ، وليس أن الأسلوبَ أسلوبُ اختصاص .

السر هو أن في الآية نعْتاً مقطوعاً ؛ كان نعتاً في الأصل ، فَغَدَا مفعولاً به ، لفعلٍ محذوفٍ وجوباً تقديرُه (أذُمّ) .

ـ ٩٥ ـ

المُتَـــوَفّ

يعالج ابنُ فارس مادّة (وفَىٰ يَفِي) فيقول : « الواو والفاء والحرف المعتلّ كلمةٌ تدلّ على إكمـــال وإتمـام ؛ منـه الـوفـاءُ : إتمـامُ العهـد وإكمـالُ الشـرط » . ثم يقول : « وتَوَفَّيْتُ الشيءَ واستوفَيْتُه : إذا أخَذْتَه كلَّه ، حتى لم تترك منه شيئاً ، ومنه يقـال للميّت : تَوفّـاه اللهُ » . ففي التنـزيل العزيز : ﴿ وكُنتُ عليهم شهيداً مادمْتُ فيهم ، فلمـا تَوَفَّيْتَنِي كنتَ أنتَ الـرقيبَ عليهم ﴾[1] . وفي سورة السَجْدة : ﴿ قُلْ يَتَوَفّاكُم مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بِكُم ﴾[2] .

وفي نهج البلاغة أن علياً كرم الله وجهه ذكرَ مَلَكَ الموت فقال : « هل تُحِسُّ به إذا دخل منزلاً ، أم هل تَراه إذا تَوَفّىٰ أحداً ؟ بل كيف يَتَوَفّىٰ الجَنينَ في بَطْن أُمّه »؟

وعلى ذلك تقول : (تَوفّىٰ اللهُ فلاناً) ، أي قَبَضَ رُوحَه . أو تقول : (تَوَفّىٰ مَلَكُ الموتِ فلاناً) .

ومن الوجهة الصرفية تشتق لمن (يَتَوفّى) اسمَ فاعل فتقول مثلاً : (الله هو المُتَوَفِّي) .

وأما الذي يموت ، فتشتقّ له اسمَ مفعول فتقول : (الإنسان هو المُتَوَفّىٰ) .

ومثل ذلك إذا كان الفاعلُ مَلَكَ الموت .

في رسالة جاءتني من حيّ السبيل في حلب يقول المرسل :

ما الصحيح في التعبير عن الإنسان الذي يموت ؟ أنقول هو المتوفِّي أم نقول هو المتوفَّىٰ ؟

وفي الجـواب أقـول : اِستنـاداً إلى ما قدّمتُ لك ، فإن مَنْ يمـوت هو (المتوفَّىٰ) ، لأنه المفعول . وإن مَن يقبضُ الروحَ هو (المتوفِّي) لأنه الفاعل .

---

١ ـ المائدة / ١١٧ .

٢ ـ السجدة / ١١ .

ولكنك تستطيع أن تنظر إلى المسألة من زاوية أخرى ـ كما ل يقال ـ وذلك أنني قدّمت لك آنفاً ماذكَره ابنُ فارس إذ قال : (تَوفَّيْتُ الشيءَ واستوفَيْتُه إذا أَخَذْتَه كلَّه حتى لم تترك منه شيئاً » .

فإذا قصدتَ إلى أن تقول : إن هذا الإنسان الذي انتهى أجلُه ، وانقضى عُمُرُه ، قد تَوفَّىٰ أيامَ حياتهِ فأَخَذَها كلَّها ، كما كتبها الله له ، ففي هذه الحال يجوز لك أن تقول : إن هذا الإنسان هو (المُتَوفِّي) ، لأنه هو الذي تَوَفَّىٰ ما كُتِبَ له من عُمُر ، واستكمل المدةَ التي قُسِمت له في الحياة الدنيا . أعني أنه هو الفاعِل ، فهو إذاً (المتوفِّي). وأعود فأوجز لك مابسطته .

إذا أردتَ أن تقول : إن الله قبضَ نفسَ فلانٍ ، فالله توفّاه ، والله إذاً هو المتوفِّي والإنسان هو (المُتَوَفَّىٰ) .

وأما إذا قصدت أن تقول : إن هذا الإنسان الذي قضى نَحْبَه قد استوفَىٰ ماكتَب الله له من العُمُر في هذه الحياة ، وتوفَّىٰ المدةَ المقسومةَ له ، فهذا الإنسان إذاً هو (المتوفِّي) .

فالمسألة إذاً مسألة معنىً : تقصِد إلى هذا المعنى فتأتي مِن القول بما يناسِبُه ؛ أو تقصِد إلى ذاك فتأتي من القول بما يُعَبِّرُ عنه .

ولو سألتني ماذا ترجِّح ؟ لقلت لك : إنني أرجّح أن يقال : الله هو المتوفِّي ، وفلانٌ هو المتوفَّىٰ ؛ لأننا إنما نعني في الأكثر : مَنْ هذا الذي قَبضَ الله نفسَه ؟ أي : مَن هذا المتوفَّىٰ ؟

وقبل أن أختِم البحثَ أقول للفائدة : إن كثيراً من الناس يَجْمَعُ كلمةَ (الوَفاة) على (وَفِيّات) وهو غَلَطٌ مُطلَق . والصواب (وَفَيَات) ، ومنه الكتابُ المعروفُ (وفَيَاتُ الأعيان) . ويقول كثيرٌ من الناس خطأً:(وفيّات الأعيان) . فكما تَجْمَعُ كلمةَ (الفتاة) فتقول : (فَتَيَات) ولا تُشَدِّدُ ، فاجمعِ (الوفاة) على (وَفَيَات) ولا تُشَدِّدْ، فإنه الصواب .

- ٩٦ -

جـــواب الطَّـلَـــــب

إذا قلتَ لِمَن تخاطبه : (ادرُس) ، فهم عنك أنك تطلب إليه أن يفعل فِعْلَ الـدراسـة . فِعـلُ الأمـرِ إذاً طَلَبٌ . فإذا قلتَ له : (ادرسْ تنجحْ) ، فهم عنك شيئين : الأول : الـطلب ، وهـو قولـك : (ادرس) ، والثـاني : جوابُ الطلب وجزاؤه ، وهو قولك : (تنجحْ)

وقد يسأل سائل فيقول : ماذا يعنون بقولهم : جوابُ الطلب وجزاؤه ؟

ونجيب عن ذلك فنقول : إن الجواب هنا ، وهو فِعْلُ (تنجحْ) كأنه جوابٌ لسؤال . يعني : كأنك إذ قلتَ له : (ادرسْ) قال لك مسائلاً : وماذا يكون إذا أنا درست ؟ فيأتيه منك جواب هو (تنجحْ) ؛ هذا معنى قولهم : جوابُ الطلب .

وأما الجزاء ، فيعنون به أن الثاني وهو فعلُ (تنجحْ) مُسَبَّبٌ عن الأول ، وهو (ادرسْ) وأثـرٌ مِن آثاره . أي النجاح مسبَّبٌ عن الدراسة ، وأثرٌ مِن آثارها . هذا معنى الجزاء .

قولك : (ادرسْ تنجحْ) أسلوب من أساليب التعبير عند العرب . يأتون فيه بالطلب أولاً وهو (ادرسْ) ، ثم يأتون بعده بجواب الطلب وجزائه ، وهو (تنجحْ) مجزوماً . جوابُ الطلب مجزوم .

وإذا لم يكن الفعل المضارع جواباً وجزاءً لم يجزموه . فهم مثلاً لا يجزمون الفعـلَ المضـارع في مثل قولك (أسكِتْ طِفلاً يَبْكي) أو قولك : (داعبْ طِفلاً ينتحبُ) . بل يرفعون الفعل المضارع هنا فيقولون : (يبكي وينتحبُ) .

لمـاذا يرفعـون ولا يجـزمـون ؟ يرفعـون ولا يجـزمون ، لأنك لا تريد بفعل (يبكي) وفعل (ينتحب) جواباً وجزاءً . يعني : أنت لا تريد أن تقول : (أسكِتْ طفلاً فيبكي ، وداعِبْ طفلاً فينتحب) . وهل يكون البكاءُ جواباً وجزاءً للإسكات ؟

وهـل الانتحـاب يكون جواباً وجزاءً للمداعبة ؟ هذا غيرُ معقول وغيرُ مُراد . وإنما المرادُ هو وصْفُ الطفل . يعني أنت تريد أن تقول : (أسكِتْ طفلاً باكياً ، وداعبْ طفلاً منتحباً) .

صحيح أن قولـك : (أسكتْ وداعِبْ) طلبٌ ، ولكنْ ليس بعـده جوابٌ وجزاءٌ ، بل بعده وصفٌ للطفل .

على أن النحاة قد وضعوا لهذه المسألة ضابطاً ، وقعَّدوا لها قاعدةً ، فقالوا : « حيثما صَحَّ تقديرُ شرطٍ قبلَ المضارِع صَحَّ الجزمُ » ؛ وإليك البيان :

(ادرسْ تنجحْ) مثلاً ، هل يصِحُّ أن تقدر فيه (ادرس فإن تدرس تنجح) ؟ نعم يصِحُّ . إذاً فِعْلُ (تنجحْ) من قولك : (ادرسْ تنجحْ) ، مجزوم ، وهو جواب الطلب . وإليكَ مثالاً آخر ، قال أبو تمام :

وطولُ مُقامِ المَرء في الحيّ مُخْلِقٌ ... لِديبـاجَـتَـيْه ، فاغْتَـرِبْ تَتَجـدَّدِ

قال أبو تمام : (اغتربْ تتجددْ) . فهل يصح في قوله هذا أن تقدر : « اغتربْ فإنْ تغتربْ تتجدّد » ؟ نعم يصح ؛ فِعْلُ (تتجددْ) إذاً مِن قوله : (اغترب تتجددْ) مجزوم ، وهو جواب الطلب ، وهكذا وهكذا . . . كلما صَحَّ تقديرُ الشرطِ صحَّ الجزم .

بعد هذا أقول : إن أحد السادة المشاهدين من مدينة منبج كتب إلي يقول : قال تعـالى في سورة الحِجْـر : ﴿ ذَرْهُمْ يأكلوا وَيتَمَتَّعُـوا ويُلْهِهِمُ الأَمَـلُ فسـوف يعلَمون ﴾ [1] . فلماذا لم يأتِ الفِعلان (يأكلوا ويتمتعوا) مرفوعَيْن ؟

في التعليق على السؤال أقول : ليتك قلتَ في سؤالك : في الآية ثلاثة أفعالٍ غيرِ مرفوعةٍ لا فِعْلانِ . وهي : (يأكلوا ، ويتمتعوا ، ويلههم) . ثمّ في الجواب أقول

إن قوله تعالى : ﴿ ذرْهم يأكلوا ﴾ هو من أسلوب الطلب ، الذي بحثْنا فيه آنفاً : (ذرهم) أمرٌ ، فهو إذاً طَلَبٌ ؛ و (يأكلوا) جوابُ الطلب وجزاؤه ، فهو إذاً مجزوم . و ﴿ يتمتعوا ويلههم ﴾ فعلان مضارعان مجزومان بالعطف .

١ ـ الحجر / ٣ .

ثم لنجربْ الضابطَ الذي وضعه النحاة وذكرناه آنفاً ، ولننظر أينطبق على الآية : قال تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ﴾ فهل يصح في هذه الحال أن يقال : (ذرهم فإن تذرهم يأكلوا)؟ نعم يصح ؛ هنا إذاً جزمٌ بالطلب .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ أرسلْه معنا غداً يَرتَعْ ويَلْعبْ ﴾[٢] فلنجرب الضابطَ الذي ذكرناه ، لنرى أيصح هنا أيضاً . قال تعالى : ﴿ أرسلْه معنا غداً يرتعْ ﴾

فهل يصح أن يقال : (أرسله معنا غداً فإن ترسله يرتع) ؟ نعم يصح ؛ هنا إذاً جزمٌ بالطلب أيضاً .

---

٢ ـ يوسف / ١٢.

ـ ٩٧ ـ

شَـكّ في الأمر

مادة : (شَكَّ ـ يَشُكُّ) ، في اللغة ، ذات معان مختلفة ؛ أُورد منها على سبيل المثال مايلي :

(شكّ الشيءَ يشكّه شكّاً)، معناه : (خرقه ـ يخـرقه). و(شكّ الخَرَزَ ونحوَه) معناه: (نَظَمَهُ في سِلْك) ، و(شكَّ القومُ بيوتَهم شَكّاً) معناه (جعلوها مُصطَفّةً متقاربةً على نظم واحد) .

ولقد انتقيت هذه المعانـيَ انتقاءً ، لأن الإحاطة بمعاني المادة كلِّها ليست من قصدي ،وإنما الذي أقصد إليه هو توجيه النظر إلى حُسن استعمال حرف الجر مع فِعْل (شك ـ يشك)، وإظهارُ أنّ اختلافَ الحروف يؤدي إلى اختلاف المعنى . وأورد لذلك مثالين :

الأول : أن (شك) إذا تعدى بحرف الجر (في) فمعناه (ارتاب) . وعلى ذلك يكون الصحيح أن نقول: (شك فلان في الأمر) ، وليس (شك فلان بالأمر) . قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : (اليوم أُنطِقُ لكم العَجماءَ ذاتَ البيان ، عَزَبَ[1] رأيُ امرىءٍ تخلّفَ عني ، ما شككت في الحق مذ أُريته).

بعضُهم يقول: (شك فلان بالأمر)، أي أنه يعدّي هذا الفعل بالباء .(شك بالأمر) غير صحيح ،والصحيح (شك في الأمر).

هذه المسألة تناولها الأستاذ المرحوم محمد العدناني في كتابه (معجم الأخطاء الشائعة) في الصفحة ١٣٣ . وإن التجرُّدَ للحقيقة العلمية يوجب علي أن أوجّه النظر إلى خطأ وقع فيه الأستاذ . وذلك إذ قال بالحرف الواحد : (ويقولون نشك بنجاح فلان ، والصواب نشك في نجاحه) . ثم علّل فقال : (لأن الفعل شكّ يتعدى بفي لا بالباء) .

---

١ ـ أي : بعُد .

وأنا أقول هذا كلام سليم لاعيب فيه ، ولكنّ المسألة هي اختيارُ الشاهد الذي أَورده . وهو قوله تعالى :﴿ أفي الله شكٌّ ﴾، فقد وَهِمَ الأستاذ فَظنَّ أن (في) هنا برهان على أن (شكّ) تتعدى بفي .

وليس الأمر كذلك ، فالجار والمجرور هنا متعلقان بخبر مقدم محذوف هو (كائن) . وأزيد المسألة إيضاحاً بالمثال التالي :

نحن نقول : أفي البيت ولدٌ ؟ (ولد) : مبتدأ .

ونقول أفي السوق فاكهة ؟ (فاكهة) مبتدأ . ونقول : أفي المحفظة كتابٌ ؟ (كتاب) مبتدأ .

ونقول : أفي الله شكٌّ ؟(شك) مبتدأ . فالجار والمجرور في كل هذه الأمثلة ، إنما عَلاقتُه بالخبر المقدم المحذوف ، وليسا دليلاً وبرهاناً على أن : (ولد ، وفاكهة ، وكتاب ، وشكّ) تتعدى بحرف الجر (في) . وأما الشاهد على تعدي الشك بمعنى الارتياب بـ (في) فهو ماأوردته لك من قول عليّ كرم الله وجهه : (ماشككت في الحق مذ أُريته) . فالجار والمجرور هنا متعلقان بشككتُ .

كنت قلت في مطلع الحلقة إن حرف الجر ذو تأثير بليغ في توجيه المعنى ، وقلت سأورد مثالين ، فكان المثال الأول (شكّ فلانٌ في الأمر) أي ارتاب .

أما المثال الثاني فهو (شك بـ) وفيه أن الفعل تعدى بالباء . ويختلف المعنى في هذه الحال اختلافاً كبيراً . يقال (شك فلانٌ عدوَّه بالرمح) ، فيكون المعنى : طعن فلان عدوه بالرمح . قال عنترة :

فَشَكَكْتُ بالـرمْـحِ الأَصَمِّ ثِيابَـهُ   ليس الكريمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ

ويقولون : (شك فلان دابَّتَهُ بالمهماز) أي وخزها لتسرع في السير .

وأوجّه النظرَ هنا إلى أن الباء تدخل على الأداة التي يكون فِعْلُ الشَكِّ بها . فقد دخلت على الرمح في قول عنترة : (فشككت بالرمح الأصم ثيابه) و الرمحُ هو أداة الشك . ودخلت على المهماز في قولهم : (شكّ دابَّته بالمهماز) والمهماز هو أداة الشكّ . إن حُسْنَ استعمال حرف الجر لذو خطورة بليغة في معنى التركيب ، واختلافِ المعاني ؛ فليتنا نعطي ذلك مايستحق من اهتمام .

- ٩٨ -

كـــاد

في الصف الثاني الابتدائيّ يُقال للأطفال - وعُمْرُ أحدهم لايزيد على سبعة أعوام أو ثمانية - إن الألف واللام علامة الاسم . فإذا رأيتم كلمةً في أوّلها ألف ولام فاحكُموا أنّها اسم .

وتمرُّ الأعوامُ ، فتكتسب هذه القاعدة بتكرارها رسوخاً في أذهان الطلاب . فإذا دخلوا الجامعة وبُحِثَ لهم !! في الألف واللام ، وأحوالها ومايتصل به ، اطّلعوا آنذاك على أنّ الألف واللام يمكن أن تتّصل بالأفعال كما اتصلت بالأسماء . ويُقرئُهُم أساتذتُهم !! أنّ ذا الخِرَقِ الطُّهَوِيّ - وهو شاعرٌ جاهلي - هجا ابنَ دَيْسَق - وهو رجل من بني ثعلبة - فقال :

أتـاني كلامُ الثعلبيِّ ابنِ ديسق ... ففي أيِّ هذا ويلَهُ يَتَتَرَّعُ[1]

يقول الخَنى[2] ، وأبغضُ العُجْمِ ناطقاً ... إلى ربِّنا صوتُ الحِمارِ اليُجَدَّعُ

يريد الشاعر أن يقول : إن مهجوَّه في فُحشِ القول، كالحمار الذي ينهق وقد قُطِعَتْ أذُناه. وقد وصلَ (الـ) بالفعل المضارع فقال : (صوتُ الحمار اليجدّع).

البغدادي صاحبُ خزانةِ الأدب ، أورَد سَبْعَةَ شواهدَ على اتصال (الـ) بالفعل المضارع . من أشهرها هذا البيتُ الذي ذكرته لك ، وبيتٌ للفرزدق أوردُ لكَ قصّتَه .

قيل إن أعرابياً من بني عُذرة دخل على عبد الملك بن مروان يمدحُه، وعنده الفحولُ الثلاثة : جرير والأخطل والفرزدق ، والرجلُ لايعرفهم . فعرَّفَ عبدُ الملك الأعرابيَّ بهم . فقال الرجلُ على الفور :

---

١ - يَتَتَرَّع : يَتَسَرَّع . يريد إلامَ يَتَسَرَّعُ بشرّه ؟

٢ - الخنىٰ : الفاحش من القول .

فَحَيّا الإلهُ أبا حَزْرَةٍ[3] وأرغَمَ أَنْفَكَ يا أخطلُ
وجَدُّ الفرزدقِ أتْعِسْ به ودقَّ خياشيمَه الجَنْدَلُ[4]

فقال له الفرزدق :

ياأرغَمَ اللهُ أنْفاً أنتَ حامِله ياذا الخَنى ومقالِ الزُّورِ والخَطَلِ
ما أنت بالحَكَمِ التُرضى حكومتُه ولا الأصيلِ ولاذي الرأيِ والجَدلِ

وتُلاحظ أنّ الفرزدق وَصَل (الـ) بالفعل المضارع (تُرضى) فقال : (ما أنت بالحكم الترضى حكومته).

وقد اختلف النحاة في هذا ، ففريقٌ قال : ـ ومنهم ابنُ مالك صاحبُ الألفية ـ إنّ دخول (الـ) على الفعل المضارع جائز، ولكنّه قليل . وردَّ صاحبُ الخزانة أقوالهم فقال : « إن إجماع النحاة على عدم اعتبار هذا المَنْزع ، وعلى إهماله في النظر القياسي جُملةً . ولو كان معتبراً لنبّهوا عليه ».

ولكن ماحجةُ هذا الفريق في اتصال (الـ) بالفعل المضارع ؟ حجتُهم أنّ (الـ) هنا اسم موصول. فكأنّ ذا الخِرَقِ الطُهَوي قال : « صوتُ الحمار الذي يُجدَّع » ، وكأنّ الفرزدق قال : « ما أنت بالحكم الذي تُرضى حكومته » .

الفريق الثاني قال بعكس هذا. قالوا : لايجوز إدخال (الـ) على الأفعال ، ولايُلتَفَتُ إلى شيءٍ من تلك الروايات التي تشُذُّ عن الإجماع والمقاييس .

فريقٌ ثالثٌ قال : إنّما يجوز ذلك في ضرورة شعرية، وقد نقل صاحبُ الخزانة عن ابن السرّاج قولَه : إنّ ذلك من أقبح ضرورات الشعر .

مما تقدّم نخلُصُ إلى مايلي :

أولاً : إن مايَتَعَلّمه الأطفالُ في المرحلة الابتدائية من أنَّ (الـ) مختصةٌ بالأسماء، هو القاعدة ، هو الأصل . وإنَّ ماخالَف ذلك شذوذ .

ثانياً : لقد وَرَدت عن بعض الشعراء أبياتٌ قليلة اتصلتْ فيها (الـ) بالفعل

---

٣ ـ أبو حزرة : كنية جرير .
٤ ـ الجندل : الحجر .

المضارع ، لا بغيره من الأفعال . وقد أبى النحاةُ هذه الشواهدَ إباءً شديداً ، وردُّوها ردّاً لا لينَ فيه .

في الأسبوع الأول من هذا الشهر ـ شهرِ آب ١٩٨٥ ـ علّق أحدُ العسكريين الإسرائيليين على بَسالة المقاومين اللبنانيين في الجنوب ، فذكر أن الإعلام الإسرائيلي يُعَمّي أخبارَ تلك البسالةِ على سكان الأرض المحتلة . وقد أوردَت إذاعتنا ذلك النبأ كما أتْلُوه عليك . قالت : (في الشريط الحدودي حربُ مغاوير بالكادِ يسمعُ عنها الإسرائيليون في الداخل) . الذي أقصِد إليه من هذه العبارة هو (بالكاد)، لأنّه فعلٌ جرى عليه من الجَوْر والظلم شيءٌ كثير .

(كـاد) فعلٌ ماضٍ ناقص ، من أفعال المقاربة، يرفع الاسم وينصب الخبر . تقول : (كاد المقصِّرُ يلحق) أي قَرُبَ أن يلحق .

هذا الفعلُ الناقص لم تستعمله العرب في صيغة الأمر . وإنما استعملته ماضياً ومضارعاً فقط . ولم تُدخِل عليه الألفَ واللام، لأنها لا تُدخِل (الـ) على الفعل أصلاً . لكنَّ (الإذاعة) أَدْخَلت عليه الألفَ واللام فقالت : (بالكاد) .

ولقد بينتُ لك أوضح البيان أن (الـ) لاتتصل بالفعل إلا شذوذاً ، وفي ضرورة شعرية قبيحة . وفي كل حال إنّ نشراتِ الأخبار لاتكونُ شعراً !!

وأمّا الثانية، فهي أنّ النحاةَ وإنِ اختلفوا في اتصال (الـ) بالفعل المضارع ، فإنهم متفقون مُجْمِعون على أنَّ اتصالَها بغيـر المضارع غيـرُ وارد أبداً . والنبأ يقول : (بالكاد يسمع الإسرائيليون) . وقد أدخلها على فعل ماضٍ ، وهذا غير وارد في قياسٍ ولافي شذوذ ، إنه ليس من العربية .

وأما الثالثة ، فهي أنَّ (الـ) التي اتصلت بالمضارع في الشواهد الشعرية التي ذكرتُها لك آنفاً ، معناها معنى (الذي) ،فـ (صوت الحمار اليُجدع) معناه (صوت الحمار الذي يجدع) . و (ماأنت بالحَكَمِ الترضى حكومته) معناه (الحكم الذي ترضى حكومته) . ولو جعلت (الـ) في العبارة الإخبارية بمعنى (الذي) لنشأ من ذلك لغـوٌ كثير ، لأن معنى النص سيكون : (في

الشريط الحدودي حربُ مغاوير بالذي كاد يسمع . . . .) وهذا لامعنى له ، كَنَخْلِ الماء بالغرابيل .

وأما الرابعة ـ وهي طلْقَةُ الراحة أو الرحمة، التي تُنهىٰ بها حياةُ من يُعْدَمُ رمياً بالرصاص ـ فهي جرُّ الفعل الماضي بالباء ـ أي : « بالكادِ يسمع عنها الإسرائيليون » . فـ (كادَ) هنا ـ كما أراد لها النبأ أن تكون ـ فعلٌ ماض مجرورٌ بالباء !! وعلامة جره الكسرة الظاهرة!!

لو أنَّ للُّغةِ قضاةً ومحاكمَ لاختَلَفَ وجْهُ المسألة !!

- ٩٩ -

كـــاد / ٢

بين أن تُلْقيَ الحديث إلى الناس من التلفزيون ، وبين أن تنشره فيهم مكتوباً ، فرقٌ قد يكون شاسعاً . وقد يعظم شُسوعُه حتى لا يكون بينهما لقاء إلا في نوع المادة المبحوث فيها .

ويكفيكَ من ذلك أن الخطأ في التلفزيون فضيحة ، وأنه في الصحيفة والمجلة والكتاب قد يسمى خطأً مطبعياً !! نسأل اللهَ أن يأخذ بيدنا إلى الصواب ، وأما طَلَبُ السَّتْرِ في التلفزيون فشطط !!

هنا في التلفزيون لا بد من أن تبالغ في الإيضاح ، حتى يفهم عنك الصغير والكبير ، ولكن لا تُطِلْ فالإطالة مملة !!

ثم لا بد من أن تتجنب التعابير العلمية ، لأن ذلك يشُقُّ على الناس ؛ ثم يجب أن تبتسم !! فإن الناس في سَهَراتِهِم يحبّون الابتسام !! ولا تحرّكْ يديك ، فالناس لا يَرَوْن ضرورةً لذلك !! وفي كل حال لماذا تُفْرِطُ في تحريك يُمناك ؟ ويندُر أن تحرّك اليسرى ؟!

أحياناً أقف حائراً أقول : أأذكر هذه المسألة أم أعرض عنها ؟ أفي ذكرها إطالةٌ وإملال ، أم في ذكرها ضرورةٌ لا مفرّ منها .

في آخر المطاف ، أختار مايهديني إليه الحِسّ ، وقد أُوَفَّق وقد أُخفِق .

والذي يبدو لي أنني أخفقت في الحلقة التي عالجت فيها مسألة (كاد وبالكاد) . فقد قيل لي بعد إذاعتها : إنك ذكرت الغلط في المسألة ، ولم تُعَرِّج على الصواب ، فتركتَ المستمعَ يتخبّط .

وهاأنذا [1] اليوم أستدرك مافاتني . ولكنني أقول : إذا كنتُ أُوجز أحياناً ،

---

١ - ضمير المتكلم المفرد (أنا) صاحب مزاج متقلّب !! لايَحْكمه منطق !! إذا جاءك مكتوباً =

فأقعُ في أزْمة كأزْمة (كاد) ، فلأسبابٍ أُورد لك منها نموذجاً :

في مجلس ضَمَّ عدداً من الأصدقاء ، قال لي أخٌ منهم : يا أخي نَكَبْت البلد !

ـ أنا ؟ ـ نعم أنت ! ـ خير ، إن شاء الله .

قال : كل مساء تذيع فيه برنامجك ، تقوم القيامة في اليوم الثاني في شركة النصر بسببك . . .

بسببي أنا ؟!

قال نعم . ماإنْ يبدأ برنامجك مساءً و يسمع الناس (اسم الفاعل واسم المفعول) حتى يخرطشوا المسدسات وطخ طخ طخ على الشاشة .

قلت له : والله أنا لا أريد إزعاج شركة النصر ، ولا خسارة الناس ، فما الحل برأيك ؟ قال : الطريق معروف ، إحكِ للناس مايعرفون .

ـ كيف ؟ قال : لا تذكر اسم الفاعل ولا اسم المفعول مطلقاً !

قلنا له : طيّب ! هذه بسيطة . قال : ولا الصفة المشبهة ، لعنةُ الله على الصفة المشبهة .

قلت له : حاضر . قال : وإعراب الجمل لا تذكره مطلقاً .

قلت : هذا صعب ولكن أحاول . قال : والجار والمجرور ، إياك أن تعلق الجار والمجرور .

قلت له : إنّ ماتطلبه عسير ، وعندي اقتراح أسهل . قال : ما هو؟

قلت له : ما رأيك في أن نلقي هذه الحلقات على الخرساني !!

قال : والله أحسن !!

مابقي من الوقت في حلقة اليوم أستكمل فيه حديث (كاد،يكاد) فأقول :

= جاء ومعه الألف: (أنا)، فإذا قرأته ألقاها: (أَنَ)، فإذا صحب (ها) و (ذا)، وبدا لك أنه تخلّى عن مزاجيّته في اللفظ والكتابة، نظرتَ فرأيتَه خسر أَلِفَه وخسر نفسَه، فأمسى جزءاً مِن سواه !!فيا فارسَ الإملاء المعنّى منذ ألف وخمسمئة عام، أما آنَ لك أن تترجّل ؟!!

كاد فعل ماض ناقص من أفعال المقاربة ، يرفع الاسم وينصب الخبر . تقول : (كاد المقصِّر يسبق) أي (قَرُبَ أن يسبق) .

ويستعمل في صيغة المضارع فتقول : (يكاد المقصِّر يسبق) أي يقرُب .

وأما صيغة الأمر منه ، فلم يستعملها العرب .

ثم هو كما قلنا آنفاً : فِعلٌ للمقاربة ، يستعمل مثبتاً كما بيّنت لكِ ويستعمل منفياً . فإذا قلت : (كاد خالدٌ يسبق سعيداً) ، فأنت تُثْبِت قُرْبَ سَبْقِهِ سعيداً . أي تريد أنه قارَبَ ذلك ولم يفعله .

فإذا نفيتَ فقلت : (مايكاد خالدٌ يسبق سعيداً) أو (لا يكاد خالد يسبق سعيداً) ، فأنت تنفي قُرْبَ سَبْقِه لِسعيدٍ .

أقول هذا لمن أراد أن يتناول المسألة من قريب ، في النفي والإثبات . وأما مَن شاء أن يخوض اللُّجج ، وأن يغوص على ماراءَ ذلك ، فسيرى أقوالاً غيرَ ماذكرتُ ، وسيَقَعُ على شواهدَ وأمثلةٍ ، تُخالِف مابيّنتُ لك . ولكننا لا نحتاج إليها اليوم . نعم ، قد يحتاج إليها مُتَفَقِّهٌ في اللغة ، وأما نحن الذين نقول : (بالكاد يفعل) ، فإن الجادّةَ هي مانحتاج إليه ، فْلنَسِرْ فيها .

على أنني أُورِد لك ماقاله صاحبُ التاج ، بعد أن عرض لأقوال العلماء ، في (كاد) . وهو نصٌّ قاطع في المسألة . قال مانَصُّه : « والصحيح أنها كغيرها ، نَفْيُها نفي ، وإثباتُها إثْبات . فمعنى (كادَ يفعَل) : قارَبَ الفِعلَ ولم يفعلْ . و (ماكاد يفعل) : ماقارَبَ الفعلَ ، فضلاً عن أن يفعل » .

ثم ختم هذا النصَّ بحكمٍ منطقيّ فقال : « نفيُ الفعل لازمٌ مِن نَفْي المقاربة عقلاً » . يعني إذا نفيتَ (كاد) فقد نفيتَ مقاربة الفِعل ، بالضرورة .

على ذلك نقول للأخ الذي صاغ النبأ الإذاعي : إن الصواب أن تقول :

« في الشريط الحدودي حربُ مغاوير ، مايكاد يسمعُ بها الإسرائيليون » . أو « لا يكاد يسمع بها الإسرئيليون » . وأما « بالكاد يسمع » فغلطٌ فاحش .

- ١٠٠ -

الشـــــرط

يقول ابنُ فارسٍ في المقاييس : (الشينُ والراء والطاء ، أصلٌ ، يدُلّ على عَلَمٍ[1] وعلامة ، وما قارب ذلك من عَلَم) .

فتستنتج من قوله هذا ، أنّ مادّةَ الشين والراء والطاء ، تدلّ على مايبدو للعَيْن ، فتَقِفُ عنده ولا تَقتحِمُه .

والأمثلةُ التي يسوقها ابنُ فارس ، تؤكّد لك صِحّةَ ما قَرَّره وذهب إليه .

فممّا أُورَدَه دليلاً على رأيه هذا ، كلمةُ (الشريط) ، إذ قال في ترجمته :(وهو خيطٌ يُرْبَقُ به البَهْمُ ، وإنما سُمِّيَ بذلك ، لأنها إذا رُبِطَت به صار لذلك أَثَر) .

يعني أنه خيطٌ تُرْبَط به أعناقُ البهائم ، فإذا دام رَبْطُ أعناقِها به . أَثَّرَ في شَعْر أعناقِها ، فأَسقَطَه بكثرة الاحتكاك ، فَظَهَرَ في أعناقها مِنْ ذلك أَثَرٌ وعلامةٌ .

ويُورِدُ من المادةِ مثالاً آخَرَ فيقول : « ومِنَ الباب الشَرَطان : نجمان ، وهما مَعْلَمانِ مُشْتَهِران » .

وأمّا الزمخشريّ فيزيدُ في تعريف هذين النجمين فيذكر أنهما نجمان في أوّل الربيع .

فهما إذاً علامةٌ على نزول المطر ؛ إذا رآهما العربي استبشر بقرب الغيث أوّلَ الربيع . قالت الخنساء :

ما روضـةٌ خضراءُ غَضٌّ نَباتُها ... تَضَمَّنَ[2] ريّاها[3] لها الشَرَطانِ

١ - أي : أَثَر .

٢ - يقال : (تضمن الغيثُ النبات) إذا أخرجه وأذكاه .

٣ - الريا : الريح الطيبة .

تريد أنَّ هذين النَّجْمَين المَعْلَمَيْن اللذَين يَقْتَرِنُ ظهورُهما بنزول المطر ، قد أفاحا طِيْبَ ريحِ تلك الروضة .

والزمخشريُّ بعد أَنْ ينتهيَ منَ الحديثِ عن هذين النَّجْمَيْن اللذين يكونانِ في أَوَّلِ الربيع كالعلامة عَلَيه يقول رأساً : « ومِن ثَمَّ قِيلَ لأوائل كلِّ شيءٍ يَقَعُ : أشراطُه ، ومنه أشراطُ الساعة » .

وقد تناول المفسرون واللغويون قوله تعالى : ﴿ فهل يَنْظُرون إلاّ الساعةَ أن تأتِيَهم بغتةً فقد جاء أشراطُها ﴾(٤) ، فقالوا : أشراطُ الساعةِ علاماتُها وأوائلُها وما يُنْكِرُه الناسُ من الأمورِ قبلَ أن تقومَ الساعة .

فالمعنى إذاً في حَيِّز ما قاله ابنُ فارس : « الشينُ والراءُ والطاءُ يَدُلّ على عَلَمٍ وعَلامة » .

ويظلّ المرء يلمس ذلك في جميعِ تقاليب هذه المادة ؛ فالعربُ مثلاً إذا رَأَتْ صاحِبَ إبلٍ أو غَنَم قد جَعَلَها طائِفَتَين : طائفةً يَحْتَفِظُ بها وطائفةً يَعْرِضُها للبَيع ، قالوا : أَشْرَطَ فلانٌ طائفةً من إبِله وغنمِه ، أي عَزَلَها وأَعْلَمَ أنّها للبَيْع . وإذا رَأَوْا الرجلَ الشجاعَ قد أَعْلَمَ نَفْسَه للموت وأَعَدَّها له قالوا : (أَشْرَطَ الشجاعُ نَفْسَه) .

قال أَوْسُ بنُ حَجَر :

وأَشْرَطَ فيها نفسَهُ وهو مُعْصِمٌ وألـقـىٰ بأسبــابٍ له وتــوكّــلا

ولقد ذكرتُ ـ وأنا أقرأ هذا البيت ـ أولئكَ الشهداءَ الميامينَ الذينَ نراهم بينَ يومٍ ويومٍ على شاشة التلفزيون ، يُعْلِنون أَنَّهم قد أَعَدُّوا نفوسَهم للموت في سبيل أُمّتِهم ، وأنهم مقبلون على الاستشهاد ؛ فقلتُ والله إنّ هذا التعبيرَ لا ينطبقُ على أحد في الدنيا أكثرَ ممّا يَنْطَبِقُ عليهم ؛ وأيُّ علامةٍ للاستقتال ؟ وأيُّ إعدادِ نفسٍ للموتِ ؟ أَوْضَحُ وأَبْيَنُ من أَنْ يخاطِبَ البطلُ الدنيا كلَّها فيقولَ : لقد قرّرتُ أَنْ ألقىٰ العدوَّ وأَنْ أُسْتَشْهَد ؟

---

٤ ـ محمد / ١٨ .

إنّ الكلمةَ المعبرَةَ ، المنطبِقَةَ على حال هؤلاء الأبطالِ إنّما هي قولُك : أَشْرَطَ المقاتلُ نفسَه ـ وأشرَطَ الشجاعُ نفسَه ـ وأشرطَ البطلُ نفسَه . أي أَعْلَمَها للموت وأَعَدَّها له .

ثم تبقىٰ كلمةٌ أخيرةٌ هي كلمة « الشَرْطِ » الذي يكونُ بينَ المتعاقِدَيْن ؛ وما الشرطُ إلا إِظهارٌ وإعلامٌ لشيءٍ يلتزِمُه أحدُ المتعاقِدَيْن أو كلاهما في البيع ونحوِه .

ففي النهاية لابن الأثير : (شَرْطُ اللهِ أَحَقُّ) ، أي ما أَظْهَرَه وبيَّنَه . وفي المَثَل : (الشرطُ أَمْلَك ، عليكَ أَمْ لك) . أي ما ظَهَرَ التزامُه وإعلامُه عندَ التعاقُدِ أحقُّ أَنْ يُؤخَذَ به وأَنْ يُلْتَزَم ، سواءٌ أكانَ ذلك لك ، أم كان ذلك عليك . . وهو مَثَلٌ لا يزال يَدُور على ألسنة العاملينَ في مَيْدان الحقوق .

ثم انظُرْ إلى (الشَرْط) الذي يُحْدِثه مِبضَعُ الجرّاحِ ومِشْرَطُهُ ، وإلى ظُهور أَثَرِه في الجَسَد ، وبقائِه فيه ، علامةً لا تزول ، واذكر قولَ ابنِ فارس : « الشينُ والراءُ والطاءُ ، عَلَمٌ وعَلامة » ، تَجِدِ النَّسْغَ المعنويَّ يَسْري في كلمة الشَرْطِ أيضاً .

ولقد وَجَدوا في شَرْط المتعاقِدَيْن أحياناً ، أَلَماً أَشَدَّ من شَرْطِ الجَرّاحِ بالمِشْرَط ، فقالوا : « رُبَّ شرطِ شارطٍ ، أوجعُ من شَرْطِ شارِط »

وبعدُ ، فإنّ ما أوردتُه في هذه الحلقةِ ، إنّما هو تمهيدٌ للبحث في تسمية رجالِ الأمنِ برجال الشُرْطَة . فقد سُئِلْتُ أَنْ أبحثَ في ذلك . ثمّ وَجَدتُ أَنْ لا بُدَّ من التمهيد له بهذه الحلقة .

- ١٠١ -

الشّرطة

منذ نحو شهر ، مررتُ بمُدَرَّج جامعة دمشق ، حتى إذا كنت من بابه على خُطُوات ، امتدَّت يدٌ من كمٍّ عسكريّ ، من نافذة سيارةٍ لشرطة النجدة تستوقفني .

خير إن شاء الله !! ودنوتُ من نافذة السيارة متئداً ، فرأيت ثلاثة ضباط وسائقاً . ألقيتُ التحية فحيَّوا بأحسنَ منها .

ـ فلان ؟ ـ نعم . قالوا : يا أخي ، لم تَترك جماعةً إلا تحدثتَ عنها . فما لرجال الشرطة لايُذْكَرون ؟ قلت : ما الذي تسألون أن يكون البحث فيه ؟ قالوا : (اسمنا) ، مِن أين جاءت كلمة الشرطة ؟ قلتُ : سأفعل .

وهأنذا أَفِي . ولكن قبل أن أبدأ البحث أرجو أن يظلّ في الذهن أنّ (الشَرَط) في العربية هو العلامة ، وسترى أن كلمة الشرط ـ أي العلامة ـ ستربط مابين أجزاء هذه الحلقة كلِّها .

العرب استعملت كلمة (الشُّرْطَة) في معنيين . وقد مهّدتُ للمعنى الأول منهما في الحلقة السابقة ، فقلت : إنهم كانوا إذا رأَوا الرجلَ الشجاع قد أعلم نفسه للموت وأعدّها له قالوا : (أشرطَ الشجاعُ نفسَه)

من هنا جاء المعنى الأول للشُرطة . وذلك أنّ الجيش كان إذا سار لحرب العدو ، قَدّم كتيبةً منه مختارة ، لتكون أوّلَ كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت . هذه الكتيبة كانوا يسمونها الشُّرْطة . قال الزمخشري : « يقال : . . . . هؤلاء شُرْطة الحرب ، لأول كتيبة تحضرها » ، وقالوا : الشرطة هم نُخبة السلطان الذين يُقدِّمهم على غيرهم من جُنده . وقال صاحب التاج : « وشُرْطة كل شيء خيارُه » .

وإليكَ الشواهدَ : فمن ذلك حديثُ ابن مسعود في فتح القُسْطَنْطِينيّة : (يستمدّ المؤمنون بعضُهم بعضاً فيلتقون ، وتُشرَط شُرْطةٌ للموت لايرجعون إلا غالبين) .

وإليك شاهداً آخر : أبو العيال الهُذَليُّ رثىٰ ابنَ عمه عبدَ بنَ زُهْرَةَ ـ وقيل : كان أخاه لأمّه ـ و قُتِل في فتح القسطنطينية . وقد اخترتُ لك من قصيدته هذه الأبياتَ الليّنة . قال أبو العيال :

ذكــرتُ أخــي فعــاوَدَنــي ... صُداعُ الــرأسِ والــوَصَــبُ[1]
فدمــعُ الــعَــينِ مِن بُرَحــ ... ـاءِ مافــي الـصــدر يَنْسَكِـبُ
أبُــو الأيتــامِ والأضيــ ... ـافِ ساعــةَ لايُعَــدُّ أَبُ
أَقــامَ لدى مدينــةِ آل قُسْــ ... ــطنــطينَ وانــقَــلَبُــوا
أَلاَ للهِ دَرُّكَ مِن ... فتــىٰ حيٍّ إذا رَهِــبُــوا
وقــالــوا : مَنْ فتــىً لِلْحــ ... ـربِ يَرْقُــبُــنــا ويَرْتَــقِــبُ
فلم يوجَــدْ لشُــرْطَــتِــهِــمْ ... فتــىً فيهــمْ وقــد نُدِبُــوا
فكــنــتَ فتــاهُــمُ فيهــا ... إذا تُدعــىٰ لهــا تَثِــبُ

ومن ذلك قول الآخر : « حتّى أَتَتْ شُرْطَةٌ لِلموتِ حارِدَةٌ » .

فالمعنى الأول إذاً لكلمة الشُرْطة هو : أولُ طائفة من الجيش تَشهد الوقعة وتتهيأ للموت . وأما المعنى الثاني لها فهو المعنى الذي نستعمله اليوم ، أي حَفَظَةُ الأمن في البلاد . ولقد سُمّوا شُرْطةً لأنهم كانوا يجعلون لأنفسهم علامةً يُعْرَفون بها . وأمّا رئيسهم فكان يدعى (صاحب الشُرطة) أي رئيسها . ويسمّىٰ في أيامنا هذه (قائد شُرطة المحافظة) .

جاء في كتاب الاقتضاب : أنّ اسم (صاحب الشُرطة) إنما اشتُق له من زيِّه ، قال : « وكان مِن زِيِّ أصحابِ الشُرْطة نَصْبُ الأعلام على مجالس الشُرْطة » .

ولابد من توجيه النظر هنا إلى أنّ كلمة (شُرْطة) إنما تعني كتيبة واحدة ، ووزْنُها (فُعلة) مثل (غُرفة) ، وكما تَجمعُ (الغُرْفة) فتقول (غُرَف) كذلك تَجمعُ (الشُرْطة) فتقول (شُرَط) . فالكتيبة الواحدة إذاً (شُرْطة) ، وأما كتائب رجال الأمن فـ (شُرَط) . ولكنّ الناس في عصرنا أهملوا الجمع وهو (شُرَط) واستعملوا كلمة (الشُرْطة) ليدلّوا بها على الجمع .

---

١ ـ **الوصب** : الوجع .

وقد عرض الجاحظ للنسّابين فقال : (وأبو سفيان بنُ لبيد التغلبيّ ، خليفةُ عيسى بن شبيب المازنيّ على شُرَط البصرة) .

ولقائلٍ أنْ يقول : إذا كانت كلمة (الشُرَط) قد سقطت من الاستعمال في عصرنا ، فهل في ذكرها فائدة ؟ وفي الجواب أقول : نعم ، في ذكرها فائدة . ولقد كانت استوقفَتْ أئمةَ اللغة ، فوقفوا عندها واختلفوا . قال فريق منهم : إنّ الصواب أن تَنسُب إلى المفرد وهو (الشُرْطة) فتقول (شُرْطيّ) ، بتسكين الراء . وقال آخرون : بل يصح أن تنسب إلى الجمع وهو (الشُرَط) ، فتقول : (شُرَطيّ) ، بفتح الراء .

قال الزمخشريّ : والصواب في (الشُرْطي) سكون الراء ، نسبٌ إلى الشُرْطة ، والتحريك خطأ ، لأنه نَسَبٌ إلى (الشُرَط) ، الذي هو جمع .

وقال الفيوميّ : الواحدة (شُرْطة) ، وإذا نُسِب إلى هذا قيل:(شُرْطيّ) .

وقال صاحب التاج : (من أمثال المولّدين : لاتُعَلِّم الشُرْطيَّ التفحُّص) .

ولكنّ ابن الأعرابيّ يقول : هم (الشُرَط) ، والنسبة إليهم (شُرَطيّ) .

وروى الجاحظ قول الشاعر مشبِّهاً :

« كأنه شُرَطيٌّ باتَ في حَرَسٍ »

واستناداً إلى قول الفريقين نُجيز لأنفسنا اليوم أن نقول : هذا (شُرْطيّ) ، وهذا (شُرَطيّ) أيضاً .

وبعد ، فلعل من المفيد أن نَذكر أنّ اختصاص الشُّرْطة في الماضي كان أوسع من اختصاصهم اليوم . ولقد بيَّنَ صاحب كتاب الاقتضاب ، اختصاصَ صاحب الشُّرْطة قديماً . وأُوردُ لك من ذلك شيئاً . فمن اختصاصه :

١ ـ إقامة الحدود والعقوبات . ـ ولايزال هذا لرجال الشرطة اليوم .

٢ ـ الفحص عن أهل الرِيَب والمُنْكَرات . ـ ولايزال هذا اليومَ لرجال شرطة الأمن الجنائي .

٣ ـ العِلم بالحدود والواجبات . ـ وهذا اليومَ عِلمٌ مشترك بين القاضي والشرطة .

٤ ـ العِلم بالجروح والدِّيَات وحُكْمِ العَمْد وحُكمِ الخطأ . ـ وهذا اليومَ من اختصاص القاضي .

٥ ـ العلم بمَن تُدرَأُ عنه الحدود بالشُبُهات ، وتُقالُ عَثْرَتُه مِن ذَوي المناصب .

وهو مايسمى اليوم (الحَصانة) ، كحصانة النائب والوزير مثلاً . وهذا اليومَ من اختصاص المشرِّع .

البحث ينتهي هنا ، ولكنني أورد نصاً من كتاب الأغاني ، اخترتُه لاشتماله على جميع تقاليب الكلمة : (الشُرْطيّ والشُرَط وصاحب الشُرْطة)

قال صاحب الأغاني[1] : كان عبد الرحمن بنُ سَيْحانَ شاعراً مُقِلّاً ، وكان حليفاً لأبي سفيان بن حرب . وهو أحد المعاقرين للشراب ، وكان مع بني أميّة كواحد منهم ، وكان حلو الحديث . فكان كلُّ مَن قَدِم من ولاة بني أميّة وأحداثِهم ممّن يصيب الشراب ، يدعوه وينادمه .

وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة ، فعزله معاوية وولّىٰ الوليد بن عُتبة ، فحقد مروان على الوليد . وكان الوليد يصيب من الشراب ويبعث إلى ابن سيحانَ فيشرب معه . فرصده مروان ليلةً ، فلما خرج ابن سيحان ثمِلاً من دار الوليد ، أخذه مروان وأعوانُه ، وأشهدَ على سُكْره اثنين من العبّاد المتهجِّدين .

فلما أصبح الوليد بن عتبة ، بَلَغَه الخبرُ وشاع في المدينة ، وعَلِم أنّ مروان إنما أراد أن يفضحه . فقال الوليد : لايبرِّئُني من هذا عند أهل المدينة إلا ضربُ ابن سيحان . فأمر صاحب شُرْطتِه ، فضربه الحدّ ثم أرسله .

فجلس ابنُ سَيحان في بيته لايخرج حياء من الناس . فمكث أياماً ، ثم رحل إلى معاوية ، فدخل إلى يزيدَ فشرب معه . وكلّمَ يزيدُ أباه في أمر ابن سيحان فدعا به ، فأخبره بقصته وما صنعه به مروان . فقال معاوية : قبّح الله الوليد ما أضعفَ عقلَه !! أما استحيا من ضربك فيما شرب ؟ وأما مروان فإني كنت لا أحسبه يبلغ هذا منك ، مع رأيك فيه ومودتك له ، وقد صيّر نفسه شُرْطياً .

ثم قال لكاتبه : اكتب : « باسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله معاويةَ إلى الوليد بن عتبة . أما بعد فالعَجَب لِضربك ابنَ سيحان فيما تشرب منه . ما زدت على أن عرَّفتَ أهل المدينة ما كنت تشربه ممّا حُرِّم عليك . فإذا جاءك كتابي هذا فأبطِل الحدَّ عن ابن سيحان وطُفْ به في حِلَق المسجد ، وأخبِرْهم أنّ صاحبَ شُرَطِك تعدى عليه وظلمه . وأنّ أمير المؤمنين قد أبطل ذلك عنه » ففعل ، وأبطل ذلك الحدّ عنه ، وأعطاه ماكتب له به معاوية .

---

(١) الأغاني ٢/٢٥٢ .

من جميع ماتقدم نخلص إلى مايلي :

أولا : (الشَرَط) في اللغة ، هو العلامة .

ثانياً : كانت كلمة (الشُرْطة) تطلق على أول كتيبة من الجيش تشهد الحرب ، وتتهيأ للموت .

ثالثاً : تسمية رجال الأمن بـ (الشُرْطة) ، سببه اتخاذُهم علامةً يُعْرَفون بها .

رابعاً : تجمع كلمة (الشُرْطة) على (شُرَط) ، كالغُرْفة فإنها تجمع على غُرَف .

خامساً : يجوز لك أن تقول (شُرْطيّ) وهو الأكثر ، وأن تقول (شُرَطيّ) وهو الأقل .

سادساً : إنّ كثيراً من الناس يقولون :(هؤلاء رجال الشَّرِطة) !! بفتح الشين وكسر الراء ، وهذا غلط ، فكلمة (الشَرِطة) !! لاأصلَ لَها ، إنها اختراع ، فليُقلِعْ عن استعمالها من كانَ يستعملها ، فهي غلط . وأما الصواب فقولك : (هؤلاء رجال الشُرْطة) .

- ١٠٢ -

الراصـــــد

يقال : (رَصَدَ فلان الشيء - يَرْصُدُه) ، و (رَصَدَ له) أيضاً ، إذا قَعَدَ له على الـطريق يرقُبُـه . قال الـكسـائي : (رَصَـدْتُـه - أَرْصُـدُه أي ترقَّبتُـه) . وفي المقاييس : « الراء والصاد والدال أصلٌ واحد ، وهو التهيّؤ لِرِقْبَةِ شيءٍ على مَسلَكِه ؛ ثم يُحْمَلُ عليه ماشاكلَه » . ومن ذلك قول الجاحظ في الحيوان ، وقد ذكرَ تَخَلُّقَ الذُّباب ، قال : « وربّما رَصَدُوها وتأمَّلوها» . يعني وربّما رَقَبُوها ينظرون حالَها . ومنه كذلك قولُهم : فلانٌ يرصُد النجوم ، إذا مَكَثَ يرقُب حركاتِها .

وتزاد الهمزة في أوله فيقال : أَرْصَدْتُ له كذا : أي هيَّأْتُه له . فالإرصاد إذاً هو الإعداد والتهيؤ . ومنه قولُهم : أَرْصَدَ الخيلَ للطِراد ، وأَرْصَدَ الجيشَ للقتال .

قال فريق من اللغويين : إنما يُستعمَل (أَرْصَد) في الخير فقط ، فإذا قيل : (أَرْصَدَ له كذا) فمعناه أَعَدَّ لَهُ وكافأه بالخير . وقال آخرون : بل يُستعمَل في الشرّ أيضـاً ، واستشهـدوا لذلك بقول عبد المطلب جد رسول الله (ﷺ) حين أرادتْ حليمةُ مُرْضِعةُ رسولِ الله أن تَرْحَلَ به إلى أرضها قال :

لاهُمَّ رَبَّ الراكِبِ المُسافِرِ
احْفَظْهُ لي مِنْ أَعْيُنِ السَوَاحِرِ
وحَيَّةٍ تُرْصِدُ في الهَواجِرِ

فالحيَّةُ لا تُرْصِدُ إلا بالشرّ . قال صاحب اللسان « وأَرْصَدْتُ له العقوبةَ ، إذا أعددتَها له » . . . . « وحقيقتُه جَعَلْتُها له على طريقه كالمترقِّبَةِ له » .

استناداً إلى ماقدّمناه من هذه المادة نورد الملاحظات التالية :

أولاً : الراصِد : (وكان السؤالُ الذي ساق إلى هذه الحلقة : أصحيحٌ إطلاقُ كلمةِ الراصد على من يَرْقُبُ حالةَ الجوّ) ؟ وفي الجواب أقول :

الـراصد : هو من يَرْصُدُ ويَرقُبُ عموماً . فإذا رَصَدَ الرجل الجوَّ خصوصاً ، فَرَقَبَ سرعةَ الرياح وبُطْأَها ، وارتفاعَ السحب وانخفاضَها الخ . . . فهو راصدٌ أيضاً . فاستعمال كلمة (الراصد) صفةً لمن هذا عملُه ، استعمالٌ صحيح لا عيبَ فيه .

ويُجمَع (الراصد) على (رَصَد) فيستوي فيه الواحدُ والجمعُ والمؤنث : فالرجل رَصَدٌ ، والرجال رَصَدٌ ، والمرأة رَصَدٌ أيضاً . قال تعالى : ﴿ فإنّه يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ [1] . فكما يُجمَعُ الحارسُ على (حَرَس) والخادِمُ على (خَدَم) ، فإن الراصد يُجمع على (رَصَد) ومنه قولهم : « فلانٌ يخاف رَصَداً مِن قُدّامِه ، وطَلَباً مِن وَرائِه » .

أما المِرصاد ، والمَرْصَد أيضاً ، فَمَوْضِعُ الرَّصْد . قال تعالى : ﴿ إنّ رَبَّكَ لَبالمِرْصاد ﴾ [2] أي بالطريق الذي مَمَرُّكَ عليه . وقال عَدِيّ بنُ زَيد :

أَعَاذِلُ إنّ الجَهـلَ مِنْ ذِلَّـةِ الفتىٰ وإنَّ المَنـايا للرجـالِ بمَـرْصَـدِ

وتـطلق كلمـة (المَرْصَد) على الموضع الذي تُعَيَّنُ فيه حركاتُ الكواكب ، وتُسجَّل فيه الزلازل .

ثانياً : لقد مَسَّتْ يَدُ الحَداثة بعضَ جوانب هذه المادة ، فاكتسبتْ معانيَ لم تكن لها ، أو آسْتُعمِلت آستعمالاً غيرَ صحيح .

فمن ذلـك كلمة (الرَّصِيد) : ويطلقها الناس اليوم على مايبقى للمُودع في المصرف من حسابه الجاري . قال الشيخ أحمد رضا رحمه الله : (الرصيد : في الحساب ، مايبقى لك أو عليك منه بعدَ بَيانِه وشَرْحِه ، وأَحسبُ أنّها مُولَّدة) .

ويقـولـون في الاقتصـاد السياسي : (رَصِيدُ الذَهَب) مثلاً ، ويعنون بذلك الذهبَ الضامنَ لإصدار الأوراق النقدية . وهو آستعمال مُحدَث أقرّه مجمعُ اللغة العربية بالقاهرة ؛ وليس يعني ما قلناه آنفاً ، أن كلمة (الرصيد) لم يكن لها وجود في العربية . إنها موجودة أصلاً ، وقد حفظتها لنا كتب اللغة ، ولكنْ كان لها معنى آخر .

---

١ ـ الجن / ٢٧

٢ ـ الفجر / ١٤

فلقد كان العرب يطلقون كلمة (الرَصيد) على الحيّة التي ترصد المارّة على الطريق لِتَلْسَع .

ثالثاً : يقولون اليوم : فلانٌ رَصَّدَ الحسابَ ؛ ويعنون بذلك : أنه أدّى جميعَ ماعليه من دَيْن . أو يعنون به : سَحَبَ من المصرف جميعَ ما كان أَوْدَعَه . أو يعنون به : عَمِلَ رَصِيدَه . وهو استعمال جرى على ألسنة الناس ولا سَنَدَ له . لم توردە كتب اللغة قديمُها وحديثُها . وإنما الذي كان يُستعمل ، هو قولُهم : (أَرصَدَ فلانٌ الحسابَ) . قال الزبيدي في التاج : ونَقَلَ شيخُنا : (وإرصادُ الحسابِ إظهارُه وإحصاؤه وإحضارُه) .

رابعاً : يقولون اليوم : (رَصَدَت المؤسسةُ الفلانية مبلغَ كذا للمشروع الفلاني) ؛ وهو استعمال غيرُ صحيح ، غلط ، والصواب : (أَرْصَدَت المؤسسة مبلغَ كذا) . قال ابنُ الأثير في النهاية : ومنه حديثُ الحسنِ بنِ عليٍّ عليهما السلام ، وذَكَرَ أباه فقال : « ما خَلَّفَ مِن دُنْياكم إلا ثَلاثَمِئَةِ دِرْهَمٍ كان أَرْصَدَها لِشراء خادمٍ » أي أَعَدّها وهَيَّأَها .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس ألفبائي لعناوين الكتاب